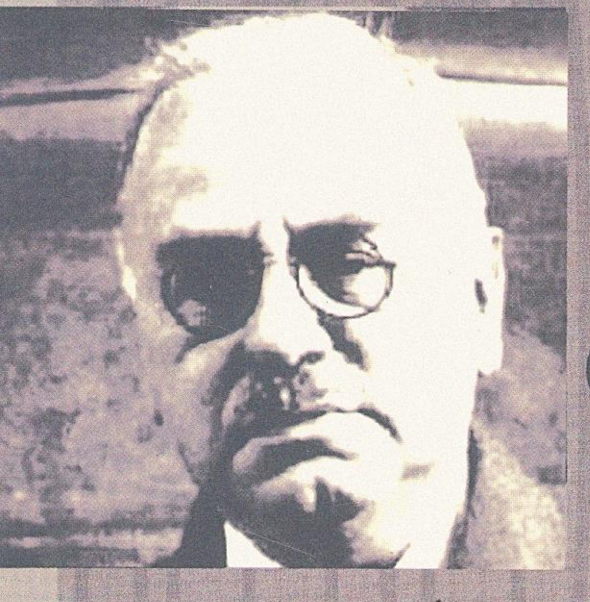
المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ألفريد آدلر

الطبعة الثانية

ALFRED ADLER



الطبيعة البشرية

2/846

ترجمة : عادل نجيب بشرى

الطبيعة البشرية

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٤٦/ ٢
- الطبيعة البشرية
- ألفريد آدلر
- عادل نجيب بشرى
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Understanding Human Nature

by: Alfred Adler

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الطبيعة البشرية

تأليف: ألفريد آدلر

ترجمة: عادل نجيب بشرى



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٥٢٩ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 8 - 380 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المترجم

يعتبر آدلر واحدًا من الثلاثة العظام - مع كلٍ من سيجموند فرويد وكــارل جوستاف جونج - الذين كان لهم فضل تأسيس علم النفس الحديث.

وقد ولد ألفريد آدلر فى عام ١٨٧٠ فى إحدى ضواحى مدينة ڤيينا عاصـمة النمسا، لأب يهودى يعمل فى تجارة الحبوب، وكان ترتيبه الثانى فى عائلة من ستة أطفال، وعندما كان آدلر فى الثالثة من عمره توفى أخوه الأصغر - بسبب الدفتريا - فى الفراش المجاور له، وقد عانى هو نفسه من الكساح وغيره، كما أنه أصـيب - فى الرابعة من عمره - إصابة خطيرة بداء الرئة Pneumonia كادت أن تودى بحياته، وكان لكل هذا أكبر الأثر فيه فقبل بلوغه سن الخامسة كان قد اتخذ قـراره بأن يصبح طبيبًا بشريا حتى يتمكن من "محاربة الموت" على حد تعبيره.

ولقد أصبح آدلر طبيبًا بشريا بعد أن تخرج فى كلية الطب جامعة ڤيينا عــام ١٨٩٤، وفى البداية تخصص فى طب العيون، ولكنه أصبح ممارسًا عاما فيما بعد، قبل أن يتحول اهتمامه إلى علم النفس، وكان مـن أول مـن اهتمـوا بنظريـات سيجموند فرويد كما أنه اعترف بأن هذه النظريات قد فتحت طريقًا جديدًا لتحـديث وتطوير علم النفس.

وبدأ آدلر يهتم بالتحليل النفسى وانضم إلى جماعة المناقشــة التـى أنشــأها فرويد فى عام ١٩٠٢، وفى عام ١٩١٠ أصبح آدلر رئيسًا لمجتمع التحليل النفسى بڤيينا، وبتزكية من فرويد نفسه، فقد كان فرويد يأمل فى أن يكون تعيين آدلر - فى هذا المنصب - كفيلاً بتقريب الفوارق الفكرية بينهما، لكن العكس هو الذى حـدث فإن الخلافات سرعان ما تفاقمت، وأصبح الخلاف بين وجهة نظره ووجهة نظـر كل من فرويد وجونج أكبر من أن يتغاضى عنها، مما أدى إلى استقالته فــى عــام ١٩١١، ولم يكن هذا الانفصال سلميا بل كان هناك الكثير من المرارة مــن كــلا الجانبين، فنعته فرويد بأنه "غير طبيعى" وأن طموحه الشديد قد قاده نحو الجنــون، ولم يكن آدلر أفضل منه بكثير فقد وصف أفكار فرويد بالقذارة والنحــش ونعتــه بــ"المخادع المحتال"، ثم كون آدلر - مع بعض زملائه - جـماعة "البحث الحــر فى التحليل النفسى" وغير اسمها فى العام التالى إلى جماعة "علم النفس الفردى".

إنه من الواضح أن كل أعمال آدلر تدين بالكثير لزملائه السابقين، ولكنه كان يحمل فى داخله - ومنذ البداية - طريقة مختلفة ومستقلة فى وصفه وعلاجه لمشاكل البشر.

كما قلنا فإن آدلر قد شكل جماعة "علم النفس الفردى" فى عام ١٩١٢ والتى أكدت على أهمية النظرة الشاملة لشخصية الفرد، وكلمة "الفردى" قد استخدمت هنا للتأكيد على تميز واختلاف كل شخصية عن الأخرى، وعن عدم إمكانية تقسيم أو تجزئة الشخصية بل وجوب النظر إلى الشخصية على أنها وحدة لا تتجزأ.

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، خدم آدلر فى جيش بلاده كطبيب فى قسم الأمراض النفسية والعصبية فى إحدى المستشفيات العسكرية، وقد جعلته فترة الخدمة العسكرية أكثر إدراكًا لأهمية وضرورة نشر أفكاره.

وقد تميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بإنتاجه الوفير. حيث كتب ونشر خلالها معظم كتبه، ومنها "دراسة عن دونية الأعضاء والتعويض النفسى" فى عام ١٩١٧، و"نظرية علم النفس الفردى وكيفية تطبيقها" فى عام ١٩٢٧، "فهم الطبيعة البشرية" فى عام ١٩٢٧، و"مشكلات العصاب" فى عام ١٩٢٩، و"علم الحياة" فى عام ١٩٢٩، و"حالة الآنسة ر. " فى عام ١٩٢٩، و"نمط الحياة" فى عام ١٩٣٠، و"ماذا تعنى الحياة بالنسبة لك" فى عام١٩٣١ وكتاب "الميل الاجتماعى: تحد للإنسان" وقد نشر بعد وفاته، ولكن مع تولى هتلر حكم ألمانيا بدأت فترة عصيبة فى حياة ألفريد آدلر وغيره من اليهود، ولكن لحسن الحظ لم تستمر هذه الفترة طويلاً لأنه فى عام ١٩٣٥ ذهب إلى الولايات المتحدة واستقر هناك، وكانت شهرته قد ذاعت هناك أيضًا فتم خلق منصب جديد - خصيصًا له- فى كلية الطب بلونج آيلاند Long island college of medicine حيث تولى أستاذية قسم علم النفس الطبى، وفى العام نفسه (١٩٣٥) بدأت مدرسة ألفريد آدلر فى إصدار مجلتها "الجريدة الدولية لعلم النفس الفردى International journal of individual psychology".

وفى سن السابعة والستين كان آدلر مازال يعمل بجد واجتهاد ويعود مرضاه ويستقبلهم ويؤلف الكتب ويحاضر حتى إنه كان عليه أن يُلقى ٥٦ محاضرة فى أربع دول مختلفة خلال شهر واحد فى ذلك العام، ولقد توفى آدلر فى ٢٨ مايو عام ١٩٣٧ متأثرًا بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية (المشى)، وبعد أن ألقى محاضرة واحدة على طلبة جامعة أبردين فى سكوتلاندا.

ولعل من المهم أن نكشف هنا عن أحد مواقف "فرويد" لأنه مثير جدا للاهتمام وذو دلالة خاصة، فعندما أرسل له أحد الأصدقاء خطابًا يتعاطف فيه مع "آدلر" - بسبب وفاة الأخير - فكان رد فرويد بالغ الفظاظة وفيه الكثير من الخروج على اللياقة، وفيما يلي ترجمة دقيقة لجزء من نص خطاب فرويد للرد على ذلك الصديق:

«.أنا لا أفهم تعاطفك ومشاعرك نحو وفاة آدلر، فآدلر هذا صبيٌّ يهوديٌّ ولد في ضاحية صغيرة من ضواحى "ڤيينا". وها هو - الآن - يموت فى "أبردين"(*) وهو يلقى محاضرات فى جامعتها، إن هذا أمر "لم يسمع به من قبل" ويعتبر - فى حد ذاته - نقلة وظيفية عظمى، وإثباتًا للتقدم الهائل الذى حققه، وفى رأيى أن العالم قد كافأه بسخاء شديد على ما فعله عندما عارض نظرية التحليل النفسى».

واليوم وبعد مرور أكثر من ٦٥ عامًا على وفاته فإن هناك مستشارين نفسيين تم تدريبهم على استخدام طرق علم النفس الفردى فى الكثير من دول العالم من الولايات المتحدة وكندا إلى إنجلترا وألمانيا والنمسا وسويسرا وحتى فى أستراليا وغيرها من دول العالم.

من الحالات التى ذكرها آدلر أنه عرف جنديين خلال الحرب أصابت كلاً منهما قذيفة أطاحت بذراعه، وبرئ كلاهما من الجراحة، فلما انتهت الحرب ومضت سنوات عديدة لقيهما آدلر مصادفة، كلاً على حدة ولكن فى وقت متقارب، فقال أحدهما عندما رآه:

- «إنى يا دكتور آدلر عاجز عن الاستمرار فى الحياة، وأجر جسدى كما لو كان عبأ ثقيلاً لا خلاص منه، لأن بتر ذراعى قد حال بينى وبين القيام بأى عمل نافع، وليتنى كنت مت بدلاً من الحياة على هذه الحالة».

كان هذا الجندى شابًا ولكنه استنام إلى كارثته وارتضى العجز والاستسلام.

فى الأسبوع نفسه زاره الجندى الآخر الذى تعرض لحادثة مشابهة ببترت الذراع نفسها، وقال له هذا الجندى:

(*) فرويد نفسه يهودى من عائلة عانى أفرادها كثيرًا من التمييز العرقى والعنصرى؛ وها هو يحسد آدلر ويستكثر عليه مجرد الوفاة فى أبردين بأسكوتلاندا كما لو كان مجرد الوصول إلى هناك شرفًا عظيمًا ما بعده شرف، وتعكس هذه الحادثة بوضوح شعور المرارة الشديد الذى كان يشعر به فرويد تجاه آدلر حتى فى لحظة وفاته. (المترجم)

- «أنا يا دكتور فى أحسن حال؛ فقد وجدت عملاً أرتزق منه وهذا العمل أحسن بكثير من العمل الذى كنت أقوم به قبل الحرب، حين كانت لى ذراعان، وقد تزوجت وأنجبت وأنا قانع وسعيد بزوجتى وأولادى، وأكاد أتساءل لماذا خلق الله لنا ذراعين مع أن ذراعا واحدة تكفى؟».

دفع التناقض الواضح - بين تصرفات الجنديين - آدلر إلى التمعن والتفكير، وأخذ يقارن بين سلوكيهما، وبرر هذا التناقض من خلال الشجاعة التى تحلى بها الجندى الثانى فى مجابهة الحياة وما تحمله من كوارث ومحن، ويعزو آدلر هذا الفارق العظيم بين الشابين إلى أن أحدهما (الجندى الثانى) قد اعتاد منذ الطفولة - خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من عمره - أن يكون شجاعًا يتحدى ويتصدى، في حين اعتاد الآخر (الجندى الأول) منذ طفولته - خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من عمره - على أن يجبن ويفر ويستكين.

وخرج آدلر من هذا كله بأن هذا الفارق وتلك الفجوة الشاسعة بين موقفى الجنديين كان نتيجة للتربية التى تلقاها كل منهما، وبدأ آدلر يركز على أهمية دور الأم وألقى التبعة عليها فى ضرورة أن تعمل على تعليم أطفالها الشجاعة.

"إن الشجاعة هى صحة النفس" هذه هى إحدى الكلمات المأثورة عن آدلر، ذلك أن جميع الأمراض النفسية - تقريبًا - تعود إلى الخوف خاصة الخوف الذى ليس له ما يبرره من العوامل الخارجية، فهو حالة نفسية تعسة تجعل صاحبها يخاف كل شيء، وتنبع هذه الحالة من داخل الفرد وتتسبب فى زعزعة نفسه.

- ولكن يجب ألا يكون النقص فى التربية عذرًا لأن نجبن ونستكين للكوارث التى تقع بنا، فإذا لم نكن قد تعلمنا الشجاعة وتعودناها خلال مرحلة الطفولة فإنه يجب علينا أن نتعلمها ونشرع فى التعود عليها، وأن نغالب المشاكل والصعوبات والكوارث ولا نعترف بالهزيمة أبدًا، مثل ذلك القائد العسكرى الذى قال:

- «إن الجيش لن يهزم مادام لا يعترف بالهزيمة».

وكتاب "**الطبيعة البشرية**" واحد من أهم كتب ألفريد آدلر الخالدة، فى هذا المجلد ألفريد يقوم ألفريد آدلر - الخصم العنيد لسيجموند فرويد، والزميل والشريك السابق له فى نظرية التحليل النفسى - بشرح وجهة نظر "علم النفس الفردى" فى

الطبيعة البشرية، وقد قسم الكتاب جزأين: الجزء الأول، وفيه شرح أساسيات نمو وتطور شخصية الفرد، أما الجزء الثانى فقد تناول فيه المؤلف دراسة علم شخصية الفرد، وقسم الشخصية إلى نوعين أساسيين شخصية هجومية وأخرى غير هجومية، وشرح السلوك الخاطئ للفرد والذى يؤثر على التناغم الذى يجب أن يسود حياتنا الاجتماعية والكيفية التى يمكن بها للفرد أن يطور من نفسه حتى يتأقلم مع المجتمع المحيط به، كما حدثنا عن المشكلات الأساسية الثلاث التى تواجه الفرد فى حياته، ألا وهى: العمل والعلاقة مع باقى أفراد المجتمع والزواج، كما أخبرنا بطريقته العلمية الفذة والمنظمة عن أهمية **"التعاون"** و**"الشعور الاجتماعى"** فى مواجهة هذه المشكلات الثلاث، ولا يخلو الكتاب بالطبع من النقد الصريح والمستتر لنظريات فرويد فى "التحليل النفسى" مع ما هو معروف عن الخلاف الفكرى بينهما.

ولقد حرصت على أن أقدم للقارئ العربى الترجمة الكاملة الأمينة لكل المعانى والأفكار المتضمنة فى هذا الكتاب وبترتيب ورودها، غير أنى قد وضعت بعض رءوس الموضوعات الفرعية لزيادة توضيح المعنى، كما أننى قمت بتقسيم الفقرات الطويلة جدا إلى فقرات أصغر، كما قمت - أيضًا - بتحديث بعض التعبيرات والتشبيهات التى رأيت أنها غير ملائمة للغة العصر، ولكنى حافظت على فردية المعنى ولم أحاول استخدام ضمير الجمع ما وسعنى ذلك وهو ما فعله المؤلف فى النسخة الأصلية من كتابه.

ولما كان المؤلف قد توجه بخطابه - أساسًا - إلى القارئ الغربى، حيث تختلف الثقافة عن ثقافتنا، فقد وردت بالكتاب أشياء وشخصيات يعلمها القارئ الغربى وقد يجهلها بعضنا، وربما أيضًا وردت به أشياء أخرى تخصنا، ولكن المؤلف أوردها على نحو مبتسر، لذا لزم التنويه وكان علىَّ أن أخصها جميعًا بهوامش أضفتها إلى هوامش المؤلف، ومعظم الهوامش لا تخرج عن كونها تبسيطًا - يستخدم لغة العصر - لبعض التعبيرات والاصطلاحات الطبية التى استخدمها المؤلف بحكم خلفيته الطبية، ولم أشأ أن أستزيد منها حتى لا ينصرف ذهن القارئ عن متابعة هذا الكتاب العلمى الفريد.

عادل نجيب بشرى

القاهرة فى أبريل ٢٠٠٥م

تمهيد

إن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لجعل الجميع يتفهمون أساسيات ومبادئ علم النفس الفردى، وفى الوقت نفسه فإنه عرض للتطبيقات العملية لهذه الأساسيات والمبادئ وهو تطبيق يشمل كلا من حياتنا الشخصية وسلوكنا خلال علاقاتنا اليومية فى العالم المحيط بنا ومع بقية البشر، وقد تمت كتابة هذا الكتاب على أساس محاضرات ألقيتها لمدة عام على جمهور يتكون من عدة مئات من الرجال والسيدات من كل الأعمار والفئات فى "معهد الناس" فى ڤيينا.

والغرض من هذا الكتاب هو توضيح ثلاثة أشياء:

أولاً: السلوك الخاطئ للفرد والذى يؤثر على التناغم الذى يجب أن يسود حياتنا الاجتماعية.

ثانيًا: تعليم الأفراد كيف يتعرفون على أخطائهم الشخصية.

ثالثًا: تعليم الأفراد كيف يتكيفون بتناغم مع بيئتهم الاجتماعية.

حقيقى أن الأخطاء تكلف الكثير جدا خاصة فى مجال الأعمال والعلوم، ولكن الأخطاء التى ترتكب فى الطريقة التى نعيش بها حياتنا تُهدد الحياة نفسها بالفناء، وعلى هذا فإن هذا الكتاب مخصص لتسليط الضوء على ضرورة تقدم البشرية نحو فهم أفضل لطبيعة البشر.

ألفريد آدلر

مقدمة

«إن مصير الإنسان يكمن فى روحه» ،

هيرودوت

إنه من الواجب علينا أن نعالج علم " الطبيعة البشرية " بدون غرور أو أى افتراضات مسبقة، بل على العكس فإن الأشخاص الذين يعملون به معروفون بأنهم يتميزون بنوع معين من التواضع، إن محاولة فهم " الطبيعة البشرية " هى مهمة ضخمة كثيرة المشاكل، وحل هذه المشاكل هو هدف حضارتنا منذ بدئها، وأنا أعتقد أن هذا العلم لا يجوز أن يكون مقصورًا على الخاصة فقط، فإن هدفه يجب أن يكون محاولة فهم الجميع لـ" الطبيعة البشرية "، وربما اعتبر بعض الخاصة أن أبحاثهم ملكية مقصورة على مجموعة صغيرة من الخبراء لكنى لا أتفق معهم فى هذا.

بسبب العزلة التى نفرضها على أنفسنا فإن عددًا قليلاً جدا من الأفراد يعرف ما يكفى عن " الطبيعة البشرية "، ولقد كان من المستحيل على الإنسان فى الماضى أن يحيا حياته بهذه الصورة المنعزلة كما نفعل اليوم، ومنذ عهد الطفولة المبكرة فإننا نجد أن صلاتنا بالبشر من حولنا تكون قليلة ومحدودة، فإن الأسرة تعزلنا عن بقية المجتمع، وطريقتنا فى الحياة تحجم وتقلل من الصلات الحميمة مع باقى أفراد المجتمع البشرى والتى من الضرورى أن تتوفر لنمو وتطور العلوم والفنون ولفهم " الطبيعة البشرية ".

إن وجود صلات قليلة بغيرنا من أفراد المجتمع البشرى تجعلهم غرباء عنا، ويكون سلوكنا تجاههم - فى أغلب الأحيان - سلوكًا خاطئًا، كما أن أحكامنا عليهم كثيرًا ما تكون غير صحيحة، وأصبح من الأشياء المعتادة أن يمر الناس ببعضهم البعض فى تجاهل تام، فإن كلا منهم يعامل الآخر على أنه "غريب" وليس فقط غريبًا فى المجتمع وإنما أيضًا على أنه غريب عن حدود الأسرة والعائلة، إن معظم الآباء تتكرر شكواهم من عدم مقدرتهم على فهم أطفالهم، ويدعى معظم الأبناء أيضًا أنه لا يوجد من يفهمهم من بين والديهم.

إن جميع جوانب موقفنا تجاه الشخص الآخر تكون متأثرة بطريقة فهمنا له، وهذا ما يجعل هذا الفهم ضروريا وأساسيا فى أى علاقة اجتماعية، وسيسود التوافق والتناغم بين البشر لو كانت لديهم معرفة ومعلومات أفضل عن " الطبيعة البشرية".

وسيؤدى هذا إلى تحسن ملحوظ فى علاقتنا الاجتماعية لأننا جميعًا نعرف أن معظم الخلافات والصعوبات تنشأ من عدم الفهم، وأن هذا الفشل فى فهمنا للآخرين يمكن أن يؤدى إلى خطأ فى التقدير وفى الحكم عليهم.

سنقوم الآن بشرح السبب الذى جعلنا نعالج مشكلة "الطبيعة البشرية" من وجهة نظر "علم الطب"؛ فإن هدفنا هو أن نضع "الأساس" لعلم دقيق فى هذا العالم المملوء بعدم الدقة، كما أننا سوف نستكشف هذا العلم ونحدد ماهية المشاكل التى يجب حلها وما هى النتائج التى نتوقع الحصول عليها.

فى المقام الأول فإن علم النفس هو حقل يتطلب الكثير جدا من المعلومات عن "الطبيعة البشرية"، وعلى الطبيب النفسى أن يصبح على علم تام وشامل بـ"عقلية" المريض النفسى فى خلال فترة وجيزة، وفى هذا الحقل الطبى فإن الممارس يمكنه تحديد المرض وعلاجه بفاعلية – فقط – إذا كان متأكدًا من حقيقة ما يحدث لمريضه فإنه لا مجال للخطأ هنا، والأخطاء التى تحدث فى تحديد المرض سرعان ما تصبح ظاهرة، أما الفهم الصحيح للمرض فإنه يؤدى إلى علاج ناجع، وبمعنى آخر فإن معرفتنا بـ"الطبيعة البشرية" يجب أن تكون معرفة دقيقة ومؤكدة (أى أنه قد تم – بالفعل – اختبار كل الحقائق والنتائج الخاصة بها).

إن الأخطاء التى نرتكبها فى حياتنا اليومية – فى حكمنا على الآخرين – لا تتسبب بالضرورة فى نتائج خطيرة، وهذا لأن بعض هذه النتائج لا يحدث إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة على ارتكاب الخطأ حتى إن الصلة بينهما تصبح غير واضحة، وكثيرًا ما نصاب بالدهشة عندما يحدث شىء فظيع بعد مرور سنوات طويلة على حدوث سوء تفاهم بسيط مع شخص آخر، إن مثل هذه الأحداث غير السعيدة تعلمنا أنه من واجب كل إنسان الحصول على معلومات عملية عن "الطبيعة البشرية".

لقد أوضحت دراستنا للأمراض العصبية أن الاختلالات النفسية والعقد والأوهام الموجودة فى الأمراض العصبية. لا تختلف جذريا فى بنائها عن السلوك الطبيعى للفرد العادى، فإن لها العناصر نفسها والبيئة نفسها وأطوار النمو والتطور

نفسها، والخلاف الوحيد هو أنها تظهر "بوضوح أكثر" على الشخص المريض.

إن أهمية الكشف السابق هو أنه يعلمنا – عن طريق هذه الحالات غير الطبيعية – كيف نُظل متنبهين لظهور أعراض مشابهة على "النفس الطبيعية Normal psyche"، وستكون مسألة وقت قبل أن نحصل على التدريب والصبر والحماسة الكافية التى نحتاج إليها فى ممارسة هذه المهنة.

وأول هذه الاكتشافات العظيمة هو: أن الأساس الذى بنيت عليه النفس البشرية Human psyche قد تشكل خلال المراحل المبكرة من الطفولة، وربما يكون هذا اكتشافا صغيرًا فى حد ذاته – فإن اكتشافات مماثلة قد تمت بواسطة العديد من المفكرين العظام خلال العصور السابقة – ولكن الجديد الذى أتينا به هو أننا استطعنا الربط بين خبرات الطفولة وانطباعاتها ومواقفها وبين "النفس psyche" فى نمط واحد متواصل، وهذا يعنى أننا نستطيع أن نقارن بين خبرات ومواقف الشخص خلال طفولته المبكرة. وخبرات ومواقف الشخص بعد وصوله لمرحلة البلوغ، وعندما نقوم بهذا فإننا نكتشف أن تعبيرًا وحيدًا من تعبيرات النفس لا يجوز أخذه أبدًا بصورة منفصلة أو كشىء مستقل بذاته، وأنه لا يمكن فهمه إلا كجزء من أجزاء الفرد ككل.

لقد تعلمنا من قبل أن مثل هذا "التعبير الوحيد" يمكن لنا تقييمه – بصدق أكثر – عندما نتفهم مكانه الحقيقى فى نمط السلوك العام لهذا الفرد وفى "أسلوب حياته His Life style"، وعندما نقوم بهذا فإننا نصبح قادرين على أن نرى أن الأهداف السرية التى وضعها هذا الفرد – خلال مرحلة الطفولة – كانت تتفق تمامًا مع "موقفه His attitude" خلال مرحلة البلوغ، وباختصار لقد أصبح من الواضح أنه من وجهة نظر النمو والتطور النفسى فإنه لا توجد أى اختلافات حقيقية، إن الأفعال والأقوال – التى عبرت عن هذه الأهداف – ربما تكون قد تغيرت بالفعل، ولكن الأهداف والدوافع الأساسية تظل دائمًا موجهة نحو الأهداف النفسية الثابتة نفسها.

وعلى سبيل المثال فإن المريض البالغ صاحب الشخصية القلقة والذى تملأ عقله الشكوك والوساوس والذى تكون كل جهوده موجهة نحو عزل نفسه عن المجتمع، يظهر هذه الخصائص الشخصية والنشاطات النفسية نفسها خلال العامين الثالث والرابع من عمره، والاختلاف الوحيد هو أن مثل هذه الخصائص تكون

أكثر وضوحًا فى الأطفال الصغار كما أنه يكون من السهل فهمهـا لأن الأطفـال الصغار لم يتعلموا بعد كيفية إخفاء مشاعرهم الحقيقية، ولهذا فإنه من المتبع أن يتم التركيز بصورة كبيرة على طفولة المريض، وبهذه الطريقة فإننا نكون قادرين على استنتاج الخصائص المميزة للشخص البالغ لأننا نكون على معرفة جيدة بطفولته.

إن الخصائص التى نلحظها على الشخص البالغ ما هى إلا انعكاس مباشـر للخبرات التى مر بها خلال مرحلة طفولته.

إننا عندما نصغى لذكريات المريض عن مرحلة طفولتـه، ونـتعلم كيـف نتفهمها بدقة وبطريقة صحيحة، فإنه يمكننا بناء نمط شخصيته الحالية بدقة كبيـرة، وعلينا أن نعلم أنه من أصعب الأشياء على الفرد أن يحاول الخروج عـن أنمـاط السلوك التى اعتادها خلال المراحل المبكرة من حياته، حتى إنه يمكننى القول بأن: عددًا قليلاً جدا من الأفراد استطاع تغيير أنماط سلوكه الطفـولى التـى اعتادهـا، وحتى إذا وَجَدَ هذا الفرد نفسه فى وضع مختلف تمامًا، فإنه يظل متمسـكًا بـنمط سلوكه السابق.

وحتى عندما يغير الفرد من موقفه His attitude – عندما يصل إلى مرحلة البلوغ – فإن هذا لا يعنى بالضرورة حدوث أى تغيير فى نمـط السـلوك، فـإن "النفس" لا تغير الأساس الذى بنيت عليه، والفرد يحتفظ بالميول نفسها فى كل مـن مرحلتى الطفولة والبلوغ، وهذا يقودنا إلى الاسـتنتاج القائل بأن هدف مثـل هـذا الفرد فى الحياة لم يتغير أيضًا.

وهناك سبب آخر فى وجوب التركيز على خبرات الطفولة لو أننـا أردنـا تغيير نمط سلوك الراشدين، لأننا حتى إذا أحدثنا تغييرًا فى التجارب والانطباعـات العديدة لفرد بالغ وأثرنا عليها فإن هذا لن يترك أثـرًا يـذكر، إن مـا هـو مهـم وضرورى هو اكتشاف أسـاسيات نمط سلوك المريض، فعندما نفعل هذا فإننا نفهم شخصيته الأسـاسية ونشخص بدقة مرضه.

وهكذا فإن فحص نفسية الطفل هو حجر الأساس لهذا العلم، وهناك أبحـاث عديدة خصصت لدراسة السنوات الأولى من حياة الطفـل، وهنـاك العديـد مـن المجالات التى لم يتم استكشافها مما يفتح المجال لاكتشاف معطيات مهمة وجديـدة ذات قيمة فى دراسة "الطبيعة البشرية".

وفى الوقت نفسه فإننا قد اختبرنا طرقًا لمنع نمو وتطور الميزات السيئة فى الشخصية فى محاولة لتحقيق المنفعة العامة من خلال هذه الدراسات، أدت بنا هذه الأبحاث إلى الحقل التعليمى والذى ساهم فيه علماء النفس بالكثير. إن التعليم حقل من الحقول الخصبة لأى باحث لأنه يستطيع تطبيق كل ما تعلمه - من دراساته عن "الطبيعة البشرية" - على هذا الحقل.

إن الطريقة الأساسية يجب أن تبدأ بأن نصبح على معرفة كاملة بكل "تعبيرات Manifestations" الفرد النفسية، ونحاول أن نعيش فيها، وأن نشارك فى كل أفراح وأحزان هذا الفرد (أن نتعاطف كليا معه)، بالطريقة نفسها التى يتمكن بها الرسام العبقرى من إظهار شخصية الفرد فى الصورة التى يرسمها له.

إن معظم البشر يتفاخرون بأنهم قد استطاعوا فهم الطبيعة البشرية، وربما يملأهم الغضب إذا شككنا فى قدراتهم على الفهم عندما نطلب منهم وضع معلوماتهم موضع الاختبار، ولكن من يريد أن يفهم الطبيعة البشرية حق الفهم يكون قد خبر بالفعل قدر وقيمة الآخرين عن طريق التعاطف معهم - عن طريق معايشتهم خلال الأزمات، أو عن طريق مراقبتهم والتعرف على أزماتهم - وهذه الخبرة هى التى تمكنهم من الفهم، فإن دراسة الطبيعة البشرية يمكن التفكير فيها على أنها فن من الفنون الراقية، والذى يمكن فيه استخدام العديد من الأدوات المختلفة، وهو فن قريب من الفنون الأخرى ومرتبط بها كلها، وهذا له مغزاه الخاص فى الأدب والشعر على وجه التحديد، لأن هدف هذه الفنون هو توسيع مداركنا وزيادة معلوماتنا عن أفراد المجتمع البشرى، وهذا سوف يمكننا من تحسين أنفسنا.

عندما نحصل على هذه المعلومات، فإننا يجب أن نبدأ فى البحث عن كيفية تطبيقها واستخدامها، ولأننا عندما نقدم للفرد الحقائق عارية - كما اكتشفناها ونحن ندرس نفسيته - فإننا قد نجلب على أنفسنا الكثير من الانتقادات والرفض، ولهذا فإنه على الطالب الذى يدرس "الطبيعة البشرية" أن يتعلم كيف يتقدم بحرص وبلباقة فى هذا الطريق المزروع بالألغام، فإن أسهل الطرق لاكتساب سمعة سيئة هى أن يسىء الدارس استخدام معلوماته، وعلى سبيل المثال: قد يحاول الدارس أن يستعرض مهاراته الجديدة بأن يظهر ما استنتجه عن شخصية فرد التقى به - لأول مرة - فى أحد المناسبات الاجتماعية، أيضًا فإنه من الخطورة بمكان أن نحاول

عرض المبادئ الأساسية - لهذا العلم الجديد - على أنها قوانين مقدسة لا يمكن المساس بها، وخاصة إذا ما كنا نتعامل مع من لا يفهم هذا العلم، وحتى فى تعاملنا مع من يفهمون العلم، فإن الحديث معهم بهذا الأسلوب سيكون فيه الكثير من الإهانة لهم، وعلىَّ هنا أن أكرر ما سبق وذكرته لأهميته القصوى؛ فإن علم "الطبيعة البشرية" يفرض علينا أن نكون متواضعين، وأنه لا يجوز لنا أبدًا أن نعلن نتائج تجاربنا بتسرع، أو بدون فحص وتمحيص كاملين، لأننا إذا فعلنا هذا فإننا نكون مثل هذا الطفل الذى لا يستطيع صبرًا حتى يستعرض ويتباهى بكل إنجازاته وما حصل عليه، وهو سلوك غير مناسب خاصة لمن يريد أن يمتهن استخدام علم "الطبيعة البشرية"

كما أنه يجب علىَّ أن أوجه النصح للشخص الذى يقوم بدراسة النفس البشرية؛ فإن عليه أولاً أن يختبر نفسه، فهو لا يجوز أن يحاول تطبيق نتائج تجاربه على من هو غير مستعد لهذا، فإن مثل هذه المحاولة قد تسبب صعوبات جديدة لعلم مازال فى مراحل النمو والتطور. إن علم النفس يجب أن يتحمل مسئولية الأخطاء التى تنتج عن حماس العلماء الصغار الذين لا يفكرون فى العواقب، فإنه يجب علينا أن نتحلى بالحكمة، وأن نتذكر دائمًا أنه من الواجب علينا الحصول على الصورة كاملة بكل تفاصيلها قبل أن نخرج باستنتاجات عنها، لأن مثل هذه الاستنتاجات يجب الكشف عنها عندما نكون متأكدين تمام التأكد أن هذا الكشف فى صالح الفرد محل البحث، لأنه من الممكن أن نتسبب فى الكثير من الضرر إذا ما كشفنا - بطريقة غير مناسبة أو فى الوقت غير المناسب - عن حقائق متعلقة بالشخصية.

وقبل أن نبدأ فى الخوض فى أعماق هذه المسألة يجب علينا أولاً أن ندرس هذا الاعتراض، والذى لابد وقد شعر به الكثيرون بالفعل، وأنا هنا أتكلم عن ذلك التأكيد على أن "أسلوب الفرد فى الحياة Individual's life style" يبقى ثابتًا بلا تغيير، فقد تبدو هذه الحقيقة عصية على الفهم للكثيرين، وقد يقول الواحد منهم إن الفرد يمر بالكثير من الخبرات فى خلال حياته، والتى لابد من أن تعمل على تغيير موقفه من الحياة His attitude، ولكن علينا أن نتذكر أن كل خبرة يمكن فهمها بطرق مختلفة ومتعددة، وأنه لا يوجد فردان يخرجان بالاستنتاج نفسه إذا ما حدثت لهم الخبرة نفسها، ولعل هذا يفسر الحقيقة القائلة بأننا لا نتعلم - دائمًا - من

الخبرات التى تمر بنا، وكلنا يعلم أن الأكبر سنا لا يعنى بالضرورة أن يكون الأكثر حكمة، فنحن نتعلم تجنب بعض الصعوبات - من خلال خبراتنا - كما أننا نطور موقفًا فلسفيًا تجاه الآخرين، ولكن "نمط" سلوكنا يبقى ثابتًا ولا يتغير، وسنرى فيما بعد أن أفراد الجنس البشرى يستخدم الواحد منهم كل خبراته لتحقيق الهدف نفسه، وإذا درسنا الفرد - عن قرب - فإننا سنجد أن تصرفاته تناسب دائمًا أسلوب حياته ومع نمط سلوكه، ولعله من المعبر أن نعرف أننا جميعًا نشكل الخبرة التى تمر بنا ونحوِّرها، وأن كل واحد منا يحدد ماذا ستكون خبرته؟ وكيف ستكون؟ وبالطبع ما الذى سيستنتجه منها؟

وفى حياتنا اليومية فإننا نرى مثل ذلك الفرد - الذى يخرج بالاستنتاجات التى يرغب فيها من الخبرات التى يمر بها - كثيرًا ، ونرى ذلك الشخص الذى يكرر الخطأ ذاته مرات عديدة، ولا يتعلم من أخطائه أبدًا، وحتى إذا نجحت فى إقناع مثل هذا الشخص بخطئه فإنه سيتصرف بإحدى الطرق التالية:

١- فربما يقول: "إنكِ على صواب، وسأحاول أن أتصرف بطريقة أفضل فى المرة القادمة".

ولكن رد الفعل السابق ليس شائعًا، بل من المرجح أننا نجد هذا الفرد يحتج ويختلق الأعذار

٢- كأن يقول: " ولكنى قد اعتدت على التصرف بهذه الطريقة حتى أصبحت عادة متأصلة فىَّ وسيكون من المستحيل على التخلص من هذه العادة ".

٣- أو من الممكن أن يبدأ فى لوم والديه.

٤- أو يلوم تعليمه ومن قاموا عليه

٥- أو قد يشكو من أنه لا يوجد من يهتم به ويرعاه.

٦- أو أنه قد تعرض للكثير من التدليل - الذى أفسده - خلال مرحلة طفولته.

٧- أو أنه قد تعرض لكثير من الظلم والاستغلال بكل مساوئه خلال طفولته.

وأيًا كان العذر الذى يستخدمه وأيًا كانت مبرراته، فإنه يكشف لنا عن رغبته الشديدة فى تجنب أى مسئوليات مستقبلاً، وبهذه الطريقة فهو يبرر سلوكه ويضع

نفسه فوق النقد، فاللوم لا يقع عليه، ولكن هناك شخصًا آخر قد أخطأ، وإذا لم يكن هذا الشخص الآخر قد أخطأ لكان من الممكن له أن يحقق إنجازات عظيمة.

ولكن هذا الفرد يتغافل عن حقيقة مهمة، ألا وهى: " أنه لم يقم بأى مجهود إيجابى للتغلب على هذه الأخطاء وتجنب تكرارها ".

فأمثال هذا الفرد يفضل الواحد منهم أن يبقى فى وضعه الحالى (يكرر الخطأ نفسه ويلوم الآخرين)، وهذا الفرد يستمر فى استخدامه للعذر نفسه المرة بعد الأخرى وحتى تنتهى حياته، ومرة أخرى فإنه علينا أن نذكر أن أى خبرة يمكن فهمها بطرق مختلفة، وأنه يمكن الخروج باستنتاجات مختلفة - إلى حد التناقض - من الخبرة نفسها، ولهذا فإنه يمكننا تفهم السبب الذى يجعل الفرد يتشبث بإصرار بنمط سلوكه ويحافظ عليه بلا تغيير، فإنه من أصعب الأشياء على الإنسان أن يتعرف على نفسه وأن يعمل على تغييرها.

وأى شخص لم يدرس آليات ونظريات علم "الطبيعة البشرية" بعمق وتفهم سيواجه الكثير من الصعوبات فى محاولاته لـ"إعادة تعليم" الآخرين الكيفية التى يمكن بها أن يحسنوا من أنفسهم، وستكون محاولاته سطحية وغير ذات جدوى، كما أنه يكون معرضًا للوقوع فى خطأ الاعتقاد بأنه إذا ما تمكن من "تغيير مظاهر الأشياء" من الخارج فإن هذه الأشياء تكون قد تغيرت بالفعل وأنه قد تمكن من تحقيق إنجاز معنوى مهم، ولكن الحالات العملية تظهر لنا كيف أن "إعادة التعليم" هذه لن تنجح كثيرًا فى تغيير هؤلاء الأفراد، وكيف أن "تغيير مظاهر الأشياء" ما هو إلا واجهة عديمة القيمة طالما ظلت "الدوافع الأساسية" للفرد دون تغيير.

إن مهمة مساعدة البشر على تغيير أنفسهم ليست بالمهمة السهلة، لأنها تتطلب نوعًا محددًا من التفاؤل والصبر كما أنها تتطلب الكثير من "التواضع"، لأن الفرد الذى يطلب المساعدة لا يفعل هذا بغرض إشباع غرور الآخرين، كما أن آليات هذا التغيير يجب التعامل معها بطريقة تكون مقبولة من الفرد (المريض) محل البحث، وكلنا يعلم أنه إذا ما تم تقديم طبق لذيذ وصحى بطريقة تتسم بالإهمال وعدم العناية، وبحيث يكون غير جذاب فى نظر الشخص الذى سوف يأكله، فإنه كثيرًا ما يتم رفض هذا الطبق.

إن الجانب الاجتماعى من علم "الطبيعة البشرية" هو من أهم الجوانب على الإطلاق، ولا شك فى أن التوافق والسلام سيزدادان بين أفراد المجتمع لو أنهم

تمكنوا من فهم بعضهم البعض بطريقة أفضل، كما أن العلاقات بين الأفراد ستزداد توثقًا مع هذا الفهم، لأنه - مع هذا الفهم - سيكون من المستحيل عليهم أن يخدعوا بعضهم البعض، وهذه الخديعة كانت تمثل خطرًا كبيرًا على المجتمع، وعلينا أن نظهر بوضوح هذا الخطر لزملائنا المشتركين معنا فى هذه الدراسة، فإنه من الواجب عليهم أن يوضحوا أهمية هذه القوى غير المعروفة وغير الواعية للأفراد محل التجربة والتدريب، فإذا أردنا أن نساعد هؤلاء الأفراد فإنه من الواجب أن نجعلهم على علم بكل الغش والرياء والخداع الموجود فى السلوك البشرى، ولهذا فإنه يجب علينا أن نتعلم علم "الطبيعة البشرية"، وأن نتدرب عليه باستمرار وعن وعى، وأن نفكر - دائمًا - فى الدلالات الاجتماعية لـ"الطبيعة البشرية" وما تعنيه.

وعلينا الآن أن نحدد "الشخص المناسب" لجمع المادة العلمية - الخاصة بعلم "الطبيعة البشرية" - واستخدامها، لقد لاحظنا من قبل أنه من المستحيل ممارسة هذا العلم على أسس نظرية فقط، ولكن من غير الكافى أن يعلم الفرد كل المعطيات والقواعد، بل من الضرورى أن نضع دراستنا محل التطبيق، وأن نربط بينهم. إذا ما أردنا تحسين النتائج وتحديثها، وبالطبع فإن هذا هو هدف الجانب النظرى لعلم الطبيعة البشرية، ولا يمكننا أن نحصل على نتائج مهمة من هذا العلم إلا إذا ألقينا بأنفسنا فى غمار الحياة نفسها وطبقنا النظريات التى شكلناها عمليًا، ونحن لم نحصل إلا على القليل من المعلومات عن "طبيعة البشر" من خلال تعليمنا النظامى، والكثير مما تعلمناه كان غير صحيح. لأن نظام التعليم الحديث لازال غير مناسب لتزويدنا بمعلومات سليمة عن العقل البشرى، وعلى سبيل المثال فإن الطفل يترك لحاله فى محاولاته لتقييم الخبرات التى يمر بها كما أنه بمفرده فى محاولاته للعناية بنفسه وبنموه وتطوره خارج الفصل الدراسى، ولا توجد تقاليد معينة تحدد الكيفية التى يمكن بها السعى نحو الحصول على معلومات حقيقية عن النفس البشرية Human psyche، وهكذا فإن علم "الطبيعة البشرية" يجد نفسه فى الوضع نفسه الذى كانت فيه الكيمياء قديمًا عندما كانت الخيمياء Alchemy(*).

(*) الخيمياء (أو الكيمياء القديمة) وهو علم كانت غايته محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، واكتشاف علاج شامل (أى دواء واحد لكل الأمراض)، ومحاولة اكتشاف وسيلة لإطالة عمر الفرد إلى مالا نهاية، والمؤلف هنا يعنى أن علم "الطبيعة البشرية" يجد نفسه محاطًا بالكثير من الخرافات والأهداف الزائفة. مثلما كانت الخيمياء Alchemy قديمًا. (المترجم)

ومن واقع خبرتى السابقة فإن الفرد الذى لم تتشوه علاقاته الاجتماعية – من خلال المناهج السخيفة التى يتم تدريسها – هو أفضل الأشخاص وأقدرهم على متابعة هذا البحث فى الطبيعة البشرية، فهو يتميز – سواء كان رجلاً أو امرأة – بأنه متفائل، أو مكافح لكى يصبح متفائلاً، ولكن الصلات الاجتماعية مع البشر لا تكفى، بل يجب أن يتوافر الكثير من الخبرة معها.

وفى مواجهة التعليم غير المناسب الذى يحصل عليه معظم البشر، فإنه لا يمكن اكتساب تقدير حقيقى لـ"الطبيعة البشرية" إلا من خلال أنواع محددة من البشر، ولعله من الغريب أن نعرف أن بعض "الخطاة التائبين" يكونون ضمن هذا النوع من البشر، لأن بعضهم قد كافح كفاحًا مريرًا، وكاد يغرق فى دوامات العقل وأخطائه وخطاياه. قبل أن يصبح قادرًا على إنقاذ نفسه منها، كما أن بعضهم كانوا شديدى القرب من الخطية حتى إن الواحد منهم شعر بتياراتها تسحبه بعيدًا، بالطبع إنه يمكن تعليم بقية الأفراد، خصوصًا إذا كان الواحد منهم يتمتع بموهبة التعاطف والقدرة على الشعور بمشاعر الآخرين، ولكن أحسن طريقة لفهم النفس البشرية Human psyche، هى أن يحيا الفرد فى خلال كل انفعالات وآلام الحياة بنفسه، ولهذا فإن "الخطاة التائبين" ذوى قيمة عظمى فى أيامنا هذه مثلما كانوا فى الأيام الأولى لنزول الديانات العظمى، فهم أعلى قامة من آلاف الرجال الصالحين، فكيف تأتى لهذا أن يحدث؟

دعنا نتخيل فردًا تمكن من أن يرفع نفسه فوق كل صعوبات الحياة، فهو قد خلص نفسه من المستنقعات (من الحضيض)، وتعلم أن يتقبل التجارب والخبرات السيئة، وأن يستفيد منها، ومن هذا يمكننا أن نقول إن هذا الفرد يتفهم – كل الفهم – جميع جوانب الحياة بخيرها وشرها، ولا يمكننا أن نقارن بين فهمه الحقيقى وفهمنا النظرى، خاصة أن منا من لم يعرف إلا الجانب الخير من الأشياء.

عندما يمر بنا بعض الأفراد – الذين يكون الواحد منهم له نمط حياة يجعله عاجزًا عن أن يحيا حياة سعيدة – فإننا نشعر بأننا ملزمون نحوه، لأن معرفتنا بـ"الطبيعة البشرية" تجعلنا ملزمين بمحاولة تقديم يد المساعدة له حتى يتمكن من التكيف وتغيير مفاهيمه الخاطئة. إنه من الواجب علينا أن نعطيه مفهومًا واضحًا، وعلى أن يكون هذا المفهوم أكثر مناسبة لمجتمعه، وأن يكون ملائمًا لتحقيق السعادة فى هذه الحياة. إن علينا أن نعطيه طريقة جديدة للتفكير، وأن نكشف له عن

نمط آخر يمكن لـ"الشعور الاجتماعى" أن يلعب فيه الدور الرئيسى، وأنا هنا لا أقترح بناء حياة عاطفية مثالية، ولكن مجرد وجود وجهة نظر جديدة يكون - فى حد ذاته - أمرًا عظيم القيمة لمثل هذا الفرد المرتبك، كما أن هذا يعرفه بخطئه، وطبقًا لوجهة النظر السابقة فإن الشخص المتزمت المحدد، والذى يعتبر كل النشاطات البشرية ما هى إلا أفعال وردود أفعال. لا يكون قد ابتعد عن الصواب كثيرًا، ولكن الأفعال يمكن أن تتغير، وردود الأفعال - وخاصة الناتجة عن الخبرة - تتطلب قيمًا جديدة تمامًا، وخصوصًا عندما تكون قدرات الفرد - وقواه على "التعلم الذاتى" و"النقد الذاتى" - حية وتؤدى وظيفتها بطريقة جيدة إن قدرتنا على فهم أنفسنا تزداد مع ازدياد قدراتنا على تحديد مصدر أفعالنا والآليات التى تعمل بها عقولنا، وإذا تفهمنا هذا، فإن الواحد منا يصبح فردًا مختلفًا تمامًا، ولا يستطيع الهرب من النتائج الحتمية لمعرفته بهذا.

الجزء الأول

أساسيات نمو وتطور الشخصية

ما هى طبيعة النفس ؟

مفهوم الوعى The concept of consciousness

إننا ننسب الوعى إلى الأشياء التى يمكنها الحركة مثل الكائنات الحية، ولكن ليس كل الكائنات الحية، فإن وجود الوعى يفترض ويتطلب القدرة على الحركة الحرة، وحيث إن هناك بعض الكائنات الحية التى تضرب بجذورها فى بقعة واحدة من الأرض فإن هذه الكائنات لا تحتاج إلى الوعى،(*) وسيصبح من غير الطبيعى أن ننسب انفعالات وأفكارًا إلى شجرة البلوط على سبيل المثال، أو أن نقتنع بأنه من الممكن لها أن تتقبل - عن وعى - فناءها والذى لا مهرب لها منه، أو أن ندعى أنه كان لها إحساس داخلى مسبق بقرب حدوث هذا الفناء، فإنه من الحماقة أن ننسب لها القدرة على التفكير، أو وجود إرادة حرة، ونحن نعلم أنها عاجزة عن استخدام مثل هذه القدرات، لأنه - تحت هذه الظروف - فإن إرادة شجرة البلوط وقدرتها على التفكير تكون بالضرورة مولودًا لا حياة فيه (أى أنها ستظل بلا أى نفع لها).

إن هناك علاقة سببية بحتة بين "الحركة" و"الوعى"، وهذا يمثل الفرق بين النبات والحيوان فى تطور النفس The Psyche، ولهذا فإنه علينا أن نأخذ فى الاعتبار كل ما له علاقة بالحركة؛ فإن كل الأسئلة المتصلة بالحركة الجسدية تجبر النفس على التطلع إلى المستقبل، وإلى تجميع الخبرات، وإلى تطوير الذاكرة استعدادًا لخوض معركة الحياة، ولهذا يمكننا التأكد - منذ البداية - أن تطور النفس متصل بالحركة، وأن تقدم كل الظواهر النفسية متأثر بقدرة الكائنات على

(*) رغم أنه قد ثبت علميا خطأ الفكرة القائلة: "كل" النباتات غير واعية ولا تستطيع التفكير، إلا أن "الفكرة الأساسية" فى هذه الفقرة مازالت صحيحة كل الصحة، فشجرة البلوط لا وعى لها ولا تستطيع التفكير ولا حاجة لها لوجود الوعى - بالطريقة التى نعرفه بها - لأنها لا تملك القدرة على الاستجابة ورد الفعل، لكن هناك نباتات لها قدر من الوعى، وتم تحديد استجاباتها وردود أفعالها عندما تتعرض لخطر الفناء، بل إن هناك نباتات تقتنص الحشرات والقوارض عن طريق إغلاق أبواقها المفتوحة كالشرك المنصوب. (المترجم)

الحركة، فإن القدرة على الحركة تتطلب تركيزًا أكبر للنشاطات العقلية، ولو أننا تخيلنا وجود فرد تم التخطيط لجميع حركاته المستقبلية. إن الحياة العقلية لمثل هذا الفرد ستكون جامدة.

وظيفة النفس — The function of the psyche

إذا أخذنا فى الاعتبار وجهة النظر السابقة عندما ننظر إلى وظيفة النفس، فإننا نلاحظ أننا قد أخذنا فى الاعتبار نشوء وارتقاء Evolution القدرات الموروثة للعضو من أجل الدفاع والهجوم، والتى زودته بها الوراثة، ومن خلالها تتمكن الكائنات الحية من التفاعل مع المواقف المحيطة بها.

إن النشاط النفسى ما هو إلا مجموعة معقدة من آليات الدفاع والهجوم غرضها النهائى هو ضمان استمرارية الكائن الحى، وهدفها أن تعطيه القدرة على النمو والتطور بأمان، لو أننا تقبلنا هذه المقولة الجدلية السابقة فإنه علينا أن نأخذ المزيد من الاعتبارات الضرورية للحصول على الفهم الحقيقى للنفس Psyche، فلا يمكن تخيل حدوث نشاط نفسى بمعزل عن كل شىء، وإن ما يحدث للنشاط النفسى يكون مرتبطًا بالبيئة المحيطة بها، وتتفاعل معها بالأخذ والعطاء، وتتفاعل – أيضًا – مع كل المؤثرات الخارجية.

إن المقولة الجدلية السابقة تفتح المجال أمام الكثير من الاعتبارات الخاصة بالميزات الفريدة للبشر. إنها كلها مفاهيم نسبية، وحيث إنه لا يوجد نموذج نستطيع عليه قياس القدرة أو الميزة الجسدية، وما إذا كانت تعتبر عاملا مساعدا على استمرار الحياة أو عبئًا عليها، على هذا فإن أحكامنا وقياساتنا لا يكون لها أى معنى، إلا إذا كانت متصلة بالموقف الذى يجد الفرد نفسه فيه، وعلى سبيل المثال: فإنه من المعروف أن القدم البشرية كانت فى الأصل مشابهة فى تكوينها لليد الطبيعية للبشر، ولكنها تحورت حتى أخذت الشكل الذى نعرفه الآن، وبهذا تكون القدم البشرية ما هى إلا يد متحولة، وفى الحيوانات التى عليها أن تتسلق الأشجار (القردة مثلاً)، فإن القدم البشرية تكون عديمة النفع وتمثل عبئًا لا يساعد على استمرار حياة الحيوان (القردة)، لكن هذه القدم تكون مفيدة جدا وضرورية للإنسان

الذى عليه أن يمشى على أرض منبسطة، ولن يوجد من يفضل المشى على اليد الطبيعية، بل إن الجميع سيفضل استخدام اليد المتحولة لصلاحيتها لتأدية المهمة المطلوبة منها.

ومن هذا نرى أن ما يعتبر عيبًا ظاهرًا – فى حياتنا الشخصية أو فى حياة الآخرين أيضًا – لا يجوز النظر إليه على أنه مصدر للشر فى حد ذاته، ولكن المضمون هو الذى يحدد ما إذا كان هذا الشىء عاملاً مساعدًا على استمرار الحياة أم عبئًا عليها.

غرضنا وكيف توجِّهُنا أهدافنا:

إن أول ما نكتشفه عن أنفسنا هو أننا دائمًا نسعى نحو تحقيق هدف ما، وهذا يجعل من المستحيل تخيل الروح الإنسانية معزولة، أو كوجود ساكن وغير متحرك، وأحسن طريقة لتصور الروح الإنسانية تكون عن طريق تخيلها: على أنها مجموعة من الأجزاء المتحركة القادرة على النمو والتطور، والتى تنبع من مصدر واحد، والتى تسعى لتحقيق هدف واحد. إن هذا السعى نحو تحقيق هدف يمثل مفهومًا أساسيا من مفاهيم التكيف والتلاؤم، و"حياة النفس Life of the psyche" لا يمكن تخيلها بدون الهدف الذى تسعى لتحقيقه كل جهودنا.

إن هذا الهدف هو الذى يحدد الحياة العقلية، فلا يوجد إنسان يستطيع التفكير أو الشعور أو الرغبة أو الحلم بدون هذه النشاطات الموجهة باستمرار نحو تحقيق الهدف، وكل هذا ينتجَ عن ضرورة تكيف الكائن الحى حتى يستطيع التفاعل مع البيئة المحيطة به.

إن الظواهر الجسدية والنفسية للحياة البشرية مبنية على هذه المبادئ الأساسية التى عرضناها، ومن المستحيل الحصول على نمو وتطور نفسى إلا من خلال نمط يعتمد على الوجود الدائم لـ"الهدف"، والذى يتم تحديده من خلال ديناميكيات الحياة.

إن الهدف فى حد ذاته يمكن أن يكون ثابتًا (غير متغير) أو متغيرًا، وعلى هذا الأساس فإن كل الظواهر المتعلقة بوجودنا النفسى يمكن اعتبارها على أنها

مجرد استعدادات لموقف سوف يحدث فى المستقبل. إن الروح تتكون أساسًا من قوة متحركة نحو هدف ما، وعلم النفس الفردى ينظر إلى كل التعبيرات الصادرة عن الروح الإنسانية كما لو كانت موجهة نحو هذا الهدف.

إن معرفتنا بهدف الفرد، وبالبيئة المحيطة به فى العالم، تمكننا من فهم معنى الطرق التى يعبر بها هذا الفرد عن نفسه، وبالاتجاه الذى ستأخذه حياته، وكيف ستعمل كل هذه الأشياء معًا استعدادًا لتحقيق الهدف، كما أنه يجب علينا أن نعرف الخطوات التى يجب أن يتخذها كل فرد من أجل الوصول لهدفه، كما نعرف مسار الحجر الذى يتم إلقاؤه من أعلى فى اتجاه الأرض، وبالرغم من أن الناس لا يتبعون أى قانون طبيعى ثابت، وهذا لأن هدفهم - والموجود دائمًا - يكون فى حالة تقلب متواصل، ولكن لأن كل فرد يحتفظ بهدفه ولهذا فإن ميوله النفسية يجب أن تتحرك نحو هذا الهدف، كما لو كانت تتبع أحد القوانين الطبيعية، وهناك قانون يحكم حياتنا النفسية، لكنه ليس قانونا طبيعيا - مثل قانون الجاذبية مثلاً - وإنما هو قانون من صنع الإنسان. إننا عندما نؤمن بأن هناك أدلة كافية تبرر حديثنا السابق عن القانون الطبيعى للنفس، فإننا نكون كمن خدع بمظاهر الأشياء، فإن كل من يؤمن بأنه قد أظهر - بما فيه الكفاية - قوة وثبات الظروف المحيطة، يخدع نفسه، لأنه عندما يخرج الرسام لرسم صورة ما، فإن العالم كله يسهم ويعطيه كل المواقف المناسبة لفرد مثله يحمل هذا الهدف (رسم الصورة)، أما هو فسيفعل كل الأشياء المعتادة، وسيحصل على كل النتائج المتوقعة كما لو كان هناك قانون طبيعى مطبق، ولكن هل هناك ضرورة حتمية تجبره على رسم هذه الصورة؟ نحن نعلم أن إرادته حرة، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن "سعيه" نحو تحقيق هذا الهدف هو الذى يجعله يستمر فى خلط الألوان ووضعها على الصورة.

إن هناك فرقًا بين الحركات الجسدية، وحركات "النفس البشرية Human psyche".

وكل تساؤلاتنا حول "حرية الإرادة" تتوقف على هذه النقطة المهمة، ففى أيامنا هذه يؤمن البعض بأن الإرادة ليست حرة، وصحيح أن الإنسان يصبح مرتبطًا برباط لا ينفصم بمجرد أن يهب نفسه ويتفرغ لتحقيق هدف معين، وحيث إن الظروف المحيطة مثل العلاقات الاجتماعية، وقدرات الفرد الجسدية، تحدد نوعية هذا الهدف، فإن الحياة النفسية تبدو وكأنها محكومة بقوانين طبيعية ثابتة،

وعلى سبيل المثال فإنه عندما يتنكر أحد الأفراد لعلاقاته بالمجتمع ويثور ضدها، أو عندما يرفض التكيف مع حقائق الحياة، فإن كل هذه القوانين التى تبدو ثابتة ثبوت الجبال وغير قابلة للتغيير تصبح ملغاة وباطلة، ويظهر بدلاً منها قانون جديد محدد على أساس الهدف الجديد.

وبالطريقة نفسها فإن القانون الذى يحكم الحياة الجماعية لا يربط الأفراد المعقدين والمرتبكين عقليا، والذين يحاولون إنكار مشاعرهم نحو الآخرين، ولهذا على أن أكرر أن الحياة العقلية لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تم اختيار هدف مناسب.

ومن ناحية أخرى فإنه من الممكن اكتشاف هدف الفرد من خلال مراقبة نشاطاته الحالية، وأهمية هذا ترجع إلى أن القليل من الناس يعرفون هدفهم على وجه التحديد.

ومن الناحية العملية فإنه يجب اتباع هذا الإجراء إذا أردنا أن نكتسب مستوى كافيًا من المعرفة بالبشر، وحيث إن الفعل الواحد تكون له معان متعددة، فإن الأمر لن يكون بمثل هذه البساطة، ولكن يمكن أن نأخذ أمثلة متعددة من سلوك فرد ما، ونقارنها ونفرزها على رسم بيانى، وبهذه الطريقة يمكننا أن نتفهم هذا الفرد عن طريق مد خط يصل بين نقطتين تمثل كل منهما موقفًا نفسيا محددًا تم التعبير عنه بوضوح، وسيعبر المنحنى (الواصل بين النقطتين) عن الفترة الزمنية التى تفصل بينهما.

وتستخدم هذه الطريقة فى الحصول على رسم بيانى يوضح حياة الفرد.

وسنستخدم مثالاً لتوضيح الكيفية التى يمكننا بها اكتشاف نمط السلوك فى أحد الأفراد البالغين والذى ينتج عن مواقف الطفولة:

رجل فى الثلاثين من عمره، له شخصية عدوانية إلى حد بعيد، ولقد تمكن هذا الرجل من تحقيق النجاح والشهرة بالرغم من ظروف الطفولة الصعبة التى مر بها، وقد ذهب هذا الرجل إلى أحد الأخصائيين النفسيين، وهو يشكو من اكتئاب شديد، وكان محور شكواه هو أنه أصبح غير راغب فى العمل أو الحياة ككل، وقد قال لنا إنه كان على وشك إعلان خطوبته، ولكنه ينظر إلى المستقبل بخوف وذعر، فإن الغيرة تعذبه حتى إنه أصبح على وشك قطع علاقته بهذه الفتاة، ولكن كل الحقائق التى قدمها لتبرير غيرته الشعواء، لم تكن مقنعة أبدًا، وحيث إنه لا

يمكن توجيه اللوم إلى الفتاة، فإنه كان من الواجب البحث عن الأسباب الكامنة وراء شكوكه فيها. إن هذا الرجل من النوع الذى يقترب من الجنس الآخر، ويشعر بانجذاب نحوه، ولكنه يبدأ فى اتخاذ موقف عدوانى - مباشرة - يتسبب فى هدم الصلات التى كان يسعى جاهدًا لبنائها.

والآن دعنا نفرز الرسم البيانى لأسلوب حياة هذا الرجل. لنأخذ أحد الأحداث فى حياته ونحاول أن نربطها بموقفه فى الحاضر - كما فعلنا من قبل - ولنسأله عن أولى ذكريات الطفولة - رغم أنه لا يمكن دائمًا اختبار مدى صدقها - وهو يقول لنا إن أول ما يتذكره هو:

"عندما كنت فى الرابعة من عمرى، كنت فى السوق مع أمى وأخى الأصغر، وكان السوق مزدحمًا جدا، فانحنت والدتى وحملتنى، ولكنها لاحظت أن عليها أن تحمل الأخ الأصغر، فأنزلتنى وحملت أخى الأصغر بدلاً منى، وتركتنى أشق طريقى بصعوبة خلال الجموع، مما جعلنى فى حالة ارتباك عقلى شديدة".

عندما حكى لنا المريض عن هذه الذكرى الأولى فإننا رأينا النقاط نفسها التى سمعناها عن حياته فى الوقت الحاضر، وشكواه أيضًا كما هى لم تتغير، فإن الشكوك تملؤه من ناحية وضعه، فهل هو المفضل أم لا؟ وهو لا يستطيع أن يتحمل مجرد فكرة أن هناك من يمكن أن يحل محله ويأخذ مكانه، عندما شرحت له المعنى الخفى وراء هذه الذكرى الأولى، أصبح الارتباط واضحًا لمريضنا، واستطاع اكتشاف العلاقة بينهما مباشرة.

إن الهدف النفسى الذى تسعى إليه أفعال كل فرد موجه نحو هذه التأثيرات، ومحدد بواسطتها، والانطباع الذى يخرج به الطفل من الخبرات التى يمر بها فى بيئته هو الذى يحدد اتجاه هدفه النفسى. إن مفهوم الحالة المثالية - ونعنى هنا الهدف - لأى فرد يتشكل خلال الشهور الأولى من حياته، فحتى خلال هذا الوقت المبكر جدا من حياة الفرد فإن هناك "مشاعر معينة" تقوم بدور فى الحصول على ردود أفعال مختلفة من الطفل، سواء كانت فرحًا أو حزنًا، وهنا تظهر الآثار الأولى لفلسفة الحياة، معبرًا عنها فى أبسط الصور وأكثرها بدائية (الفرح أو الحزن).

إن العوامل الأساسية التى تؤثر على النفس Psyche موجودة فى الرضيع، وعلى هذا الأساس يتم بناء كل شيء، ولكن يمكن - فيما بعد - التأثير على هذا

البناء وتحويله وإحداث بعض التغييرات فيه. إن تعدد التأثيرات يجبر الطفل على تبني موقف محدد من الحياة، كما أنها تُجبره على أن يكيف ردود أفعاله تبعًا لنوع المشكلة التي تواجهه.

إن الباحث الذي يعتقد أن كل المميزات الشخصية للشخص البالغ يمكن التعرف عليها ورؤيتها في الطفل الرضيع، لم يبتعد عن الحقيقة كثيرًا، وهذه الفكرة هي الأساس الذي بنى عليه الكثيرون اعتقادهم بأن الشخصية تورث، ولكن الفكرة القائلة بأن شخصية الفرد وتصرفاته موروثة من أحد الأبوين، فكرة ضارة جدا، كما أنها تعوق المهتمين بالتعليم من أداء واجبهم، وتقلل من ثقتهم بأنفسهم، وتمكنهم من تجنب مسئولياتهم ببساطة عن طريق إلقاء اللوم على عامل الوراثة، وهو ما يتنافى مع الغرض والمهمة الحقيقية للعملية التعليمية.

إن حضارتنا تلعب دورًا مهمًا في نمو وتطور الهدف النفسي للفرد، لأنها تضع مجموعة من القواعد والضوابط حول الطفل، ويبدأ الطفل في صراع مع هذه القواعد حتى يكتشف الكيفية التي يمكنه بها أن يحقق رغباته بطريقة تضمن له كلا من الأمان والنجاح في التكيف مع الحياة.

ولكن كم من الأمان يحتاج إليه الطفل ويتطلبه فيما يتعلق بحقائق الأمر الواقع المحيط به؟ إن الطفل يتعلم هذا في مرحلة مبكرة جدا من حياته، وعندما نتكلم عن الأمان فإننا لا نعني أن يأمن الفرد على نفسه من الأخطار فقط، وإنما نعني ذلك العنصر الأمني الذي يضمن للفرد استمرارية الوجود تحت ظروف مثالية، ويؤمن الطفل هذا العنصر عن طريق أن يطالب بأكثر مما هو ضروري لإشباع حاجته الأساسية، وبما هو أكثر مما يوفر له حياة هادئة، وبهذا تظهر ميول جديدة في نمو وتطور نفسيته، ويظهر الميل نحو السيطرة والهيمنة والبحث عن "**التفوق**".

إن الطفل يشبه البالغ إلى حد بعيد فإن الطفل يرغب في التغلب على كل من يزاحمه وينافسه، وهو يجاهد في سبيل تحقيق "التفوق" الذي سوف يضمن له الأمان والتكيف المقترنين بالهدف الذي حدده لنفسه، وهكذا فإن الطفل يبدأ في المعاناة من الضيق النفسي الذي يزداد بمرور الوقت.

ولنفترض أن العالم من حولنا قد بدأ في المطالبة برد فعل أشد وأكثر قوة، فإذا كان الطفل لا يؤمن بقدراته على التغلب على الصعوبات التي تعترضه، فإننا

سنرى الكثير من الجهد الضائع فى محاولة لتجنب المسئولية، وهـذا إن دل علـى شيء فإنما يدل على تعطشه الدائم لإحراز "التفوق".

وتحت هذه الظروف السابقة فإن الهدف المباشر كثيرًا ما يتحول إلى محاولة تجنب كل المشاكل الأساسيـة والصعوبات الرئيسـية، ويتهرب الطفل منها حتـى يتجنب - ولو بصورة مؤقتة - متطلبات الحياة، وعلينا أن نفهـم أن ردود أفعـال الفرد النفسية لا تكون ثابتة أو مطلقة، فإن كل رد فعل ما هو إلا رد فعـل جزئـى ومؤقت ولا يجوز الاعتداد به واعتباره الحل النهائى للمشكلة.

وعلينا أن نتذكر هذا بصورة خاصة عندما نتعامل مع نمو وتطور نفـسية الطفل Child's Psyche، ويجب أن نتذكر أننا نتعامل مع صورة تبلـورت بشـكل مؤقت لفكرة الهدف، وعلى هذا فإنه لا يمكننا أن نطبق على نفسية الطفل المعـايير نفسها التى اعتدنا تطبيقها على نفسية البالغين، وعندما ندرس الطفل فإنه يجب علينا أن نتعمق أكثر، وأن نحاول التنبؤ ومعرفة الوضع الأخير الذى ستؤدى إليـه كـل جهوده ونشاطاته، لو أننا تمكنا من قراءة عقل الطفل، فإننا سنفهم كيف تكون كـل انطباعات شخصيته موجهة نحو المثل التى خلقها عندما حاول أن يبلور رغباته فى الحياة.

إنه من الواجب علينا أن ننظر إلى الأشياء من وجهة نظـر الطفـل حتـى نتعرف على السبب الذى يجعله يتصرف بالطريقة التى يتصرف بها، فإن الموقـف الأساسى مرتبط بوجهة نظره هو الذى يوجه الطفل بطرق مختلفة، ومن أمثال هذه الطرق:

أولاً: هناك الموقف المتفائل من الحياة، وفيه يكون الطفل واثقًا من قدرته على حل المشكلات التى تعترض طريقه، وتحت هذه الظروف فإنه سـتظهر جميـع الخصائص والمميزات التى تميز الفرد الذى يعتبر مهام الحياة سـهلة وفـى حدود قدراته، وفى أمثال هذه الحالات سنجد أن هناك نموا وتطورًا صـحيا لشجاعته وصراحته وقدرته على تحمل المسئوليات وقدراتـه علـى العمـل وعلاقاته بالآخرين.

ثانيًا: هناك الوضع العكسى المتشائم من الحياة، فدعنا نتخيل هدف الطفل الـذى لا يتمتع بالثقة فى قدراته على حل المشاكل. إن عالمه لابد وأن يكون موحشًـا

وكئيبـــاً، وسنجد أنه خائف من كل شيء ولا يثق في أي شخص، ويميل إلى الاستبطان وفحص أفكاره ودوافعه ومشاعره، وكل الخصائص والمميـزات الأخرى التي يستخدمها الضعفاء في الدفاع عن أنفسهم، وسيبدو له هدفه غير ممكن التحقيق لأنه يتخيل أن الهدف يتجاوز قدراته التي لا يثق فيها، وسيظل هذا الهدف بعيدًا عن الخطوط الأمامية، حيث تدور رحى المعركة الحقيقيـة للحياة.

الجوانب الاجتماعية للحياة الذهنية

والآن يجب علينا أن ندرس علاقة الفرد بزملائه فى المجتمع البشرى حتى نستطيع أن نعرف الكيفية التى يفكر بها. إن العلاقة بين فردين محكومة بطبيعة الكون، ولهذا فإنها تكون متغيرة، من ناحية أخرى فإنها تكون محددة بواسطة كل المعاهدات الإنسانية مثلها مثل كل العادات والتقاليد السياسية فى أى مجتمع. إننا لن نتمكن من فهم الكيفية التى تعمل بها "النفس البشرية Human psyche" إلا إذا فهمنا هذه العلاقات الاجتماعية.

الحقيقة المطلقة The absolute truth

إن النفس psyche لا يمكنها التصرف كقوة مستقلة بذاتها، فإن المشكلات تتجمع معًا باستمرار، والحاجة لحل هذه المشكلات تحكم الاتجاه الذى تأخذه النفس فى نموها وتطورها. إن هذه المشكلات مرتبطة - بصورة جماعية لا يمكن تقسيمها - بالمنطق الذى بنيت عليه حياتنا الجماعية، ورغم أن متطلبات المجتمع تؤثر على الفرد، فإن الفَرد نادرًا ما يسمح لهذه المتطلبات بأن تؤثر عليه كثيرًا، ومع ذلك فإنه لا يمكن اعتبار الظروف الحاضرة لحياتنا الجماعية المشتركة، ظروفًا نهائية، لأنها شديدة التعقيد وكثيرة التغير، كما أننا غارقون فى علاقاتنا إلى درجة لا تمكننا من رؤية مشكلة النفس وفهمها بطريقة شاملة ومتكاملة.

إن المصدر الوحيد والملجأ الذى يمكننا الركون إليه هو: تقبل المنطق الذى تعيش به الحياة الجماعية المشتركة على كوكب الأرض كما لو كان هذا المنطق مطلقا كالحقيقة المطلقة التى يمكن فهمها خطوة خطوة بعد أن نصحح أى أخطاء تنتج عن تنظيماتنا الاجتماعية غير الكاملة وقدراتنا المحدودة كبشر.

هناك شيء مهم يجب أخذه فى الاعتبار ألا وهو: التركيب الطبقى المادى للمجتمع كما وصفه كل من كارل ماركس وأنجلز، فطبقاً لتعاليمهم فإن الأساس الاقتصادى لأى مجتمع يحدد طريقته الأيديولوجية(*) فى التفكير والسلوك، وسيكون مفهومنا لكل من: "منطق الحياة البشرية الجماعى" و"الحقيقة المطلقة" ما هو إلا جزء من تقبلنا للمفاهيم الموجودة، ولقد عرفنا التاريخ أنه أحيانا ما يكون مناسبا للفرد أن يعطى رد فعل مغلوط لمتطلبات النظام الاجتماعى والاقتصادى، وفى محاولة لتجنب هذا النظام فإن الفرد قد يصبح متورطاً فى تلافيف وطيات ردود فعله الخاطئة. إن طريقنا للوصول إلى الحقيقة المطلقة سيقودنا عبر عدد لا نهائى من الأخطاء.

ضرورة الحياة الجماعية المشتركة:

إن قواعد الحياة الجماعية واضحة أشد الوضوح، فهى مثل قوانين الطقس، لأنها تجبرنا على اتخاذ مقاييس معينة، فإن الرغبة فى أن نحتمى من البرد قد دفعتنا إلى بناء المنازل، وهكذا. إن الإنسان مدفوع نحو المجتمع، ومدفوع نحو الحياة الجماعية المشتركة والتى تكشف عن نفسها فى وجود معاهد كثيرة، وعلى سبيل المثال: الدين، حيث تشكل جماعات العبادة رابطة بين أعضائها فى الدين نفسه، وهذا مشابه لأحوال حياتنا التى تتحدد بواسطة حقائق البيئة المحيطة بنا، ويظهر المزيد من الشروط من خلال الحياة الاجتماعية والجماعية المشتركة للبشر، والقواعد والقوانين التى تخرج منها.

إن حاجات المجتمع تتحكم فى كل العلاقات الإنسانية، والحياة الجماعية المشتركة تسبق تاريخيا الحياة الفردية للبشر، وفى تاريخ الحضارة الإنسانية فإن جميع طرق الحياة Ways of life التى ظهرت كان أساسها هو الحياة الجماعية المشتركة.

(*) الأيديولوجية *Ideology* ويقصد بها العقيدة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية: وهى مجموعة الأفكار التى تشكل ميزات فرد أو جماعة أو حضارة، أو النظريات التى تهدف إلى تأسيس برنامج حزب سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى. (المترجم)

الشعور بالأمان والقدرة على التكيف:

يمكننا أن نستنتج مما سبق أن البشر – مقارنة بصور الحياة الأخرى – ما هم إلا "كائنات دونية ناقصة Inferior organism"، وأن هذا الشعور بالدونية وعدم الأمان يكون دائم الوجود فى الوعى البشرى، وهذا الشعور يمثل مثيرًا دائمًا وعاملاً محفزًا لاكتشاف طرق أفضل فى التكيف مع الحياة على كوكب الأرض، وهذا العامل المحفز يُجبر الإنسان على البحث عن الأوضاع والمواقف التى لا تظهره بمظهر الضعيف مقارنة بغيره من الكائنات فى البيئة المحيطة.

إن غريزة السعى نحو حياة جماعية مشتركة قد خدمت البشرية بطريقة واضحة خاصة فيما يتعلق بالعقل البشرى، لأنها وفرت الجو الملائم لأكثر أدواتنا قوة (العقل) لينمو ويتطور ويعمل ضد عوامل البيئة المحيطة فى محاولة لحماية الجنس البشرى من الانقراض، فإن الذكاء البشرى هو الذى مكننا – ونحن مخلوقات ضعيفة جسديا – من أن نحقق النجاح فى التكيف مع البيئة المحيطة، وفى توفير الأمن والأمان.

أما إذا كان علينا أن ننتظر حتى يمكننا أن نطور ونستخدم وسائل مادية طبيعية (مثل القرون أو المخالب أو الأنياب) فى الدفاع عن أنفسنا، فإن الإنسان البدائى كان عليه أن يواجه مواقف أكثر صعوبة حتى يستطيع إخضاع أعدائه الطبيعيين والتغلب عليهم دون استخدام الذكاء البشرى.

فإن العقل البشرى يستطيع أن يوفر مساعدة عاجلة ومباشرة، وأن يعوض عن القصور الجسدى الذى يعانى منه الإنسان مقارنة بغيره من الكائنات الحية، كما أن الشعور الدائم بالدونية يعمل على إثارة وتحفيز القدرات البشرية على تجنب الأخطار، وجعل العقل ينمو ويتطور حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، فالعقل أصبح عضوًا للتفكير وللشعور ولاتخاذ القرار، وقد لعب المجتمع دورًا أساسيا فى عملية تكيف العقل ونموه وتطوره، لأن العقل يجب أن يتفاعل – منذ البداية – مع الشروط الموضوعة على الحياة الجماعية المشتركة، فإن كل إمكانيات العقل قد نمت وتطورت على مبدأ واحد أساسى ألا وهو: منطق الحياة الجماعية المشتركة.

إن القدرة على الحديث (تبادل الحوار) المنطقى والمنظم هى المعجزة التى تفصل بوضوح بين البشر وباقى الكائنات الحية، وهى أداة ذات أهمية قصوى فى

الحياة الجماعية المشتركة، وهذه الظاهرة (القدرة على التخاطب) تحدد بوضوح أصلها الاجتماعى؛ فلا يمكن فصلها عن مفهوم تحقيق الصالح العام بين الكائنات عموما، والتخاطب يصبح عديم النفع وغير ضرورى لشخص يعيش بمفرده، فالاستخدام الوحيد له يكون داخل المجتمع. إن التخاطب هو أحد نواتج الحياة الاجتماعية المشتركة، ويمثل رابطة بين الأفراد داخل المجتمع.

إن الأصل الاجتماعى لعملية التخاطب يظهر بوضوح على الأفراد الذين نشأوا تحت ظروف شاذة لم تسمح لهم بالاتصال بغيرهم من البشر، فبعض هؤلاء الأفراد قطعوا كل صلاتهم بالمجتمع عن عمد، أو كانوا ضحايا لهذه الظروف الشاذة، وفى كلتا الحالتين فإن الفرد يعانى من عيوب فى النطق، ولا يتعلم أبدا الخبرة المطلوبة لتعلم اللغات الأجنبية، وكما لو أن مهارة تعلم اللغات الأجنبية يمكن اكتسابها فقط عندما يكون الفرد على اتصال وثيق بالآخرين وبغيره من البشر.

إن التخاطب وظيفة بالغة الأهمية وضرورية لنمو وتطور الروح البشرية، كما أن التفكير المنطقى يكون ممكنا فقط من خلال استخدام اللغة، والذى يسمح لنا باستخدام الوسائل المختلفة فى بناء المفاهيم، والتعرف على الاختلافات الموجودة بين القيم، كما أن أفكارنا ومشاعرنا تصبح مفهومة أكثر عندما نتفهم أنها ليست ملكنا وحدنا، بل إن هناك أفكارًا ومشاعر مشابهة لدى زملائنا من البشر، واستمتاعنا بالأشياء الجميلة يعتمد على العلم بأن التعرف على الجمال وفهمه والشعور به ما هى إلا مقاييس عالمية، وبالمثل فإن الأفكار والمفاهيم (مثل الفن والمنطق والمبادئ والأخلاق والفهم وتقدير الجمال) ليست أمرًا خصوصيا، بل إنها ترجع بأصلها للحياة الاجتماعية البشرية، وهى تمثل الروابط التى تربط بين الأفراد الذين يرغبون فى الحفاظ على الحضارة.

الشعور الاجتماعى Social feeling

إن كل القواعد التى وضعت لضمان استمرارية الجنس البشرى – مثل القوانين التى تحدد ما هو مباح وما هو محرم، والعرف والتقاليد، والطواطم

Totems فى الحضارات البدائية - يجب أن تكون محكومة من خلال مفاهيم المجتمع نفسه، وأن تتشكل بواسطته، ولقد ذكرنا من قبل هذه الفكرة، خاصة فيما يتصل بالعقيدة الدينية. إن التكيف مع المجتمع هو أكثر الوظائف النفسية أهمية لكل من الفرد والمجتمع. إن ما نسميه بالعدالة والصلاح وكل ما نعتبره ذا قيمة إيجابية فى الشخصية البشرية ما هو إلا استجابة الفرد للقيود والشروط التى خرجت عليه من حاجات المجتمع البشرى، فإن هذه القيود والشروط هى التى شكلت الروح ووجهت نشاطاتها، وتحمل المسئولية والوفاء والصراحة وحب الحقيقة... إلخ، كلها قيم ومبادئ تأسست على المبدأ المقبول عالميا للحياة الجماعية المشتركة.

وعندما نصدر حكمًا على شخص ما بأنه شرير أو صالح، فإننا نفعل هذا من خلال عيون المجتمع، وعلى سبيل المثال فإن الشخص الصالح: هو الذى لديه الكثير من الإنجازات فى ميادين العلوم أو السياسة أو الفنون، ولقد أصبح هذا الشخص صالحًا واعترف له الجميع بهذا. عندما أثبتت هذه الإنجازات قيمتها العالمية فى كل مكان. إن المقاييس والمعايير التى يتم الحكم على الفرد من خلالها تتحدد من خلال قيمة هذا الفرد للبشرية على وجه العموم، فنحن نقارن بين الأفراد على أساس صورة مثالية لأحد أفراد البشر السابقين، والذين نجحوا نجاحًا باهرًا فى أداء المهام المختلفة، وتمكنوا من أن ينتصروا على الصعوبات التى واجهتهم بطريقة مفيدة للمجتمع كله وكان شعورهم الاجتماعى قويا وبالغ التطور، وكما قال كارل فيرتميلر:

"إن مثل هؤلاء الأفراد يؤدون دورهم فى الحياة طبقا لقوانين المجتمع".

وسيظهر بوضوح خلال دراساتنا القادمة أن كل فرد تمت تربيته بطريقة سليمة يحمل فى داخله شعورًا قويا بالزمالة وبأنه جزء لا يتجزأ من المجتمع البشرى.

الطفل والمجتمع

إن المجتمع يفرض مجموعة من الواجبات والقيود علينا، وهذا بالتالى يــؤثر على طريقة وشكل حياتنا، كما أنه يؤثر على نمو وتطوز عقولنا. إن المجتمع لــه أساس عضوى، ويمكننا أن نجد نقطة اللقاء بين الفرد والمجتمع فى الحقيقــة التــى تقول بأن الجنس البشرى يتكون من نوعين (رجل وامرأة).

فإن المجتمع الذى تم خلقه بواسطة الشركة بين الرجل والمرأة يتحقــق فيــه الإشباع لكل غرائز الحياة، فمن خلاله يمكن تحقيق الأمان وضمان السعادة.

وإذا نظرنا للفترة الزمنية الطويلة التى يحتاجها الطفل لينمو ويتطور، فــإن هذا يذكرنا بأن الحياة البشرية لا يمكنها التطور بدون وجود المجتمع الذى يوفر لها الحماية، والالتزامات الموضوعة علينا كبشر تحمل فى طياتها ضــرورة تحقيــق تقسيم العمل Division of labor، وهذا يزيد من قوة الروابط والصلات الواجــب توافرها بين الأفراد وبعضهم البعض، فإنه على كل منا أن يساعد جــاره، وعلينــا جميعًا أن نشعر بأننا مرتبطون بالآخرين، وهذه هى نقطة البداية لعلاقات شخصية وثيقة، وعلينا الآن أن نناقش بالتفصيل بعض العلاقات التى تنتظــر الطفــل عنــد مولده.

الطفل الرضيع:

إن كل الأطفال يعتمدون اعتمادًا كليا على المجتمع المحيط بهم، ورغم هــذا الاعتماد الكلى، فإن الطفل يجد نفسه فى مواجهة عالم يــؤمن بالأخــذ والعطــاء، ويتوقع من الطفل أن يتكيف معه، ولكن هذا المجتمع يلبى حاجاته – الأساســية – من أجل الاســتمرار فى الحياة، وبهذا يجد الطفل الكثير من المعوقات والصعوبات المؤلمة فى طريق إشباع غرائزه، ويلاحظ الطفل – منذ مرحلة مبكرة جــدا مــن حياته – وجود أفراد آخرين يستطيعون إشباع احتياجــاتهم بطريقــة كاملــة، وأن

هؤلاء الأفراد مؤهلون بطريقة أفضل منه لمواجهة مشاكل الحياة، وعندها يمكن القول بأن نفسية الطفل Child's Psyche قد ولدت من خلال المواقف التى حدثت له، وتطلبت تكاملاً حتى يمكن جعل الحياة الطبيعية العادية ممكنة، فإن النفس تنجز هذا عن طريق تقييم كل موقف ومقارنته بأقصى مستوى ممكن من الإشباع للغرائز وأقل إزعاج ممكن.

وبهذه الطريقة فإن الطفل يتعلم قيمة القوة والحجم الكبير التى يحتاجها لكى يتمكن من فتح الأبواب أو تحريك الأجسام الثقيلة، أو حق الآخرين فى إعطاء أوامر، وتوقع الطاعة والتنفيذ لهذه الأوامر، وبهذا تبدأ "الرغبة فى النمو"، وفى أن يصبح فى "قوة" الآخرين – أو أكثر قوة منهم إن أمكن – فى الظهور داخل الطفل، وتصبح رغبته الرئيسية فى الحياة أن يسيطر ويهيمن على من حوله.

وهنا يقوم الطفل بواحد من أكبر اكتشافاته، فهو يلاحظ أن الأشخاص البالغين – وبالرغم من أنهم يعاملونه على أنه أقل منهم – مجبرون على خدمته بسبب ضعفه الشديد، وهنا يصبح أمام الطفل احتمالان فقط لا غير، فعليه إما أن يقلد النشاطات والطرق التى يستخدمها البالغون، وإما أن يظهر "ضعفه"، والذى يفهمه البالغون على أنه مساعدة – يطالب بها الطفل – ولا يمكن تجنب تقديمها، وسنجد – دائمًا – أحد هذين الميلين النفسيين فى جميع الأطفال.

وفى هذه المرحلة المبكرة جدا فإن الشخصية تبدأ فى التشكل، وتبدأ أنواعها المختلفة فى الظهور بوضوح، فيبدأ بعض الأطفال فى النمو والتطور فى اتجاه البحث عن "القوة" وطلبها، ويختار الواحد منهم الظهور فى المجتمع من خلال التحلى بالشجاعة والثقة بالنفس، بينما يختار طفل آخر الطريق العكسى، كأن "يتاجر" بنقاط ضعفهِ، ويحاول إظهارها بشتى الطرق.

وعلينا أن نراقب موقف Attitude كل منهم، وطريقته فى التعبير حتى نكتشف إلى أى المجموعتين ينتمى، إن لكل نمط من هذين النمطين معنى خاصا لو أننا حاولنا فهم علاقة هذا النمط بالبيئة المحيطة به، و"بيئة الطفل" تكون منعكسة فى سلوكه.

إن الأساس الذى يبنى عليه الطفل نموه وتطوره هو محاولة التعويض عن الضعف الذى يشعر به، والكثير من المواهب والقدرات تخرج من الشعور بالدونية.

إن الأوضاع التى يجد الطفل نفسه فيها تختلف اختلافًا شديدًا بين فرد وآخر، فـى بعض الحالات نجد أنفسنا نتعامل مع بيئة شديدة الخطر على الطفـل، حتـى إنهـا تعطيه الانطباع الخاطئ بأن العالم كله معاد له، وإذا لم يحاول الوالدان تصحيح هذا الانطباع الخاطئ، فإن شخصية مثل هذا الطفل قد تتطور فى اتجاه يجعلـه يعتـاد التصرف كما لو أن العالم كله معاد له حقيقة، وسيتزايد هذا الانطبـاع مـع كـل صعوبة يواجهها هذا الطفل، ويظهر هذا بوضوح فى حالـة الأطفـال المولـودين بإعاقة جسدية، ومثل هذا الطفل له موقف مخالف تماما لموقف الطفـل الطبيعـى الذى لا يعانى من أى إعاقة.

وقد أطلقت على الحالة السابقة اسم النقص أو الدونيـة العضـوية Organ inferiority، وتظهر هذه العقدة – عادة – عندما يواجه الطفـل صـعوبات فـى الحركة نتيجة لإصابة عضوية (عيب خلقى أو مكتسب فى أحد أعضاء جسده)، أو عندما يتعرض للكثير من الأمراض المعدية وغيرها بسبب ضعف مقاومته الجسدية للأمراض.

إن الإعاقة الجسدية ليست المصدر الوحيـد للصـعوبات والمشـاكل التـى يواجهها الطفل فى الحياة، فإن كل الطلبات غيـر المعقولـة – أو الطريقـة غيـر المناسبة والمهينة فى تقديم الطلبات – التى يفرضها عليه الوالدان، يمكن اعتبارهـا إحدى العقبات الموجودة فى بيئة هذا الطفل، والطفل الذى يحاول أن يتكيف يفاجـأ بأن هناك عقبات موضوعة فى طريقه، خاصة إذا نشأ هذا الطفل فى بيت مملـوء بالقسوة ومحكوم بوجهات النظر المتشائمة، والتى سرعان ما تنتقـل إلـى الطفـل نفسه.

تأثير وجود العقبات:

عندما نأخذ فى الاعتبار العقبات التى تواجه الطفل، فإنـه يجـب علينـا أن نفحصها من جميع جوانبها، ومن الطبيعى أن يكون رد فعل الطفل غيـر مناسـب دائما، فإن قدراته على التفكير لم تحصل بعد على الوقت الكافى لنموها وتطورها، ويجد الطفل أنه من الضرورى عليه أن يمتثل لقوانين الواقع التى لا يمكن تغييرها، بينما تكون قدرته على التكيف لم تنضج بعد. إن الحياة بالنسبة له ما هى إلا تجربة

طويلة، وخلف كل رد فعل خاطئ سلسلة كاملة من المحاولات التى قامت بها نفسيته فى محاولة للاستجابة بطريقة سليمة والتقدم فى الحياة.

وأحد أهم هذه التعبيرات لنمط السلوك هو رد فعل المراهق لأى موقف يواجهه، فإن طريقة وأسلوب الاستجابة يعطياننا فكرة دقيقة ونظرة إلى أعماق النفس Psyche.

وفى الوقت نفسه فإنه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن رد فعل الفرد (استجابته) لا يجوز الحكم عليه طبقًا لمعايير ثابتة.

إن العقبات التى تواجه الطفل – خلال نمو وتطور نفسيته – ينتج عنها تحجيم أو تشويه لشعوره الاجتماعى، ويمكن تقسيم هذه العقبات إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: العقبات التى تنتج عن عيوب فى البيئة المادية المحيطة بالطفل، مثل وجود علاقات غير طبيعية من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو العنصرية (تمييز عنصري) أو ظروف العائلة.

القسم الثانى: تلك العقبات التى تنتج عن وجود الإعاقة الجسدية، فحيث إن حضارتنا تعتمد على اللياقة النفسية والصحية، فإن الطفل الذى يعانى من إعاقة جسدية خطيرة يكون فى موقف لا يسمح له بمواجهة وحل مشكلات الحياة بكفاءة ومما سبق فإن كل طفل تعلم المشى متأخرًا، أو يعانى من أى صعوبات حركية، أو الذى لا يتعلم الكلام بسرعة كافية، أو تظل حركاته خرقاء لمدة زمنية طويلة أكثر من المعتاد بسبب أن وظائف المخ لم تتطور بالسرعة الكافية، ينتمى إلى هذا القسم الثانى.

وكل واحد منا عرف بعض الأطفال الذين يعانون من هذا الخرق، والذين يصطدمون بكل من حولهم، ويعانون من بطء الفهم، ويحملون على أكتافهم عبء المعاناة العقلية والجسدية، ويحصلون على القليل جدا من الشفقة من عالم لم يفكر كثيرًا فى حاجاتهم الحقيقية، والكثير من المشاكل يمكن أن ينتج عن هذا، وبالطبع فهناك احتمال أنه بمرور الوقت يمكن لمثل هؤلاء الأطفال أن يتغلبوا على إعاقاتهم الجسدية بأنفسهم وبدون أن تخلف من ورائها أى أضرار نفسية، ويحدث هذا إذا كانت الصعوبات لم تتسبب فى انسحاب وتقوقع الطفل وشعوره باليأس، وتردد

أصداء هذه المشاعر فى مراحل مستقبلية من عمره، كما أن الحالة الاقتصادية السيئة يمكن أن تزيد من تعقيد هذا الوضع.

إن قوانين المجتمع البشرى تمثل لغزًا عسير الحل بالنسبة للطفل الذى لم يتم إعداده بالطريقة المناسبة لاحتلال مكانه فى المجتمع، وسنجد أن الطفل ينظر إلى الفرص التى تعرض له بكثير من الشك وعدم الثقة، وهو يميل إلى العزلة وتجنب المهام الملقاة على عاتقه. إن مثل هذا الطفل حساس جدا ويشعر بأن الحياة عدائية، وبدون إدراك يبالغ فى هذا الشعور، ويكون مهتما أكثر بكل ما هو بائس ومرير أكثر من اهتمامه بالأشياء المبهجة فى الحياة، وغالبًا ما يعطى كلا الجانبين أكثر مما يستحقانه من الاهتمام، وبهذا يمكنه اتخاذ وضع الاستعداد الدائم للقتال، ويتمسك بهذا الموقف Attitude طوال الحياة. إن مثل هذا الطفل يطالب بقدر كبير جدا من الاهتمام، وهذا لأنه يفكر فى نفسه أكثر بكثير من تفكيره فى الآخرين، وهو يرى أن الواجبات التى تفرضها عليه الحياة كصعوبات، لا كعامل مثير ومحفز لبذل المزيد من الجهد، وسرعان ما تبدأ الفجوة – بينه وبين البيئة المحيطة – فى الظهور، ويتزايد حجم هذه الفجوة بسبب عداوته للآخرين، وبعدها يبدأ فى معالجة كل خبرة وفى الاقتراب منها بحرص مبالغ فيه، وهذا يجعل التباعد بينه وبين الحياة الحقيقية يزداد، وتزداد غربته الداخلية، وهذا يجعل الفشل مصيره لأنه لا ينجح إلا فى خلق صعوبات جديدة لنفسه.

وهناك صعوبات مشابهة يمكن أن تظهر عندما يختفى الحنان والرقة من جو العائلة، وعندما يفشل الوالدان فى إظهار القدر المناسب منه تجاه الأطفال، وهناك نتائج خطيرة جدا ومعوقة لنمو وتطور الأطفال تنتج عن الفشل فى إظهار الحنان الكافى لهم، لأن موقف الطفل His attitude يصبح متقوقعًا، فهو كالجندى الذى انسحب إلى خندقه وتحصن فيه، فى محاولة يائسة للدفاع عن نفسه (التخندق)، وهذا التخندق يجعل الطفل غير قادر على الشعور بالحب أو التعرف عليه عندما يراه؛ لأنه لم يوجد من يساعد غرائزه على النمو والتطور والإحساس بالحنان والرقة.

وسيكون دائمًا من الصعب تعليم أى طفل نشأ فى بيئة خالية من الحب والحنان، ولا يعبر أعضاؤها عما بداخلهم – التعبير عن مشاعره أو عن أى نوع من أنواع الحنان، وسيكون موقفه His attitude من الحياة هو موقف "التهرب"، وسيحاول دائما تجنب جميع أنواع الحب والتعاطف.

ويمكن أن نحصل على النتيجة نفسها من الوالدين، أو المدرسين، أو البالغين الذين يقومون بتعليم الأطفال عندما يتصرفون بلا تفكير، ويعلمون الأطفال أن الحب والحنان هي أشياء غير لائقة، أو سخيفة، أو لا تليق بالرجل، أو غيرها من الخرافات، وعلى سبيل المثال فإن الكثير من الأطفال يتم تعليمهم أن التعامل بلطف مع الآخرين هو نوع من الضعف.

ويظهر هذا الموقف التهربى Escapist attitude بوضوح فى الأطفال الذين تعرضوا لكثير من النقد اللاذع والسخرية والتسخيف لآرائهم، فإن مثل هؤلاء الأطفال يصبحون فى أشد الخوف من إظهار عواطفهم وحقيقة مشاعرهم؛ لأنهم يخافون من أن رغبتهم فى إظهار الحب والحنان نحو الآخرين، ستقابل بالسخرية والتسخيف أيضًا، ولهذا نجدهم فى حرب مع كل مظاهر الحنان العادية؛ لأنهم يظنون أنها أداة يستخدمها الآخرون لإذلالهم وتحقيرهم.

وبهذه الطريقة فإن العوائق والحواجز تنشأ فى طريق تطوير قدراتنا على الحب فى خلال المراحل المبكرة من الطفولة، وبعد مرور مرحلة تعليمية قاسية يتم فيها كبت كل مشاعر الحنان والقضاء عليها، فإن الطفل يبتعد عن دائرة بيئته، ويفقد بالتدريج الصلات التى تمثل أهم شىء بالنسبة له من الناحية النفسية والروحية.

أحيانًا يحاول أحد الأشخاص الموجودين فى بيئة الطفل التقرب منه، وعندما يحدث هذا، فإن الطفل يشكل علاقة قوية وعميقة مع هذا الشخص، وهذا يفسر وجود الفرد الذى كان من المستحيل علينا أن نعمل على زيادة علاقاته وجعلها تتضمن أكثر من شخص واحد، ولعلنا مازلنا نتذكر المثال السابق الذى شعر فيه الصبى الصغير بأنه مهمل ووحيد عندما اهتمت الأم بالأخ الأصغر، ولهذا فإنه قضى البقية الباقية من حياته يتعجب ما إذا كان هو المفضل أم لا؟ ويبحث عن الدفء والعطف الذى افتقده فى مرحلة مبكرة جدا من حياته، فإن هذا المثال يظهر المشاكل التى يمر بها مثل هذا الشخص فى الحياة، ومن الواضح أن نمو وتطور مثل هذا الشخص يكون مصحوبًا بالمشاكل وممتلئًا بالصعوبات.

ودعنا الآن نعالج المشكلة العكسية، فإن التربية التى تحتوى على قدر زائد جدا من الحنان والرقة تكون ضارة بالقدر نفسه، فإن الطفل الذى تعرض للتدليل

الزائد عن الحد - مثله مثل الطفل الذى عانى من تربية خالية تمامًا من الحب والحنان - يعانى هو أيضًا تحت عبء الكثير من المشاكل، فإن الطفل المدلل ينمو ويتطور فى بيئة غير طبيعية، ومن ثم تكون له شهية لا يمكن إشباعها، واشتياق دائم لمزيد من التعاطف، وينتج عن هذا أن الطفل المدلل يرتبط بأحد الأشخاص ويرفض رفضًا تاما التخلى عنه، وتزداد قيمة العطف وتصبح بارزة جدا فى حياة هذا الفرد من خلال الخبرات التى مر بها - والتى أساء فهمها - ويستنتج الفرد أن الحب المتبادل بينه وبين الآخرين يفرض عليهم مسئوليات محددة، ودعنا نقدم المثال التالى كتوضيح للطريقة التى يفكر بها هذا الفرد، فإنه يقول:

"لأننى أحبك، فإنه من الواجب عليك أن تفعل هذا، وأن لا تفعل ذاك".

وهذا المبدأ شائع بين أفراد العائلة الواحدة، وعندما يلاحظ الطفل وجود درجة من الميل لقبول هذه المسئوليات المحددة من الآخرين، فإنه يزيد فى مظاهر الحب والعطف، وهذا يزيد من اعتماده على الآخرين.

علينا أن نكون دائمًا على حذر من أمثال هذا الارتباط المبالغ فيه، ومن الحنان الزائد عن الحد تجاه أحد أفراد الأسرة على وجه الخصوص، فلا يوجد أى شك فى أن مثل هذه التربية لها تأثيرات سيئة وضارة على مستقبل هذا الطفل، لأن حياة مثل هذا الطفل تصبح صراعًا مستمرا من أجل الحفاظ على تعاطف وحب الآخرين بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

ولتحقيق هذا الهدف - الحفاظ على تعاطف وحب الآخرين - فإن الطفل لا يتردد فى استخدام أى وسيلة أيا كانت، فإنه قد يحاول إخضاع إخوته أو أخواته والسيطرة عليهم، أو يخترع القصص الكاذبة والملفقة عنهم. إن مثل هذا الطفل سيحاول أن يجر إخوته إلى المتاعب، وسيدفعهم دفعًا نحو السلوك غير القويم حتى يتمكن من أن ينفرد وحده بحب وعطف الأبوين، كما أنه سيقوم بالضغط على الأبوين - من الناحية الاجتماعية - من أجل تركيز اهتمامهما عليه، وسيفعل كل ما بوسعه حتى يحتل دائرة الضوء بأكملها، وبذلك يظهر نفسه بمظهر من هو أكثر أهمية من الجميع، وربما يصبح هذا الطفل كسولاً، أو يسيء التصرف والسلوك عن عمد وبغرض إجبار الأبوين على إعطائه المزيد من وقتهما، أو قد يصبح مثاليا حتى يكافئه الجميع بإعطائه المزيد من الاهتمام.

إذا كانت هناك غاية، فإن الطفل سيجد ما يستخدمه كوسيلة لتحقيق هذه الغاية، ويمكننا أن نستنتج أنه عندما يصبح هناك نمط نفسى ثابت، فإن الطفل يمكن أن ينمو ويتطور فى اتجاه غير اجتماعى حتى يتمكن من تحقيق هدفه، أو يصبح حسن السلوك وموضع إعجاب الجميع بغرض تحقيق الهدف السابق نفسه، وفى أى مجموعة من الأطفال، فإننا سنجد من يبحث عن الاهتمام من خلال السلوك الجامح الهمجى، وسنجد - أيضًا - من يبحث عنه من خلال السلوك السياسى الملتوى (الداهية) ودون أن يغضب أى شخص (من تحت لتحت).

يجب أن نضم مجموعة الأطفال الذين تم إزالة كل العقبات من طريقهم وتذليل كل الصعوبات أمامهم إلى مجموعة الأطفال المدللين، فإن قدرات مثل هذا الطفل - الحاضرة والمستقبلية - قد تم تحجيمها وعدم السماح لها بالنمو والتطور من خلال كل التسهيلات التى قدمت إليه، فإن مثل هذا الطفل لم يعط أبدًا الفرصة لتحمل مسئولياته الشخصية، وتم حرمانه من كل فرصة أتيحت له للاستعداد لحياة البالغين، فإن مثل هذا الطفل لم يجد من يعلمه كيفية إقامة علاقات مع الأفراد الذين يرغبون بحق فى معرفته والتعاون معه، كما أنه يكون - بالتأكيد - غير قادر على إقامة علاقات مع الأفراد الذين لا يرغبون فى أى اتصال بشرى أيضًا. إن مثل هذا الطفل يكون غير مستعد على الإطلاق لمواجهة الحياة؛ لأنه لم يحصل أبدًا على الفرصة لكى يتمرن على التغلب على مشكلات الحياة، وبالتالى فإنه عندما يخرج من العش الدافئ والذى يعد أشبه ما يكون بمملكة صغيرة هو فيها الملك المتوج، فإنه سيعانى من الهزائم المريرة المتكررة وخيبة الأمل، وهذا لأنه لن يجد من يعطيه هذا القدر من الاعتبار والتسهيلات والعناية المغالى فيها والحماية التى اعتادها - وتوقعها دائمًا كحق من حقوقه - خلال نشأته الأولى.

إن كل هذه الأنواع من المشاكل تشترك فيما بينها فى أنها تميل إلى "عزل" الطفل، وعلى سبيل المثال: فإن الطفل الذى يعانى من متاعب فى الهضم، يتخذ موقفًا خاصا من الطعام، وكنتيجة لهذا فإنه يمر من خلال مجموعة مختلفة - من مراحل النمو والتطور - تمام الاختلاف عن الطفل الطبيعى الذى لا يعانى من متاعب فى الهضم، والطفل الذى يعانى من عيب فى أحد أعضائه هو أيضًا له أسلوب حياة Life style يختلف عن الآخرين، وقد يقوده إلى حياة العزلة أيضًا، هناك أيضًا تلك المجموعة من الأطفال التى لا تفهم حقيقة وضعها فى المجتمع وفى

البيئة المحيطة بهم ككل، ولهذا فإنهم يسعون إلى تجنب الجميع، فلا يكون لهم أى أصدقاء، ويقفون بعيدًا عندما يبدأ رفقاؤهم فى اللعب، وتسودهم مشاعر الغيرة والحقد، أو الكراهية الشديدة لهذه النشاطات (اللعب) ويحاولون شغل أنفسهم فى عالم خاص بهم فقط.

إن "العزلة" تهدد أيضًا الطفل الذى نشأ تحت ضغط تربية صارمة ومتزمتة، فبالنسبة له فإن العالم مكان غير مألوف وعدائى، وهو يتوقع أن تحدث له فى هذا العالم أحداث سيئة، وهو يفترض أن عليه أن يعانى فى صمت، أو يشعر أن عليه – دائمًا – أن يقاتل كل من حوله فى البيئة العدائية المحيطة به. إن مثل هذا الطفل يشعر بأن الحياة والمهام الملقاة على عاتقه صعبة بطريقة مبالغ فيها، ولهذا فإنه سيشغل نفسه بالدفاع اليائس عن مكانته، وسيحاول أن يتجنب – بكل الطرق – أى غزو لحدود منطقته الخاصة، وسيمثل الحرص المبالغ فيه ثقلاً لن يستطيع تحمله حتى إنه سيحاول تجنب كل المشكلات الأساسية فى الحياة بدلاً من مواجهتها فى شجاعة والتعرض لاحتمال الهزيمة.

وهناك صفة أخرى مشتركة بين هؤلاء الأطفال، وهذه الصفة تدل بوضوح على نمو وتطور شعور الطفل الاجتماعى بطريقة غير مناسبة، وهذه الصفة هى: أن الطفل يفكر فى نفسه أكثر مما يفكر فى الآخرين، وما يعنيه هذا من تبنيه لوجهات النظر المتشائمة، ولهذا يكون من المستحيل عليه أن يحيا حياة سعيد، إلا إذا وجد طريقة لتغيير نمط سلوكه الزائف.

الفرد ككائن اجتماعى:

لقد شرحنا فى الفصل الثانى كيف أن شخصية الفرد لا يمكن فهمها إلا عندما تكون فى بيئتها الاجتماعية فقط، وعندها يمكننا أن نقيم موقف هذا الفرد ووضعه فى العالم، وكلمة "وضع" هنا تعنى "مكان" الفرد بين الأشياء المختلفة وموقفه Attitude تجاه البيئة المحيطة به ومشكلات الحياة الثلاث (العمل، والعلاقة مع باقى أفراد المجتمع، والزواج)، وبهذه الطريقة نستطيع أن نحدد الانطباعات التى يأخذها كل فرد منذ لحظة مولده، وكيف تؤثر على موقفه خلال الحياة، بل إننا نستطيع أن نحدد وضع الطفل وموقفه من الحياة بعد الشهور الأولى من الميلاد. إنه

من المستحيل الخلط بين سلوك اثنين من الأطفال الرضع بعد مرور هـذه الفتـرة؛ لأنهما يظهران سلوكًا مختلفًا تمامًا فى نمطه، وتزداد هذه الفروق بين النمطين مـع النمو، ويكون اختلاف وخروج الفرد عن هذا النمط هو أمر غير وارد أبدًا.

إن عقلية الطفل متشبعة – وبطريقة تتزايد باستمرار – بعلاقته الاجتماعية. إن أولى الدلائل لوجود شعور اجتماعى فطرى (مورث) تتكشف عندما يبدأ الطفـل محاولاته الأولى للبحث عن التعاطف والحنان، وتقود هذه المحاولات الطفـل إلـى محاولة التقرب من البالغين. إن حب الطفل يكون موجها دائما نحـو الآخـرين – وليس كما قال فرويد الذى ادعى أن حب الطفل يكون موجها نحو جسده – وهـذا السعى الشهوانى يختلف فى شدته من فرد لآخر، كما أنه يكون هناك اختلاف فـى الطريقة التى يعبر بها كل فرد عن مشاعره، فعلى سبيل المثال إذا كان الطفل قـد تخطى العامين من العمر، فإن هذه الاختلافات تبدأ بالظهور فى طريقة حديثه.

ولا يمكن للطفل أن يفقد شعوره الاجتماعى إلا تحت ضغط أقصى الظروف النفسية، لأن هذا الشعور الاجتماعى يكون قد رسـخ داخلـه بشـدة. إن الشـعور الاجتماعى يبقى ويستمر معنا طوال الحياة، ولكنه يتعرض للتغيير وإعادة التشكيل، والتطويق فى بعض الحالات، بينما يتعرض للتكبير وللتوسيع فى حالات أخـرى، حتى إنه قد يشمل الإنسانية كلها، لا فقط أعضاء الأسرة وأصدقاءها ومعارفها، بل إنه قد يصل فى بعض الحالات إلى تجاوز الإنسانية ذاتها، ويمتد ليشمل الحيوانات والنباتات والجماد، ومن خلال الدراسات التى قمنا بها، فإنه مـن الضـرورى أن نتعامل مع الفرد ككائن اجتماعى، وإذا فهمنا هذه الحقيقة حق الفهم، فإننا سنكون قد اكتسبنا وسيلة مهمة جدا لفهم السلوك البشرى.

العالم الذى نعيش فيه

نطاق عالمنا العقلى:

إن كل البشر يجب أن يتكيفوا مع البيئة المحيطة بهم، وعلى هذا فإن نفسية الفرد His Psyche تكون قادرة على استقبال واستيعاب انطباعات كثيرة ومتعددة من العالم الخارجى، وبالإضافة إلى هذا فإن النفس Psyche تسعى خلف هدف محدد طبقا لفهمها للعالم المحيط بها وطبقا لنمط سلوكى مثالى يعود إلى مرحلة الطفولة المبكرة، وبالرغم من أننا لا نستطيع أن نحدد هذا الفهم أو هذا الهدف بدقة، فإننا نستطيع أن نصفه على أنه هالة دائمة الوجود، وتتباين دائما مع الشعور بالنقص (أى أن هذا الفهم - والهدف المتعلق به - يظهر بوضوح عندما نقارنه بالمشاعر الشخصية بالنقص).

إن النمو والتطور النفسى لا يحدث إلا عندما يكون هناك هدف شخصى، ونحن نعلم أن بناء الهدف يفترض وجود القدرة على التغيير، كما أنه يفترض وجود قدر من حرية الحركة. إن المرء يشعر بثراء روحى ناتج عن حرية الحركة، ولا يجوز التقليل أبدا من قيمة هذا الثراء الروحى.

عندما يقف الطفل لأول مرة - بدون أى مساعدة من أحد - فإنه يدخل إلى عالم جديد تماما عليه، وفى هذه اللحظة نفسها فإنه يشعر بأن الجو المحيط به عدائى، عندما يبدأ الطفل فى محاولاته الأولى للحركة، وخاصة عندما يحاول أن ينهض على قدميه ويتعلم المشى، فإنه يواجه مشكلات مختلفة فى صعوباتها، وهذه المشكلات إما أن تقوى أمله فى المستقبل وإما تحطمه، والانطباعات التى يعتبرها الفرد الراشد عادية أو غير مهمة يمكن أن يكون لها أكبر التأثير على نفسية الطفل، ويمكنها أن تشكل وجهة نظره وتصوره عن العالم الذى يعيش فيه.

إن الطفل الذى عانى من صعوبات فى الحركة يبنى لنفسه نموذجًا مثاليا متشبعًا بالقوة وسرعة الحركة، ويمكننا اكتشاف هذا النموذج المثالى إذا سألنا هذا

الطفل عن اللعبة المفضلة له، أو ما الذى يحب أن يشتغل به عندما يكبر؟ إن مثل هذا الطفل يجيبنا بأنه يرغب فى أن يكون سائق سيارات سباق، أو سائق قطار...إلخ، وهو بهذه الإجابات يظهر رغبته بوضوح فى التغلب على كل الصعوبات التى تعوق حريته فى الحركة. إن هدفه فى الحياة هو أن يصل إلى مرحلة يمكنه فيها التخلص من شعوره بالنقص ومن إحساسه بالعجز، وأن يحل محلها شعور بالقدرة على الحركة الحرة التامة. إنه من الواضح أن هذا الإحساس بالعجز قد نشأ أصلا فى نفسية الطفل الذى عانى من بطء فى نموه وتطوره أو الذى عانى كثيرًا من الأمراض المتعاقبة.

وبالمثل فإن الطفل الذى خرج إلى العالم بقوة إبصار ضعيفة جدا يحاول أن يترجم العالم كله إلى صور بصرية أكثر تركيزا مما هى عليه فى الواقع، والطفل الذى يعانى من عيوب سمعية يظهر اهتماما حادا ببعض الأصوات التى يجدها مثيرة للبهجة، وباختصار فإنه يصبح مهتما بالموسيقى.

إن الحواس الخمس تلعب أكبر الأدوار وأكثرها أهمية فى تحديد علاقات الطفل الأساسية بالعالم الذى يعيش فيه، فإن الطفل ينشأ ويكون صورة العالم المحيط به من خلال هذه الحواس الخمس، وأهم هذه الحواس هى حاسة الإبصار، فإن العين هى التى نواجه بها البيئة المحيطة. إن العالم المرئى هو الذى يفرض نفسه على اهتمامات كل البشر، وهو الذى يغذيهم بكل المعطيات الأساسية (المعلومات) الموجودة فى الخبرات التى تمر بهم، والصورة البصرية للعالم الذى نعيش فيه تكون شديدة المعنوية لأنها تتعامل مع صور ثابتة لا تتغير، وهذه الصور تتباين بشدة مع باقى أعضاء الحس الخمسة (الأذن والأنف واللسان والجلد) والتى هى حساسة فقط نحو المثيرات المؤقتة،(*) ولكن هناك أفرادًا تكون الأذن بالنسبة لهم عضوا مسيطرا ومهيمنا، وعلى هذا تكون هناك كميات هائلة من المعلومات التى بنيت على أساس معطيات صوتية، وفى هذه الحالة فإنه يمكن أن نقول إن النفس Psyche لها نمط سمعى.

وأحيانا نجد أفرادا لديهم اهتمام حاد بالمثيرات المتعلقة بالتذوق، وأحيانا نجد أفرادا لديهم النشاطات الحركية هى المهيمنة والمسيطرة، وهناك نوع آخر يتصف

(*) آدلر يقصد هنا أن أعضاء الحس الأربعة الأخرى (الأذن والأنف واللسان والجلد) لا تستقبل إلا المثيرات الموجودة بصفة مؤقتة. (المترجم)

باهتمام حاد بكل المثيرات المتعلقة بالشم، وهذه المجموعة من الأفراد تكون في موقف سيئ وغير موات في عالمنا المعاصر.

وهناك أيضًا عدد من الأطفال تلعب العضلات بالنسبة لهم دورًا بالغ الأهمية، ونجد أن هذه المجموعة تتميز بكثرة الحركة في مرحلة الطفولة، وكثرة النشاطات في مرحلة البلوغ. إن مثل هذا الفرد تتركز اهتماماته على كل النشاطات التي تلعب فيها العضلات الدور الرئيسي، ويظهر بوضوح نشاطه حتى خلال النوم، فإن من يراقبه وهو نائم يلاحظ أنه لا يتوقف عن الحركة والتقلب في الفراش، ويجب علينا أن نصنف الطفل الكثير التململ Fidgety ضمن المجموعة السابقة.

وعلى وجه العموم فإنه يمكننا القول إن كل طفل – تقريبًا – يتقرب من العالم من خلال اهتمام كبير بإحدى حواسه الخمس – أو بمجموعة محددة من هذه الحواس – وبتركيز شديد عليها سواء كانت أحد أعضاء الحس أو العضلات.

إن كل طفل يرسم صورة العالم الذي يعيش فيه من خلال الانطباعات التي وصلته عن طريق أكثر أعضائه حساسية، ونتيجة لهذا فإنه يمكننا فهم الفرد عندما نعرف ما هو العضو الحسي – أو مجموعة من الأعضاء الحسية – الذي استخدمه الفرد في التعرف على العالم المحيط به، وهذا لأن كل علاقات هذا الفرد تكون متأثرة بهذه الحقيقة، ولا يمكننا فهم أفعاله وردود أفعاله إلا إذا فهمنا أولا تأثير عيوب هذا العضو الحسي على موقفه His attitude تجاه الآخرين والعالم كله خلال مرحلة طفولته، وبالتالي تأثيره على نموه وتطوره في المستقبل.

الطريقة التي نرى بها العالم

حيث إن الهدف النفسي يكون حاضرا دائما، فإنه هو الذي يحدد كل نشاطات الفرد وهو أيضًا الذي يؤثر على اختياراته وحجم هذه النشاطات وشدتها، كما أنه يؤثر على الوظائف النفسية التي تضفي الشكل والمعنى على الصورة التي تم تكوينها عن العالم، وهذا يفسر الحقيقة القائلة بأن كلا منا له تجاربه الشديدة الخصوصية والتي تمثل جزءًا محددًا من الحياة، فإن كل واحد منا يتجاهل الصورة

الكاملة، ويعطى قيمة – فقط – لكل ما يناسبه وما يناسب تحقيق هدفه، وهكذا فإنه لن يمكننا فهم سلوك أى فرد، إلا إذا فهمنا بوضوح الهدف السرى الخفى الذى يسعى إليه، كما أنه لا يمكننا أن نقيم جميع جوانب سلوكه حتى نعرف كيف تأثرت نشاطات هذا الفرد بهذا الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه.

١ – القدرة على الفهم:

إن الانطباعات والمثيرات التى تأتى إلينا من العالم الخارجى تنتقل عبر الأعضاء الحسية إلى المخ، وهناك يحتفظ المخ ببعض آثار منها، هذه الآثار هى التى تشكل الأساس لعالم الخيال والأساس لعالم الذاكرة، ولكنه لا يمكن المقارنة بين الصور الفوتوغرافية وبين صور الفهم، وهذا لأن هناك عنصرا وجزءا من شخصية الفرد مرتبطان بها ارتباطا لا ينفصل، فإن الفرد لا يتفهم كل ما يراه، وإذا عرضت الصورة نفسها على مجموعة من الأفراد، فإن كل واحد منهم سيختلف فى رد فعله عن الآخر، وعندما تسأل كلا منهم عما رآه، فإن إجابة كل فرد ستختلف.

إن الطفل لا يتفهم العناصر الموجودة فى بيئته إلا إذا كانت تتفق مع أحد الأنماط السلوكية المحددة مسبقًا والمعروفة بالنسبة له. إن فهم الطفل الذى يتمتع بحاسة بصرية جيدة جدا، وبهذا تكون له غالبا "شخصية بصرية"، ومعظم البشر من هذا النوع، ولكن هناك آخرين يعمل الواحد منهم على تكوين صورة العالم – الخاصة به – من خلال أشياء يتفهمونها عن طريق السمع، وهذا الفهم لا يكون بالضرورة مطابقًا للواقع، فإن كل واحد منا يكون قادرًا على إعادة تشكيل وتنظيم صلاته بالعالم الخارجى حتى تتناسب مع نمط حياته. إن فردية الإنسان تظهر بوضوح فى الأشياء التى يتفهمها وفى الطريقة التى يتفهمها بها، فإن "الفهم" أكثر من ظاهرة جسدية بسيطة، فهو وظيفة نفسية، ومن خلال هذه الوظيفة يمكننا أن نصل إلى استنتاجات عميقة متعلقة بحياة الفرد الداخلية.

٢ – الذاكرة:

كما رأينا فى الفصل الأول فإن نمو وتطور النفس Psyche مرتبط ارتباطًا شديدًا بقدرة الأعضاء البشرية على الحركة، ونشاطات النفس Psyche تحدد

بواسطة الهدف والغرض من هذه القدرة على الحركة، ومن الضرورى للفرد أن ينظم علاقاته بالعالم الذى يعيش فيه، ونفسيته His Psyche - كعضو من أعضاء التكيف - يجب أن تعمل على تطوير كل "القدرات" التى تلعب دورًا فى الدفاع عن الفرد واستمرار وجوده، و"الذاكرة" هى أحد هذه القدرات، وضرورة التكيف تسيطر على كل وظائف الذاكرة.

سيكون الكثير من الأشياء مستحيلاً بدون الذاكرة والذكريات التى تحتفظ بها، وعلى سبيل المثال: فإننا سنعجز عن تجنب مصادر الخطر إذا لم نحتفظ فى الذاكرة بماهية هذه المصادر وكيفية تجنبها، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن جميع الذكريات لها هدف فى اللاوعى (العقل الباطن)، وأن الذكريات ليست ظاهرة اعتباطية، ولكنها تعطى رسالة واضحة للتشجيع، أو التحذير، فلا توجد هنا ذكريات بطريقة عشوائية، أو بدون معنى، فإن الذاكرة مثلها مثل الذواقة تختار بعناية شديدة ما تخرجه من اللاوعى، ولا يمكننا تقدير الذكريات إلا عندما نصبح متأكدين من الهدف الذى تخدمه هذه الذكريات.

إنه من غير الضرورى أن نتساءل عن "السبب" الذى نتذكر من أجله أشياء بعينها وننسى غيرها من الأشياء، فإن الفرد يتذكر الأحداث التى تكون ذكرياتها مهمة لسبب نفسى معين لأن هذه الذكريات تحمل أهمية غير ظاهرة، وبالمثل فإننا ننسى كل الأحداث التى لا تحمل مثل هذه الأهمية، وهكذا فإننا نجد أن الذاكرة تكون خاضعة - أيضا - لهذا التكيف من أجل تحقيق الهدف Purposive adaptation، وأن كل ذكرى من الذكريات الموجودة فى الذاكرة تكون تحت سيطرة "الهدف" الذى يوجه الشخصية ككل، وأن الذكرى التى تدوم قد تخرج من العقل الواعى وتظهر على شكل اتجاه Attitude، أو مزاج عاطفى، أو وجهة نظر فلسفية، طبقًا لاحتياجات الفرد، وما يلزمه للوصول إلى هدفه.

٣ - الخيال:

لا يوجد أبدًا ما يشبه خيال الفرد، فإن نتائج خيال الفرد هى التى تظهر تفرده بشكل واضح واختلافه عن غيره من الأفراد، وعندما نستخدم كلمة "خيال" فإننا نعنى بها قدرة الفرد على الإدراك الحسى، وهذه القدرة تكون مستقلة عن

وجود (أو عدم وجود) المادة المسببة لهذا الإدراك الحسى، وهذا يعنى أن الخيال ينتج الإدراك الحسى، وهو ليس إلا مثالاً آخر للقوى الخلاقة للنفس Psyche، وباختصار فإن ما ينتجه الخيال ليس فقط تكرارًا للإدراكات الحسية التى حدثت فى الماضى، بل هو إنتاج جديد تمامًا وفريد من نوعه، وكما كانت "المدركات الحسية الأصلية" - إدراكات الماضى الحسية - مبنية على أساس إحساسات جسدية، فإن هذا الإنتاج الجديد يكون - أيضًا - مبنيا على الأساس نفسه.

إن هناك " أحلامًا جامحة Fantasies " تتجاوز فى قوتها وحدتها وتركيزها الخيال العادى، ومثل هذه الرؤى Visions (يعنى الأحلام الجامحة) التى تبدو شديدة القرب فى مظهرها من المظاهر الطبيعية للأشياء الحقيقية حتى إنها تتجاوز وتتفوق على الأحلام الجامحة - العادية - وتستطيع التأثير على سلوك الفرد كما لو كانت أحد المثيرات المادية الموجودة فعلاً فى الواقع Real objective stimulus، وعندما تتحول الرؤيا وتتخذ - فى ذهن الفرد - بعض سمات الواقع فإننا نسميها هذيانًا Hallucinations .

وهناك بعض الشروط التى لابد من توافرها لحدوث الهذيان، وهذه الشروط لا تختلف عن الشروط التى تحدد أحلام اليقظة. إن كل هذيان ما هو إلا "عمل فنى" قامت بخلقه النفس Psyche The، وقد صممته النفس طبقًا للأغراض والهدف الخاص بهذا الفرد ودعنا نوضح ما سبق بمثال:

هى امرأة شابة شديدة الذكاء، تزوجت ضد رغبة أهلها وضد نصيحة الأب والأم، فكان الوالدان غاضبين بشدة على قرارها حتى إنهما قطعا كل العلاقات التى بينهم، وبمرور الوقت أصبحت المرأة الشابة مقتنعة بأن والديها قد أساءا معاملتها، وقد فشلت كل المحاولات التى بذلت لرأب الصدع بينهم، وكنتيجة لهذا الزواج.

فإن هذه المرأة - والتى كانت تنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية الغنية جدا - أصبحت تعانى من الفقر، وبالرغم من هذه الظروف الاقتصادية السيئة، فإن العلاقة الزوجية كانت ناجحة وسعيدة، وأصبح الجميع يعتقدون أن هذه المرأة قد تكيفت - مع الوضع الاقتصادى الجديد - بطريقة جيدة جدا، إلا أن ظاهرة غريبة بدأت فى الظهور فى حياتها.

إن هذه المرأة الشابة قد نشأت فى بيئة غنية جدا، وتم تدليلها بصورة مبالغ فيها خاصة من جانب الوالد، وكانت العلاقة بين الأب والابنة شديدة القوة حتى إن العلاقات السيئة الحالية بدت شديدة الغرابة، ولقد تسبب زواجها هذا فى أن الأب بدأ يعاملها بطريقة سيئة جدا، مما زاد فى اتساع الفجوة بينهما، وعندما أنجبت أول مولود، فإن الأب والأم لم يقوما بزيارتها هى وحفيدهما الجديد، وقد تسبب هذا فى أنها أصبحت ترفضهما كل الرفض، وخاصة أنها كانت مدفوعة بطموحها الكبير، وتسبب كل هذا فى قطيعة كاملة بدلاً من أن يتسبب فى رأب الصدع بينهما.

يجب علينا أن نلاحظ أن سلوك هذه المرأة الشابة كان تحت سيطرة طموحاتها، وهذه الخصائص الشخصية هى التى تعطينا القدرة على فهم الأسباب التى جعلت هذا الخلاف يؤثر عليها بمثل هذه الشدة.

إن الأم كانت شديدة الصرامة، وبالرغم من أنها كان لديها الكثير من الصفات الجيدة، فإنها كانت من النوع الذى يعتقد بأنها على صواب دائمًا، وقد تحكمت فى ابنتها بيد قوية طوال نشأتها، ورغم أنها كانت تتظاهر بالخضوع لزوجها أمام الجميع، فإنها لم تتخل أبدًا عن قبضتها الحديدية على كل من فى بيتها، وكانت تنظر إلى الخضوع الظاهرى لزوجها أمام الجميع على أنه واجب وشرف عليها أن تؤديه، أما أخوها فقد كان نسخة طبق الأصل من الأب والأم والوريث الوحيد لاسم العائلة، وقد جعل هذا الأب والأم يعطيان له قيمة أكبر من قيمة أخته، مما ساهم فى زيادة طموحاتها.

إن الصعوبات والفقر اللذين كانت تعانى منهما هذه المرأة الشابة فى زواجها - خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ظروف نشأتها الأولى - بدأت تجبرها على التفكير باستمرار، وزادت من غضبها ورفضها للمعاملة السيئة التى تلقتها من الأب والأم.

وفى إحدى الليالى قبل أن يغلبها النعاس رأت رؤيا، فقد تخيلت أن الباب قد فتح وأن "مريم العذراء" وقفت بجانب فراشها وقالت:

"أنا أحبك جدا، ولهذا يجب على أن أخبرك أنك سوف تموتين فى منتصف شهر ديسمبر، وأنا أريد منكِ أن تكونى على استعداد".

لم تكن هذه المرأة الشابة مرعوبة أو خائفة بسبب هذا الظهور، ولكنها أيقظت زوجها وأخبرته بهذه الرؤيا، وفى اليوم التالى ذهبت لزيارة طبيبها،

وأخبرته بهذا الهذيان، ولقد أصرت المرأة الشابة على أنها رأت وسمعت كل التفاصيل بوضوح شديد.

إن النظرة الأولى لهذه الأحداث تجعلها تبدو مستحيلة، ولكن إذا استخدمنا معلوماتنا ومعارفنا عن النفس Psyche، فإن كل شيء سيتضح، فهذا هو الموقف:

هناك امرأة شابة شديدة الطموح، وكما يتضح من تاريخ الحالة فإن لديها الميل نحو السيطرة على كل من حولها، ثم تتقطع الصلات بينها وبين والديها، وتجد نفسها فى موقف سيئ من الناحية الاقتصادية، ومن المفهوم أن الإنسان يحاول السيطرة على كل الأشياء المادية فى عالمه المحسوس، ولهذا فإنها تحاول أن تتقرب من الرب وأن يكون لها حوار معه، وإذا كانت رؤية العذراء مريم قد حدثت خلال الصلاة، لما جذبت هذه الرؤيا انتباه الكثيرين، ولكن هذه المرأة الشابة كانت فى حاجة إلى شيء أكثر قوة.

إن هذه الظاهرة تفقد غموضها عندما يفهم الفرد الحيل والخدع التى استخدمتها النفس The Psyche، لكن علينا أن نتذكر أن هناك - دائمًا - اختلافات بين الأفراد، وأن كل فرد آخر يحلم لن يكون فى وضع مشابه لهذا الوضع، وهناك اختلاف واحد فقط فهذه المرأة الشابة تستطيع أن تحلم وهى مستيقظة، ويجب أن نضيف أن شعورها بالاكتئاب قد مثل نوعًا من الضغط الزائد عليها، وفى هذا الهذيان فإن المرأة الشابة التى رُفضت من أمها ترى أما أخرى (العذراء مريم) تأتى إليها، وتخبرها بأنها تحبها، وهذه الأم (العذراء مريم) فى اعتقاد الكثيرين هى أعظم الأمهات على الإطلاق، وهكذا فإن التباين بين "أمها" و"العذراء مريم" يصبح شديد الوضوح، ويكون ظهور العذراء لها بسبب عدم ظهور أمها وعدم زيارتها لها خاصة بعد الوضع، وكانت هذه الرؤيا هى "الأداة" التى استخدمتها المرأة الشابة ضد أمها، وضد سلوكها المعيب وعدم محبتها لابنتها.

إن هذه المرأة الشابة كانت تحاول أن تجد طريقة لتثبت بها أن والديها مخطئان، وكان اختيار منتصف شهر ديسمبر ذا مغزى عميق، لأنه فى الكثير من الحضارات هو الوقت الذى يعيد فيه الناس النظر فى علاقاتهم بالآخرين، ويحاولون فيه التقرب من بعضهم البعض، وتبادل الهدايا.. إلخ، وفى مثل هذا الوقت تكون هناك إمكانية لعقد الصلح بين المتخاصمين، ومن هنا تأتى أهمية ومغزى اختيار المرأة الشابة لهذا الوقت من السنة بالذات.

ولكن هناك شيئًا غريبًا نوعًا ما فى هذا الهذيان السابق، وهو أن العذراء مريم عندما اقتربت منها بهذه الطريقة الودودة، فإنها أخبرتها بهذا النبأ الحزين (نبأ اقتراب وفاتها)، ولكن علينا أن نتذكر أن المرأة الشابة عندما أخبرت زوجها بتفاصيل الرؤيا، فإن صوتها كان ممتلئًا بالسعادة، وهذا له مغزاه الخاص، وسرعان ما انتشرت هذه النبوءة مثل انتشار النار فى الهشيم، وعرف بها كل أفراد العائلة، وبهذا كانت وسيلة أكيدة أجبرت والدتها على زيارتها بالفعل.

ولم تمض إلا بضعة أيام حتى زارتها مريم العذراء مرة أخرى، وأخبرتها الكلمات السابقة نفسها، وعندما سألنا المرأة الشابة عن المقابلة التى تمت بينها وبين أمها عندما زارتها، فإنها أجابت قائلة:

"إنها رفضت الاعتراف بأنها كانت مخطئة".

وهكذا فإن هذا كان هو سبب تكرار الرؤيا، فإن رغبتها فى السيطرة على أمها لم يتم إشباعها بعد، ومن ثم فإنه كان عليها أن تستخدم الرؤيا مرة أخرى.

فى الوقت نفسه حاول البعض أن يساعد الأب والأم على فهم حقيقة ما يجرى فى حياة ابنتهما، وكنتيجة لهذه المحاولة، تمت مقابلة ثانية بين المرأة الشابة وأبيها، وكانت هذه المقابلة أكثر نجاحًا، لأن المرأة استطاعت أن تستعيد حب والدها فى مشهد مؤثر، ولكنها لم تكتف بهذا النصر الجزئى لأنها قالت:

"لقد كان هناك شيء غريب فى تصرفات والدى. لقد شعرت بأنه غير صادق فى تصرفاته، كما أنه جعلنى أنتظره فى الخارج لفترة طويلة قبل أن يقابلنى".

حتى عندما أحرزت هذه المرأة النصر، فإنها لم تستطع أن تتخلص من الرغبة فى إثبات أن الآخرين كانوا على خطأ ومن الرغبة فى وضع نفسها فى دور المنتصر.

ومن هذا يمكننا أن نستنتج من المناقشة السابقة أن الهذيان يظهر فى اللحظة التى تحتاج فيها النفس Psyche إلى ما يريح الضغوط الشديدة الموضوعة عليها، وخاصة إذا كانت النفس Psyche فى ظروف تجعلها تخشى من أن لا تستطيع تحقيق هدفها فى "التفوق".

ولا شك أنه فى الماضى كان الهذيان له أكبر التأثير على الناس خاصة المتخلفين منهم.

وسنجد الكثير من الهذيان فى كتابات الكثيرين من الرحالة والمكتشفين المشهورين، ومن الواضح أن الضغوط الشديدة الموضوعة على النفس Psyche – خاصة عندما تكون الحياة مهددة – تمثل الحافز الذى يثير الخيال ويدفعه إلى الهرب من الحقائق الظالمة المحيطة به فى الحاضر، ومن ناحية أخرى فإن الهذيان يلعب دور الدواء المخدر الذى يذهب بالآلام والمخاوف.

إن الهذيان ليس بالأمر الجديد بالنسبة لنا، فلقد رأينا ظواهر مماثلة للهذيان من قبل، خاصة فى الآلية التى تستخدمها الذاكرة وفى الخيال، وسنرى ما يماثل هذا مرة أخرى عندما نبدأ فى دراسة الأحلام، ومن السهل الحصول على الهذيان، فإن كل ما علينا هو التأكيد على دور الخيال وإبرازه، وأن نعطل وظائفنا الحيوية Critical faculties، وتحت ضغوط الضرورة أو فى ظروف الخطر، وتحت ضغط وضع من الأوضاع التى تهدد الحياة، فإننا قد نسعى للتخلص من مشاعر الضعف، وللتغلب عليها باستخدام الآلية السابقة، وكلما تزايد حجم الضغوط كلما قل استخدامنا لوظائفنا الحيوية Critical faculties، وتحت ضغط مثل هذه الظروف وباستخدام شعار "إنقاذ ما يمكن إنقاذه"، فإنه يمكن لأى شخص – يستخدم كل ما يملكه من طاقات ذهنية – أن يُجبر خياله على أن يعرض نفسه ويظهرها فى صورة "هذيان".

إن الخداع البصرى Illusion شديد الشبه بالهذيان، والاختلاف الوحيد بينهما هو أن بعض نقاط الاتصال الخارجى تظل موجودة، ولكننا لا نفهمها على حقيقتها، فإن الوضع الحقيقى ومشاعر الضغط يكونان كما هما بلا أى اختلاف، وسأقوم هنا بوصف إحدى الحالات الحقيقية، والتى تظهر كيف أن القوة الخلاقة للعقل تستطيع أن تنتج إما خداعًا بصريا، أو هذيانًا طبقا لمقتضيات الوضع.

رجل من عائلة ممتازة، ولكنه لم يتمكن من تحقيق أى إنجازات بسبب مستواه التعليمى الضعيف، وبالتالى فإنه شغل وظيفة بسيطة ككاتب حسابات، وكان هذا الرجل قد يئس تمامًا من تحقيق النجاح، وانعكس يأسه هذا بشدة على نفسيته His psyche، وبالإضافة إلى هذا فإن الضغط قد تزايد عليه من خلال التوبيخ

الدائم الذى لقيه من المحيطين به، وتحت ضغط الظروف السابقة فإنه بدأ فى معاقرة الخمر، وقد أثبتت الخمور أنها أسلوب ناجح بطريقة مزدوجة، فإنها مكنته من أن ينسى كل مشاكله ومتاعبه، كما أنها أمدته بعذر يبرر به فشله الوظيفى، وبعد مرور فترة تم إحضاره إلى المستشفى وهو يعانى من حالة هذيان أو هتر ارتجافى Delirium tremens. إن هذه الحالة شديدة الشبه بالهذيان، وتظهر مثل هذه الحالة على الكثير من صغار الكائنات الحية مثل الفئران والحشرات والثعابين، وقد تحدث أنواع أخرى من الهذيان تكون متعلقة بطبيعة وظيفة المريض.

لقد وقع مريضنا بين أيدى أطباء. كانوا يكرهون بشدة الخمور ومن يستخدمها، وبالتالى فإنهم وضعوه على نظام علاجى متزمت، وبدا وكأنه قد شفى من إدمان الخمور، وبعد أن غادر المستشفى امتنع عن تناول الخمور لمدة ثلاث سنوات كاملة، ولكنه عاد إلى المستشفى مرة أخرى بشكوى جديدة هذه المرة، لقد أخبرنا المريض بأنه يرى – باستمرار – ذلك الرجل ذا الابتسامة الساخرة، وأن هذا الرجل يراقبه دائمًا خلال عمله، وقد بدأ الآن يعمل كعامل تراحيل بعد أن فقد وظيفته البسيطة ككاتب حسابات، وفى إحدى المرات استبد به الغضب فى إحدى نوبات الهتر الارتجافى التى تخيل فيها ذلك الرجل الذى يسخر منه، وقام بإلقاء مقعد فى اتجاه هذا الشبح ليرى ما إذا كان هذا الشيء حقيقيا أم أنه مجرد شبح لا وجود له، ولكن الشبح انحنى وتفادى القذيفة، ثم قام بمهاجمة مريضنا وضربه ضربًا مبرحًا، فى هذه الحالة نحن لا نتعامل مع شبح لأن ما تخيله مريضنا كان رجلاً حقيقيا، ومريضنا كان قد اعتاد على الهذيان، ولكنه عندما ألقى بقذيفته، فإنه وجهها نحو شخص حقيقى.

بالرغم من أن المريض – فى الحالة السابقة – قد تحرر من الرغبة فى معاقرة الخمور، فإنه قد ورط نفسه فى مشكلة أكبر منذ خروجه من المستشفى، فلقد خسر وظيفته، وتم طرده من المنزل الذى كان يعيش فيه، والآن فإنه أصبح مضطرا لأن يعمل كعامل تراحيل حتى يجد ما يسد به رمقه.

لقد اعتبر الجميع – بما فيهم المريض نفسه – وظيفته الحالية من أحقر الوظائف، ولقد سبب له هذا الكثير من الضغط العقلى المستمر، وحيث إنه كان قد شفى من إدمان الخمور، فإنه فقد بهذا أحد الأشياء المهمة التى كانت تعزيه وتساعده على تحمل هذا الضغط العقلى، فقد كان من الممكن له أن يستمر فى عمله

الحالى بمساعدة الخمور، لأنه عندما كان يتم توبيخه بشدة على فشله فى الحصول على عمل أفضل، فإنه كان يبرر هذا الفشل بإدمانه للخمور، والذى بدا وكأنه عذر أكثر صلاحية وأحسن من أن يصارح الجميع بعجزه على الاحتفاظ بأى وظيفة جيدة، ولكن بُعد علاجه من الإدمان، فإنه - مرة أخرى - أصبح وجهًا لوجه مع الواقع المرير، وفى وضع أسوء من الوضع السابق، لأنه عندما يفشل الآن، فإنه لا توجد خمور لتعزيه، أو ليلقى باللوم عليها فى فشله الجديد.

وفى هذا الوضع المليء بالضغوط بدأ الهذيان يعاوده مرة أخرى، ولهذا فإنه تخيل نفسه فى وضعه السابق - مدمن خمور - ورأى العالم من وجهة نظر المدمنين، وهو بهذا السلوك قد أعلن للعالم أجمع أنه قد تسبب فى إفساد كل شيء بسبب إدمانه، وأن الوقت قد فات لإصلاح الوضع، وحيث إنه مريض بالإدمان، فإنه كان يأمل فى أن يتحرر من الاحتقار والتوبيخ الذين يلاحقه بهما الجميع، وبهذا يكون قد تخلص من اللوم الذى لقيه بسبب عمله الحالى، ودون أن يُجبر على أن يتخذ أى قرار إيجابى - من ناحيته - لتغيير هذا الوضع.

إن الهذيان - الذى سبق لنا ووصفناه - استمر لمدة طويلة حتى تم إدخاله مرة أخرى المستشفى، وعندها أصبح قادرًا على تعزية نفسه - مرة أخرى - بأنه كان من الممكن له إحراز نجاح وظيفى أكبر إذا تمكن من التخلص من إدمان الخمور. إن هذه الإستراتيجية مكنته من أن يستمر، ومن أن يُحافظ على احترامه لذاته وثقته بقدراته، وقد كان من المهم جدا له أن لا يفقد احترامه لذاته. إن احترامه لذاته كان - بالنسبة له - أهم من أى عمل ومن كل الوظائف، ولهذا فإن كل جهوده كانت موجهة نحو محاولة إثبات أنه ربما كان قادرًا على تحقيق الكثير لو أنه لم يعان من هذا المرض (الإدمان)، وكانت هذه هى العوامل التى مكنته من أن يشعر بأنه طبيعى ومثل أى شخص آخر فى المجتمع المحيط به، ولكن هذه العقبات الهائلة التى واجهته هى التى تسببت فى هذه النهاية، ومن هنا كان ذلك البحث اليائس عن أى مبرر يمكن استخدامه لتبرير فشله هو السبب فى ظهور الهذيان، فقد كان هذا الشبح هو المخلص الذى أنقذ احترامه لذاته وثقته بالنفس من الانهيار الكامل.

جوانب العالم غير الحقيقى

الأحلام الجامحة Fantasies

إن هذه الأحلام الجامحة ما هى إلا إحدى الوظائف الخلاقة التى تقوم بها النفس، ويمكننا أن نجد آثار هذه النشاطات فى الكثير من الظواهر التى وصفناها فيما سبق، مثال ذلك: عندما نبدأ فى تصور ذكريات معينة، ونفكر فيها وكأنها حقيقة موضوعية يمكن أن نركز عليها تفكيرنا الواعى، وهكذا فإن أحلام اليقظة ما هى إلا جزء من النشاط الخلاق التى تقوم به النفس Psyche. إن القدرة على التنبؤ وإصدار أحكام مسبقة تعتبر وظيفة ضرورية جدا لجميع الكائنات الحية القادرة على الحركة، ولكن هذه القدرة أحد العوامل المهمة أيضًا فى الأحلام الجامحة Fantasies، فإن هذه الأحلام الجامحة تكون مرتبطة بالقدرة البشرية على الحركة، وهى ليست أكثر من طريقة للتنبؤ.

إن الكبار والصغار لديهم أحلام جامحة Fantasies – يطلق عليها أحيانا "أحلام اليقظة Day - dreams" – ودائمًا ما تكون متعلقة بالمستقبل، وهذه القلاع المبنية على الرمال هى الهدف الذى تسعى إليه كل نشاطات هذا الفرد، ولكنها تكون مبنية فى صورة خيالية كنماذج للنشاطات الحقيقية، وقد أظهرت الدراسات الخاصة بأحلام الطفولة الجامحة، أن سعى الطفل الحثيث نحو التفوق، يشغل كل فكره. إن الطفل يعبر عن طموحه من خلال أحلام اليقظة، ومعظم الأحلام الجامحة فى الطفولة تبدأ بكلمات مثل: "عندما أصل إلى مرحلة البلوغ سوف"، وما يماثلها، وهناك الكثير من البالغين الذين يعيش الواحد منهم كما لو كان مازال طفلاً. إن التأكيد الواضح على السعى الحثيث نحو تحقيق التفوق يشير إلى أن النفس لا تستطيع أن تنمو وتتطور إلا عندما يكون لها هدف معين ومحدد، وفى حضارتنا الحالية، فإن هذا الهدف يتضمن اعتراف المجتمع بقيمة وأهمية الفرد صاحب الهدف، والفرد لا يحتفظ بهدف محايد لمدة طويلة؛ لأن الحياة الجماعية المشتركة تتميز بأن الفرد فيها يقوم بإعادة تقييم موقفه بطريقة مستمرة، وهذا يسمح للرغبة

فى إحراز المزيد من التفوق بالظهور عن طريق أن يأمل الفرد فى التفوق على الآخرين فى المنافسات التى تجرى بينهم.

وأحلام الطفولة الجامحة دائمًا ما تتضمن مواقف مثل السابق شرحها، وفيها يتمكن الطفل من استخدام قواه.

إنه لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بالتعميم لأنه من المستحيل وضع قواعد وقيود على الأحلام تحدد درجاتها وتحكم مداها واتساعها، وسنجد أن ما سبق وقلناه ينطبق على الكثير من الحالات، ولكن علينا أن نتذكر أن هناك شذوذًا لكل قاعدة.

إن الطفل القوى والذى يتعامل مع الحياة بأسلوب المحارب سوف يطور قدراته على التخيل إلى أبعد الحدود لأن حاجته لحماية نفسه تكون قوية نتيجة لموقفه من الآخرين، والطفل الضعيف جدا والذى تكون حياته شاقة، يقوم هو أيضًا بتطوير قدراته على التخيل إلى أبعد الحدود، ويميل إلى أن ينغمس فى عالمه الخاص، وفى إحدى مراحل نموه وتطوره فإن قدرته على التخيل ربما تصبح طريقه إلى الهروب من واقع الحياة المرير. إن الأحلام الجامحة يمكن إساءة استخدامها أيضًا عندما نستخدمها فى رفض الواقع المحيط بنا، وفى مثل هذه الحالات فإنها تصبح مثل السجادة السحرية الطائرة التى يستخدمها الفرد فى الارتفاع فوق مشاكل الحياة وواقعها المرير من خلال قدراته على التخيل.

إن كلاً من الشعور الاجتماعى والسعى الحثيث نحو إحراز المزيد من القوة (تحقيق التفوق)، يلعب دورًا رئيسيا فى أحلامنا الجامحة، وفى أحلام الطفولة الجامحة، فإن السعى نحو تحقيق التفوق يتضمن غالبًا بعض التطبيقات ذات الغرض الاجتماعى، ونرى هذه الخاصية واضحة فى تلك الأحلام الجامحة التى يتخيل فيها الفرد نفسه أنه قد أصبح المخلص والمنقذ الذى استطاع التغلب على جميع قوى الشر والاستبداد.

وهناك أيضًا ذلك الحلم الجامح الشائع، والذى يتخيل فيه الفرد أنه لا ينتمى إلى أسرته الحالية، وهناك الكثير من الأطفال الذين يعتقدون أنهم لا ينتمون إلى أسرهم، وأنه فى أحد الأيام ستتمكن أسرهم "الحقيقية" من استعادتهم - وغالبًا ما تكون هذه الأسر المتخيلة غنية جدا، أو من الأرستقراطيين، أو من الاثنين معًا ويحدث هذا كثيرًا للطفل الذى يعانى من شعور عميق بالنقص، فإن هذا الطفل

يشعر بأنه محروم من الحب والحنان، أو أنه مجبر على احتلال مرتبة دونية بسبب أسرته وأقاربه، ولهذا فإنه يخترع عائلة جديدة تتمتع بكل ما يفتقده في أسرته الحقيقية.

إن أفكار العظمة تظهر بهذه الصورة الشائعة أيضًا: في هذه الصورة يتصرف الطفل كما لو كان أحد البالغين ولقد صادفت بعض الحالات المرضية التى عبرت عن هذا الحلم الجامح فى الوصول بسرعة إلى مرحلة البلوغ، وعلى سبيل المثال فهناك الصبيان الذين يحاولون استخدام كريم الحلاقة الخاص بالأب، أو الفتيات اللائى يستخدمن مساحيق التجميل الخاصة بالأم، وهناك أيضًا الفتيات اللائى يحاولن التشبه بالرجال، وتتصرف الواحدة منهن بطريقة الرجل فتلبس ملابس الرجال وتتبنى أسلوبهم فى التصرف.

لقد سمع الكثير منا هذه العبارة:

"إن هذا الطفل لا يملك أى قدرة على التخيل".

وهذه العبارة بعيدة كل البعد عن الصواب، فإنه لا يوجد طفل لا يملك أى قدرة على التخيل، فإما أن يكون الطفل غير قادر على التعبير عن نفسه، أو تكون هناك أسباب أخرى أجبرته على التنكر لأحلامه الجامحة ومحاربتها، فإن الطفل قد يكتسب الشعور بالقوة عن طريق كبت خيالاته، وخلال سعيه الحثيث للتكيف مع واقع الحياة فى عالم البالغين، فإن الطفل قد يعتقد أن الأحلام الجامحة هى شىء لا يليق بمن هو فى مستواه ويرفض أن ينغمس فيها، وهناك العديد من الحالات التى تمادى فيها الطفل فى كراهيته للأحلام الجامحة حتى إنه ظهر بمظهر من لا خيال له على الإطلاق.

الأحلام Dreams

بالإضافة إلى أحلام اليقظة التى تكلمنا عنها سابقًا، فإننا يجب أن نتعامل مع ذلك النشاط الذى يحدث خلال النوم – الأحلام العادية التى تحدث خلال النوم – لأنها بالغة الأهمية وذات مغزى فى محاولاتنا لفهم الطبيعة البشرية، وعلى وجه العموم فإنه يمكننا القول بأن الأحلام ما هى إلا تكرار للعمليات نفسها التى تحدث

فى أحلام اليقظة، ولقد أشار الكثير من الخبراء فى علم النفس إلى أن شخصية الإنسان يمكن فهمها وقراءتها ببساطة من خلال فهمنا لأحلامه، ولقد احتلت الأحلام الكثير من اهتمام البشر منذ فجر التاريخ، فإن أحلام النوم (الأحلام العادية) مثلها مثل أحلام اليقظة، فهى تتعامل مع الشيء نفسه ألا وهو محاولة تخطيط وتوجيه الحياة المستقبلية، حتى تتمكن من تحقيق الهدف فى الأمن والأمان وفى إحراز التفوق، وأكثر الاختلافات وضوحًا بينهما هو أن أحلام اليقظة يمكن فهمها بسهولة، بعكس أحلام النوم، ولا يجوز أن نفاجأ بأن الأحلام - التى نراها خلال نومنا - عسيرة الفهم، وقد تمثل هذه الصعوبة إغراء لنا بأن نعتبرها عديمة الأهمية، ودعنا نقول إن سعى الفرد الحثيث للحصول على المزيد من القوة للتغلب على الصعوبات التى تواجهه وللاحتفاظ بوضعه المادى والاجتماعى فى المستقبل، ينعكس بوضوح فى أحلامه، فإن الأحلام تعطينا قدرة مهمة على رؤية التفاصيل الحاضرة والمستقبلية لمشكلات فرد ما وحياته العاطفية.

التعاطف أو مشاركة الآخرين وجدانيا:

إن النفس لا تملك القدرة على تفهم كل الموجودات الحقيقية فقط، ولكنها قادرة على أن تشعر - أو تخمن - بما يمكن أن يحدث فى المستقبل، وهذه القدرة النفسية تعتبر مساهمة مهمة فى وظيفة البصيرة، ونحن نعلم أن البصيرة هى أمر ضرورى جدا لأى كائن حى قادر على الحركة، حيث إن هذا الكائن سيكون مجبرًا - بطريقة مستمرة - على التكيف مع البيئة المحيطة به، كما أن هذه الوظيفة مرتبطة أيضًا بالقدرة على التعاطف مع الآخرين والشعور بما يشعرون به من ألم أو لذة، ويتمتع البشر بقدرة بالغة النمو والتطور من هذه الناحية حتى إننا نجد أن التعاطف موجود فى كل جوانب وأركان النفس، كما أن علينا أن نتذكر أن البصيرة هى الشرط الرئيسى لاستمرار الوجود، وإذا كان علينا أن نصدر أحكامًا مسبقة، وأن نتوقع وأن نتنبأ بالكيفية التى سنتصرف بها إذا ما واجهنا وضعًا معينًا، فإنه يجب علينا أن نتعلم كيفية إصدار أحكام سليمة على الأوضاع المختلفة عن طريق التفكير المترابط، وعن طريق الشعور والتفهم. إنه من الضرورى أن نجد وجهة النظر التى تمكننا من أن نعالج الوضع الجديد بقوة، أو نتجنبه بحرص.

إن التعاطف يحدث في اللحظة نفسها التي يتبادل فيها اثنان من البشر الحديث، فإنه من المستحيل أن نفهم بعضنا البعض إذا كان الفرد منا لا يستطيع أن يشعر بمشاعر من يحدثه، والدراما هي أكثر التعبيرات الفنية وضوحًا عن التعاطف، ولهذا فإننا من خلال مهارة كاتب الدراما نشعر بمشاعر الشخصية التي يتم تمثيلها أمامنا على المسرح ويحدث تعاطف مع الأدوار المختلفة في داخلنا.

وهناك أمثلة عديدة للمشاركة الوجدانية (التعاطف) في حياتنا اليومية، فعندما نشعر بالضيق والحزن لأن هناك شخصًا آخر في خطر، فإن هذه هي مشاركة وجدانية، وقد تكون المشاركة الوجدانية قوية إلى درجة أنها تدفعنا إلى القيام بحركات لا إرادية للدفاع عن النفس بالرغم من أنه لا يوجد أي خطر حقيقي يهددنا شخصيا، وعلى سبيل المثال: فإننا كلنا نذكر الحركات اللاإرادية التي نقوم بها عندما يسقط شخص ما كوبًا زجاجيا، وفي لعبة "البولينج" فإننا نرى الفرد منهم يتتبع مسار حركة الكرة بحركات من جسده، كما لو كان يرغب في التأثير على الكرة بالحركات التي يقوم بها، وبالمثل فإنه خلال لعبة كرة القدم فإن أقسام من الجماهير سوف تحرك أعضاءها في اتجاه فريقهم المفضل، وأيضًا نرى أمثال هذه الحركات اللاإرادية عندما يحاول الأفراد المصاحبون لقائد السيارة الضغط على مكابح خيالية، عندما يشعرون أنهم في خطر، والكثير من الناس يشعرون بالخوف الشديد عندما يشاهدون الشخص الذي يعمل على تنظيف النوافذ الزجاجية في مبنى شديد الارتفاع، وكذلك عندما يفقد المحاضر سياق أفكاره ويتوقف عن الكلام، فإن المستمعين يشعرون بالخجل والارتباك بالنيابة عنه.

إن حياتنا كلها تعتمد على هذه الوظيفة في القدرة على المشاركة الوجدانية، وإذا بحثنا عن أصل هذه القدرة، فإننا نجدها في كل الصفات الإنسانية الموروثة، والمشاركة الوجدانية هيَ شعور يشملنا جميعًا ويعكس وحدة الكون الذي نعيش فيه، وعلينا أن نتذكر أنه لا يمكننا أن نتخلص من هذه الخاصية لأنها جزء من البناء الأساسي للإنسان، ولأنها تعطينا القدرة على الإحساس بخبرات الغير.

وتوجد درجات مختلفة من القدرة على المشاركة الوجدانية، مثلها في هذا مثل الشعور الاجتماعي أو الروح الاجتماعية، ويمكننا ملاحظة تلك الدرجات المختلفة حتى في خلال مراحل الطفولة المبكرة، فإننا كثيرًا ما نجد أطفالاً يلعبون بالعرائس ويعاملونها كما لو كانت أشخاصًا حقيقيين، بينما تكون هناك مجموعة

أخرى من الأطفال ينحصر اهتمامها فى كيفية اكتشاف طريقة صنع العرائس فيقومون بتفكيكها وإتلافها!! إن نمو وتطور الفرد يمكن أن يتعرض للتوقف التام لو أنه حاول أن ينقل العلاقات الجماعية المشتركة بينه وبين باقى البشر إلى علاقات بينه وبين الحيوان والجماد.

وعلى الجانب الآخر فهناك حالات كثيرة لأطفال معروفين بوحشيتهم فى معاملة الحيوانات بسبب غياب الشعور الاجتماعى عندهم وعدم قدرتهم على المشاركة الوجدانية مع الكائنات الحية الأخرى، وينتج عن هذا العيب أن الطفل ينمو ويتطور فى اتجاه محبة أشياء قليلة - أو عديمة - القيمة والاهتمام بها، ويهمل الأشياء التى تساعد على تطوره فى اتجاه أن يصبح شخصًا اجتماعيا طبيعيا، فعندما يفكر الفرد فى نفسه فقط فإنه يفقد الاهتمام بكل الأشياء التى تسر وتسعد الآخرين، ويصبح هذا العجز عن مشاركة الآخرين وجدانيا والتعاطف معهم أحد الأسباب التى تجعل الفرد يرفض "التعاون" مع باقى زملائه من البشر.

التأثيرات والاقتراحات والتنويم المغناطيسى:

إن علم النفس الفردى استطاع الإجابة على السؤال الخاص بكيفية التأثير على سلوك الفرد، أو:

"كيف يمكن لفرد ما أن يؤثر على سلوك فرد آخر؟".

إن قابلية الفرد لاستقبال التأثيرات القادمة عليه من الخارج هى واحدة من المظاهر الرئيسية لحياتنا النفسية. إن طريقتنا الجماعية المشتركة فى الحياة تصبح مستحيلة، إلا إذا تمكن الفرد من التأثير على غيره، وهذا النمط من التأثير يأخذ طابعًا خاصا فى بعض الحالات، ومثال ذلك: العلاقة بين المدرس والتلميذ، أو بين الوالد والطفل.

إن الشعور الاجتماعى الطبيعى هو الذى يجعلنا نظهر درجة معينة من الاستعداد على تقبل التأثيرات القادمة من الآخرين، ولكن "ما هو مدى هذا الاستعداد؟". إن هذا يعتمد على الفرد الذى يحاول التأثير على الآخرين، وعلى قدرته على احترام حقوق الآخرين - الذين يحاول التأثير عليهم - وأخذها فى

الاعتبار. إنه من المستحيل أن نستمر في الحفاظ على احترام الآخرين لنا إذا كنا نتسبب في أذيتهم، وأحسن طريقة للتأثير على الآخرين تكون عندما نشعر بمشاعرهم، ويشعرون هم بأن حقوقهم آمنة ومحروسة، وهذه النقطة بالغة الأهمية في التعليم، لأن نظامًا تعليميا يأخذ هذه النقطة في الاعتبار، يكون شديد الفاعلية لأنه يلقى الإعجاب من أكثر غرائز البشر بدائية، وشعورهم بأنهم مرتبطون بباقي البشر والكون ككل.

ولا يمكن لهذه الطريقة أن تفشل إلا إذا كنا نتعامل مع فرد تعمد أن ينسحب بعيدًا عن تأثير المجتمع؛ لأن مثل هذا الانسحاب لا يحدث بطريقة اعتباطية (مصادفة)، بل لابد من أن تكون هناك معركة شرسة قد دارت - في ماضي هذا الفرد - وأنه قد خرج من هذه المعركة وقد حل نفسه من كل الروابط التي تربطه بالعالم، وأنه قد أصبح الآن - تدريجيا - في موقف معارض وعدائي من المجتمع. إن محاولة التأثير على سلوك مثل هذا الفرد صعبة جدا، وربما تكون مستحيلة، وكثيرًا ما نرى التأثيرات الدرامية لردود فعل أفراد يعارضون ويعادون كل محاولة للتأثير عليهم.

ربما نتوقع من الطفل الذي يشعر بالكبت من البيئة المحيطة به أن يظهر ردود فعل ضعيفة نحو مدرسيه وأن لا يتفاعل معهم، ولكن - بالرغم من هذا - فقد حدثت حالات كان فيها الضغط الخارجي شديد القوة حتى إنه أزال كل العقبات التي في الطريق، وكنتيجة لهذا فإن السلطة (المدرس أو الأب أو الأم) استعادت تأثيرها وقدرتها على فرض الطاعة، ومن السهل أن نوضح أن مثل هذه الطاعة خالية من أي شيء في صَالح المجتمع، حتى إنها في بعض الأحيان تكون من الفظاعة بحيث إن الفرد الذي تم إخضاعه والحصول على طاعته قد أصبح غير صالح لأي شيء في الحياة؛ لأن عادته في الطاعة العمياء لكل ما يصدر إليه من أوامر جعلته غير قادر على التصرف باستقلال، أو التفكير بحرية.

وهناك خطر كبير عندما يميل الفرد إلى تطوير مثل هذه الشخصية الاستسلامية، فعندما ينمو مثل هذا الطفل ويصل إلى مرحلة البلوغ، فإنه يصبح مستعدا لأن يستسلم لكل ما يصدر إليه من أوامر، حتى ولو كانت خروجًا عن القانون.

إن العصابات ما هى إلا مثال مهم للطريقة التى يعمل بها من يحاول السيطرة والهيمنة على الآخرين، فإن الذى ينفذ الأوامر - ويرتكب الجرائم - من أفراد العصابة يكون ذا شخصية استسلامية، فى حين أن الذى يتولى إصدار الأوامر فى العصابة يظل بعيدًا عن الأحداث الإجرامية، وفى كل العمليات الإجرامية الكبيرة - التى تتعامل مع عصابة مكونة من عدة أفراد - فإنه يكون هناك ذلك الشخص المستعبد الساذج الذى يترك ليدفع ثمن جرائم الآخرين (كبش الفداء). إن مثل هذه الطاعة العمياء التى لا حدود لها تكون شديدة العمق حتى إننا نجد - من بينهم - الكثيرين الذين يتفاخرون بعبوديتهم ويجدون أنها الوسيلة لتحقيق احترام الذات Self - esteem!!.

لكن دعنا الآن نحدد موضوع الدراسة، ونقصره على الحالات التى يكون فيها التأثير متبادلاً، فإننا سنجد أن الفرد المستعد لتقبل التأثيرات الخارجية هو الفرد الذى يؤمن بالمنطق والأسلوب العقلانى فى المناقشة، وأن شعوره الاجتماعى ما زال بخير ولم يتم تشويهه، ومن ناحية أخرى فإننا سنجد أن الفرد المتعطش لـ"التفوق" والذى يرغب فى السيطرة والهيمنة هو فرد صعب المراس وليس من السهل التأثير عليه.

عندما يشكو الوالدان من الطفل، فإن هذا يكون بسبب عدم طاعته، ومن النادر أن تكون الشكوى من طاعة الطفل العمياء لهما، وعندما يتم فحص مثل هذا الطفل فإننا نجد أنه يشعر بأنه مقيد الحركة وأنه يحاول الاحتجاج على هذا عن طريق التغلب على القيود التى فرضتها البيئة المحيطة به. إن الطريقة التى تتم بها معاملة مثل هذا الطفل فى المنزل تجعل من المستحيل عليه أن يتعلم بالطرق الطبيعية.

إن شدة سعينا الحثيث - للحصول على المزيد من القوة - تتناسب تناسبًا عكسيا مع درجة التعليم، وبالرغم من هذا فإن الطريقة التى تربى بها الأسرة الطفل لها دخل كبير فى دفع طموحاته إلى الأمام وفى إيقاظ أفكار البحث عن العظمة داخله، وإن كان هذا لا يحدث فلأن حضارتنا متشبعة بأوهام عظمة مماثلة، داخل الأسرة وفى المجتمع ككل فإن الاهتمام يكون مركزًا على كل ما هو كبير فى الحجم وأحسن أو أكثر مجدًا، ولقد خصصت فصلاً كاملاً عن الخيلاء والزهو والغرور، وستتاح لنا الفرصة لإظهار أن هذه الطرق التعليمية - التى تخرج وتتبع

من الطموح أصلاً - غير مناسبة لحياة المجتمع، وكيف أن النمو والتطور العقلـــى يمكن أن يتوقف فى مواجهة مثل هذه العقبات التى يضعها الطموح فى الطريق.

إن الفرد السريع التأثر بكل التغيرات البسيطة فى الظروف المحيطة بــه - بسبب تعوده على الطاعة العمياء - يكون مادة طيعة فى يد المنــوم المغناطيســى، ودعنا نتخيل أنك أصبحت مطيعًا - طاعة عمياء - لعدة دقائق لكل رغبات شخص ما!!. إن التنويم المغناطيسى يعتمد على فكرة الاستسلام الكامل، فقد يقول شــخص ما أنه مستعد لأن يتم تنويمه مغناطيسيا - وقد يكون صادقًا فى اعتقاده هذا - ولكن الاستعداد النفسى للاستسلام قد لا يكون موجودًا، وهناك فرد آخر قد يحاول مقاومة التنويم، ولكنه يكون - عن غير وعى - مستعدا للاستسلام، ولهذا فــإن الموقــف النفسى للفرد هو الذى يحدد سلوكه واستعداداته فيما يتعلق بــالتنويم المغناطيســى، وما يقوله الفرد ويظنه ليس بذى أهمية.

وهناك الكثير من المعلومات غير السليمة منتشرة بين الناس، مما يسبب لهــم الارتباك فيما يتعلق بموضوع التنويم المغناطيسى، وما يهمنا هنا هو ذلك الفرد الذى تبدو عليه مظاهر المقاومة والصراع ضد عملية التنويم، ولكنه مســتعد للاستســلام لطلبات القائم به. إن هذا الاستعداد للاستسلام يختلف من فرد لآخــر، ولــذلك فــإن تأثير التنويم على الفرد سيختلف أيضًا، ولا توجد أى حالة تكون فيها درجة اســتعداد الفرد لتقبل التنويم معتمدة على إرادة القائم بعملية التنويم المغناطيسى، فــإن العمليــة كلها تتشكل من خلال موقف الفرد His Attitude واتجاهه.

إن التنويم مشابه جدا للنوم، والغموض الذى يحيط به ينبع من أن النوم يأتى بناء على أمر من شخص آخر، ولا يكون هذا الأمر فعالاً إلا عندما يُعطــى لفــرد مستعد للاستسلام له، وهناك عوامل تحدد هذا، أهمها طبيعة الفرد محل الدراســة، فإنه لا يمكن إجبار أى فرد على الخضوع لعملية تنويم مغناطيسى، ويمكــن فقــط تنويم الشخص المستعد لطاعة الأوامر التى تصدر من شخص آخــر، وبــدون أن يستخدم وظائفه الحيوية.

إن التنويم المغناطيسى يختلف عن النوم فى أنه يُخضع الفرد محل الدراســة ويُخضع وظائفه الحركية، حتى إن مراكز الحركة لا تعمل إلا من خــلال أوامــر القائم بعملية التنويم، ويكون الفرد محل الدراسة فى حالة سكون مماثلة لحالة النــوم الطبيعى، كما أن الفرد لا يستطيع أن يتذكر إلا الأشياء التى يُسمح لــه بتــذكرها،

ولكن كل وظائفنا الحيوية - والتى تعتبر من أحسن التعبيرات عن الروح البشرية - تكون مشلولة شللاً تاما خلال عملية التنويم. إن الفرد يصبح أداة فى يد القائم على عملية التنويم، وعضوًا من الأعضاء التى تتحرك بإشارة منه فقط.

إن معظم الذين لديهم هذه القدرة الخاصة فى التأثير على سلوك الآخرين يعزون هذه الوظيفة (القدرة) إلى قوى غامضة خاصة بهم وحدهم، وقد تسببت هذه الأكاذيب والأفعال الخرقاء فى الكثير من الضرر مثل تلك الاستعراضات التى قدموها لعروض التنويم المغناطيسى. إن أمثال هؤلاء المشعوذين والدجالين يرتكبون جريمة فظيعة فى حق البشرية، ويظهرون لنا أنهم قادرون على استخدام أى أداة مناسبة لتحقيق أغراضهم المشينة، ولكن هذا لا يعنى أن "كل" ما قاموا به هو عملية نصب وشعوذة، فإن الكائن البشرى قادر حقيقة على القيام بهذا النوع من الاستسلام، حتى إن بعضهم قد يقع ضحية لمن يمتلك هذه القدرة الخاصة فى التأثير على السلوك.

إن الكثير من البشر اكتسبوا عادة الخضوع للسلطة دون تساؤل، فإن العامة يتصرفون كما لو كانوا يرغبون فى أن يخدعوا، وربما يكونون على استعداد لتصديق خرافة مختلقة دون فحص أو تمحيص ودون إخضاعها لقواعد المنطق. إن مثل هذه النشاطات تساعد على انتشار الفوضى فى الحياة الجماعية المشتركة، وربما تؤدى إلى ثورة الأشخاص الذين تم خداعهم، وعلى أن أذكر هنا أنه لم يظهر - حتى الآن - شخص يقوم بمثل هذه الاستعراضات فى التنويم المغناطيسى، واستمر فى نجاحه هذا لفترة طويلة؛ لأنه غالبًا ما يأتى الواحد منهم عبر "زبون" يخدعه، ويجعله يعتقد أنه استطاع بالفعل تنويمه، ثم يكشف الحقيقة - بأنه لم يكن منومًا - ويفضحه، وللأسف فإن هذا قد حدث - فى بعض الأحيان - حتى للعلماء، خاصة إذا كان الواحد منهم يحاول إجراء تجربة بغرض إظهار مقدرته، وهناك أيضًا حالات كانت عبارة عن مزيج من الحقائق والأكاذيب، وفيها تمكن "الزبون" من أن يخدع القائم بعملية التنويم جزئيا، ولكنه فى الوقت نفسه خضع لإرادة القائم بعملية التنويم.

من كل هذا يمكننا أن نستنتج أن القوة الفعالة فى هذه العملية هى استعداد الفرد للاستسلام والخضوع لتأثير القائم بعملية التنويم وليس مقدرة القائم بعملية التنويم على التأثير، فإنه لا توجد قوة سحرية تؤثر على الأشخاص، ومن هذا يمكننا أن نقول إن أى فرد اعتاد أن يعيش باستخدام العقل والمنطق، ويتخذ قراراته

بنفسه، ولا يتقبل آراء الآخرين بدون فحص أو تمحيص "لا يمكن تنويمه"، ولهذا فإنه لن يمكن أن يظهر على مثل هذا الفرد أى قوى للتخاطب عن بعد Telepathic powers. إن التنويم المغناطيسى والتخاطب عن بعد ما هما إلا مظاهر للخضوع الذليل.

ويستحسن الآن أن ندرس القدرة على الاقتراح أو الإيحاء Suggestion، ويمكننا فهم القدرة على الإيحاء، إذا ما وضعناها فى التصنيف نفسه مع كل من الانطباعات Impressions والمؤثرات Stimuli، وهى دليل – فى حد ذاتها – على أنه لا يوجد أى فرد يتأثر فى أوقات دون غيرها (أحيانًا فقط)، فإننا جميعًا نقع تحت مؤثرات لا حصر لها من العالم الخارجى، وكل هذه المؤثرات لا يتم فهمها فقط، بل إن كل مؤثر منها له تأثيره الخاص، وعندما نشعر بهذا التأثير فإن الانطباع يستمر فى تأثيره علينا، وعندما يأخذ الانطباع شكل طلبات وتوسلات الآخرين، فإن كل مناقشاتهم ومحاولاتهم لإقناعنا ستصبح ما سوف نسميه "الإيحاء Suggestion"، وهى بهذا الشكل "حالة تحول"، أو حالة تطبيق لوجهة نظر فرد فى الحاضر (وهو هذا الفرد الذى نحاول أن نوحى له).

لكن المشكلة الأصعب تظهر من حقيقة كون جميع البشر يختلفون فى ردود أفعالهم للمؤثرات القادمة من العالم الخارجى، وتكون درجة تأثر الفرد مرتبطة بشدة مع درجة استقلاليته.

وفى هذا الخصوص فإنه يمكن تقسيم البشر إلى نمطين:

النمط الأول: هو ذلك النمط الذى يبالغ – دائمًا – فى تقديره لآراء الآخرين، ولهذا فإنه يحط من قيمة رأيه الشخصى – بصرف النظر عن كون هذا الفرد مخطئًا أم مصيبًا – فيكون بذلك من السهل الإيحاء له، أو إخضاعه للتنويم المغناطيسى.

النمط الثانى: وهذا النمط يرى أن أى مؤثر أو إيحاء ما هو إلا إهانة شخصية له، وهذا الفرد يعتبر أن رأيه هو الرأى الصحيح، والواقع أن صحة الرأى لا تهمه كثيرًا لأنه يتجاهل أى رأى آخر يأتى من غيره من البشر.

إن كلًا من النمطين السابقين يحمل فى طياته الكثير من مشاعر الضعف، فالنمط الأول يعبر عن الشعور بالضعف عن طريق الخضوع، والنمط الثانى يعبر

عن الشعور بالضعف من خلال عجزه عن الإصغاء إلى آراء الآخرين، والكثير من أعضاء هذا النمط الثانى شديدو الذكاء، وربما تفاخروا بتفتحهم العقلى وتقبلهم للإيحاء، والواحد منهم يتكلم عن هذا التفتح العقلى ليؤكد عزلة وضعه، أما الحقيقة فهى أنه شديد التعصب، ومن الصعب جدا التأثير عليه.

عقدة النقص

الطفولة المبكرة:

إننا نستطيع الآن أن نتفهم موقف الأطفال المصابين بإعاقات، من الحياة وتجاه الآخرين، والاختلافات بينه وبين موقف الأطفال الأصحاء الذين نعموا بمباهج الحياة خلال مرحلة الطفولة المبكرة، ويمكننا أن نضع القانون الأساسي التالي: إن الأطفال الذين خرجوا إلى العالم وهم يعانون من إعاقة، فإنهم - في مرحلة مبكرة من عمرهم - يخوضون غمار صراع مرير، وأن الواحد منهم لا يخرج من هذا الصراع - غالبا - إلا وقد فقد الكثير من شعوره الاجتماعي، وبدلا من أن يحاول التكيف مع الآخرين، فإنه يصبح مشغولاً تماما بنفسه، وبالانطباعات التي يتركها على الآخرين.

وإن هذا القانون يكون صحيحًا ليس بالنسبة للإعاقات الجسدية فقط، ولكنه يكون صحيحًا أيضًا بالنسبة لجميع الأعباء الاجتماعية أو الاقتصادية التي قد تواجه الفرد وتتسبب في إعاقته وتبنيه لموقف عدائي من العالم.

والنزعة التي تحدد بطريقة قاطعة اتجاه الفرد تحدث في مرحلة مبكرة جدا من العمر، فإن الطفل يكون واعيًا - بدءًا من عمر سنتين - بأنه أقل أهلية لخوض الصراع من الآخرين، وهو يشعر بأنه لا يجرؤ على أن يشترك في ألعاب من هو أكبر منه، وكنتيجة لهذا فإنه يشعر بأنه مهمل، ويعبر عن هذا الشعور بأن يأخذ موقف التوقع القلق Anxious expectation، ويجب علينا أن نتذكر أن كل الأطفال يحتلون موقعًا دونيا وتابعًا للآخرين في الحياة، وأنه بدون قدر معقول من الشعور الاجتماعي من جانب الأسرة، فإن الطفل سيكون غير قادر على الاستمرار في الحياة، ونحن نعلم أنه في بداية كل حياة، يكون هناك شعور عميق بالدونية والنقص، خاصة عندما نرى ضعف وعجز الأطفال، كما أن الطفل يصبح واعيًا - إن آجلاً أو عاجلاً - بعدم قدرته على مواجهة تحديات الحياة وحيدًا أيضًا، وهذا الشعور بالدونية هو قوة من قوى الدفع، وهو نقطة البداية التي تخرُج منها كل

دوافع الطفل، وهذا الشعور هو الذى يحدد للطفل كيفية الحصول على الأمن والأمان فى هذا العالم، فهو يحدد له الهدف من الوجود، ويمهد الطريق الواجب سلوكه لتحقيق هذا الهدف.

إن أساس إمكانيات الطفل التعليمية يكون مرتبطًا بشدة مع إمكانياته الجسدية، فإن القدرة على التعلم يمكن تدميرها من خلال هذين العاملين:

العامل الأول: هو وجود مشاعر دونية مركزة ومبالغ فيها وغير محلولة.

العامل الثانى: هو وجود هدف لا يتطلب الأمن والأمان والمساواة الاجتماعية فقط، بل يتطلب أيضًا الحصول على القوة للسيطرة على البيئة المحيطة وما يتطلبه هذا من صراع مرير وهدف الهيمنة على زملائه.

ويمكن معرفة وتحديد أمثال هذا الطفل بسهولة، لأن هذا الطفل يصبح طفلاً مشكلة Problem child، لأنه يتفهم كل الخبرات التى تمر به على أنها هزائم، ولأنه يعتبر نفسه مهملاً دائمًا، وأن هناك تمييزًا وتحيزًا غير عادلين ضده من الطبيعة ومن المجتمع.

وعلينا أن نأخذ العاملين السابقين فى الاعتبار، فإنه يمكننا أن نرى بوضوح المصير المحتوم لتطور الحياة غير السوية والمليئة بالأخطاء، وما ستئول إليه حياة مثل هذا الطفل. إن كل الأطفال معرضون لخطر التطور المغلوط، وكل طفل يجد نفسه فى موقف خطر وغير مستقر فى وقت من الأوقات.

حيث إن جميع الأطفال يجب أن ينشئوا وهم محاطون بالكبار البالغين، فإن كل طفل يجد نفسه مجبرًا على أن يعتبر نفسه صغيرًا وضعيفًا وغير قادر على الحياة باستقلال، والطفل لا يثق فى قدراته على إنجاز المهام حتى السهل منها، بينما يؤدى الكبار البالغون هذه المهام بسهولة ويسر، ومعظم الأخطاء التى نرتكبها فى تربية الأطفال تبدأ عند هذه النقطة بالذات، فعندما نطالب الطفل بأن يقوم بأكثر مما يستطيع، فإن الطفل تتولد عنده فكرة عجزه، ولكن أحيانًا فإن بعض البالغين يحاولون - عن عمد - أن يشعروا الطفل بعجزه وعدم قدرته، والبعض الآخر يحاولون معاملة الطفل كما لو كان عروسًا حية موجودة فى الحياة بغرض اللعب بها فقط، والبعض الآخر يعاملون الطفل كأحد ممتلكاتهم الثمينة التى يجب حراستها والحفاظ عليها بشدة، بينما يحاول البعض الآخر أن يجعلوا الطفل يشعر بأنه عديم القيمة وبلا

نفع، ومثل هذا السلوك من جانب الأب والأم والآخرين يقود الطفل لأن يؤمن بأنه عاجز - حقيقة - عن التحكم فى أى شىء ماعدا شيئين: سعادة وتعاسة الكبار.

إن نمط ونوع الدونية التى يشعر بها الطفل بسبب والديه يمكن أن يزدادا تركيزًا بواسطة بعض الخصائص المعينة الموجودة فى حضارتنا، فهناك مثلاً هذه العادة الخاطئة فى ألا نعامل الطفل بالجدية الكافية، ومن هذه العادة فإنه يمكن للطفل أن يستنتج شيئين:

الشىء الأول: هو أنه غير مهم، ويصبح لديه الانطباع بأنه ليست له حقوق، وكما يقول المثل الإنجليزى: "فإنه يكون له الحق فى أن يشاهد، ولكن لا يجوز له أن يتكلم"،(*) وأن عليه أن يكون دمثًا ولطيفًا وهادئًا و...إلخ، والكثير من الأطفال ينشأون فى بيئة تجعلهم فى خوف دائم وقلق من أن يسخر منهم الجميع، وفى رأيى أن السخرية من الأطفال وتسخيف أقوالهم هما فى مصاف الجرائم، لأن هذا السلوك يترك أثرًا لا يمحى على نفسية الطفل، ولأن هذا الأثر يعاود الظهور مرة أخرى من خلال العادات والأفعال التى يقوم بها الطفل عندما يصل إلى مرحلة البلوغ، ومن السهل التعرف على هذا البالغ الذى تعرض لكثير من السخرية والتسخيف الدائم لأقواله عندما كان طفلاً، لأن مثل هذا البالغ لا يزال عاجزًا - حتى الآن - عن أن يتخلص من الخوف من أن يظهر بمظهر الأحمق مرة أخرى.

الشىء الثانى: إن الشىء الثانى الذى يخرج به الطفل عندما يعامل بلا جدية كافية، - وعندما يحاول الكبار أن يملأوا عقله بتلك الأكاذيب السخيفة - هو أنه يبدأ التشكك فى كل ما يحيط به فى بيئته المباشرة، كما أنه أيضًا يبدأ فى التساؤل عن مدى جدية وحقيقة الحياة نفسها، وهناك سجل طويل للعديد من الحالات التى سجلت وجود أطفال يضحكون باستمرار فى المدرسة بدون سبب، وعندما تم سؤال طفل منهم عن سبب هذا الضحك، فإن الطفل اعترف بأنه ظن أن المدرسة ما هى إلا واحدة من تلك النكات التى يلعبها عليه والداه، وأن المدرسة لا تستحق أن تعامل بجدية لهذا السبب.

(*) "He has the right to be seen and not heard" (المترجم)

التعويض - سعى الإنسان نحو التفوق:

إن مشاعر الدونية، وعدم الكفاية، وعدم الثقة بالنفس، هى التى تحدد هدف الفرد فى الوجود، وهناك ذلك الميل للظهور عندنا جميعًا، ويظهر هذا الميل منذ اليوم الأول فى الحياة عندما نطالب بأن يهتم بنا الوالدان، وسنجد أن أول المؤشرات على نمو وتطور الرغبة فى أن يعترف الجميع بوجودنا يسير جنبًا إلى جنب مع الشعور بالدونية، والغرض من هذه المؤشرات هو الحصول على حالة يمكن فيها للفرد أن يبدو متفوقًا على البيئة المحيطة.

إن شعور الفرد الاجتماعى هو الذى يحدد هدفه فى التفوق، ونحن لا نستطيع الحكم على الأفراد بدون أن نقارن بين هدف الفرد فى التفوق وبين مدى ودرجة شعوره الاجتماعى، لأن الهدف مبنى بحيث - إذا ما تم تحقيقه - يعد بإمكانية الشعور بالتفوق، أو يرفع الشخصية لمستوى يجعل الحياة - تبدو كما لو كانت - تستأهل الجهد المبذول من أجلها، وأن هذا الهدف هو الذى يعطى قيمة للخبرات التى نمر بها، لأنه يربط وينظم مشاعرنا، ويشكل خيالاتنا، ويساعد على توجيه القوى الخلاقة فينا، ويحدد ما سوف نتذكره وما يجب علينا أن ننساه.

ويمكننا الآن أن نرى أن قيمة المشاعر والعواطف والخيال تكون نسبية، وأن هذه العناصر - التى يتكون منها نشاطنا النفسى - تكون متأثرة بالسعى الحثيث للفرد من أجل الحصول على هدف محدد. إن فهمنا يكون متأثرًا بها، كما لو كانت هناك توصية خفية من شخص مهم فى اتجاه اختيار هدف نهائى تسعى نحوه الشخصية سعيًا حثيثًا.

إن الفرد يحدد اتجاهه طبقًا لنقطة ثابتة تم تخليقها بطريقة صناعية، وهذه النقطة لا يوجد لها أى أساس واقعى فى عالمنا الحقيقى، ويمكننا أن نقول إنها خيالية، وعندما نفترض أنها تخيلية فإن هذا الافتراض ضرورى بسبب مشاعر النقص وعدم الكفاية النفسية التى نعانى منها جميعًا.

وهذا الوضع السابق مشابه جدا لبعض الأوضاع التخيلية التى نستخدمها فى علم الجغرافيا: مثل تقسيم الكرة الأرضية إلى خطوط طول وعرض تخيلية، فإن هذا التقسيم مفيد جدا، رغم أن هذه الخطوط تخيلية وغير موجودة فى الواقع، وبالمنطق نفسه فإن النفس تفترض وجود نقطة ثابتة تخيلية وغير موجودة فى

الواقع، والغرض من هذا الافتراض هو أن نصبح قادرين على تحديد اتجاهنا في هذا الوجود المملوء بالفوضى حتى يمكننا أن نصل إلى تقدير القيم بطريقة نسبية، وميزة افتراض وجود هذه النقطة التخيلية الثابتة أنها تمكننا من أن نقسم المشاعر والعواطف إلى أقسام مختلفة، ونقيس هذه المشاعر والعواطف بناءًا على بعدها النسبى من هذه النقطة التخيلية.

لقد خلق علم النفس الفردى نظامًا وطريقة تجريبية: لمراقبة وملاحظة السلوك البشرى ومحاولة فهمه كنمط نهائى للعلاقات الناتجة عن تأثير السعى الحثيث نحو هدف محدد على إمكانيات الأعضاء الأساسية الموروثة، ومن خلال الخبرات السابقة، والتى أثبتت أن هذا الافتراض الخاص بالسعى الحثيث لتحقيق هدف هو أكثر من افتراض تخيلى مناسب للشرح، بل إنه يتسق تمام الاتساق مع الحقائق الفعلية الموجودة فى كل من الحياة الواعية والحياة غير الواعية، وهو بهذا لا يكون مجرد افتراض فلسفى، ولكنه حقيقة أساسية.

والآن دعنا نسأل أنفسنا هذا السؤال:

"ما هى أحسن الطرق لمقاومة نمو وتطور هذا السعى الحثيث نحو تحقيق التفوق، والذى يعتبر مرض العصور وأصل كل الشرور؟".

فى محاولاتنا الإجابة عن هذا السؤال، فإننا سنواجه بصعوبة، ألا وهى أن هذا السعى يبدأ فى مرحلة مبكرة من حياة الطفل، مما لا يمكن من التواصل مع الطفل بسهولة، ولكن يمكننا أن نبدأ فى محاولات التحسين والتوضيح عندما يبلغ الطفل المرحلة المناسبة من العمر، ولكن علينا أن نتذكر أن حياتنا مع الأطفال خلال هذه الفترة تمدنا بفرصة ذهبية لإنماء شعورهم الاجتماعى وتوسيعه حتى يصبح السعى الحثيث نحو التفوق عاملا يمكن إهماله.

وهناك صعوبة أخرى تكمن فى أن الطفل لا يعبر عن هذا العامل (السعى الحثيث نحو التفوق والحصول على المزيد من القوة) بطريقة واضحة، ولكنه يخفى هذا السعى تحت ستار الحب والعواطف، أو خلف مظاهر القلق والاهتمام بالآخرين، والطفل يتوقع، ويأمل فى أن يتمكن من أن يخدع الجميع بهذا القناع الزائف.

وأيضًا علينا أن نتذكر أن هذا السعى - إذا لم يكن محكومًا ومقيدًا بطريقة ما - يمكن أن يضر بنمو وتطور الطفل النفسى، بل إنه ربما يحول الشجاعة إلى

وقاحة وصفاقة، والطاعة إلى خوف وجبن، والرقة إلى محاولات مهذبة ومـاكرة للهيمنة والسيطرة على الآخرين، وبالتدريج يبدأ عنصر النفاق فى الظهور فى كل تعبيرات الطفل ومشاعره الطبيعية بغرض تحقيق الهدف النهائى فى إخضاع البيئة المحيطة به.

إن التعليم يؤثر على الأطفال من خلال هدفه فى تعويض الأطفال - عن طريق مقاييس معينة مثل تعليمهم المهارات المعيشية، وزيادة فهمهم، وتشجيعهم على زيادة شعورهم الاجتماعى واهتمامهم بالآخرين - عن شعورهم بعدم الأمان، وكل هذه المقاييس - أيا كان مصدرها - تساعد الطفل على التخلص من شعوره بعدم الأمان والدونية، ويجب علينا الحكم على ما يحدث فى نفسية الطفل His psyche من خلال المميزات الشخصية التى يظهرها الطفل حيث إن هذه المميزات هى المرآة التى يمكننا فيها أن نرى نشاطات الطفل النفسية.

وعلينا أن نذكر هنا بهما أن الحجم الحقيقى ودرجة الدونية Inferiority اللذين يشعر بهما الطفل - بالرغم من أهميتهما بالنسبة لنفسية الطفل - لا يعتبران مقياسًا يمكننا به قياس مشاعر عدم الأمان والدونية، حيث إن مشاعر عدم الأمان والدونية تعتمد - بدرجة كبيرة - على درجة وطريقة فهم الطفل.

إننا لا يمكن أن نتوقع أن يكون تقدير الطفل لنفسه - فى أى موقف من المواقف - سليمًا أو دقيقًا، بل إنه لا يجوز أن نتوقع هذا حتى من الأفراد البالغين، ولكن هذه هى النقطة التى تبدأ عندها الصعوبات فى التوالد والتكاثر.

فقد ينشأ الطفل فى وضع معقد حتى إنه يكون من المحتوم عليه أن يرتكب أخطاء، خاصة تلك الأخطاء المتعلقة بدرجة وحجم الشعور بالدونية، ولكن قد يكون هناك طفل آخر فى وضع أحسن نسبيا مما يمكنه من فهم حقيقة وضعه، وبالرغم من أن الطريقة التى يفهم بها الطفل مشاعره الدونية تتفاوت بشدة ما بين يوم وآخر حتى اللحظة التى تصبح فيها متماسكة بشكل نهائي ويتم التعبير عنها على أنها تقدير ذاتى محدد، ويصبح هذا التقدير الذاتى ثابتـًا من الثوابت التى تبقى مع الطفل فى كل تعاملاته مع العالم الخارجى، والآليات التعويضية التى يخلقها الطفل - لتدله علي الطريق للخروج من حالة الدونية - ستكون موجهة فى اتجاه تحقيق هدف مناسبُ لذلك التقدير الذاتى الثابت السابق ذكره.

إن الطريقة التى يستخدمها السعى الحثيث فى التعويض - والتى تحاول النفس بها إلغاء التأثير المؤلم لمشاعر الدونية - تعود بأصلها إلى العالم العضوى (أعضاء الجسم البشري)، ولقد رأينا من قبل أن أعضاء الجسد - الضرورية للحياة - عندما تصاب بالضرر من الأمراض أو غيرها، فإنها تبدأ فى التصرف (أداء وظيفتها) والإنتاج بصورة مبالغ فيها Over productive، ومثال ذلك: أمراض القلب المتعددة، والتى يبدو بعدها القلب وكأنه قد استمد قوة جديدة من باقى أعضاء الجسد، وربما تضخم وأصبح أكثر قوة من القلب الطبيعى، وبالمنطق نفسه فإن النفس psyche - تحت ضغوط من مشاعر النقص والدونية - تحاول بكل جهدها أن تتغلب على عقدة النقص هذه والقضاء عليها.

عندما تزداد مشاعر الدونية وتصل إلى درجة أن الطفل يصبح خائفًا من أنه لن يستطيع أبدًا التغلب على نقاط ضعفه، فإن خطرًا جديدًا يظهر، فعندما يسعى الطفل للتعويض فإنه لن يقنع باستعادة التوازن - بين القوى التى يكتسبها والقوى المضادة له فى البيئة المحيطة به - فقط، بل إنه سيسعى بكل جهده لأن تميل كفة الميزان بشدة لصالحه طوال الوقت، وأمثال هذه الحالات المتطرفة - فى السعى للحصول على القوة والسيطرة - قد تصل إلى درجة مبالغ فيها حتى إنه يجب علينا أن نسميها "حالات مرضية Pathological cases" وستصبح كل العلاقات الطبيعية فى الحياة غير مقنعة وغير كافية بالنسبة لهم، وستنتابه حاجة شديدة تدفعه لأن يميل للحصول على بعض مقومات العظمة، وسيضمنها فى هدفه النهائى.

إن مثل هذا الفرد - والمصاب بحاجة مرضية شديدة تتطلب منه دائمًا الحصول على المزيد من القوة power - drive Pathological يحاول دائمًا تأمين وضعه فى الحياة من خلال بذل جهود غير عادية، وباستخدام ردود فعل عنيفة، وبدون صبر، وبدون أى اعتبار للآخرين، ويتسم سلوك مثل هذا الطفل بسعيه الحثيث - المتميز بالعصبية والتسرع - نحو تحقيق هدف مبالغ فيه للسيطرة والهيمنة على الآخرين، وتكون تعدياته على حقوق الآخرين هى السبب فى تعرض حقوقه الشخصية للخطر، ولأنه يحارب العالم ويعاديه، فإن العالم يتحول ضده ويعاديه بالمثل.

إن ما سبق وذكرناه لا يحدث بالضرورة بالطريقة الواضحة الصريحة التى وصفناها فى السابق، فإن بعض الأطفال يسعى الواحد منهم نحو القوة بطريقة غير

محسوبة أو منظمة، مما يتسبب فى وقوعه فى صراع مباشر مع المجتمع، وقد تبدو طموحاته - فى البداية - طبيعية جدا، ولكننا عندما نبدأ فى دراستها عن قرب فإننا سنجد أن نشاطاته وإنجازاته الناتجة عن هذه الطموحات لا تفيد المجتمع فى شيء ولا تسهم فى رفاهية ورخاء المجتمع، وهذا لأن كل طموحاته كانت غير اجتماعية، بل إنها تمثل عقبات فى طريق البشر، وبالتدريج ستبدأ خصائص مميزة أخرى فى الظهور، وإذا ما فحصنا علاقاته الإنسانية بدقة، فإننا سنجد أنها تتخذ جانبًا عدائيا من المجتمع بطريقة متزايدة.

وأهم هذه الخصائص المميزة أو الصفات هى الغرور، والفخر، والرغبة فى النيل من الجميع بأى ثمن، وهذه الصفة الأخيرة قد تكون مهذبة ومصقولة بطريقة ماكرة بحيث تصعب ملاحظتها، والفرد منهم يحصل على الشعور بالارتفاع والتعالى على الآخرين من خلال تحقير كل من يتصل به، وفى هذه الحالة فإن الأمر المهم هو "المسافة" التى تفصله عن الآخرين.

إن مثل هذا الموقف غير مريح بالنسبة للمجتمع، وهو أيضًا متعب وغير مريح بالنسبة للفرد الذى يتبناه، لأنه يجعله على اتصال دائم بالجانب المظلم من الحياة، ويمنعه من الاستمتاع بملذات الحياة.

إن هذا الدافع القوى بطريقة مبالغ فيها - والذى يحاول به الطفل التأكيد على هيمنته وسيطرته الكاملة على البيئة المحيطة - سرعان ما يجبره على تبنى موقف رافض لكل المهام العادية والواجبات المفروضة علينا جميعًا فى حياتنا اليومية، وعندما نقارن بين فرد من هذا النوع المتعطش دائمًا للقوة وبين الكائن الاجتماعى المثالى، فإنه يمكننا - بالقليل من الخبرة - أن نحدد "فهرسه الاجتماعى" His social index الذى يدل عليه، أى الدرجة التى وصل إليها فى إبعاد نفسه عن باقى أفراد المجتمع، ومن يستطيع الحكم بصدق على الطبيعة البشرية، يعرف أن مثل هذه الخصائص المميزة لا تظهر إلا نتيجة لوجود صعوبات سابقة حدثت فى أثناء النمو والتطور النفسى لهذا الفرد.

عندما نكتسب معرفة حقيقية وشاملة عن الطبيعة البشرية - مبنية على الأخذ فى الاعتبار مدى أهمية الصعوبات التى تحدث خلال عملية نمو وتطور النفس - فإن هذه المعرفة لا يمكن أن تكون أداة فى إلحاق الأذى والضرر إلا إذا فشلنا فى

تطوير شعورنا الاجتماعى، أما إذا كان لدينا حس اجتماعى قوى، فإنه لن يمكننا استخدامها إلا فى مساعدة الآخرين.

يجب علينا ألا نوجه اللوم لكل من يعانى من إعاقة جسدية، أو له مميزات شخصية لا تتوافق معنا لأن مثل هذا الفرد يكون غير مسئول عن عاهته، بل يجب علينا أن نعترف بأن له الحق فى أن يكون ساخطًا وناقمًا، ولا يجب أن ننسى أننا مسئولون مسئولية جزئية عن وضعه هذا، وعلى هذا فإن اللوم يقع علينا جميعًا، لأننا لم نقم بما فيه الكفاية لمنع هذا البؤس الاجتماعى الناتج عنه، وإذا التزمنا بوجهة النظر هذه فإنه يمكننا - بالتدريج - أن نحسن من هذا الوضع المأساوى.

فعندما نتعامل مع مثل هذا الفرد، فإننا لا يجوز أن نعامله على أنه منبوذ، ومنحط، ولا قيمة له، بل يجب أن نعامله على أنه زميل لنا فى البشرية، فإنه بإمكاننا أن نخلق جوا يمكن فيه لمثل هذا الفرد أن يشعر بقيمته وقدره، وأنه مساو لأى شخص آخر، ودعنا نعترف بأن رؤية الفرد الذى يعانى من إعاقة جسدية شديدة تسبب لنا الكثير من الإزعاج، وهذا مؤشر قوى على حجم التعليم الاجتماعى الذى يحتاجه كل فرد منا، كما أنه يساعدنا فى الحكم على حضارتنا، فإن هذه الحضارة مدينة بالكثير لأمثال هذا الفرد المعاق.

ومن الواضح أن الفرد المولود بإعاقة جسدية يشعر أن عليه أن يحمل عبئًا إضافيا منذ أول أيام حياته، وكنتيجة لهذا فإنه يصبح شديد التشاؤم من الحياة ككل، والطفل الذى يعانى من كثير من مشاعر الدونية، وحتى عندما تكون إعاقته الجسدية من البساطة بحيث يمكن التغاضى عنها، فإنه يكون فى موقف مشابه، فإن مشاعر الدونية قد تتركز بطريقة صناعية، مثلها فى ذلك مثل حالة الطفل الذى أتى إلى العالم بإعاقة جسدية شديدة.

كذلك فإن التربية شديدة التزمت - خلال الفترة الحرجة من عملية النمو والتطور - قد تتسبب فى مثل هذه النتائج المأساوية، فإن الشوكة التى تجرح الطفل فى أيامه الأولى لا تتم إزالتها أبدًا، وتلك البرودة التى شعر بها الطفل تجعله يتحاشى الاقتراب من الآخرين، وهكذا فإنه يبدأ فى الاعتقاد بأن العالم خال من الحب والتعاطف، ولا يمكن التواصل معه، ودعنا نعطى هذا المثال للتوضيح:

إن المريض فى هذه الحالة معروف عنه أنه يتفاخر دائمًا بشعوره بالمسئولية وأهمية كل أفعاله، وهو يخبرنا أن حياته الزوجية غير سعيدة على الإطلاق، فإن

كلا منهما يقيس – بدقة متناهية – قيمة كل حدث ويقــدرها علـــى أنهـــا وســـيلة لإخضاع الطرف الآخر، وهكذا فإن المجادلات والتأنيب والتوبيخ والإهانات، هـــى أشياء معتادة بينهما، ومن خلال كل هذا خرجت النتيجة المحتومـــة، فـــإن التنـــافر ازداد بينهما حتى إنهما قد أصبحا كالغرباء، والقليل من الشعور الاجتماعى – تجاه زوجته وأصدقائه – الذى تبقى للزوج خنقه تعطشه الدائم وســعيه الحثيــث نحــو تحقيق "التفوق".

ولقد عرفنا الحقائق التالية عن قصة حياة هذا المريض، فقد عانى هذا المريض من معدل نمو جسدى منخفض جدا حتى بلغ السابعة عشرة من عمـــره، فحتـــى هـــذا العمر كان صوته مثل أصوات الصبيان الصغار، كما أنه لم يتطـــور جســـديا وبقـــى وجهه خاليًا من الشعر حتى إنه أصبح واحدًا من أصغر الفتيان فى مدرسته، أمـــا الآن فقد بلغ السادسة والثلاثين من عمره وأصبح طبيعيا من الناحية الجسدية، فمن الواضـــح أن الطبيعة قد تأخرت قليلاً فى منحه كل صفات الرجولة، وأن هذا التأخر استمر لمـــدة ثمانى سنوات، ولكن هذه السنوات الثمانى جعلته يعانى أشد المعاناة بسبب نقص نمـــوه وتطوره، وخلال هذا الوقت الطويل لم تكن لديـــه أى ضـــمانات أن الطبيعـــة ســـوف تعوضه عن هذا النقص، كان المريض يعانى الأمرين خلال هذه الفترة، وكانت فكـــرة بقائه فى هذا المظهر الطفولى إلى الأبد، تعذبه ليل نهار.

وفى هذا العمر كان الجميع قد بدءوا يلاحظون بوادر شخصـــيته الحاليـــة، والتى كانت قد بدأت فى الظهور، فهو قد بدأ يتصرف وكأنه أهم رجل فى الكـــون، وكأن كل أفعاله تحمل أهمية قصوى، كان يقوم بحساب كل شىء وكل الظـــروف قبل أن يفعل أى شىء محاولاً جعل نفسه مركزًا لاهتمام الجميع، وبالتدريج تحـــول إلى ما هو عليه الآن، وبعد أن تزوج كان دائمًا مشغولاً بمحاولاته للتـــأثير علـــى زوجته وإقناعها بأنه أكبر وأكثر أهمية مما كانت تظن، بينما شغلت هـــى نفســـها بمحاولات مستميتة لإظهار زيف محاولاته للتأثير عليها وإقناعها بأهميته، وتحـــت ضغط هذه الظروف فإن العلاقة بينهما – والتى كانت مضطربة جدا حتى خـــلال فترة الخطوبة – أصبحت مستحيلة، ولم تعد هنـــاك إمكانيـــة لإنجاحهـــا، وأخيـــرًا انهارت العلاقة بينهما تمامًا، وعندها ذهب المريض لزيارة الطبيـــب النفســـى؛ لأن انفصاله عن زوجته أظهر – له – بوضوح مدى تهدم وخراب احترامه لذاته وثقته بنفسه، والذى كان يعانى بالفعل أشد المعاناة بسبب تأخر نموه وتطوره الجسدى.

إذا أردنا مساعدة هذا المريض، فإنه يجب علينا أولاً أن نفهمه ونوضح له – عن طريق الطبيب النفسى – العديد من الأشياء عن "الطبيعة البشرية"، كما أنه علينا أن نجعله يواجه أخطاءه التى ارتكبها فى مرحلة مبكرة من شبابه، فإن هذه الأخطاء، وهذه التقديرات غير السليمة لحجم النقص والدونية التى كان يعانى منها قد صبغت كل حياته حتى لحظة دخوله لعيادة الطبيب النفسى.

صورة الحياة والكون:

إنه من المفيد أن نأخذ حالات مرضية – مثل الحالة السابقة – فى الاعتبار لأنها تظهر لنا العلاقات الموجودة بين خبرات الطفولة وبين الشكوى الحالية كما يصفها المريض، ومن أفضل الطرق لتوضيح هذه العلاقات هى استخدام الرسم البيانى.

إن العلاقة تمثل عن طريق خط مستقيم يصل بين نقطتين، وفى الكثير من الحالات عندما نخطط لاستخدام الرسم البيانى، فإن المنحنى النفسى – الذى يمثل نمو وتطور الفرد – يظهر نمط سلوك الفرد الذى اتبعه الفرد منذ أول مراحل طفولته، وربما يشعر القارئ بأننا نقلل من قدر الإنسان عن طريق استخدام هذا التبسيط المبالغ فيه، وقد يحاول الآخرون أن يقولوا: إننا حاولنا إنكار أن الإنسان هو الذى يصنع قدره بنفسه وأن مصيره بين يديه وحده، وأننا بهذا نحاول الادعاء بأن الإنسان ليس حر الإرادة وقادرًا على الحكم على نفسه بنفسه.

وبخصوص حرية الإرادة فإن هذا الاتهام صحيح، فإننا نتعامل هنا مع نمط سلوكى محدد، وبالرغم من أن شكله النهائى مازال معرضًا للتغيير، فإن صلب هذا النمط السلوكى ومحتوياته الأساسية وقدراته اللحظية ومَعناه، تبقى ثابتة بلا أى تغيير منذ مراحل الطفولة الأولى، وهذا النمط السلوكى هو العامل المحدد، بالرغم من أن تطور الفرد ونموه يجعل علاقته المتغيرة بعالم البالغين تميل إلى تحوير وتغيير بعض جوانب المشكلة بدرجة طفيفة.

وخلال دراستنا فإنه يجب علينا أن نعمل على إخراج كل خبرات المريض – منذ مراحل الطفولة الأولى وحتى الآن – من مكمنها وفحصها فحصًا دقيقًا،

وهذا لأن الانطباعات - التى تتركها هذه الخبرات - على المريض خلال مراحل الطفولة المبكرة تشير إلى الاتجاه الذى سينمو ويتطور نحوه الطفل، كما أنها تشير إلى الطريقة التى سيستجيب بها فى المستقبل لكل التحديات التى تضعها أمامه الحياة، وردود أفعال الفرد فى مواجهة هذه التحديات ستستخدم كل الأدوات الجسدية والعقلية التى ولد بها هذا الفرد وتلك الضغوط التى شعر بها خلال الأيام الأولى من مولده سوف تصبغ موقف الفرد كله تجاه الحياة وتحدد بطريقة بدائية وجهة النظر التى سيأخذها من العالم، وفلسفته فى مواجهة الكون ككل، ولا يجوز أن نفاجأ عندما نعلم أن الفرد لا يغير موقفه - الذى تشكل وهو مازال فى مرحلة الرضاعة - تجاه الحياة، وبالرغم من أن طريقته فى التعبير عن هذا الموقف تكون مختلفة تمامًا خلال المراحل التالية من حياته.

ومن المهم هنا أن نذكر أنه لا يجوز تعريض الطفل الصغير لعلاقات يكون من المرجح أن تعطيه انطباعًا خاطئًا عن الحياة، لأن قوة جسد هذا الطفل وقدرته على المقاومة هى عامل مهم يجب أخذه فى الاعتبار، كذلك فإن وضعه الاجتماعى والخصائص المميزة للقائمين على تعليمه على الدرجة نفسها من الأهمية ويجب أخذها فى الاعتبار أيضًا.

إن ردود أفعال الطفل نحو الحياة - فى البداية - تكون أوتوماتيكية وتلقائية ولكن فى المراحل التالية فإنه يتم تعديلها حتى تتلاءم مع "شعور معين خاص بالرغبة فى تحقيق الهدف Sense of purpose"، وفى البداية فإن الضرورات الجسدية هى التى تكيف آلام الطفل ولذاته، ولكن فيما بعد فإن الطفل يكتسب القدرة على تجنب ضغوط هذه الحاجات البدائية، وتحدث هذه الظاهرة فى الوقت نفسه الذى يبدأ فيه الطفل اكتشاف ذاته، وهو حوالى الوقت نفسه الذى يبدأ فيه الطفل فى الإشارة إلى نفسه باستخدام كلمة "أنا".

وأيضًا - فى ذلك الوقت نفسه - فإن الطفل يكون واعيًا بالفعل لأنه يقف فى وضع ثابت فى علاقاته بالبيئة المحيطة به، وإن هذه العلاقة غير متعادلة لأنها تجبر الطفل على افتراض موقف مختلف Different attitude، وأن يعدل من علاقاته ويكيفها طبقًا لـ"المتطلبات" التى فرضتها وجهة نظره نحو العالم، وطبقًا لـ"فهمه" لما يسبب له السعادة (اللذة) ولما يعطيه الإشباع الكامل.

ولابد أننا مازلنا نتذكر ما سبق وقلناه عن غائية Teleology (*) العقل البشرى، وسيصبح واضحًا أن الوحدة الأبدية لابد من أن تكون أحد الخواص لهذا النمط السلوكى (غائية السلوك)، وكل هذا سيظهر ضرورة التعامل مع الإنسان على أنه شخصية واحدة لا يمكن تقسيمها، وخاصة فى تلك الحالات التى يظهر فيها ما يبدو وكأنه تعبيرات متباينة لأهداف نفسية.

إن هناك العديد من الأشخاص البالغين، والتى تبدو خصائص شخصية الواحد منهم شديدة التناقض، حتى إن شخصيته الحقيقية تكون كاللغز الغامض بالنسبة لنا، مثله فى ذلك مثل الطفل الذى يتصرف بطريقة مختلفة تمامًا فى المدرسة عنه فى المنزل، وبالطريقة نفسها أيضًا، فإن حركات وتعبيرات فردين قد تكون متطابقة إلى حد بعيد، ولكن عندما يتم فحصها بدقة وعن قرب، فإننا نكتشف الأنماط السلوكية المختلفة تمام الاختلاف والكامنة وراء الحركات والتعبيرات التى تبدو - ظاهريا - متطابقة.

وعندما يبدو لنا أن هناك فردين يقومان بالفعل نفسه، فإن الحقيقة هى أن كل واحد منهما يقوم بعمل مختلف تمامًا عن الآخر، ولكن عندما يبدو لنا أن هناك فردين يقومان بعملين مختلفين فإن الحقيقة يمكن أن تكون أنهما يعملان الشىء نفسه!.

وبسبب هذا الغموض فإنه يصبح من الصعب علينا الحكم على تعبيرات النفس Psyche بوصفها ظاهرة معزولة، ويكون علينا تقييم هذه التعبيرات طبقًا للهدف العام الذى تسعى إليه هذه التعبيرات، ولا يمكن فهم المعنى الرئيسى لهذه الظاهرة إلا إذا عرفنا مقدار أهميتها وحجمها بالنسبة لحياة الفرد ككل، ولا يمكننا أن نفهم كيفية عمل عقل مثل هذا الفرد إلا عندما نؤكد القانون الذى يقول بأن كل تعبير من تعبيرات حياة الفرد ما هو إلا جانب من جوانب نمط سلوكه الكلى.

وعندما نفهم أن السلوك البشرى مؤسس على السعى الحثيث نحو تحقيق هدف ما، فإنه يمكننا الإشارة إلى المناطق التى يكون من المحتمل أن يحدث فيها أكثر الأخطاء شيوعًا، ومصدر هذه الأخطاء يكمن فى أننا جميعًا نستخدم

(*) كون الشىء - وبخاصة الطبيعة وعملياتها - موجهًا نحو غاية ما، أو الاعتقاد بأن كل شىء فى الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة. (المترجم)

انتصاراتنا وقناعتنا طبقًا لتكويننا النفسى، وبطريقة تمكننا من تطبيق نمطنا الفردى فى الحياة وإثبات صحته، ويكون هذا ممكنًا لأننا لا نحلل أى شىء بطريقة علمية منصفة، ولكننا نعيد تشكيل طريقة فهمنا فى ضوء عقلنا الواعى، أو فى ضوء مدى أعماق عقلنا الباطن (غير الواعي)، والعلم وحده هو الذى يستطيع أن يوضح ما سبق ويجعله قابلاً للفهم، والعلم وحده قادر على تعديله، وسنتوقف عند هذه النقطة وننهى هذا العرض باستخدام أحد الأمثلة، وفى هذا المثال فإننا سنشرح ونحلل كل الظواهر باستخدام الجوانب المختلفة لعلم النفس الفردى والتى تعلمناها بالفعل فيما سبق:

امرأة شابة أتت إلى مكتبى وهى تشكو من عدم رضاها الشديد عن الحياة، وهى تقول إنها غير قانعة بحياتها، وهذا هو ما قالته:

"إن كل يوم من أيام حياتى ممتلئ بعدد لا نهائى من الواجبات المتنوعة، والتى لا نهاية لها".

إذا حكمنا على الظواهر فإننى أرى أنها من النوع المتهور المتسرع فاقد الصبر، فإن عينيها لم تتوقف عن الحركة، كما أنها شكت لى من أنها تعانى من قلق عظيم تشعر به كلما كان عليها أن تؤدى بعض المهام البسيطة غير المعتادة، كما أننى عرفت – من خلال عائلتها وأصدقائها – أنها شديدة الحساسية، وأنها تبدو وكأنها لا تستطيع تحمل الأعباء الشخصية الملقاة على عاتقها، وكان الانطباع العام الذى خرجت به هو أنها شخص يأخذ جميع الأمور بجدية شديدة، وهى خاصية شائعة بين الكثير من الناس، وقد أخبرنى أحد أفراد أسرتها بالسبب عندما قال:

"إنها دائمًا ما تعمل من الحبة قبة، وتقوم بتهويل كل شىء وإعطائه حجمًا أكبر من حجمه الطبيعى".

دعنا ندرس هذا الميل إلى التهويل، ونأخذه فى الاعتبار، فإنها كانت تعتبر كل مهمة بسيطة شيئًا شديد الصعوبة والأهمية، وكانت تختبر هذه المهمة بأن تحاول أن تتخيل نوع الانطباع الذى سيخلفه سلوكها على الأفراد المحيطين بها. إن مثل هذا الميل نحو التهويل ما هو إلا صرخة تناشد بها العالم المحيط بها فى ألا يعطيها أى أعمال جديدة، لأنها تشعر بأنها غير قادرة على تحمل المزيد من الأعباء.

ولكننا مازلنا - حتى هذه اللحظة - لا نعلم ما فيه الكفاية عن شخصية هـذه المرأة الشابـة، ويجب علينا أن نحصل على المزيد منها، ونجعلها تخبرنـا عـن نفسها، ولكن علينا أن نكون حذرين، وأن نتقدم بالتدريج ومـن خـلال التلميحـات والإشارات وبرقة متناهية، ولا يجوز أن تكون هناك أى محاولات للسيطرة علـى المريض، حيث إن مثل هذه المحاولات ستزيد من نفور المريضة وعدائها، ومتـى استطعنا اكتساب ثقتها، وأصبحنا قادرين على أن نجعلها تتكلم معنا بحريـة، فإننـا سنكتشف أن حياتها كلها مشغولة بهدف واحد ووحيد.

إن سلوك هذه المرأة الشابة يبدو لنا وكأنها تحاول أن تجذب انتباه أحـدهم - ربما يكون هذا الشخص زوجها - وأن تقول له إنها لا تستطيع أن تأخذ أى أعبـاء جديدة أو مسئوليات أخرى، وإنها يجب أن تعامل برقة وحنان، وإنه يجب أن يـتم أخذ مشاعرها فى الاعتبار، ويمكننى أيضًا أن أخمن أن كل هذا قد بدأ فى الماضى، عندما كان الكثير من الأعباء ملقى على عاتقها، كما أننـى نجحـت فـى انتـزاع اعتراف منها بأنها - منذ سنوات عديدة - كانت مجبرة على أن تعيش لمدة طويلة، حيث افتقدت وجود العاطفة فى حياتها أكثر من أى شيء آخر فى العالم.

والآن يمكننا أن نفهم سلوكها بطريقة أفضل، فهى تحاول التأكيد على رغبتهـا الشديدة فى أن يحس زوجها بها، وأن يأخذ مشاعرها فى الاعتبار، وهو محاولة منها لمنع تكرار وقوع ذلك الوضع السابق والذى افتقدت فيه وجود أى عاطفة فى حياتها، وبقى جوعها - طوال تلك المدة - وحاجتها للشعور بالدفء والحنان غير مشبعة.

ولقد ثبتت صحة استنتاجاتى خاصة عندما أخبرتنا هذه المرأة الشـابة عـن إحدى صديقاتها - والتى تختلف عنها فى كل شيء، كما أن هذه الصـديقة كانـت ترغب فى الخلاص مِن زيجتها غير السعيدة - فقد وجدت هذه الصديقة تقف وهى تحمل كتابًا فى يدها وتخاطب زوجها فى صوت يملؤه الملل قائلة:

"أنا لن أكون قادرة على إعداد الطعام اليوم".

وقد تسبب هذا القول فى ضيق شديد لزوج الصديقة، حتى إنه بـدأ ينتقـدها بشدة وبلهجة قاسية، وكان تعليق مريضتنا هو:

"عندما أفكر فيما حدث بين صديقتى وزوجها، فإننى أعتقد أن طريقتى فـى التعامل مع زوجى أفضل بكثير، فلن يوجد من يستطيع أن ينتقدنى بهـذه اللهجـة

القاسية، لأننى أحمل على أكتافى الكثير من الأعباء التى تشغلنى منذ بزوغ الشمس وحتى غروبها، فإذا تأخر الطعام فى منزلى، فلن يجرؤ أى فرد على توبيخى بسبب كثرة أعبائى، ولهذا فإنى أعتقد بأنه على أن أتمسك بأسلوب الحياة الذى أتبعه".

الآن يمكننا فهم ما يجرى فى عقلها، فهى تحاول - بطريقة مهذبة - أن تحقق هدفها فى التفوق، وبحيث تظل - فى الوقت نفسه - فوق اللوم، وقد تمكنت من تحقيق هذا عندما ادعت - باستمرار - أنها مشغولة، وأنها فى حاجة إلى من يشعر بها ويأخذها فى الاعتبار، وحيث إن هذه الإستراتيجية ناجحة من كل الجوانب، فإنه يكون من الصعب أن نطلب منها التخلى عنها، ولكن سلوكها يتضمن أشياء أخرى بخلاف الرغبة فى تحقيق هدفها فى التفوق.

إن استغاثتها ومطالبتها - والتى ما هى إلا محاولة للهيمنة والسيطرة على الآخرين - المتكررة لا يمكن أن تكون - من وجهة نظرها - بالقوة الكافية، وينتج عن هذا الكثير من المشاكل، فلو أن أحدهم ترك شيئًا ما فى غير مكانه من منزل الأسرة، فإن هذا يعنى بالنسبة لها فرصة جديدة للتهويل، وحيث إنها تدعى أن لديها الكثير لتفعله حتى إنها تعانى باستمرار من الصداع، فإنها تصبح - خلال الليل - غير قادرة على النوم العميق، لأنها دائمة القلق على كل شىء فى نشاطاتها الماضية والحاضرة والمستقبلية. إن الدعوة لتناول الطعام مناسبة مهمة تحتاج لكثير من الاستعدادات الضرورية حتى يمكن قبولها، وحيث إن أقل كمية من النشاط تبدو - بالنسبة لهذه المرأة الشابة - ذات أهمية قصوى، فإن قبول الذهاب إلى حفل طعام سيكون - بالنسبة لها - مهمة بالغة الصعوبة تتطلب ساعات بل وأيامًا من الاستعداد حتى يمكن الانتهاء منها على الوجه الأكمل، ويمكننا أن نتوقع أنها إما أن تعتذر عن الحضور، وإما أن تذهب متأخرة، وهذا لأن الشعور الاجتماعى فى حياة من هم مثلها لا يمكن أن يتخطى حدودًا معينة.

فى الحياة الزوجية هناك العديد من "الحالات" التى تفترض أهمية خاصة، لأنها تطالب بأخذها فى الاعتبار، وعلى سبيل المثال، فإنه يكون من المفهوم، أنه على الزوج (أو الزوجة) أن يحضر اجتماعات مسائية تتعلق بالعمل، أو أن يكون بعيدًا عن البيت لفترات تطول أو تقصر، أو أن يشترك فى لقاءات جماعية فى النادى أو غيره من الأماكن الاجتماعية، وعندها يكون شريك الحياة وحيدًا بمفرده فى المنزل، فهل يمكننا اعتبار مثل هذا السلوك قسوة لا داعى لها؟ أو خروجًا على

القواعد المتعارف عليها بين الزوجين؟، بالطبع لا، وبالرغم من أن البعض يعتقد أن الزواج يعنى أن يكون الشريكان فى منزل الأسرة معًا معظم الوقت أو بقدر الإمكان، ورغم أن هذا الواجب يجب أن يكون محببًا إلى النفس، لكننا إذا بالغنا فى المطالبة به، فإننا قد نتسبب فى صعوبات كبيرة بالنسبة لكل من له وظيفة تتطلب منه واجبات محددة.

وكما أن المتاعب تحدث لكل من يبالغ فى المطالبة ببقاء شريك حياته إلى جانبه، فإن المشاكل قد بدأت تحدث فى هذه الحالة أيضًا، فإن الزوج كان يحاول - عندما يعود متأخرًا من أحد الأعمال المتعلقة بوظيفته - أن ينسل بهدوء إلى داخل الفراش محاولاً جهده أن لا يزعج مريضتنا الشابة، ليكتشف أنها مازالت مستيقظة، وأنها ممتلئة بالغضب عليه وأنها ترغب فى تأنيبه بشدة.

ولا داعى لذكر المزيد من التفاصيل، فإن المشكلة معروفة، لكن من الواجب التأكيد على أن النساء لسن وحدهن اللائى يتصرفن بهذه الطريقة، بل إن الرجال أيضًا معروفون باتخاذ الموقف نفسه، وسنحاول أن نوضح أن المطالبة بالحنان والرعاية وأن يأخذ شريك الحياة فى الاعتبار أحاسيس ومشاعر شريكته قد يأخذ اتجاهًا مختلفًا وغير سليم فى بعض الحالات، وفى هذه الحالة فإن المرأة الشابة اتخذت مطالبها النمط التالى:

إذا كان على الزوج أن يخرج فى فترة المساء فإنها كانت تقول له:

"لا تشغل بالك بى، ولا تحاول العودة مبكرًا، فأنت لا تخرج كثيرا، على أى حال استمتع بأمسيتك".

وبالرغم من أنها كانت تقول هذه الكلمات بلهجة مرحة، فإن كلماتها كان لها معنى شديد الجدية. إنها تظهر بمظهر مناقض لما نعرفه عنها، ولكن عندما نفحص موقفها بدقة وعن قرب فإننا نرى الصلة بين مظهرها المناقض والحقيقة التى نعرفها عنها.

فهى لا تريد أن تبدو لَحُوحة أو كثيرة المطالب، ومن الناحية الظاهرية فإنها تتكلم بصورة مقنعة، وتبدو مخلصة فيما تقوله، ومع هذا فإن المعنى الحقيقى لكلماتها يكمن فى أنها هى التى تسمح لزوجها بالخروج لساعة متأخرة، والآن - حيث إنها سمحت له رسميا - فإنه يمكنه البقاء لوقت متأخر، ولكنها كانت ستصبح

متضررة وتشعر بالإهمال، إذا ما قرر هو أن يتأخر بدون إذنها. إن كلماتها تلقى بظلالها على الوضع كله، فلقد أصبحت الشريك الذى له حق التوجيه فى هذا الزواج، وفرضت على زوجها انتظار رأيها ومشيئتها قبل أن يصبح قادرا على التصرف حتى فى الأمور البسيطة.

والآن دعنا نحاول الربط بين هذا الجوع الشديد نحو مزيد من الرقة والحنان والرعاية، وبين فكرتنا أن هذه المرأة تستطيع أن تتعامل مع الأوضاع التى تتحكم فيها فقط، وسنكتشف أنها - طوال حياتها أثبتت وجودها عن طريق الإصرار أن تكون فى الصدارة فى أى وضع تجد نفسها فيه، وأن تصر على الهيمنة على الوضع بأكمله، وألا تسمح لأى قدر من التأنيب أو التوبيخ بأن يدفعها بعيدا عن وضعها الآمن وأن تكون دائما فى مركز عالمها الصغير، وسنجد هذا الإصرار موجودًا فى جميع مواقف حياتها، وعلى سبيل المثال فإنها عندما بدأت فى تعيين خادمة جديدة، فإنها كانت فى أشد حالات الإثارة، ومن الواضح أنها كانت تسعى لبسط سيطرتها على الخادمة الجديدة كما فعلت مع سابقتها، وبالطريقة نفسها فإنها عندما كانت تخرج من المنزل كانت تترك من خلفها ما يؤكد سيطرتها، ولكنها كانت تخرج إلى عالم لا يعترف بهذه السيطرة، وحيث كان عليها أن تتفادى كل عربة قادمة وكل عقبة تعترض طريقها، وفى هذا العالم الخارجى فإنها كانت تلعب دور التابع وليس القائد المسيطر، ومن هذا يتضح لنا سبب الضغوط العصبية التى كانت تعانى منها ومعناها، لأننا أصبحنا نفهم سبب الطغيان والسيطرة التى تمارسها على كل من فى داخل حدود منزلها.

إن مثل هذه الخصائص تتخفى خلف مظاهر جميلة حتى إنه لا يمكن لأى شخص - من النظرة الأولى - أن يعرف أنها تعانى، ولكن هذه المعاناة يمكن أن تصل فى حدتها إلى آفاق بعيدة، فهناك الكثير من البشر الذين يخاف الواحد منهم أن يركب الحافلة لأنه داخل الحافلة لا يشعر بأنه هو الشخص المسيطر على مصيره، وقد يتزايد هذا الخوف حتى يصبح أمثال هذا الفرد غير قادرين على ترك منازلهم على الإطلاق.

ولقد حدث ما يثبت أن تأثير انطباعات الطفولة على حياة الفرد هو تأثير باق لا يفنى أبدًا، فإنه لا يمكن إنكار حقيقة أن هذه المرأة - من وجهة نظرها - على صواب، لأنه إذا كان موقف الشخص وحياته كلها مركزين حول المطالبة باهتمام

الآخرين واحترامهم وتقديرهم، فإنه من الطبيعى أن يتصرف هذا الفرد كما لو كان دائمًا مثقلاً بالأعباء والمسئوليات ويعانى من إرهاق دائم، فإن مثل هذا "التصرف" طريقة ممتازة لتحقيق هدفها ولتجنب النقد، وفى الوقت نفسه فإنه يجبر الجميع على أن يكون رقيقًا وظريفًا معها، كما أنه يجنبها كل ما قد يعرض "توازنها النفسى" المهزوز للإزعاج.

وإذا رجعنا إلى الخلف وتفحصنا ماضى هذه المريضة، فإننا سنعلم أنها كانت تنفعل بشدة وتتضايق عندما تعجز عن تأدية واجباتها المدرسية – عندما كانت فى مرحلة الدراسة الابتدائية – وأنها بهذه الطريقة أجبرت مدرسها على أن يكون رقيقًا معها، كما أننا علمنا أيضًا أنها كانت أكبر أخواتها – كان هناك أخ ذكر فى الوسط وأخت صغرى – وأنها كانت فى حالة حرب دائمة مع أخيها لأنه كان المفضل، وأكثر ما ضايقها أن أفراد العائلة من حولها قد بالغوا فى اهتمامهم بإنجازاته المدرسية، بينما لم تلق إنجازاتها المدرسية أى اهتمام، كانت مريضتنا تلميذة مجتهدة فى البداية، وأخيرًا فقدت قدرتها على الاحتمال، وتحولت – منذ تلك اللحظة – إلى شخص كثير التذمر والشكوى.

ومن هنا يمكننا فهم أن تلك الفتاة الصغيرة كانت تسعى نحو المساواة، وأنها كانت منذ اللحظة الأولى تسعى بشدة للتغلب على شعورها بالنقص الذى ملأ كيانها، وكانت وسيلتها فى الحصول على تعويض هى أن تتحول إلى تلميذة كسولة داخل المدرسة، أى أنها حاولت التغلب على أخيها الأصغر من خلال الحصول على تقارير مدرسية سيئة!! ولا يمكن مدح مثل هذا الأسلوب، ولكن طبقًا لفهمها الطفولى فإنها كانت تتصرف بطريقة منطقية، لأن الحصول على تقارير سيئة ما هو إلا طريقة ممتازة لجذب انتباه والديها، كما أنها كانت تبدو واعية تمام الوعى بمعنى بعض الحيل والطرق التى استخدمتها لأنها أعلنت – ذات مرة – أنها تريد أن تصبح تلميذة كسولة.

ولكن الطريقة السابقة لم تنجح، لأن الوالدين لم يبذلا أى جهد لمعرفة سبب فشلها فى المدرسة، ومما زاد الطين بلة أن أختها الصغرى بدأت فى الظهور على مسرح الأحداث فى دور لا يمكن تجاهله، فهذه الأخت الصغرى فشلت فى المدرسة أيضًا، ولكنها لقيت الكثير من الاهتمام – اهتمام مماثل أو أكثر من الاهتمام الذى لقيه نجاح الأخ الأوسط – وكان السبب فى هذا أن فشل الأخت الصغرى اتخذ

اتجاهًا مختلفا، فبينما كانت تقارير مريضتنا العلمية هى فقط التقارير السيئة، فإن أختها الصغرى كانت لها تقارير سيئة خاصة بسلوكها فى المدرسة، وبالطبع جذب هذا انتباه واهتمام الأم بسهولة لأن السلوك السيئ له تأثيرات اجتماعية أكثر خطورة. كانت هذه التقارير السلوكية السيئة كلها تعنى وجود حالة طوارئ أجبرت الأب والأم على التفرغ التام لمعالجة أمر الأخت الصغرى.

لقد خسرت مريضتنا معركتها من أجل الحصول على المساواة بصورة مؤقتة، ولكن خسارة مثل هذه المعركة لا تقود أبدًا إلى حدوث سلام دائم، فلا يوجد أى فرد – أيا كان – يستطيع أن يتحمل مثل هذا الوضع، وبالمثل فإن مريضتنا وجدت طرقًا أخرى لجذب الانتباه إليها، ولكن لسوء الحظ فإن هذه الطرق تركت أثرها الدائم على شخصيتها، ويمكننا الآن أن نفهم – بطريقة أكثر كمالاً – معنى المبالغات والتهويل الذى كانت تقوم به مريضتنا والسبب فى عجلتها الدائمة ورغبتها العنيفة فى أن تظهر بمظهر الشخص المشغول جدا، فإن كل هذه الأفعال السابقة كانت موجهة – فى الأصل – نحو والديها بغرض جذب انتباههما وإبعاده عن الأخ والأخت الصغرى، وفى الوقت نفسه فإن هذه الأفعال كانت نوعًا من التأنيب الموجه نحو الأب والأم بسبب معاملاتهما لها، وإن موقفها Her attitude الأساسى والذى تكون فى تلك المرحلة المبكرة مازال معها حتى اليوم.

إذا حاولنا الرجوع إلى الخلف أكثر فى ماضى مريضتنا، فإننا سنكتشف أن لديها ذكرى واضحة، وفى هذه الذكرى فإنها تصف لنا كيف أنها كانت ترغب فى ضرب أخيها – الحديث الولادة فى ذلك الوقت – بقطعة من الخشب، وأن تدخل والدتها السريع منعها من أن تتسبب فى إصابة خطيرة له – فى ذلك الوقت كانت هى تبلغ الثالثة من عمرها – ولكن حتى فى ذلك الوقت المبكر جدا من حياتها، فإنها اكتشفت أن من حولها يقدرون أخيها الصغير أكثر منها بكثير بسبب كونها أنثى، كما أنها تذكرت بوضوح أنها عبرت – فى مناسبات عديدة – عن رغبتها فى أن تصبح ذكرًا. إن وصول هذا الأخ قد طردها من العش الدافئ الذى كانت تستمتع به وحدها، كما أنه وجه لها إهانة عميقة لأنه تمت معاملته بطريقة أفضل بكثير من أحسن طريقة حصلت هى عليها، وفى سعيها الحثيث للحصول على تعويض عن هذه الإهانة، فإنها وجدت هذه الطريقة فى التظاهر بالانشغال الدائم والأعباء التى لا تنتهى.

ودعنا الآن نحاول تفهم المعنى الخفى الكامن وراء واحد من أحلامها، وهذا الحلم سوف يظهر لنا أن نمطها السلوكى يضرب بجذوره العميقة فى أعماق روحها. لقد حلمت مريضتنا أنها تجلس فى منزلها وأن هناك نقاشاً ودياً يجرى بينها وبين زوجها، ولكن زوجها فى الحلم لم يكن يشبه الرجال، بل إنه اتخذ شكل امرأة. إن هذه هى طريقتها فى الرمز، وتتفق مع موقفها Her attitude الذى تعالج به كل الخبرات التى تمر بها وكل العلاقات التى تدخل فيها عن هذا الحلم يعنى أنها قد وجدت المساواة – أخيرًا – بينها وبين زوجها، فهو لم يعد الرجل المسيطر كما كان أخوها، حتى إنها رأته فى الحلم على شكل امرأة لا تختلف عنها فى شىء، فى حلمها هذا تمكنت من تحقيق الشىء الذى كانت دائما تتمناه منذ مراحل طفولتها الأولى.

وبهذه الطريقة فإننا نكون قد نجحنا فى الربط بين نقطتين على الخط الذى يمثل تطورها النفسى، ونكون قد اكتشفنا أسلوب حياتها Her life style، ومنحنى الحياة، ونمط سلوكها، ومن كل هذا فإننا نستطيع أن نستخرج صورة متكاملة يمكننا تلخيصها فى الآتى:

نحن نتعامل هنا مع شخص يسعى بشدة لأن يقوم بالدور المهيمن، ولكنه يستخدم فى ذلك طرقا لطيفة وودودة، أو كما يقول المثل قبضة حديدية فى قفاز من القطيفة.

الخصائص النفسية

الاستعداد للحياة:

إن واحدة من أهم العقائد الأساسية لعلم النفس الفردى هى أن كل ظاهرة من الظواهر النفسية تكون مناسبة لهدف بعينه، وكما شرحنا من قبل فإنه خلال نمو وتطور النفس Psyche يمكننا أن نرى عملية استعداد دائم للمستقبل، ومن خلال هذه العملية فإن رغبات الفرد تبدو كما لو كانت قد تحققت، وأن كل فرد من أفراد البشر قد مر بمثل هذه الخبرة، وكل الأساطير والملاحم التى تتكلم عن دولة مستقبلية مثالية إنما تتكلم فى الواقع عن هذا التحقيق والإشباع لرغبات الفرد، وهذا الاعتقاد بأنه كان هناك – ذات مرة – جنة، وصدى هذا موجود فى الرغبة فى استعادة هذه الجنة يمكن أن نجده فى جميع الديانات، كما أن الاعتقاد الشائع بخلود، الروح أو تناسخ الأرواح. ما هو إلا دليل مؤكد على اقتناعنا بأن الروح يمكنها أن تصل إلى وضع جديد تمامًا، وكل القصص الخيالية ذات النهايات السعيدة ما هى إلا شاهد على تلك الحقيقة، فإن البشرية مازالت تأمل فى الحصول على مستقبل سعيد، ولم تفقد الأمل بعد.

خلال نمو وتطور الطفل توجد ظاهرة مهمة، وهذه الظاهرة تظهر لنا بوضوح **عملية الاستعداد للمستقبل**، وهذه الظاهرة هى اللعب. إنه لا يجوز النظر إلى ألعاب الطفولة على أنها من خلق الوالدين والمدرسين، وأنها حدثت بطريقة اعتباطية، بل يجب أن نراها على أنها من الوسائل التى تساعد على التعليم، وأنها من المؤثرات التى تؤثر على نفسية الطفل وخياله ومهاراته المستقبلية. إن كل لعبة من تلك الألعاب ما هى إلا استعداد للمستقبل والطريقة التى يمارس بها الطفل لعبة من الألعاب، واختياره للعبة دون غيرها، والأهمية التى يعطيها لكل لعبة، تظهر لنا موقف هذا الطفل وعلاقاته بالبيئة المحيطة به وكيفية تواصله مع الآخرين.

فعندما يكون الطفل معاديًا، أو ودودًا، وعلى وجه الخصوص عندما يظهر الطفل بعض المميزات القيادية، كلها تظهر خلال اللعب، وبمراقبة الأطفال يمكننا

أن نرى موقف كل طفل منهم من الحياة، فإن اللعب هو أكثر الأشياء أهمية للطفل.

ولكن علينا أن نتذكر أن اللعب يعنى ويتضمن أشياء أكثر بكثير من مجرد الاستعداد للحياة! فإن هذه الألعاب ما هى إلا تدريب جماعى مشترك يُمَكن الطفل من تطوير شعوره الاجتماعى، والطفل الذى يتجنب الألعاب يجب أن يجعلنا نشك مباشرة فى أنه لم يستطع التكيف بدرجة كافية مع الحياة، هذا الطفل ينسحب من كل الألعاب، أو عندما يتم إرساله إلى الملعب - مع غيره من الأطفال - فإنه يفسد فرحة الآخرين باللعب، لأن كبرياءه ونقص احترامه لذاته وما يتبعهما من خوفه من أن يخطئ تكون الأسباب الثلاثة الرئيسية لسلوكه هذا، وعلى وجه العموم فإننا عندما نراقب الأطفال خلال اللعب فإنه يمكننا أن نحدد - بدرجة كبيرة من الثقة - حجم شعور الطفل الاجتماعى ونوعيته.

كما أنه أيضًا يمكننا الكشف عن هدف الطفل فى "التفوق" وهو يلعب، عندما نراه يميل إلى قيادة وتنظيم اللاعبين معه، ويمكننا اكتشاف هذا الميل من خلال الجهد الذى يحاول الطفل بذله، ومن خلال اختيار الألعاب التى تعطيه الفرصة لإشباع رغبته فى لعب دور القائد، ومعظم الألعاب تسمح لنا باستخدامها فى اكتشاف هذه الميول والدوافع: الاستعداد للحياة، والشعور الاجتماعى، السعى الحثيث للسيطرة "التفوق".

وهناك دافع آخر موجود فى عملية اللعب، وهذا الدافع هو تلك الفرصة التى يجدها الطفل للتعبير عن نفسه، فحيث إن معظم الأطفال يتركون ليلعبوا بحرية، فإن أداء الطفل يكون مدفوعًا بتفاعله مع بقية الأطفال، وهناك العديد من الألعاب التى تؤكد - على وجه الخصوص - هذه النزعة الخلاقة من خلال عملية الاستعداد لمهنة فى المستقبل، فإن هذه الألعاب تعطى الطفل فرصة مهمة على التدريب الخلاق، وفى الحياة الكثير من الحكايات التى تؤيد هذا، فكلنا سمع عن ذلك الطفل الذى قام بتفصيل لباس لدميته، وتحول بعد ذلك فى المستقبل لصنع أزياء البالغين.

إن اللعب مرتبط ارتباطًا شديدًا بالنفس Psyche، حتى إنه يمكننا القول بأن اللعب هو مهنة النفس، ولهذا فإنه لا يجوز لنا أن نعتبر إزعاج الأطفال ومنعهم عن اللعب أمرًا صغيرًا، ولا يجوز النظر إلى اللعب على أنه وسيلة لتمضية الوقت، وبالنسبة لهدف الاستعداد للمستقبل، فإن كل طفل يحمل فى داخله بعض خصائص

الشخص البالغ الذى سوف يكونه فى وقت من الأوقات، وهكذا فإنه - عند تقييمنا للفرد - يمكننا أن نصل إلى استنتاج دقيق وصائب عندما نكون على معرفة بطفولته.

النسيان والقدرة على التركيز:

إن القدرة على التركيز واحدة من أهم خصائص النفس Psyche ومساوية فى أهميتها للإنجازات البشرية، وعندما نركز على حدث بعينه - سواء كان هذا الحدث داخل أو خارج شخصنا - فإننا نشعر بنوع من الشدة العصبية والتى لا تنتشر فى جميع أنحاء الجسد، بل إنها تتركز فى أحد أعضائنا الحسية مثل العين على سبيل المثال، ويصبح لدينا هذا الشعور الخاص بأنه - بطريقة ما وفى مكان ما - هناك تلك الكمية من المعلومات التى علينا أن نتعامل معها، وفى حالة العين فإن تركيز نظرنا يعطينا هذا الشعور الخاص بالشدة العصبية.

إذا كان الجهد المبذول للعناية بشىء ما يتطلب نوعًا خاصا من الشدة العصبية فى أى جزء من أجزاء النفس Psyche، أو الجهاز العضلى، فإن هذا يعنى أن هناك شدات عصبية أخرى قد تم استبعادها، وبالمثل فإننا عندما نرغب فى العناية بأحد الأشياء، فإننا نحاول أن نستبعد كل الأشياء الأخرى التى يمكن أن تزعجنا.

ومن وجهة نظر النفس The Psyche فإن القدرة على التركيز تعنى اتخاذ موقف مستعد لأن يتصل - ذهنيا - بحقيقة محددة، أو وضع معين - ربما يكون الاستعداد لرد هجوم - وبالتأكيد كتركيز لكل مشاعرنا على شىء واحد على وجه التحديد.

إن كل إنسان - غير مريض عقليا - يمتلك القدرة على التركيز، وقد يتساءل البعض:

"لماذا إذن يوجد الكثير من الناس يعانون من عدم القدرة على التركيز؟".

للإجابة على هذا السؤال فإنه علينا أن ندرس العديد من المسببات مثل التعب والمرض لأنها تؤثر على قدراتنا على الانتباه والتركيز، وبالإضافة إلى هذا، فهناك

عدد من الأفراد ترجع عدم قدرتهم على التركيز إلى أنهم لا يرغبون فى التركيز والانتباه لأن ذلك الشيء - الذى يكون عليهم أن ينتبهوا إليه ويركزوا عليه - لا يتفق مع سلوكهم النمطى، ومن ناحية أخرى فإن قدراتهم على الانتباه والتركيز تستيقظ فورًا عندما يأخذون فى الاعتبار بعض الأشياء المهمة بالنسبة إليهم، هناك سبب ثالث أيضًا، ونجد هذا السبب فى ميل بعض الأفراد نحو المعارضة، والأطفال لهم طبيعة تعويقية، فإن الطفل غالبًا ما يجيب بالرفض لكل اقتراح يقدم له، لأن الطفل يشعر بأنه فى حاجة لأن يعبر عن معارضته بطريقة صريحة، ولهذا يكون من الواجب على المدرس أن يُعلم أمثال هذا الطفل ما هى المعارضة البناءة، وأن يعقد صلحًا بين الطفل والمقترحات التى تُقدم له عن طريق الربط بين المواد التعليمية وبين نمط سلوكه ويساعده فى تطبيق هذا على أسلوب حياته.

إن بعض الناس "يرى" و"يسمع" و"يفهم" كل مؤثر يصله، ولكن معظم الناس تكون لديهم حاسة واحدة هى المسيطرة والمهيمنة، وعلى هذا فإن بعض الناس تكون وسيلتهم الوحيدة للإحساس بخبرات الحياة هى العينان، وبالنسبة للبعض الآخر فإنهم ربما يعتمدون على الأذنين: إنهم لا يرون شيئًا، ولا يلاحظون شيئًا، وغير مهتمين بكل ما هو بصرى، ولكنهم متنبهين لأبسط الأصوات وأكثرها خفوتًا.

ومن ناحية أخرى فإننا قد نجد بعض الأفراد قادرين على التركيز فقط عندما يكونون فى وضع يتطلب منهم الاهتمام الشديد، وهذا لأن الحاسة القوية والمسيطرة عند مثل هذا الفرد تكون غير مثارة (غير شاعرة بالمثير).

إن أهم عامل فى إيقاظ قدرات الفرد على الانتباه والتركيز هو "الاهتمام" الأصيل وعميق الجذور بالعالم من حوله، وهذا لأن الاهتمام أعمق جذورًا من مجرد الانتباه والتركيز، فعندما يكون الفرد مهتمًا، فإنه من الواضح أنه ينتبه ويركز، وعندما يكون الاهتمام موجودًا، فإن المعلم لا يحتاج الكثير للحصول على الانتباه والتركيز من تلاميذه، ويصبح الاهتمام أداة بسيطة يمكننا بها أن نغزو جميع مجالات المعرفة لأن لدينا هدفًا محددًا.

إننا جميعًا قد ارتكبنا أخطاء خلال عملية نمونا وتطورنا، وبالمثل فإن القدرة على الانتباه والتركيز تتأثر عندما يتم تبنى بعض المواقف الخاطئة، وخاصة عندما يصبح هذا الموقف Attitude شيئًا ثابتًا فى طبيعة الفرد، وهذا يحدث عندما يكون

الانتباه والتركيز موجهًا نحو أشياء غير ذات أهمية فى عملية استعداد للحياة، فعندما يكون انتباه الفرد موجهًا نحو جسده، أو نحو قوته، فإن الفرد يكون على الاستعداد للانتباه والتركيز عندما تكون هذه الأشياء (جسده وقوته) متضمنة، وعندما يكون هناك شيء يمكن أن يربحه الفرد من الانتباه والتركيز، أو عندما تكون قوة الفرد – أو جسده – مهددة.

ولا يمكننا أن نعطى القدر الكافى من الانتباه والتركيز لأى شيء دخيل وغريب إلا إذا حل اهتمام جديد محل الاهتمام بالقوة، ويمكننا أن نرى كيف أن الطفل ينتبه على الفور، عندما يكون وضعه وأهميته محل تساؤل، ومن ناحية أخرى فإن قدرة الطفل على الانتباه والتركيز يمكن تشتيتها بسهولة خاصة عندما يشعر الطفل بأنه لا يوجد ما يهمه فى مثل هذا الموضوع محل الانتباه والتركيز.

إن عدم القدرة على الانتباه والتركيز تعنى أن الفرد يفضل لو أمكنه الانسحاب من هذا الوضع الذى يتطلب التركيز، ولهذا فإنه من الخطأ أن نقول إن شخصا ما لا يستطيع التركيز، فمن السهل إثبات أن هذا الشخص يركز – وبطريقة جيدة جدا – على كل ما يثير اهتمامه.

وضعف الإرادة وعدم وجود طاقة كافية ما هما إلا ظاهرتان مشابهتان لما يسمى بعدم القدرة على التركيز، وفى مثل هذه الحالات، فإننا سنجد إرادة عنيدة لا تقهر وطاقة لا تستنفد تدفع فى اتجاه مختلف، والعلاج ليس بالشيء السهل، فإن الحل الوحيد هو أن نحاول أن نغير أسلوب حياة الفرد بأكمله، وفى كل حالة من الحالات فإننى أؤكد لكم أننا نتعامل مع عيب نتج عن السعى نحو تحقيق هدف مختلف.

إن عدم الانتباه سرعان ما يتحول إلى خاصية دائمة من خصائص هذا الفرد، وكثيرًا ما نقابل فردًا تم إعطاؤه مهمة محددة، ولكن حيث إنه يرفض هذه المهمة، فإنه تجاهل المهمة بأكملها، أو أنجزها بطريقة غير كاملة، وبالتالى يصبح أمثال هذا الفرد عبأ على الأشخاص الآخرين، فإن عدم قدرته الدائمة على الانتباه قد أصبحت خاصية ثابتة فى شخصيته تظهر بمجرد أن يطلب منه إنجاز مهمة يكون رافضًا لها.

النسيان والإهمال الجسيم:

إننا كثيرًا ما نتكلم عن الإهمال الجسيم عندما تكون الصحة أو الأمان في خطر ناتج عن إهمال جسيم للضرورات الأولية الواجب اتباعها، والإهمال الجسيم هو ظاهرة تمثل بوضوح أقصى درجات عدم الانتباه والتركيز، وهذا النقص في الانتباه يعود – في أصله – إلى نقص في اهتمام الفرد بالآخرين من حوله، ويمكننا أن نحدد بسهولة ما إذا كان الطفل يفكر في نفسه فقط، أو أنه يأخذ في الاعتبار حقوق الآخرين. عن طريق البحث عن علامات وبوادر الإهمال في الألعاب التي يلعبها، فإن مثل هذه الظاهرة تعتبر مؤشرًا دقيقًا لوعي المجتمع وشعوره الاجتماعي، فالناس الذين تكون روحهم الاجتماعية ناقصة التطور يهتمون بزملائهم من البشر بصعوبة شديدة حتى تحت ضغط التهديد بالعقاب، بينما تكون الحالة مختلفة تمام الاختلاف في المجتمع الذي تطور وعيه بطريقة صحية لأننا نجد أن الاهتمام ظاهر بوضوح.

ولهذا يمكننا اعتبار أن الإهمال الجسيم ما هو إلا شعور اجتماعي معيب، ولا يجوز أن ندين ونشجب قبل أن نحاول أن نكتشف "السبب" في أن الفرد غير مهتم بزملائه في البشرية.

وعلينا هنا أن نذكر أنه يمكننا افتعال وتخليق النسيان بطريقة صناعية – تمامًا كما لو كنا سنخطط لفقد أشيائنا الخاصة عن عمد – وذلك عن طريق تقليل حجم الانتباه والتركيز وتحديده. إن إمكانية الحصول على قدرات عظيمة على الانتباه والتركيز ربما تكون مقيدة صراحة بموقف Attitude معاد لهذا، وتكون النتيجة هي النسيان، هذا هو ما يحدث عندما ينسى الطفل كتبه أو أشياءه الأخرى، ويعتبر هذا دليلاً على أن الطفل لم يعتد بعد على بيئته المدرسية، والفرد الذي يفقد أشياءه – بطريقة مستمرة – أو ينسى المكان الذي وضعها فيه لم يروض نفسه على تقبل مسئوليات دوره بعد.

فإن الفرد الذي ينسى هو فرد يفضل أن يقوم بثورة ولكن بطريقة مبطنة، ونسيانه يكشف عن نقص اهتمامه بالمهمات الملقاة على عاتقه.

اللاوعى:

إن الكثير من الحالات التى مرت بى تصف أفرادًا عاجزين عن فهم الطريقة التى يعمل بها العقل، ومن النادر أن يكون الفرد الحساس قادرًا على أن يخبرنا عن السبب الذى يجعله يفكر بالطريقة التى يفكر بها، فالكثير من العمليات الذهنية تخرج عن نطاق الوعى، وبالرغم من أنه يمكننا أن نؤثر – بوضوح وبطريقة واعية – على قدراتنا على الانتباه والتركيز، فإن المثير الذى دفع للانتباه والتركيز لا يكمن فى الوعى ولكنه يكمن فى الاهتمام، وكلها موجودة فى نطاق اللاوعى، وهى جانب بالغ الأهمية من جوانب حياة النفس The life of the Psyche.

والآن دعنا نحاول البحث عن نمط سلوك الفرد فى اللاوعى الخاص به، فى حياة الفرد الواعية، فإن كل ما لدينا ما هو إلا انعكاسات – مثل نيجاتيف الصورة الفوتوغرافية – وعلينا أن نتعامل مع هذه الانعكاسات فقط. إن المرأة المغرورة تكون غير واعية بمعظم تصرفاتها التى تظهر فيها هذا الغرور، فهى تتصرف بطريقة تحاول من خلالها أن تقدم – إلى العالم – صورة متواضعة ولكن ساحرة، وحيث إنه من غير الضرورى للمرء أن يعرف أنه مغرور حتى يعتبر بالفعل مغرورًا، فإنه لتحقيق أغراض هذه المرأة وهدفها، فإنه يكون من غير المجدى لها أن تعرف أنها مغرورة لأن هذا سيجعلها عاجزة عن الاستمرار فى غرورها، فهناك ما يمكن أن تكسبه – وهو نوع محدد من الأمان – عندما تعجز عن أن ترى غرورها من خلال التركيز على أشياء غير جوهرية لا علاقة لها بالغرور، إن العملية كلها تتم فى الخفاء، وعلى سبيل المثال فإنكَ عندما تتحدث مع رجل مغرور عن غروره، فإنك ستجد أنه من الصعب جدا الاستمرار فى محادثته عن هذا الموضوع، وأن الرجل سيظهر هذا الميل نحو تجنب الموضوع، وهذا يؤيد رأيى لأن مثل هذا الرجل يريد أن يعبث بنا ويتخذ موقفًا دفاعيا عندما يحاول أحدهم أن يكشف خداعه.

إن البشر يمكن تقسيمهم إلى نمطين رئيسيين:

النمط الأول: ويتكون من مجموعة الأفراد الذين يعرفون الكثير – أكثر من المتوسط – عن حياة اللاوعى الخاصة بهم.

النمط الثانى: ويتكون من مجموعة الأفراد الذين يعرفون القليل – أقل من المتوسط – عن حياة اللاوعى الخاصة بهم.

وفى الكثير من الحالات فإننا سوف نجد أن الفرد من النمط الثانى يركز على نطاق صغير من النشاطات، بينما الفرد من النمط الأول ينشر نشاطاته فى نطاق ذهنى أوسع بكثير، ولديه الكثير من الاهتمامات المختلفة بالناس والأشياء والأحداث والأفكار.

والأفراد الذين يشعر الواحد منهم بأنه قد تم دفعه جانبًا (تم تجاهله)، سيحاول - بطبيعة الحال - أن يحقق الإشباع من خلال التركيز على مقطع صغير من الحياة، وحيث إنه يشعر بأنه غريب فى أرض غريبة، ولا يستطيع أن يرى مشكلات الحياة بسئ الذى يراها به من يلعب لعبة الحياة طبقا لقواعدها، فإنه كثيرًا ما بالوضوح نفسه اختيار شركائه، كما أنه سيكون أقل قدرة على فهم النقاط الحساسة فى الحياة، أيضًا فإن فهمه سيقتصر على الأجزاء غير المهمة من مشاكل الحياة، وهذا بسبب محدودية اهتمامه بها، ويكون كل هذا لأن مثل هذا الفرد خائف دائمًا من أن تقترن الاهتمامات الواسعة بفقدانه لكثير من قواه الشخصية.

إن الفرد لا يكون على وعى - غالبًا - بمهاراته الحياتية لأنه يقلل من تقديره لقيمته الحقيقية، كما أننا سوف نجد أن الكثير من الأفراد لا يعلمون - بالقدر الكافى - بنقائصهم أيضًا، فربما يعتبر الفرد نفسه صالحًا، ولكنه يكون فى الواقع أنانيا، وكل أفعاله وردود أفعاله تخرج عن هذه الأنانية، وبالعكس فإن الفرد قد يعتبر نفسه أنانيا تحت ظروف أن تظهر له التحليلات الدقيقة أنه فى الحقيقة إنسان صالح جدا.

ومن هذا نرى أنه من غير المهم هنا ما يظنه الفرد بنفسه، أو ما يظنه الآخرون به، ولكن الشىء المهم هو "موقف" الفرد العام من المجتمع لأن هذا الموقف هو الذى يحدد كل رغبة وكل اهتمام وكل نشاط الفرد.

ومرة أخرى فإننا نتعامل مع نمطين مختلفين من البشر:

المجموعة الأولى: وتتكون من الأفراد الذين يعايشون حياة واعية جدا، والذين يعالجون مشاكل الحياة بطريقة عملية وبلا تردد.

المجموعة الثانية: وتتكون من الأفراد الذين يميل الفرد منهم إلى معالجة الحياة من خلال موقف متحيز، وهو بهذا يرى جزءًا صغيرًا فقط من الحياة، وسنجد أن سلوك وحديث الأفراد الذين ينتمون إلى تلك المجموعة يعبر دائمًا عن موقف غير واعٍ.

ودعنا نتكلم عن هذين الشخصين اللذين يعيشان معًا. إنهما يواجهان الكثير من الصعوبات فى الحياة لأن أحدهما يتدخل دائمًا بطريقة متعمدة بغرض الإعاقة، والوضع السابق شائع الحدوث حتى إننا كثيرًا ما نجد أن كِلا الطرفين يتميز بهذا التغفيل والكبرياء الأحمق.

فكل منهما على غير وعى بالأفعال التى يقوم بها بغرض الإعاقة، وكل منهما متأكد من أنه على حق، ويؤكد أن كل ما يطالب به هو حياة هادئة، وبالرغم من كل هذا فإن الحقائق تثبت خطأه، فإنه من المستحيل له أن يدخل فى مناقشة مع زميله دون أن يفقد أعصابه، وحتى إذا كان أسلوبه الهجومى غير واضح بالنسبة للآخرين، وعندما نفحص هذه الحالة عن قرب، فإننا سنكتشف أنه من الأشخاص المولعين بالشجار طوال حياته.

إن الإنسان قادر على تطوير قوى مختلفة داخله، وتكون هذه القوى فى حالة عمل دائم برغم من أن الفرد لا يكون واعيًا بهذا. إن هذه الخواص الوظيفية تبقى مختبئة فى اللاوعى، وتؤثر على حياة الفرد، وإذا لم نتمكن من الكشف عنها فى الوقت المناسب ومعالجتها، فستكون لها نتائج مريرة.

فى قصة دستوفيسكى "الأحمق" قام المؤلف بوصف بديع حتى إن علماء النفس مازالوا معجبين به منذ ذلك الحين، فى إحدى الحفلات الاجتماعية قامت سيدة مجتمع بتحذير بطل القصة - فى نبرة ساخرة مهينة - من أن لا يقترب كثيرًا من إناء الزينة الصينى الباهظ الثمن الذى بجانبه، وبطل القصة يؤكد لها أنه سيكون حريصًا، ولكن بعد بضعة دقائق يُسقط البطل الإناء الصينى ويُحطمه، ويتفق الجميع على أن ما حدث كان متعمدًا، فكل فرد منهم يشعر بأن تحطم الإناء فعل عمدى يتفق مع طباع وخصائص شخصية بطل القصة، والذى شعر بالإهانة من النبرة الساخرة التى تم تحذيره بها.

عندما نحكم على الإنسان، فلا يجوز أن نسترشد بأفعاله وتعبيراته - التى يقوم بها عن وعى - فحسب، بل إننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أيضًا تلك الأفعال والتعبيرات التى تصدر عن اللاوعى (مثل ما فعله بطل القصة فى المثال السابق)، وهذا لأن الكثير من التفاصيل الدقيقة لأفكار الفرد وسلوكه - والتى يكون الفرد ذاته غير واعٍ بها - تعطينا فكرة عن حقيقة وطبيعة الفرد.

وعلى سبيل المثال فإن الأفراد الذين يمارسون عادات قبيحة مثل قضم الأظافر، أو العبث بالإصبع في الأنف. لا يدركون أنهم بارتكابهم هذه الفعلة إنما يكشفون الستار عن طبيعتهم التي تتميز بالعناد، لأن الفرد منهم مازال عاجزًا عن فهم السبب الذي دفع به لتبني مثل هذه العادة القبيحة. نحن نعرف أن مثل هذا الفرد قد تم توبيخه في طفولته في الماضي - بطريقة متكررة - بسبب هذه العادة، وأنه استمر في ممارستها بالرغم من التوبيخ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن مثل هذا الفرد يتميز بالعناد.

وباستخدام القدرة على الملاحظة وبالاستعانة بالخبرة فإنه يمكننا أن نصل إلى استنتاجات تصيب كبد الحقيقة عن طريق ملاحظة تلك التفاصيل التي تعكس الصورة الحقيقية الدقيقة للفرد.

وفيما يلي سأذكر حالتين، وفي كلتا الحالتين فإنه سيتضح لنا مدى أهمية الأحداث التي يمر بها الإنسان في اللاوعي، وأنها تبقى في اللاوعي، وكيف أنها تؤثر على حالة وصحة الفرد النفسية. إن النفس البشرية لها القدرة على التحكم في الوعي، وهذا يعني أن النفس تستطيع أن تُحضر الأشياء التي ترغب في ظهورها إلى السطح، وبالعكس فإن النفس قادرة على طمس الأشياء التي لا ترغب في ظهورها وتبقيها منفية بعيدًا في اللاوعي، بل إن النفس قادرة على إبعاد الأشياء عن طريق نقلها من الوعي إلى اللاوعي إذا ما تطلبت سلامة الفرد هذا.

الحالة الأولى:

وهي حالة رجل شاب، وهو أكبر أبناء الأسرة، وله أخت واحدة أصغر منه، وقد توفيت والدته عندما كان في العاشرة من عمره، وتمت تربيته بواسطة الأب، والذي كان رجلاً حكيمًا وذكيا ومستقيمًا وسليم الطوية، كرس الأب كل جهوده لتطوير طموحات ابنه ودفعه لبذل المزيد من الجهد، ومن ناحيته حاول الابن أن يكون الأول على فصله دائمًا، وكانت نتائجه العلمية مشرفة خاصة في مجال العلوم، كما أنه كان مستقيمًا وذا شخصية قيادية، وكان كل هذا سببًا في سعادة الأب، والذي توقع أن يكون ابنه ناجحًا جدا.

ولكن أخته الصغيرة نشأت وترعرعت وأصبحت تمثل منافسة خطيرة، هى أيضًا كانت بالغة النجاح بالرغم من أنها كانت تلجأ إلى ضعف الأنثى للحصول على اهتمام الآخرين على حساب أخيها، كما أنها كانت ربة منزل ماهرة، وكان من الصعب عليه أن ينافسها فى هذا المضمار، وتسبب هذا فى شعوره بأنه سيكون من الصعب عليه أن يحتل مكانة مساوية لها خاصة فى المنزل، وسرعان ما لاحظ الأب تصرفات ابنه شديدة الغرابة وموقفه من الحياة الاجتماعية، والذى تزايد خصوصًا مع اقترابه من سن البلوغ، وفى الحقيقة فإنه يمكننا القول إن هذا الشاب لم تكن لديه أى حياة اجتماعية على وجه الإطلاق، فقد كان شديد الحذر فى كل علاقاته الجديدة، كما أنه تجنب إقامة علاقات بالجنس الآخر.

فى البداية لم ير الأب أى غرابة فى تجنب ابنه للعلاقات مع الجنس الآخر، ولكن – مع مرور الوقت – فإن نفوره من المجتمع تزايد، حتى أصبح لا يغادر المنزل تقريبا، وحتى تمشيته اليومية أصبح لا يقوم بها إلا بعد حلول الظلام، وأصبح شديد الانغلاق على نفسه حتى إنه رفض أن يستقبل أصدقاءه القدامى، وبالرغم من كل هذا فإن موقفه فى المدرسة، وموقفه من أبيه ظل فوق النقد.

ولكن الأمور تطورت إلى الأسوأ بسرعة وعجز الجميع عن التعامل معه، وهنا تدخل الأب وأخذ ابنه لزيارة الطبيب، وفى خلال جلسات معدودة اكتشف الطبيب السبب فى هذه الصعوبات، فإن هذا الفتى الشاب اعتقد أن أذنيه شديدة الصغر، ولهذا فإن الجميع يعتبره قبيحًا جدا، فى الحقيقة كانت أذناه طبيعية تمامًا، وعندما أخبره الطبيب بأن أذنيه لا تختلف عن الباقين، وشرح له أنه كان يستخدم هذه المسألة كعذر يبرر به انسحابه من المجتمع وابتعاده عنه، وعندها فإن هذا الفتى أضاف قائلا:

"ولكن أسنانى وشعرى يتميزان بالقبح أيضًا".

وكان هذا الادعاء غير صحيح أيضًا، ومن ناحية أخرى كان من الواضح أن هذا الفتى لديه طموحات غير عادية، كما أنه كان على وعى بحجم هذه الطموحات، وكان يؤمن بأن أباه – والذى كان يدفعه دائمًا لبذل المزيد من الجهد – هو الذى زرع هذه الطموحات فيه. كانت خطط هذا الفتى فى المستقبل تتضمن الرغبة فى أن يصبح عالمًا عظيمًا، وربما اعتبرنا هذا شيئًا عظيمًا إذا لم يقترن بميله نحو تجنب كل الواجبات الاجتماعية والإنسانية.

لماذا حاول هذا الفتى أن يستخدم أمثال هذه الأعذار الطفولية؟ وإذا كان على صواب بخصوص الأعذار الطفولية الخاصة بمظهره ربما كان له بعض العذر فى التعامل مع الحياة بهذا النوع المتعمد من الحذر والقلق لأن حضارتنا لا تتعاطف مع الأفراد الذين لا يتميزون بالجمال، ولكن تلك الأشياء كانت غير حقيقية، فما هو عذره إذن؟

من خلال المزيد من الفحص والتحرى اكتشفنا أن طموح هذا الفتى كان موجهًا نحو هدف محدد، فى السابق كان دائمًا من الأوائل فى فصله، وكان يرغب فى البقاء على القمة، ولتحقيق مثل هذا الهدف فإنه توجد عدة وسائل متاحة: مثل التركيز والعمل الجاد المستمر...إلخ، ولكن كل هذه الوسائل لم تكن كافية بالنسبة له، فلقد حاول هذا الفتى استبعاد كل ما اعتبره غير ضرورى، فهو كمن يقول:

"حيث إننى سأكون مشهورًا، وأترهب فى محراب العلم، فإنه يجب على أن أتجنب كل العلاقات الاجتماعية لأنها غير ضرورية على أى حال".

ولكنه لم يقل العبارة السابقة صراحة ولم يفكر فيها - بطريقة واعية - ولكنه على العكس لجأ إلى صفاته الجسمانية واتخذها عذرًا، واستخدمها لتحقيق هدفه.

فعندما بالغ هذا الفتى فى وصف قبح أعضائه، فإنه أعطى لنفسه عذرًا مقبولاً يتحجج به فى القيام بما يرغب القيام به حقيقة، فكل ما كان فى حاجة إليه هو أن تكون لديه الشجاعة الكافية لاستخدام مظهرة كعذر يغفر له السعى وراء هدفه السرى، لأنه إذا قال "أنا راغب فى العيش وحدى كالرهبان حتى أبتعد عن كل ما يلهينى عن السعى نحو تحقيق هدفى" فإن طموحه - عندها - سيكون واضحًا للجميع، وهو لا يرغب فى هذا، وبالرغم من أنه قد كرس نفسه - عن غير وعى - لفكرة لعب هذا الدور البطولى، فإن وعيه كان لا يعلم بهدفه هذا (أن يصبح عالمًا عظيمًا).

إنه لم يخطر على باله أبدًا أنه رغب فى التضحية بكل شىء فى الحياة حتى يكتسب هذه النقطة الوحيدة (أن يصبح عالمًا عظيمًا)، إذا كان قد قرر - عن وعى - أن يضحى بكل شىء فى الحياة ليصبح عالمًا عظيمًا، فإنه ما كان ليشعر بالأمان الذى شعر به عندما حاول أن يستخدم مظهره فى الابتعاد عن الاختلاط بالمجتمع، وبالإضافة إلى هذا فإن أى فرد مستعد لأن يعلن بصراحة رغبته فى أن يكون الأول والأحسن، وأنه على استعداد لأن يضحى بكل العلاقات الإنسانية فى سبيل

تحقيق هذا الهدف سيتعرض للاحتقار والتسخيف من جانب الجميع، وبالتالي فإن الفكرة السابقة ستكون غير مقبولة بالنسبة له. إن هناك بعض الأشياء التي لا يمكن للفرد التعبير عنها بصراحة لمصلحته ولمصلحة المجتمع ككل، ولهذا السبب فإن المبدأ الذي يقود حياة هذا الفتى يظل في اللاوعي.

لو أننا كشفنا دوافع مثل هذا الفرد، وأظهرنا له الأعمال الخفية التي يقوم بها عقله، فإننا سنخل بتوازن نفسه His psyche كلها، فإن ما كان هذا الفرد يحاول إخفاءه - بأي ثمن - قد ظهر، وكل عمليات تفكيره غير الواعي قد انكشفت أمام الجميع: أفكار لا يمكن الدفاع عنها وما كان يجب التفكير فيها، وميول لو كانت واعية (موجودة في الوعي) لتسببت في اضطراب سلوكنا كله، ولهذا فإنه يدافع - دفاعًا مستميتًا - حتى لا يعرف بها أحد.

وما فعله هذا ما هو إلا ظاهرة إنسانية يشترك فيها كل البشر، فكلنا لدينا أفكار مماثلة تبرر موقفنا، وكلنا يرفض أي فكرة تمنعه من الاستمرار، والإنسان لا يجرؤ على القيام بأي أفعال إلا تلك التي يعتبرها ذات قيمة بالنسبة له (حسب طريقة فهمه للعالم). نحن نعترف ونتعامل مع كل ما يساعدنا، وكل الأشياء التي لا تساعدنا ولا تناسبنا نرسلها إلى اللاوعي.

الحالة الثانية:

هذه الحالة تتعلق بفتى صغير، كان والد هذا الفتى يعمل مدرسًا، وهو أيضًا كان يدفع ابنه لبذل المزيد من الجهد حتى يحتل القمة في فصله، وفي هذه الحالة أيضًا فإن الأيام الأولى من حياة هذا الطفل كانت سلسلة من الانتصارات، وفي أي مكان كان يظهر فيه كان النجاح يلاحقه، كما أنه كان ذا شخصية ساحرة في المجتمع، وكان لديه العديد من الأصدقاء.

ولكن في عامه الثامن عشر حدث تغير عظيم. لقد فقد كل اهتمامه بالحياة، ولازمه الاكتئاب، وأصبح شارد الذهن، وبذل الكثير من الجهد ليبتعد عن العالم، وأصبح الآن يفقد الأصدقاء بالسرعة نفسها التي كان يكتسبهم بها، وعجز الجميع عن فهم سلوكه، ولكن الأب كان يأمل في أن حياة العزلة - التي فرضها على نفسه - سوف تمكنه من أن يكرس كل وقته للدراسة.

خلال فترة علاجه كان هذا الفتى دائم الشكوى من أن والده قد حرمه من كل متع الحياة، وأنه قد فقد ثقته فى نفسه وشجاعته على الاستمرار فى الحياة، كما أنه قال "لم يعد يبقى لى ما أفعله سوى أن أعيش بقية أيامى فى وحدة مريـرة"، وبـدأ معدل تقدمه الدراسى ينخفض بشدة حتى إنه فشل فى الالتحاق بالجامعة، وشرح لنا هذا الفتى قصته عندما قال "لقد بدأ هذا التغير فى حياتى بعـد أحـد الاحتفـالات الجماعية، والتى ظهر فيها بوضوح جهلى بكتب الأدب الحديث، مما جعلنى موضع سخرية أصدقائى"، وتكررت هذه الخبرة السيئة بطريقة مشابهة ممـا دفعـه نحـو تفضيل العزلة، وجعله يتجنب المجتمع، وتسلطت عليه فكرة أن والده هـو السـبب فيما حدث له، وأصبحت العلاقة بينهما تسير من سيئ إلى أسوء.

إن هاتين الحالتين السابقتين متشابهتان جدا فى معظم جوانبهما، ففى الحالـة الأولى تضرر المريض بسبب المنافسة بينه وبين أخته، وفى الحالة الثانيـة كـان موقفه تجاه والده هو السبب. كلا المريضين كانت تقوده فكرة ما اعتـدنا تسـميتها "مثاليات البطولة". إن كلا منهما فقد كل اتصالاته بالحياة وأصبح محبطًـا، وربمـا أصبح الانسحاب الكامل من الصراع هو أحب الأشياء إلى نفسـيهما، ولكـن هـل يمكننا أن نصدق أن الفتى الثانى سوف يعترف لنفسه صراحة وعلى المـلأ قـائلا "حيث إننى لن أتمكن من أن أصبح بطلاً عظيمًا، فـإننى سأنسـحب مـن الحيـاة وسأعيش وحيدًا بقية أيامى".

لكى يثبت الخطأ على والده، وليثبت أن تربيته كانت هى السبب، فإنه كـان من الواضح أن الفتى لا يرى أى شىء إلا هذه التربية الخاطئة التى كان يشكو منها باستمرار، وأنه أراد تبرير انسحابه من المجتمع عن طريق افتراض وجود عيوب فى طريقة تنشئته، وأن الطريقة الوحيدة لمداراة هذه العيوب هى أن ينسـحب مـن المجتمع ويبتعد عنه. بهذه الطريقة يكون هذا الفتى قد اختلق حلا يستطيع من خلاله أن يوقف المعاناة والهزائم التى كان يتعرض لها فى الاحتفالات الاجتماعية، كمـا أنه تمكن من أن يلقى اللوم بأكمله على والده، وبهذه الطريقة تمكن مـن أن ينقـذ جزءًا من احترامه لنفسه وثقته فى قدراته، كما أنه أشبع سعيه نحو التفوق. لقد كان لديه ماض مجيد، وانتصاراته المستقبلية المتوقعة لم تحدث بسبب والده وأفكار هذا الوالد العتيقة التى منعته من الاستمرار فى إحراز المزيد من الإنجازات العظيمة.

ويمكننا أن نقول إن أفكار مثل ما يلى قد جرت داخل عقله غير الواعى:

– "كلما كبرت زاد اقترابى من الأشياء البغيضة فى الحياة. أنا أعلم الآن أن الأمور لن تكون سهلة من الآن فصاعدًا ولن يُسمح لى باحتلال المراكز الأولى فى الحياة بالسهولة نفسها التى اعتدت عليها، ولهذا فإننى سأنسحب من السباق، فهذا خير لى من أن أعانى من الهزيمة".

إن مثل هذه الفكرة لا يمكن الدفاع عنها، وما كان يجب التفكير فيها أصلاً، ولا يوجد أى فرد يستطيع التعبير عنها فى موقف صريح، ولكن الفرد يستطيع أن يتصرف كما لو كان اتخذ هذا القرار عن عمد، ويمكن القيام بهذا عن طريق استخدام أحجية Argument أخرى، فهو يركز على أخطاء والده وحدها، كما أنه تمكن من أن يعتزل المجتمع ويتجنب كل القرارات التى كان يجب عليه أن يتخذها فى الحياة.

أما إذا كانت هذه الأفكار السابقة موجودة في وعيه، فإن سر تصرفاته وسلوكه كان سينكشف بالضرورة، ولهذا بقي في اللاوعى حتى يمكنه أن يحدث تأثيره العظيم، والآن فإنه لا يوجد من يستطيع أن يتهمه بأنه عديم الموهبة، خاصة وأن ماضيه كان مجيدًا، أما الآن فإن عليه أن يتأكد أن هذا الوضع سيستمر وأنه لن يوجد – فى المستقبل – من يلومه حتى إذا لم يتمكن من إحراز أى انتصارات أخرى!

ولهذا فقد كان عليه أن يتمسك بما يدعى أنه "خطايا والده"، فالابن الآن اتخذ دور القاضى، والضحية، والدفاع، كلها فى الوقت نفسه، فهل يمكننا تخيل أن مثل هذا الفتى يمكن في يوم من الأيام أن يتخلى عن مثل هذا الوضع الرائع؟ بالطبع لا.

إنه يعرف جيدًا أنه يمكنه الاستمرار فى لوم الأب طالما ظل هو مقتنعًا بأن الوالد مخطئ.

الأحلام:

طالما اعتقد الجميع أنه يمكن للمرء أن يستشف طبيعة شخصية الفرد من خلال أحلامه، وليتشتبرج G.C.Lichtenberg وهو أحد المعاصرين لجوته قال:

"إن شخصية الإنسان يمكن معرفتها بدقة ووضوح أكثر من خلال أحلامه، والتى تكون أكثر صدقًا من أفعاله وأقواله".

بالطبع هناك قدر من المبالغة فى المقولة السابقة، ومن وجهة نظرى فإنه يجب أخذ الظاهرة النفسية فى الاعتبار بحرص شديد، وأن نراعى ارتباطها وصلاتها بغيرها من الظواهر، والآن يمكننا أن نستنتج أنه لا يمكن فهم شخصية الفرد عن طريق أحلامه إلا إذا استطعنا ربطها بأدلة إضافية - نحصل عليها من مميزات شخصيته الأخرى - تؤيد الأشياء التى فهمناها من الأحلام.

لقد كانت هناك دائمًا محاولات كثيرة لتفهم الأحلام وتفسيرها منذ سنوات ما قبل التاريخ، والباحثون فى هذه الفترة وجدوا أدلة من ملاحم وأساطير تمكننا من أن نستنتج أنه فى تلك الأزمنة السحيقة كان البشر أكثر اهتمامًا بتفسير الأحلام مما هم عليه الآن، كما أننا وجدنا أن تفهُّم - الرجل العادى - للأحلام كان أفضل من تفهمنا الحاضر لها، وكل ما علينا أن نفعله هو أن نذكر الدور الضخم الذى لعبته الأحلام فى حياة قدماء اليونانيين، أو نذكر الأحلام الكثيرة المتعددة الموصوفة فى الكتاب المقدس، حتى نعرف حجم الدور الذى لعبته الأحلام.

والنقطة المهمة هى أن الأحلام المذكورة فى الكتاب المقدس إما تم تفسيرها بمهارة شديدة، وإما وصفت بطريقة كما لو كانت مفهومة من الجميع، وأن شرحها وتفسيرها بطريقة صحيحة هو أمر فى استطاعة الجميع، وهذه هى الحالة فى حلم يوسف بن يعقوب الخاص بالسنابل السبع، والذى أخبر به باقى إخوته، أما فى حالة ملاحم نيبلينجين(*) Nibelungen والتى خرجت عن حضارة مختلفة تمام الاختلاف عن حضارة الشرق، فإنه يمكننا أن نستنتج أن الأحلام كانت مقبولة على أنها دليل على حقائق.

إذا درسنا الأحلام على أنها الوسيلة التى يمكننا بها أن نتعلم ونعالج النفس الإنسانية، فإن وجهة نظرنا ستختلف تمامًا عن وجهة نظر المحققين والدارسين الذين يبحثون عن ظواهر غير طبيعية مثيرة وتأثيرات ضخمة رائعة فى الأحلام وتفسيراتها، فإنه من الواجب علينا ألا نعتمد على الأدلة التى تقدمها الأحلام إلا إذا كانت مؤيدة بغيرها من الملاحظات الدقيقة والمميزات الشخصية الخاصة بالفرد محل البحث.

(*) هى مجموعة من أساطير الفولكلور الشعبى الألمانى - بالتحديد الجزء الأعلى من وسط ألمانيا - وتعود فى تاريخها لأواخر القرن الثانى عشر، وتشبه فى أحداثها أسطورة ألف ليلة وليلة من حيث إنها تتكون من أجزاء عديدة - ٣٩ جزءًا على وجه التحديد - وكل جزء مغامرة جديدة يصف مغامرات بعض الأشخاص مع السكسونز والهانز، وترجمت للإنجليزية لأول مرة فى عام ١٩٠٩ بواسطة دانيال شوماى. (المترجم)

وهذا الميل العتيق للإيمان بأن الأحلام لها معنى شديد الخصوصية يكشف لنا عن المستقبل مازال موجودًا حتى فى وقتنا الحاضر، وهناك الكثير من المثاليين الذين ما زالوا يؤمنون بالأحلام وتأثيرها، وبالطريقة نفسها تمكن أحد مرضاى من أن يخدع نفسه، وعاش حياة بلا عمل شريف، وكرس نفسه للمقامرة فى البورصة، وكانت مضاربته هذه طبقًا لأحلامه التى حلم بها فى الليلة الماضية، حتى إنه حاول أن يجمع ما سماه "أدلة" ليثبت أنه فشل فى كل مرة لم يصغ فيها للمعنى الكامن فى أحلامه، وبالطبع كانت أحلامه ما هى إلا صدى لانشغاله طوال النهار بالتفكير فى البورصة، ولهذا يمكننا القول بأنه فى أحلامه كان يهنئ نفسه، وتمكن - لمدة طويلة - من أن يستمر فى ادعائه هذا بأنه تحسن ماديا تحت تأثير أحلامه، ولكن بعد مضى فترة من الوقت خرج بأقوال جديدة علينا، فإنه بدأ يقول لنا إنه لا يؤمن بأحلامه، ومن الواضح أنه فى هذا الوقت قد بدأ يخسر الكثير من أمواله، كما هو الحال مع معظم المضاربين - غير العالمين ببواطن الأمور - فى البورصة، سواء كانوا يحلمون أو لا.

إن الفرد الذى يهتم بشدة وتركيز بأحد المسائل يكون مشغولاً بها أيضًا حتى خلال نومه، وبعض الأفراد يُجانبهم النوم، ويستمر الواحد منهم فى التفكير فيما يشغله، ولكن هناك مجموعة من الأفراد تنامون، على أن الفرد منهم يظل مشغولاً - خلال أحلامه - بما شغله خلال اليقظة.

إن هذه الظاهرة العجيبة والتى تشغل أفكارنا خلال النوم ما هى إلا الجسر الواصل بين الأمس وغدًا، وإذا كنا نعرف ما هو موقف الفرد تجاه الحياة بصورة عامة وكيف يربط الحاضر بالمستقبل، فإنه يمكننا أن نفهم تفاصيل بناء هذا الجسر فى الأحلام، ونصبح قادرين على استنتاج حقائق لا شك فيها منه، وبأسلوب آخر، فإن موقفنا العام من الحياة هو الأساس الذى بنيت عليه كل أحلامنا.

سيدة شابة حلمت بما يلى: لقد حلمت بأن زوجها نسى عيد زواجهما مما أثار حنقها وجعلها توبخه. إن هذا الحلم يعنى عدة أشياء، فهو يرينا أن الزواج فى خطر، وأن الزوجة تشعر بأنها مهملة، وقد قالت فى حلمها إنها - هى الأخرى - قد نسيت عيد زواجهما فى البداية، ولكنها عادت وتذكرت، بينما لم يتذكر زوجها حتى ذكرته هى بتلك المناسبة، ومن هذا نرى أنها تعتقد أنها أحسن منه، وعندما سألنا زوجها عن عيد الزواج فإنها قالت:

"لم يحدث أبدًا أن نسى زوجى عيد زواجنا فى الحقيقة".

ولكننا نرى ميلها الشديد – فى الحلم – للاهتمام بالمستقبل، فكأنها تقول: إن شيئًا مماثلاً يمكن أن يحدث، ويمكننا أيضًا أن نستنتج أنها تميل للتوبيخ، ولاستخدام أشياء افتراضية لم تحدث، وللتذمر ومضايقة زوجها عن أشياء لم تحدث بعد.

ولكن بدون الحصول على المزيد من الأدلة التى تؤيد استنتاجاتنا، فإنه لا يمكننا التأكد من صحة فهمنا لمعنى الحلم، ولهذا فإننى سألتها عن ذكرياتها الأولى، وقامت هذه السيدة الشابة بوصف ذكرى باقية لا تستطيع أن تتساها، عندما كانت فى الثالثة فى عمرها أعطتها إحدى عماتها ملعقة خشبية، وكانت مريضتنا شديدة الاعتزاز والفخر بهذه الملعقة، وذات يوم – عندما كانت تلعب بها – فإن الملعقة سقطت فى غدير صغير، وجرفها التيار، وظلت الطفلة الصغيرة تبكى بمرارة – لعدة أيام – ملعقتها المفقودة، حتى شاع الحزن بين جميع أفراد أسرتها. إن هذا الحلم يدفعنا للاعتقاد بأنها تفكر "الآن" بإمكانية أن تفقد زوجها مثلما فقدت ملعقتها الخشبية، إذا ما نسى الزوج عيد زواجهما.

هناك حلم آخر من أحلامها، وفى هذا الحلم صعد بها زوجها إلى أحد المبانى الشاهقة، وكانت سلالم المبنى شديدة الصعوبة حتى إنها بدأت تفكر أنهما قد تسلقا بما فيه الكفاية، كما أنها بدأت تشعر بالدوخة والقلق، وأغمى عليها، ربما يشعر البعض منا بمشاعر مماثلة خلال اليقظة خاصة إذا كنا نعانى من الدوخة فى الأماكن المرتفعة، ولكن إذا ربطنا بين الحلمين فإننا سنجد أن الظن والشعور ومحتوى هذين الحلمين تعطينا انطباعًا واضحًا بأننا نتعامل مع سيدة تخاف من السقوط، ومن الأخطار أو الكوارث، ويمكننا أن نتفهم أنها تعتبر تقلص اهتمامات الزوج بها من الكوارث، فما الذى سيحدث إذا كان هناك عدم تكافؤ بينها وبين زوجها؟ ماذا سيحدث لها إذا تحطم زواجها؟ فإن أشياء يمكن أن تحدث، وقد تتشاجر مع زوجها، وقد ينتهى هذا الشجار بالإغماء، وهو ما حدث بالفعل خلال أحد خلافاتهما العائلية.

إننا الآن نقترب من المعنى الحقيقى للحلم، فإن ما يشكل الأفكار والمحتوى العاطفى والصور المستخدمة للتعبير عن هذا المحتوى الموجود فى الحلم غير ذى أهمية، فإن المشكلة الموجودة فى وعى الفرد تم التعبير عنها بطريقة رمزية خلال

الحلم، فكأن مريضتنا تقول: يجب على أن أكون حريصة، وألا أبالغ فى الصعود، حتى لا أسقط من تلك الارتفاعات الشاهقة.

وربما يكون من المفيد أن نذكر جوته فى الحلم الموجود فى "أغنية زواج Marriage song"، فعندما عاد الفارس إلى منزله، ودخل قلعته المهجورة، كان الإرهاق الشديد قد أنهك قواه، فسقط فى فراشه وبدأ يحلم، وفى حلمه رأى أشكالاً لمخلوقات حية صغيرة تخرج من تحت فراشه، ثم راقبها وهى تؤدى مراسم الاحتفال بزواج أحدها، وكان الفارس شديد السعادة بهذا الحلم، فهو هنا يتصرف كما لو كان يرغب فى التأكيد على حاجته إلى زوجة، وما رآه فى حلمه - بصورة مصغرة - حدث فى الحقيقة عندما تزوج ذلك الفارس.

وسنجد الكثير من العناصر المعروفة لنا فى هذا الحلم، فهناك أولاً ذلك الانشغال غير الظاهر للشاعر بزواجه الشخصى، كما أننا نرى أن الفارس الحالم يربط بين الحلم ووضعه فى الحاضر، ويشعر بحاجته للزواج، وفى حلمه فإنه يتعامل مع مشكلة الزواج، وفى اليوم التالى فإنه يقرر أنه من الأفضل له أن يتزوج.

ودعنا الآن نأخذ فى الاعتبار حلم ذلك المريض البالغ من العمر ٢٨ عامًا، وعلينا أن نلاحظ أن الحلم ذو نمط خاص، فهو شديد التذبذب ويرتفع وينخفض كما لو كان رسمًا بيانيا لدرجات الحرارة، وهذا الحلم يشير بوضوح لما يشغل بال هذا المريض وما يحتل كل تفكيره، ومن السهل التعرف على شعور النقص الذى يعانى منه، وأن هذا الشعور هو الذى يدفعه للسعى الحثيث للحصول على القوة والهيمنة، وهذه هى أقواله فى وصف ذلك الحلم:

"أنا فى سفينة مع مجموعة كبيرة من الناس، وتبدأ الرحلة فى هذه السفينة الصغيرة، ولكن يجب علينا أن نمضى ليلة فى هذه المدينة الصغيرة، خلال الليل يأتينا الخبر بأن السفينة تغرق، وأنه على كل المسافرين أن يأتوا للمساعدة فى نزح المياه من السفينة، وتذكرت أن الكثير من أشيائى القيمة مازالت موجودة فى حقيبتى الموجودة على سطح السفينة، ولهذا أسرعت إلى هناك، وعندما وصلت كان الجميع مشغولين فى نزح المياه، ولكنى حاولت أن أتجنب العمل معهم لأننى كنت أريد البحث عن حقيبتى، نجحت فى إخراج حقيبتى من نافذة غرفة الحقائب، وفى اللحظة نفسها رأيت مدية من النوع الذى كنت أحبه كثيرًا فأخذتها ووضعتها فى حقيبتى، وتمكنت أنا ومرافق لى من مغادرة السفينة التى كانت تغوص فى أعماق

المياه بالرغم من محاولات الجميع، قفزت أنا وزميلى فى البحـر، وتمكننـا مـن الوصول البر، ولكن الرصيف كان بالغ الارتفاع فلم نتمكن من تسلقه، مما أجبرنـا على الاستمرار حتى وصلنا إلى حافة شديدة الانحدار أجبرتنا على النزول، وبدأت فى الهبوط، ولكنى لم أر زميلى مرة أخرى، وكانت سرعة نزولـى تـزداد حتـى أصبحت خائفًا من أن ألقى حتفى، وأخيرًا سقطت على ظهرى أمام شخص آخـر، كان هذا الشخص أحد زملائى على السفينة، ولكنى لم أكـن أعرفـه، كـان هـذا الشخص قد شارك فى إضراب، ولكنه لم يكن عنيفًا لأننـى رأيتـه يمشـى بـين المضربين بهدوء شديد. كنت معجبًا به، وبدأ كلامه بالتوبيخ، كما لو كان يعلم أننى قد امتنعت عن مساعدة الآخرين وتركتهم على سطح السفينة، وبادرنى قائلاً: مـاذا تفعل هنا؟ أنا الآن أحاول الهرب من هذه اللجة العميقة المحاطـة بتلـك الحـواف شديدة الأنحدار، والتى كان يتدلى منها العديد من الحبال، ولكنى لم أجـرؤ علـى استخدام الحبال لأنها كانت واهية. استمررت فى محاولاتى للخروج، ولكنى فى كل مرة كنت أنزلق نحو موضعى الأصلى، وأخيرًا تمكنت من الخروج، ولكنـى لـم أعرف كيف فعلت هذا، يبدو لى أننى كنت راغبًا فى تخطى هذا الجزء من الحلـم كما لو كنت – عن عمد – أردت أن أنسى الكيفية التى هربت بها، وعلى حافة هذه الهاوية وجدت طريقًا كان يفصلنى عنه سور صغير، ورأيت بعض المارة – خلف هذا السور الصغير – وقد وجه لى بعضهم التحية بصورة ودودة".

والآن دعنا نفحص ماضى هذا المريض وحياته السابقة. إن أول ما اكتشـفناه هو أنه كان يعانى – بصفة دائمة – من أمراض شديدة حتى بلغ العام الخامس مـن عمره، وبعد ذلك أيضًا كانت صحته على غير ما يرام، وبسبب صحته السـيئة فـإن والديه كانا شديدى القلق عليه، كما أنهما بالغا فى حمايته والحـرص عليـه، وكـان اتصاله بغيره من الأطفال قليلاً جدا، وحدث الشيء نفسه عنـدما حـاول الاتصـال بالبالغين لأن أبويه منعاه من ذلك أيضًا، وقالوا له أشياء مثل أن "الطفـل يجـب ألا يُرى، وألا يُسمع"، وأن الطفل لا يجوز أن يكون فى صحبة البالغين...إلـخ، وبهـذا فإنه فشل – فى مرحلة مبكرة جدا من حياته – فى التواصل مع الآخرين، وفى خلق تلك العلاقات الضرورية لحياة اجتماعية سليمة، واقتصر اتصاله على الأب والأم.

كان من نتيجة كل هذا أن نموه وتطوره تخلفا عمن يماثله فى العمر، واعتبر زملاؤه أنه لا يتمتع بالقدر الكافى من الذكاء واستهزءوا به وجعلـوا منـه مـادة

لسخريتهم، مما زاد فى الصعوبات التى كان يعانى منها بالفعل فى إقامة علاقات وصداقات جديدة.

إن هذا المريض كان يعانى بالفعل من شعور بالنقص، وقد ازداد هذا الشعور سوءًا بسبب الظروف السابق شرحها، كما أننا اكتشفنا أنه قد تربى فى ظل أب سريع الغضب حسن النوايا والمقاصد وذى خلفية عسكرية، أما أمه فقد كانت امرأة ضعيفة غير متعلمة، ولكنها كانت من النوع الذى يميل إلى السيطرة والهيمنة، وأنا أعتقد أن الأبوين قد قاما بأحسن ما فى طاقاتهم - من وجهة نظرهم - لتربية مريضنا، ولكن هذه التربية كانت شديدة التزمت، وكان الإحباط (عدم التشجيع) يلعب دورًا كبيرًا فيها وكانت إحدى ذكرياته الأولى ذات مغزى عميق، فعندما كان فى الثالثة من عمره أجبرته أمه على الركوع - لمدة نصف ساعة كاملة - لأنه رفض إطاعة أحد أوامرها، وبالرغم من أنها كانت تعرف السبب الذى أجبره على عصيانها، فقد كان الصغير شديد الخوف من رجل على حصانه، ولهذا رفض أمر أمه بالذهاب لقضاء إحدى حاجياتها.

وإذا أردنا الإنصاف فإن علينا أن نذكر أن هذا الصبى نادرًا ما تعرض للعقاب أو الضرب، ولكن عندما تم ضربه فإن هذا كان يحدث باستخدام سوط متعدد الفروع مخصص لعقاب الكلب، وبعد ضربه بهذا السوط فإنه كان عليه أن يذكر السبب فى تلقيه هذا العقاب ويسأل المغفرة، وكان الأب يقول دائمًا:

"على الطفل أن يعلم السبب فى تلقيه العقاب".

وفى إحدى المرات تم عقابه بدون سبب، وبالتالى فإنه لم يتمكن من ذكر السبب لأنه لم يكن يعرفه، فتكرر عقابه مرات عديدة حتى تمكن من اختراع سبب واعترف به لا لشىء إلا ليتوقف تكرار العقوبة.

وهكذا فإن الطفل بدأ يشعر بالعداء نحو الأب والأم منذ مرحلة مبكرة جدا فى حياته وتزايدت مشاعر النقص لديه، وبلغت حدا كبيرًا، حتى إنه أصبح غير قادر على مجرد تخيل وصوله - فى يوم من الأيام - إلى وضع التفوق، وكانت حياته المدرسية - مثلها مثل حياته فى المنزل - سلسلة محكمة الحلقات من الهزائم الكبيرة والصغيرة، حتى إنه بدأ يشعر بأنه سيظل محرومًا من أى انتصارات حتى الصغير منها، وفى المدرسة - حتى بلوغه سن الثامنة عشرة - كان مثارًا لسخرية

الجميع، وكان الجميع يشارك فى هذه السخرية حتى إن مدرسه سخر منه ذات مرة عندما قرأ واجبه المدرسى بصوت مرتفع، وأخذ يقلده بحركات ساخرة.

إن كل حادثة من هذه الأحداث السابقة أجبرت مريضنا على التزام العزلة، وبالتدريج بدأ ينسحب من الجميع ويدخل فى عالم خاص به وحده، وخلال معركته مع والديه اكتشف طريقة شديدة الفاعلية بالرغم من أنها كلفته الكثير، فقد بدأ يرفض الكلام، وبهذا قطع الصلة الرئيسية بينه وبين العالم الخارجى، وحيث إنه كان غير قادر على الكلام مع أى شخص فإن عزلته قد ازدادت، وأصبح الجميع عاجزين عن فهمه، وازداد صمته - خاصة مع أبويه - وتوقف الجميع عن محاولة مخاطبته، ولاقت كل المحاولات - التى بذلت لدفعه نحو الحياة الاجتماعية - الفشل مثلها فى هذا مثل كل المحاولات التى بذلها هو - فيما بعد - لتأسيس علاقات حميمة، مما سبب له الكثير من الحزن.

كانت هذه هى قصة حياة المريض حتى بلغ الثامنة والعشرين من عمره، ومشاعر النقص التى ملأت حياته كلها تحولت إلى عقدة نقص، ودفعته هذه العقدة لأن يبحث عن طموحات غير معقولة، وأصبح لديه شوق شديد لأن يصبح مهما، وأن يتفوق، وكلما قل كلامه كلما ازداد عقله امتلاءً بالأفكار الغريبة وأحلام النصر، وهكذا فإنه حلم - ذات ليلة - الحلم السابق وصفه، والذى كان يعبر بوضوح عن الطريقة التى تعمل بها نفسيته.

وفى النهاية دعنا نتذكر حلم الخطيب اللاتينى "سيسرو Cicero"، وهو واحد من أشهر الأحلام التنبؤية فى الأدب:

"وجد الشاعر سيمونيدس Simonides جثة شخص ميت راقدة فى عرض الشارع، فقام بدفن الجثمان بطريقة محترمة، ومرت الأيام وكان عليه أن يسافر بحرًا، ولكن شبح الشخص الميت قام بتحذيره - فى خلال حلم - وقال له بأنه إذا نفذ عزمه وسافر بحرًا، فإن السفينة ستتعرض للغرق، ولم يذهب سيمونيدس، وتعرضت السفينة بالفعل للغرق، ومات كل من عليها".

طبقًا للشاعر سيسرو فإن هذا الحدث ترك انطباعًا كبيرًا وشديد التأثير على كل من سمع به، ولمدة مئات عديدة من السنين، فإذا أردنا أن نتفهم ونفسر هذا الحدث، فإنه علينا أن نتذكر أن غرق سفينة - فى تلك الأزمنة - كان أمرًا معتادًا،

وعلينا أن نتخيل أيضًا أنه بسبب كثرة حوادث غرق السفن، فإنه فى ليلة السفر – باستخدام سفينة – كان الكثير منهم يحلم بالسفن وغرقها، ومن بين هذه الأحلام العديدة فإن حلم سيمونيدس تحقق مصادفة، ثم بدأ الجميع يتذكرونه ويتناقلونه – من جيل إلى جيل ولمدة مئات السنين – على أنه نبوءة لا شك فيها، والكثير من عشاق الغموض لديهم استعداد كبير لتبنى قصص مثل القصة السابقة واتخاذها دليلاً على وجود قوى غامضة وعالم مجهول يحيط بنا، أما تفسيرى العملى لمثل هذا الحلم فهو كما يأتى:

إن الشاعر كان خائفًا على حياته من هذه الرحلة البحرية، ولم يكن متحمسًا على الإطلاق للقيام بها، وكلما اقترب يوم رحيله زادت حاجته ليجد مبررًا يبرر به تردده وعدم رغبته فى الذهاب، ولهذا السبب فإنه استخدم الشخص الميت – والذى كان مدينًا له بسبب دفنه له – وأظهره فى دور الرسول الذى يحمل النبوءة التى سوف تنقذ حياته، وبالطبع لم يذهب الشاعر فى رحلته البحرية، أما بالنسبة للسفينة فإنها إذا لم تغرق بعد ذلك، فإننا ما كنا لنسمع أبدًا عن هذا الحلم، ولكننا نلاحظ هذه الأشياء التى تزعجنا بغموضها، والتى تذكرنا بوجود أشياء – على الأرض وفى السماء – غامضة ولن نستطيع فهمها، وبالنسبة لطبيعة الحلم التنبؤية فإننا يمكننا فهمها لأن كلا من "الحلم" و"الحقيقة" يتم الشعور بهما بطريقة تعكس موقف الفرد His attitude من الحياة.

وهناك شىء آخر يجب أخذه فى الاعتبار ألا وهو أن الأحلام ليست كلها سهلة الفهم، بل إن العكس صحيح فإن القليل جدا منها يكون مفهومًا، ونحن سرعان ما ننسى الحلم، ولكنه يترك انطباعه الخاص علينا، رغم أننا لا ندرك ما وراء هذا الحلم، إلا إذا شُرح لنا معنى هذه الأحلام، ومع ذلك فإن الأحلام تكون رمزية، وتعبر عن نشاطات الفرد ونمط سلوكه من خلال التشبيهات، والمعنى الرئيسى لمثل هذه المقارنات الرمزية والتشبيهات هى أنها تسمح لنا بأن نصل إلى حل، فلو أننا نكافح من أجل الوصول إلى حل مشكلة ما، وكانت شخصيتنا توجهنا نحو اتجاه محدد، فنحن فى حاجة إلى "شىء ما" ليعطينا الدفعة النهائية فى اتجاه الوصول إلى هذا الحل، والحلم هو هذا الشىء الذى نحتاجه لأنه مناسب جدا لكى نستخدمه فى تركيز عاطفة من العواطف والحصول على القوة الدافعة التى نحتاجها لحل هذه المشكلة بطريقة معينة، ورغم أن الشخص الحالم لا يستطيع أن يتفهم الصلة، فإن

هذا لا يهم كثيرًا، فكل ما يحتاجه الحالم هو الحصول على المادة الضرورية والقوة الدافعة التى يحتاجها، ومكان الحصول عليهما والفهم غير ذى أهمية، فإن الحلم نفسه سوف يعطى دليلاً على الطريقة التى تعمل بها أفكار الحالم وتعبر عن نفسها، كما أنها تشير لنمط سلوكه، وبهذا يكون الحلم مثل أعمدة الدخان التى تدل على أن النار مشتعلة فى مكان ما، ويكون خبير الحرائق قادرًا على تحديد نوع الدخان حتى إنه يتمكن من أن يخبرنا عن نوع الخشب الذى تم استخدامه فى إشعال النار، وبالمثل فإن الطبيب النفسى يستطيع أن يستنتج طبيعة الفرد من خلال قدرته على تفهم وتفسير أحلام هذا الفرد.

دعنا الآن نلخص الأفكار السابقة: يمكننا أن نقول إن الأحلام لا تظهر أن الحالم يبحث عن حل لإحدى مشكلاته فقط، ولكنها تظهر أيضًا طريقته لمعالجة هذه المشكلة. إن الشعور الاجتماعى والسعى الحثيث نحو الحصول على القوة هما الدافعان اللذان يؤثران على الحالم على وجه الخصوص - بسبب صلتهما بالعالم وحقائقه - وسيكون وجودهما ظاهرًا بوضوح فى أحلام الفرد.

الذكاء:

لقد أخذنا فى الاعتبار كل الخصائص والمميزات النفسية التى تمكننا من فهم الفرد، ولكننا لم ندرس القدرات العقلية بعد، ورغم أننا قللنا من قيمة ما يقوله الفرد وما يفكر فيه - عن نفسه - لأننا نعرف أن الفرد يسهل تضليله، وكل واحد منا يشعر بأنه مجبر على أن يحسن ويجمل الصورة النفسية التى يظهر بها أمام العالم، عن طريق استخدام خطط حاذقة وماكرة.

ولكننا نستطيع أن نقول - بأمان وثقة - إنه يمكن الحصول على استنتاجات محددة من خلال تلك العمليات والتعبيرات الصادرة عنها خلال الحديث، ولا يمكننا - أبدًا - أن نستثنى التفكير والحديث من اختباراتنا إذا ما رغبنا فى أن يكون حكمنا على الفرد صادقًا وصحيحًا.

إن ما نحب أن نسميه بـ"الذكاء" - تلك القدرة الخاصة على إصدار أحكام صحيحة - كان مادة الدراسة والتحليل والاختبار وما عرف باسم اختبارات الذكاء

I.Q. test للأطفال والبالغين، وحتى الوقت الحالى فإن هذه الاختبارات كانت تلاقى النجاح، فعندما كنا نختبر مجموعة من التلاميذ، فإن نتائج هذه الاختبارات كانت تتفق عادة مع رأى المدرس – والذى كان من الممكن الحصول عليه بسهولة بدون إجراء أى اختبارات – وفى البداية كان علماء النفس فخورين جدا بهذه النتائج بالرغم من أنه كان من الواضح أن هذه الاختبارات زائدة عن الحاجة وغير ضرورية.

وكان هناك اعتراض آخر على اختبارات الذكاء، وهو أن قدرات الأطفال وطريقتهم فى التفكير والحكم على الأشياء لا تنمو وتتطور بطريقة منتظمة، وعلى هذا فإن الطفل الذى أحرز نتيجة سيئة – فى أحد الاختبارات السابقة – يمكن أن يحقق نتيجة جيدة جدا وأحسن بكثير خلال السنوات التالية، والعكس صحيح.

كما أنه يجب أخذ نقطة مهمة فى الاعتبار، وهى أن الطفل الذى ينشأ فى المدينة والذى ينشأ فى عائلات حصل أفرادها على تعليم عالٍ. يكون فى وضع أحسن لتحقيق نتائج أفضل مع هذه الاختبارات، والسبب فى هذا هو أن مثل هذا الطفل تكون لديه خبرات أوسع بالحياة، وبهذا يتمكن من الحصول على نتائج أفضل – بطريقة صناعية – تغطى على من هو أقل منه استعدادًا بسبب نشأته فى الريف أو فى عائلة لم يحصل أيا من أفرادها على التعليم.

وهناك حقيقة معروفة تؤيد النتيجة السابقة، فإن الأطفال ما بين سن ثمانى إلى عشر سنوات من عائلات غنية، يسجلون نتائج أفضل – فى اختبارات الذكاء – من الفئة العمرية نفسها التى ينتمى أطفالها إلى عائلات فقيرة، وهذا لا يعنى أن الطفل الغنى أكثر ذكاءً بل إن السبب فى هذا الفارق يرجع إلى ظروف البيئة المحيطة.

فإننا حتى وقتنا الحالى لم نحرز تقدمًا كافيًا فى اختبارات الذكاء، ويظهر هذا بوضوح عندما ندرس النتائج السيئة التى حصلنا عليها فى كل من برلين وهمبورج، حيث إن نسبة كبيرة من هؤلاء الأطفال الذين أحرزوا أعلى الدرجات فى الاختبار فشلت بطريقة مذرية – فيما بعد – خلال تعليمها، وهذه الظاهرة يمكن أن تثبت أن نتائج اختبار الذكاء الجيد لا يمكن أن تعتبر ضمانًا أكيدًا لتطور ونمو صحى فى المستقبل.

ومن خلال الخبرة التى حصلنا عليها باستخدام علم الـنفس الفـردى، فـإن الاختبارات التى أجريناها أعطت نتائج أفضل، والسبب فى هذا أننا لم نحـاول أن نوجه اختباراتنا نحو قياس درجة محددة من النمو والتطور، ولكنها كانت مصـممة بحيث تعمل على زيادة فهم العوامل الإيجابية التى تساعد على هذا النمو والتطور، والملاحظات نفسها أعطت الطفل الفرصة لتحسين وضعه بنفسـه، وقـد كانـت وجهة نظر "علم النفـس الفردى" – دائمًا – هى ألا نأخذ فى الاعتبار قوى الطفـل وقدراته على التفكير والحكم وحدها ولكن يجب علينا أن ننظر إلـى هـذه القـوى باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من نفسـية الطفل His psyche.

الذكر والأنثى

تقسيم العمل والعلاقات بين الذكر والأنثى:

لقد تعلمنا فيما سبق أن هناك ميلين من الميول الرئيسية التى تسيطر على كل نشاطاتنا النفسية، وهذان الميلان هما الشعور الاجتماعى، وسعى الفرد الحثيث نحو الحصول على المزيد من القوة والسيطرة، وهذان الميلان السابقان يؤثران على جميع نشاطات البشر، ولهما القدرة على صبغ موقف الفرد من ناحية سعيه الحثيث لتحقيق الأمان ولإشباع الحاجات الثلاث (الحب والعمل والعلاقات الاجتماعية)، والتى تمثل أهم التحديات التى تجبرنا الحياة على مواجهتها.

عندما ندرس طريقة عمل النفس psyche، فإنه يجب علينا أن نصبح ماهرين فى تحليلاتنا الكمية والكيفية للعلاقات الخاصة بهذين العاملين (الشعور الاجتماعى والسعى لتحقيق التفوق) إذا ما أردنا تفهم النفس البشرية Human psyche حق الفهم. إن العلاقة بين هذين العاملين تكيف درجة قدرة الفرد على فهم منطق الحياة الجماعية المشتركة، ولهذا فإنها تؤثر على قدرة الفرد على إخضاع نفسه لقواعد تقسيم العمل Division of labour، والتى تحدث نتيجة لمتطلبات الحياة الاجتماعية المشتركة.

إن تقسيم العمل عامل محورى فى قدرة المجتمع البشرى على الاستمرار، ويجب على كل واحد منا – فى وقت من الأوقات – أن يقوم بنصيبه من العمل، وكل من يرفض القيام بنصيبه من العمل، وينكر أهمية الحياة الجماعية المشتركة. يكون معاديًا للمجتمع، واختار أن يرفض الدخول فى مشاركة مع زملائه من البشر، وفى الحالات البسيطة من هذا النوع فإننا نتكلم عن الغرور والأنانية والحقد الخبيث والرغبة فى التسبب فى المشاكل، أما الحالات الأكثر تعقيدًا فإننا نجد الجنون، وغرابة الأطوار، والعنف الضارى، والإجرام، وهذا الرفض العام للخصائص والعيوب السابقة ينبع من فهم لأصلها – الذى خرجت منه – ألا وهو شعور ذلك الفرد بأنه غير كفء لمواجهة متطلبات الحياة الاجتماعية.

ومن هذا يمكننا القول بأن قيم أى فرد تتحدد من خلال موقفه تجاه زملائـه من البشر، ومن خلال تقبله لمبدأ المشاركة فى تقسيم العمل الذى تحتمـه طبيعـة الحياة الجماعية المشتركة. إن هذا التقبل يجعل الفرد مهما فى نظر زملائـه مـن البشر، ويجعله "حلقة ربط" فى السلسلة التى تضم المجتمع مع بعضه الـبعض. إن مكان الفرد فى المجتمع يتحدد من خلال قدراته، ورغم بساطة هذه الحقيقـة فإنهـا كانت محاطة بالكثير من الخلط والتشويش، والسبب فى هذا هو أن السعى الحثيـث نحو المزيد من القوة والرغبة فى السيطرة قد فرضا قيمًـا زائفـة علـى التقسـيم الطبيعى للعمل، فإن هذا السعى الحثيث والرغبة فى السيطرة قد شوها النمط العـام ووضعا لنا قواعد زائفة مغلوطة للحكم على القيم البشرية.

إن بعض البشر هم الذين شوهوا عملية تقسيم العمل عندما رفضوا التكيـف مع دورهم فى المجتمع، كما أن الصعوبات قد نشأت نتيجـة للطموحـات الأنانيـة والجوع الدائم لإحراز المزيد من القوة بواسطة أفراد تدخلوا – بطريقة غير عادلـة – فى الحياة الجماعية المشتركة بغرض تحقيق أغراض أنانية صرفة، وبالمثل فقد حدثت تعقيدات بسبب وجود فروق ضخمة بين الطبقات فى مجتمعنا، كما أن القـوة الشخصية والمصالح الاقتصادية قد أثرتا على عملية تقسيم العمل. لأنها حجزت كل الوظـائف الجيدة – وهى الوظائف ذات النفوذ أو المجزيـة ماديـا – لأعضـاء معينين من جماعات خاصة، بينما حرمت الباقين منهـا. إن الاعتـراف بوجـود التأثيرات الضارة السابقة على بناء المجتمع يمكننا أن نفهم السبب الذى جعل عملية تقسيم العمل تمر بصعوبات دائمة، فإن هناك الكثير من القوى التى تعمل باستمرار على بث الاضطراب فى تقسيم العمل وتحاول أن تخلق امتيازات لمجموعات مـن البشر على حساب مجموعات أخرى.

وهناك حقيقة أخرى بالغة الأهمية، فإن الجنس البشرى يتكون مـن نـوعين: رجل وامرأة، وهذا يقودنا إلى نوع آخر من أنواع تقسـيم العمـل، فـإن المـرأة – لأسباب عضلية وجسدية بحتة – يتم استبعادها من بعض النشاطات، بينما لا تعطـى بعض المهام للرجل على أساس أنه يمكن استخدامه بطريقة أفضل فى القيام بأعمـال أخرى يكون المجتمع فى حاجة أشـد إليها. إن هذا الأسلوب فى تقسيم العمل يجـب أن يقنن بطريقة غير متحيزة، وحتى حركات تحرير المرأة – عندما تنحى العواطف جانبًا – توافق على المنطق السابق، وتعترف بأنه أسلم طريقه للنظر إلى هذا الأمر.

إن هدف تقسيم العمل لا يعنى أن نسلب أنوثة المرأة منها، أو نتسبب فى حدوث اضطراب للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة، والطريقة المثالية هى: أنه يجب إعطاؤنا جميعًا الفرصة لأن نقوم بالعمل فى الأشياء المناسبة لنا، وفى خلال تاريخ الحضارة البشرية، فإن تقسيم العمل قد نما وتطور بطريقة جعلت المرأة تتخصص فى وظائف بعينها، حتى تمكن الرجل من أن يؤدى وظائفه الأخرى بطريقة فعالة، ولا يمكننا أن ندين هذا الأسلوب فى تقسيم العمل، مادام يعمل بطريقة عادلة وبدون إساءة استخدام القدرات أو المواد.

سيطرة الرجل وتحكمه:

حيث إن حضارتنا كانت تنمو وتتطور فى اتجاه حصول الفرد على المزيد من القوى الشخصية – خاصة من خلال جهود بعض الأفراد والجماعات والطبقات الاجتماعية التى عملت بشدة على الاحتفاظ بامتيازات معينة لنفسها – فإن تقسيم العمل قد أصبح يتخذ نمطًا شديد التميز، وقد أثر هذا النمط على حضارتنا ككل، ونتيجة لهذا النمط فإنه قد تم التأكيد على أهمية الذكر، وتم إبراز دوره وتضخيمه بطريقة مبالغ فيها، وأصبح تقسيم العمل يتم بحيث تضمن الجماعة المميزة (الرجال) مجموعة من الميزات المحددة، وقد تسبب هذا فى هيمنة الرجال على المرأة، وهكذا تمكن الرجل من السيطرة والتحكم، وأصبح قادرًا على توجيه نشاطات المرأة بطريقة مكنته من الحصول على نصيب الأسد من طيبات الحياة، بينما فرضت على المرأة الوظائف والمهام التى لا يرغب الرجل فى القيام بها.

والوضع الآن هو أن الرجل يسعى سعيًا حثيثًا للسيطرة والهيمنة على المرأة باستمرار، ومن الناحية الأخرى فإن المرأة تشعر بعدم الرضا والرغبة فى تغيير الأوضاع التى تجعل الرجل يسيطر عليها، وحيث إن النوعين (الرجل والمرأة) يعتمدان أشد الاعتماد على بعضهم البعض، فإنه من السهل أن نتفهم كيف أن هذه الأجواء المتوترة سوف تتسبب فى خلافات ونزاعات دائمة ومعاناة لا داعى لها بين الجنسين.

إن كل مؤسساتنا، وكل عاداتنا ومواقفنا التقليدية، وكل قوانيننا وأخلاقياتنا تشهد على حقيقة مهمة ألا وهى أنها جميعًا قد تم إنشاؤها وتشكيلها وتحديد وظائفها

بواسطة الطبقة المميزة (الرجال)، وبغرض تحقيق الأمجاد والمصالح الشخصية للرجل، وكل هذه المؤسسات تستطيع أن تصل بذراعها الطويلة إلى كل مكان حتى داخل دور حضانة الأطفال، وتأثيرها مماثل فى قوته لطول هذه الذراع، وأنا أعنى هنا تأثيرها على نفسية الطفل Child's psyche .

إن الطفل لا يحتاج إلى تفهم كل هذه التأثيرات السابقة حتى يشعر بتأثيرها عليه فى كل جوانب حياته ومن المهم أن نأخذ هذا الموقف فى الاعتبار، لأننا نرى الصبى الصغير - على سبيل المثال - يتملكه الغضب إذا ما طلب منه أن يرتدى ملابس فيها بعض اللمسات الأنثوية، فحتى هذا الصغير يشعر بأهمية كونه ذكرًا ويتمسك بها، وإذا سمحنا لتلك الرغبة داخل نفس الصبى الصغير لأن تنمو وتتطور، فإننا سنجد أنه يظهر تفضيلاً واضحًا للحصول على هذه المميزات التى تضمن له "التفوق" فى كل مكان.

لقد ذكرنا من قبل أن طريقة تنشئة الأطفال الحالية من المرجح أن تزيد من قيمة ذلك السعى الحثيث نحو الحصول على القوة، وينتج عن هذا ميل دائم إلى المبالغة فى مميزات الرجل والإصرار على الحصول عليها، وعادة ما يكون السبب فى هذا هو أن الأب هو الذى يكون رمز القوة داخل الأسرة، وتعدد مرات خروجه ودخوله - والغموض المحيط بها - يثير اهتمام الأطفال أكثر بكثير من الوجود الدائم للأم داخل المنزل، وسرعان ما يلاحظ الطفل الدور المهم الذى يلعبه الأب، فالطفل يلاحظ أن الأب هو الذى يحدد خطوات الأسرة، ويخطط لمستقبلها، ويظهر فى كل مكان على أنه قبطان سفينة الأسرة. إن الطفل يرى كيف أن جميع أفراد الأسرة يطيعونه، ويرى الأم تسأله النصيحة، فإن الأب يبدو - من جميع الزوايا - أقوى أفراد الأسرة، والكثير من الأطفال يتطلعون إلى الأب ويتخذونه قدوة حتى إنهم يؤمنون بأن أى شىء يقوله الأب لابد من أن يكون حقيقيا، ونحن نرى الكثير من الأطفال يحاول الواحد منهم إثبات صحة وجهة نظره عن طريق القول بأن "هذا هو ما قاله أبى ذات مرة".

وحتى فى تلك الحالات التى يبدو فيها الوالد وكأنه لا يملك الكثير من التأثير، فإن الأطفال يأخذون انطباعهم عن السيطرة من الأب لأن الأب يبدو كما لو كان يحمل على كتفيه كل أعباء الأسرة، بينما فى الواقع فإن تقسيم العمل هو الذى مكن الأب من استخدام قواه لتحقيق المزيد.

ودعنا الآن نتكلم عن الأصل التاريخى لسيطرة الرجل وتحكمه، وعلينا أن نشير إلى أن هذه الظاهرة لم تحدث - تاريخيا - بطريقة طبيعية، والإثبات هو: ذلك الكم الهائل من العادات والتقاليد والقوانين المسنونة لتضمن سيطرة الرجل وضرورة بقائه قبطانًا لسفينة الأسرة، وما سبق يشير إلى وجود فترة زمنية - قبل العادات والقوانين - لم يكن فيها الرجل هو المسيطر الأوحد، ولم يكن حصوله على امتيازاته مضمونا بالشكل الذى نراه الآن، ويقف التاريخ شاهدًا على ذلك، ففى تلك الفترة التى شهدت النظام الأمومى(*) Matriarchy، وقد كانت الأم - المرأة - هى التى تلعب دور المسيطر والمتحكم، فى ذلك الوقت كان كل رجال القبيلة مجبرين على طاعة واحترام الوضع الشرفى للأم، ومازالت هناك مجموعة من العادات والتقاليد الحالية المتأثرة بهذه الطرق القديمة، وعلى سبيل المثال: فإن جميع الرجال الغرباء - فى بعض الحضارات - يتم تقديمهم للأطفال الصغار على أنهم "عم" أو "ابن العم".

ويمكننا أن نخمن أن معركة هائلة قد سبقت هذا التحول من النظام الأمومى على نظامنا الحالى الذى يسيطر فيه الرجل ويتحكم، فإن الرجل الذى يرغب فى الاعتقاد بأن امتيازاته نشأت بطريقة طبيعية سوف يفاجأ عندما يعلم بأن الذكر لم يكن يملك تلك الامتيازات منذ البداية، وأنه كان عليه أن يقاتل للحصول عليها.

عندما انتصر الرجل وحصل على هذه الامتيازات، فإن المرأة خسرت الكثير، ويتضح هذا فى تطور القوانين، والتى تشهد على المحاولات الطويلة والمستمرة لإخضاع المرأة.

ولهذا فإنه يمكننا اعتبار سيطرة الرجل وتحكمه، شيئًا غير طبيعى، وإنه حدث كنتيجة للصراع الدائم بين الأقوام البدائيين، ومن خلال هذا الصراع فإن الرجل استولى - لنفسه - على دور المحارب، واستخدم هذا الموضع المتفوق فى استعادة القيادة وفى ضمان المزيد من الامتيازات لجنسه، وفى الوقت نفسه فقد تطور "حق الملكية" و"حقوق الوراثة" وأصبحت أداة استخدمها الرجل فى الحصول على المزيد من السيطرة والتحكم، لأن الرجل كان هو فقط الذى يرث ويتملك.

والأطفال فى غير حاجة لقراءة الكتب التى تحكى عن هذا التاريخ لأن الواحد منهم يشعر بأن الرجل عضو مفضل فى الأسرة، وأن هذا مازال يحدث

(*) نظام يرجع فيه "النسب" و"الوراثة" إلى الأم. (المترجم)

حتى الآن، وبالرغم من أن الأب والأم أصبحا يرفضان هذه الامتيــازات الموروثــة ويميلان إلى المساواة بين الجنسين، ومع كل هذا فإنه من الصعب جدا إقناع الطفل بأن دور الأم - وهى التى تقوم بكل الواجبات المنزلية - فــى أهميــة دور الأب نفسها والذى يتحمل مسئولية العمل خارج المنزل ووظيفــة تمكــن الأســرة مــن الحصول على النقود الضرورية لبقائها.

ودعنا نأخذ فى الاعتبار ما الذى يعنيه هذا بالنسبة لفتى صغير يشاهد - منذ أيامه الأولى - هذه الامتيازات الرجولية، فمنذ يوم مولده فإن هذا الفتى يلقى الكثير من الترحيب الحماسى - بعكس ما إذا كان المولود أنثى - فــالكثير مــن الآبــاء والأمهات مازالوا يفضلون الذكور على الإناث، ويشعر الفتى الصغير - فى كــل خطوة يخطوها - بأنه هو الابن والوريث، وأن له امتيازات أعلى وأعظم قيمة من الناحية الاجتماعية، ويمتلئ عقله الصغير بالكثير من الأقوال والحوادث التى تؤيــد جميعها الأهمية العظمى لدور الرجل، وسيطرة الرجل وتحكمه يزدادان وضــوحًا فى عقله الصغير عندما يرى الأنثى تقوم دائمًا بالمهام الصغيرة والحقيرة، وبالتالى يتأكد لديه الانطباع لأن جميع النساء من حوله غير مقتنعات تمام الاقتناع بالمساواة مع الرجل.

والسؤال الحيوى الذى يجب أن تسأله المرأة لزوجها قبل الزواج هو:

"ما هو موقفك من سيطرة الرجل وتحكمه خاصــة فيمــا يتعلــق بحياتنــا الأسرية؟".

ولكن نادرًا ما تسأل المرأة هذا السؤال، وحتى إذا ســألت فإنهــا غالبًــا لا تحصل على إجابة شافية، وأحيانًا نرى المرأة تسعى بشدة نحو المساواة، وأحيانًــا نجدها قد كيفت نفسها مع وضعها الجديد بدون تذمر، ومن ناحية أخرى فإننا نــرى الرجل مقتنعًا - منذ طفولته - بأن دوره فى الحياة أكثر أهمية، وأنه لهذا يســتحق بعض الامتيازات، فالرجل يتفهم قناعته السابقة على أنها واجب واضــح، ويركــز على مواجهة تحديات الحياة والمجتمع بطريقة من يملك الامتياز.

إن كل ما ينتج عن العلاقات السابقة يمتصه الأطفــال ويســتوعبونه، ومــا يستنتجه الطفل هو: مجموعة من الصور عن طبيعة المرأة وفيها تبدو المرأة غالبًا مخلوقًا تعيسًا مؤسفًا، وبهذه الطريقة فإن نمو وتطور الفتى الصغير يظهــران فــى تأثير رجولى واضح، وكل ما سوف يؤمن هذا الفتى بأنه أهداف ذات قيمة - خلال

سعيه الحثيث للبحث عن المزيد من القوة - ستكون له صفات ومظاهر رجولية بحتة، وأمثال هذه الأهداف هى التى تخرج تلك الأنماط التقليدية للموقف الرجالى Male attitudes مظهرة بوضوح مصدرها الحقيقى.

كما أننا كثيرًا ما نعطى مجموعة معينة من مميزات الشخصية صفة الرجولة، بينما تكون بعض المميزات الأخرى أنثوية، ولكن علينا أن نعلم أنه لا يوجد أى أساس مادى لمثل هذا التقييم،إذا أردنا أن نقارن بين فلسفة التفكير عند كل من الفتيان والفتيات، فإننا سنجد الكثير من الأدلة التى تؤيد هذا التقسيم لمميزات رجولية وأنثوية، ولكن علينا أن نتذكر أننا لا نتعامل مع ظاهرة طبيعية، ولكننا نتعامل مع أفراد تم توجيه تفكيرهم فى اتجاه محدد، وأن أسلوب حياة الواحد منهم ونمط سلوكه مقيد بالكثير من مفاهيم القوة التى قد قامت - بقوة - بتحديد مكان كل فرد ومكانته فى المجتمع.

أنا لا أعتقد فى أن هناك أى مبرر منطقى للفروق الموجودة حاليًا بين ما نسميه مميزات شخصية رجولية ومميزات شخصية أنثوية، وسوف نرى أن كلتا المجموعتين من المميزات يمكن استخدامها لإشباع سعى الفرد الحثيث نحو الحصول على المزيد من القوة، وبطريقة أخرى فإنه يمكن القول بأننا سنرى أن الفرد نفسه يستطيع أن يسعى خلف القوة من خلال استخدام المميزات الشخصية الرجولية أو الأنثوية على حد سواء، ومن أمثلة استخدام المميزات الشخصية الأنثوية لجوء الطفل - ذكرًا كان أو أنثى - إلى الطاعة والاستسلام، ويستغلها الطفل المطيع لصالحه بغرض الحصول على مكانة أفضل من مكانة الطفل المشاغب فى دائرة الضوء، وبالرغم من أن كلا منهما (المطيع والمشاغب) يسعى نحو تحقيق الهدف نفسه فى الحالتين، ولقد جعل هذا الدراسات النفسية أكثر تعقيدًا وصعوبة لأننا تأكدنا الآن من أن السعى الحثيث نحو المزيد من القوة يمكن التعبير عنه بأكثر من طريقة.

عندما يبدأ نمو وتطور الفتى الصغير، فإن الرجولة تصبح واحدة من أهم واجباته، وكل طموحاته ورغباته فى الحصول على المزيد من القوة و"التفوق" تكون متصلة بهذا الواجب، وبالنسبة للكثير من الفتيان فإن الرجولة وحدها تكون غير كافية لتحقيق رغبتهم الشديدة فى الحصول على المزيد من القوة، بل إن الواحد منهم يجد أن عليه أن يثبت أنه رجل حتى يتمكن من الحصول على

الامتيازات المتعلقة بهذا الوضع، ويلجأ بعضهم إلى بذل المزيد من الجهد حتى يحسن موقفه، لكن البعض الآخر يحاول تحسين موقفه من خلال التصرف كسيد مطاع، وعن طريق التحكم فى النساء المحيطين به بشتى الحيل والطرق، ويحاول أمثال هذا الفتى الأخير استغلال العناد والثورة، أو الدهاء والحيلة - حسب حجم المقاومة التى سيلقاها من النساء المحيطات به - فى الحصول على هدفه.

وحيث إنه يتم الحكم على كل فرد فى المجتمع قياسًا على الامتيازات التى يتمتع بها الذكر، فلا عجب فى أننا سوف نستخدم هذا المعيار أمام الفتيان الصغار، وبالمثل فإن الفتى سيقيس نفسه طبقًا لهذا المعيار أيضًا وسيراقب أفعاله، ويتساءل ما إذا كانت هذه الأفعال رجولية بالقدر الكافى؟ وما إذا كان هو نفسه رجلاً كاملاً أم لا؟

وللأسف فإن ما نعتبره أفعالاً رجولية الآن ما هو إلا غرور وأنانية ليس إلا، فكلها أفعال تهدف إلى حب النفس، ولا تؤدى إلا إلى الشعور الفارغ بالتفوق والسيطرة على الآخرين، وهى تصل إلى هذا الهدف بمساعدة ما يبدو وكأنه مميزات إيجابية مثل الشجاعة والقوة والإخلاص والتفانى فى أداء الواجب ومقاومة كل ما يبدو وكأنه ميول أنثوية. إن هناك معركة دائمة من أجل الحصول على التفوق الشخصى لأن السيطرة والتحكم يعتبران من القيم الرجولية الواجب الحصول عليها.

وبهذه الطريقة فإن كل فتى صغير يقلد ويتبع هذه المميزات لأنه يراها فى الكثير من البالغين فى الرجال المحيطين به خاصة والده، ويمكننا أن نرى آثار وهم العظمة المصطنع هذا فى الكثير من جوانب مجتمعنا، فالفتى الصغير مدفوع إلى السعى نحو تحقيق مخزون من الامتيازات لنفسه، وهذا ما اعتاد المجتمع أن يسميه "رجولة"، وقد يصل الحال به لأن يصبح عنيفًا ومتعجرفًا فى بعض الحالات.

ففى وضعنا الحالى فإن ميزات الرجولة تكون شديدة الإغراء والغواية، ولا يجوز أن ندهش عندما نرى الكثير من الفتيات الصغيرات اللائى يحاولن التصرف بطريقة رجولية، ويتخذن قدوة رجالية بغرض الوصول إلى امتيازات الرجولة، أو كمعيار للحكم على السلوك الفردى، وهكذا فإن هذه القدوة قد تكشف عن نفسها فى ظهور نمط للسلوك والملبس، وهكذا تبدو النساء - فى حضارتنا الحالية - كما لو كن يرغبن فى التشبه بالرجال!، وسوف نجد من بينهن فتيات تكون الواحدة منهن

لديها رغبة شديدة فى التميز والظهور خلال النشاطات المختلفة والألعاب خاصة المقصور منها على الفتيان، فهى تتسلق الأشجار، وتفضل اللعب مع الفتيان، وتتجنب جميع النشاطات النسائية كما لو كانت عارًا، وهى لا تحصل على الإشباع إلا من خلال النشاطات الرجالية، ويمكننا أن نتفهم سبب اختيارهن هذا عندما نعلم أن السعى الحثيث نحو التفوق يرتبط بالمعنى الذى نعطيه لنشاطاتنا أكثر من ارتباطه بالنشاطات ذاتها.

خرافة دونية المرأة:

لقد اعتاد الرجل أن يبرر سيطرته وتحكمه عن طريق الادعاء بأن هذا هو الوضع الطبيعى، كما أن الرجل ادعى – أيضًا – بأن سيطرته وتحكمه ما هما إلا النتيجة الطبيعية لدونية المرأة The inferiority of woman، وهذا الزعم الخاطئ شديد الانتشار حتى إنه يؤثر على جميع الأجناس، ومع هذا التمييز الجنسى (التحيز ضد المرأة) ينتشر نوع من التوتر بين الرجال، وربما كان منشؤه هو الشعور القديم الذى ساد خلال الحرب ضد النظام الأمومى Matriarchy عندما كانت قوة النساء مصدرًا للتوتر والقلق الشديد بين الرجال. إننا نكتشف كل يوم ما يشير إلى صحة ما سبق فى الأدب والتاريخ، ومؤلف لاتينى كتب ذات مرة:

"إن المرأة هى مصدر قلق وتوتر وارتباك الرجل".

وكانت إحدى المجادلات الدينية والعقائدية السائدة فى العصور القديمة تبحث فى ما إذا كانت للمرأة روح أم لا، كما أن الكثير من المقالات كتبت فى دراسة ما إذا كانت المرأة مخلوقًا بشريا أم لا، وجاءت قرون طويلة كانت تعتبر فيها النساء العجائز "ساحرات" وتم حرقهن، وكل ما سبق شاهد يدل على المخاوف والارتباك الذى شعر به الرجل تجاه المرأة فى تلك العصور المظلمة.

كثيرًا ما كان ينظر إلى المرأة على أنها مصدر كل الشرور مثل مفهوم الكتاب المقدس عن الخطيئة الأصلية (خطيئة حواء)، أو كما روى هوميروس فى الإلياذة عن قصة هيلين والتى أظهرت كيف استطاعت امرأة واحدة أن تتسبب فى الكثير من المصائب والارتباك لأمم كاملة، كما أنه توجد الكثير من الأساطير – التى تعود إلى مختلف العصور – تتحدث عن دونية أخلاق المرأة Woman moral

inferiority، وكيف أن المرأة شريرة ومخادعة، وذات كلام مزدوج منمق، وكيف أنها سطحية وعابثة، حتى إنه تم استخدام المصطلح "حماقة المرأة Womanly folly" كدليل في مرافعات المحامين داخل قاعات المحكمة، ومع كل هذا التحيز ضد المرأة كان هناك أيضًا الكثير من الحط من قدراتها على العمل، بل ومن ذكائها أيضًا، كما انتشرت الأمثال والحكم والنكات في كل آداب العالم وبين كل الناس، وامتلأت كلها بالإشارات التي تقلل من شأن المرأة وتحط من قيمتها وتظهر جوانبها السلبية فقط، فكانت المرأة في هذه الأمثال متهمة دائمة بأنها حقودة وغبية وصغيرة العقل وحقيرة ولا تهتم إلا بالتوافه من الأمور.

وكان الكثير من الرجال يبذلون أقصى ما في وسعهم في محاولة لإثبات دونية المرأة، وشارك في هذا السلوك الكثير من أعلام الفن والأدب مثل ستريندبرج Strindberg وشوبنهاور Schopenhauer والذين امتلأت أعمالهم بنساء تؤمن كل واحدة منهن بأنها أقل من الرجل ودونه في كل شيء، وقادت مثل هذه الأعمال إلى فكرة أنه يجب على المرأة الاستسلام للرجل، واستمر هذا الأسلوب في الحط من قيمة المرأة ظاهرًا حتى إن المرأة كانت تتقاضى أجرًا أقل من الرجل عند قيامها بالعمل نفسه.

عندما تمت المقارنة بين نتائج اختبارات الذكاء والاستعداد - لكل من الرجال والنساء - فإننا وجدنا أن الذكور يظهرون موهبة طبيعية أكثر تجاه بعض المواد مثل الرياضيات، بينما كانت الإناث أكثر تفوقًا واستعدادًا لتعلم اللغات. إن الفتيان يظهرون موهبة أعظم من موهبة الفتيات في كل الدراسات التي تساعدهم في الحصول على الوظائف الرجالية، ولكن هذه الموهبة ظاهرية وليست فعلية، فلو أننا درسنا وضع الفتيات عن قرب، فإننا سنكتشف أن كل القصص التي اعتدنا ترديدها عن دونية قدرات المرأة ما هي إلا خرافات وكذب مفضوح.

إن الفتاة تتعرض يوميا لأمثال هذه المجادلات السخيفة، والتي تحاول إثبات أنها أقل من الفتى وأنه لا يمكنها القيام إلا بالنشاطات التافهة والوضيعة، ولهذا فمن الطبيعي أن تصبح الفتاة مقتنعة - إن آجلاً أو عاجلاً - بأن مصير المرأة المحتوم هو أن تظل في هذا الوضع، وفي النهاية تصبح - هي الأخرى - مؤمنة بدونية المرأة، وكنتيجة لهذا الإحباط المستمر فإن الفتاة لن تحاول الحصول على الوظائف الرجالية، وحتى إذا واتتها الفرصة للحصول على إحدى هذه الوظائف، فإنها

ستتعامل معها بعقلية غير متفتحة، وفى البداية ستفترض أنها ستكون غير مهتمة بالقدر الكافى بهذه الوظائف، وعندما تصبح مهتمة بها، فإنها سرعان ما ستفقد هذا الاهتمام بسبب عدم وجود من يشجعها ويؤمن بها وبقدراتها.

وتحت ضغط الظروف السابقة فإن ما يسمى بالإثباتات التى تثبت دونية المرأة تبدو مقنعة، وهناك سببان لهذا:

السبب الأول: إن هذا الخطأ يزداد وضوحه من خلال الحقيقة فى أن قيمة الإنسان تقدر بطريقة تجارية صرفة، أو على أسس متحيزة وشديدة الأنانية، وهذا التمييز الجنسى يجعل من الصعب علينا فهم الكيفية التى تتوافق بها القدرات والأداء المتميز مع النمو والتطور النفسى، وهذا يقودنا إلى.

السبب الثانى: إن الكثير من الفتيات تأتى إلى هذا العالم الذى يملأ آذانها بالخرافات والأكاذيب التى تهدف إلى حرمانهن من الثقة بالنفس والإيمان بقيمتهن الحقيقية، وتدمير أمل الفتيات فى القيام بأى إنجازات حقيقية، والكثيرون منا يحاولون تجاهل هذه الحقيقة، فعندما يستمر هذا التمييز الجنسى (التحيز ضد المرأة)، فإن الفتيات الصغيرات تشاهد الواحدة منهن – المرة تلو الأخرى – كيف أن المرأة تجبر على لعب دور ثانوى وتابع لدور الرجل، وفى النهاية فإن الواحدة منهن تفقد شجاعتها، وتفشل فى تحمل الواجبات الملقاة على عاتقها، وتتراجع عن مواجهة مشاكل الحياة، بعد كل هذا فلا عجب أن الفتاة تبدو عديمة الفائدة وعاجزة!.

ولكن إذا تعاملنا مع أحد الأشخاص عن طريق التقليل من شأنه ومن حجم احترامه لذاته – خاصة فيما يختص بعلاقاته مع المجتمع – وخلقنا داخله شعورًا باليأس من إنجاز أى شىء ذى قيمة، وأفقدناه شجاعته وحطمناها، وبعد كل هذا تواتينا الجرأة على أن نقول إنه لا يساوى أى شىء الآن، ولا حتى فى المستقبل، ولكننا نحن الذين تسببنا فى كل هذه الكوارث التى حاقت بذلك الشخص، ونحن السبب المباشر والرئيسى والأوحد فى حالته هذه.

فى حضارتنا الحالية يكون من السهل على الفتاة أن تفقد شجاعتها وثقتها بنفسها، ولكن الكثير من اختبارات الذكاء كشفت هذه الحقيقة الغريبة، ألا وهى أن

هناك مجموعة من الفتيات - من عمر الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة - أظهرت كل واحدة منهن موهبة أعظم وذكاء أكبر من باقى المجموعات بما فيها مجموعات الفتيان، وقد دلت الدراسات على أن كل فتيات هذه المجموعة تنتمين إلى عائلات تكون فيها المرأة هى رب العائلة (الشخص ذو الوظيفة التى تأتى بالنقود اللازمة لاستمرار حياة الأسرة)، أو تسهم بالنصيب الأكبر من دخل العائلة. إن تلك الفتيات تعيش كل واحدة منهن فى أسرة ذات خلفية خاصة لا تؤمن بعدم قدرة المرأة على أداء الوظائف الصعبة، بل على العكس فداخل تلك الأسر الجميع متساوون، وذلك التمييز الجنسى يكاد يكون غير موجود على وجه الإطلاق، فالفتاة تستطيع أن ترى بعينيها - داخل تلك الأسر - ما الذى تستطيعه المرأة وقدراتها التى لا شك فيها على العمل الشاق، وكنتيجة لهذا فإنها تنمو وتتطور بحرية واستقلالية أكثر، ولا تتأثر بتلك القيود التى تحاول إجبارها على الإيمان بأن المرأة لا تملك قدرات مساوية لقدرات الرجل.

وهناك نقطة أخرى فى صف المرأة، فهناك ذلك العدد الكبير من النساء التى تمكنت كل واحدة منهن من تحقيق الإنجازات العظيمة - والمساوية لإنجازات الرجل - فى جميع مجالات الحياة خاصة فى الآداب والفنون والطب والحرف اليدوية، كما أنه يوجد أيضًا ذلك العدد الكبير من الرجال الذين لم يتمكن أيا منهم من تحقيق أى إنجازات، كما أنهم أيضًا يتميزون بعدم الفاعلية والفشل فى كل ما يقومون به حتى إنه يمكن اعتبارهم جدليا الدليل على دونية الرجل وليس العكس.

وأحد النتائج المريرة لهذا التمييز الجنسى (التحيز ضد المرأة والادعاء بدونيتها) هو ذلك التقسيم البين للمفاهيم، وطبقًا لهذا التقسيم فإن كل ما هو "رجالى" يعنى قيمًا، وقوى، ومنتصرًا، وقادرًا، أما كل ما هو "أنثوى" فإنه يجب أن يقترن بمعانٍ مثل الطاعة، والخضوع، والعبودية..إلخ. إن هذه الطريقة فى التفكير قد أصبحت ذات جذور عميقة فى طريقة التفكير الإنسانى، حتى إن كل ما هو جدير بالثناء يجب أن يكون رجوليا، وكل ما هو أقل تختص به الأنوثة، وكل واحد منا يعرف رجلاً ما يشعر بالإهانة الشديدة إذا ما أخبرته بأنه يملك بعض السجايا الأنثوية، بينما يعتبر نوعًا من المديح إذا ما أخبرنا المرأة بأن فيها بعض سجايا الرجل، وكل هذا يثبت - مرة أخرى - أن التأكيد دائمًا يكون على أن كل مميزات المرأة تبدو كما لو كانت أقل ودون مميزات الرجل.

إن كل المميزات الشخصية التي يدعي البعض أنها دليل على دونية المرأة إذا ما تم دراستها دراسة واعية، فإنها ستظهر على حقيقتها، فهي ليست أكثر من المظاهر الناتجة عن النمو والتطور النفسي المقيد والمكبوت، وأنا هنا لا أزعم القدرة على تحويل كل الأطفال لما يسمى بـ"أفراد موهوبين"، وإنما يمكننا أن نخلق منهم "راشدين غير موهوبين"، ولحسن الحظ فإننا لم نحاول أبدًا تحقيق هذا، ولكني أعلم بوجود من نجحوا في هذه الفعلة، وأنا أيضًا أعلم أن هناك فتيات يلقين هذا المصير أكثر من الفتيان – في عصرنا هذا – ويمكن التعرف عليهن بسهولة، ولكن كثيرًا ما تحول هؤلاء الأطفال غير الموهوبين إلى موهوبين بطريقة أقل ما توصف به هو أنها معجزة.

رفض المرأة لدورها:

إن كل الامتيازات التي يتمتع بها الرجل قد تسببت في الكثير من المتاعب في نمو وتطور نفسية المرأة، حتى إنه يوجد رفض عالمي – بين جميع النساء – لدور الأنثى. إن نمو وتطور عقلية المرأة مشابه جدا للرجل الذي يعاني من شعور شديد بالنقص بسبب وضعه في الحياة، ويخضع للقواعد نفسها، وهذا يسبب المزيد من التعقيدات – خاصة في ظل التمييز الجنسي (التحيز) والادعاء الكاذب بدونية الأنثى – في حياة الفتاة.

وهناك عدد لا بأس به من الفتيات تمكنت الواحدة منهن من الحصول على "التعويض" بفضل ما تتمتع به من شخصية وذكاء – وفي بعض الأحيان – مميزات طبقية خاصة، وكل منا يعرف القول الخاص بأن: "الأخطاء تقود إلى المزيد من الأخطاء"، وبالمنطق نفسه فإن هذه المميزات الخاصة ما هي إلا تمييز وتحيز واستثناء من الواجبات مشابه لما يتمتع به الرجل – بدون استحقاق – ورغم أن هذا يبدو كما لو كان يعطي المرأة درجة أعلى من الاحترام، فإن الرجل يسمح بهذا لغرض في نفسه، والكاتبة جورج صاند(*) George sand قد عبرت عن هذا أحسن تعبير عندما قالت:

(*) كاتبة فرنسية شهيرة (١٨,٤ – ١٨٧٦) كتبت أكثر من ثمانين قصة ومسرحية، ولدت لأب "أرستقراطي" وأم "غجرية"، وتوفي والدها بعد مولدها بقليل، فحاولت أن تملأ الفراغ بالإفراط في التعلق بأمها والرغبة في حمايتها كما كان زوجها يحميها، ومن هنا نشأ ميلها للتشبه بالرجال، أيضًا فإن جدتها – والتي قامت على تنشئتها في قصرها في بيري – كانت تناديها "ابني"، وبدأت حياتها – بعد عودتها من الدير – بطريقة منافية للتقاليد، فقد كانت تخرج للصيد في ملابس الرجال وأصبح=

"إن قيمة المرأة هي في اختراعها العظيم والذي هو الرجل".

وعلى وجه العموم فإنه يمكننا التفريق بين ثلاثة أنواع من ردود أفعال المرأة في مواجهة خرافة "دونية المرأة":

النوع الأول: وقد سبق وحددنا هذا النوع وفيه تنشأ الفتاة وتتطور في اتجاه نشط ورجالي فتتمتع هذه الفتاة بطاقة عالية، كما أنها تكون شديدة الطموح، فتحاول باستمرار الحصول على نصيبها من مباهج الحياة، كما أنها تسعى بشدة للتفوق على إخوتها ورفقائها الذكور، فنجد أنها تختار النشاطات والألعاب التي يختارها الرجال مثل الرياضات التي لا يمارسها إلا الذكور، كما أننا نجدها تتجنب العلاقات العاطفية والزواج، وإذا حدث وكان لها مثل هذه العلاقة، فإن محاولاتها الدائمة للتفوق على زوجها ستهدد استمرارية العلاقة، كما أنها ستظهر رفضًا قويا لجميع الأعمال المنزلية بمختلف أنواعها، وستعلن هذا الرفض صراحة أو تظهره بطريقة غير مباشرة عن طريق الادعاء بأنها عاجزة عن أدائه وستثبت هذا من خلال التظاهر اليومي بعجزها عن القيام بالأعباء المنزلية.

وهذا هو النوع الذي يبحث عن التعويض – من كل الشرور التي تسبب فيها الموقف الرجالي – من خلال اتخاذ موقف رجولي، فهذه الفتاة في حالة دفاع دائم، والجميع يسميها المرأة المسترجلة أو الفتاة المسترجلة، ولكن كل هذه الأسماء مبنية على فهم خاطئ، فالكثير من الناس يظن أن هناك عاملاً خلقيا (منذ الولادة) قد تدخل في تكوين أمثال هذه الفتاة، أحد إفرازات الغدد الذكرية ربما يكون قد تسبب في هذا الاتجاه الرجولي، ولكن تاريخ الحضارة كله يظهر لنا أن الضغط الشديد الموضوع على النساء، والقيود التي يجب عليهن الخضوع لها كل يوم لا يمكن لأي إنسان أن يتحملها، وأنها هي التي تسببت في هذه الثورة، وإذا بدأت هذه الثورة في إظهار نفسها في شكل الرغبة في التشبه بالرجل، فإن السبب في هذا هو عدم وجود أي اتجاه آخر (فلا يوجد إلا نوعان، فإذا كانت غير راضية عن نوعها – امرأة – فإن عليها أن تتشبه بالرجل)، فإما أن نختار نمط المرأة المثالية، وإما أن نختار نمط الرجل المثالي، ولهذا فإن رفض الدور الأنثوي يجب أن يظهر نفسه بالتشبه بالرجال والعكس صحيح، ولكن هذا لم يحدث بسبب أحد الإفرازات الغامضة، بل بسبب عدم وجود أي دور آخر.

=ارتداؤها الدائم لهذه الملابس – فيما بعد – علامة على ثورتها العارمة ضد عدم المساواة بين الرجل والمرأة. (المترجم)

إن الفتاة تواجه الكثير من الصعوبات، وتكون تحت ضغوط هائلة في أثناء نمو وتطور نفسيتها، ولهذا فإنه لا يجوز أن نسألها أن تشترك في كل أنماط السلوك المتوقعة والتي يتكون منها مجتمعنا حتى نستطيع أن نضمن لها - ولجميع النساء - المساواة التامة والكاملة مع الرجل.

النوع الثاني: إن هذا النمط من ردود الأفعال يأتي من المرأة التي اتخذت موقف الاستسلام والتكيف مع الوضع المفروض عليها بدون تذمر، حتى إن الواحدة منهن تظهر درجة لا تصدق من القدرة على التكيف والطاعة والتواضع، وكل من يراها من الظاهر يعتقد أنها راضية بالفعل وتنفذ ما تأمر به عن اقتناع، ولكن الحقيقة أنها تعاني من درجة عالية جدا من الخرق وعدم البراعة، وعجزها يصل إلى درجة أنها لا تتمكن أبدًا من إتمام أي شيء، وقد تظهر عليها أعراض العصبية - فكأنها توضح للعالم مدى ضعفها وحاجتها للحماية - وبهذه الطريقة تكون قد أظهرت بوضوح مدى عدم استعدادها لتأدية دورها في الحياة، فهي شهيدة وضحية لأعصابها الضعيفة، وهي كمن يقول:

"انظر إلي، فأنا أحاول بكل جهدي، فلا يجوز أن تؤاخذني لأنني ضعيفة ولا أستطيع التكيف".

ولأنها ضعيفة فإنها لن تتمكن من مواجهة مشاكل الحياة بطريقة مرضية، وهكذا فإن استسلام هذه المرأة وتواضعها وإنكارها لذاتها تنبع من الشيء نفسه. وروح الثورة، الذي عبر عنه النوع الأول من النساء الذي وصفناه في السابق، ثورة تقول بوضوح: "إن هذه الحياة لا تناسبني على الإطلاق!".

النوع الثالث: وهذا النوع من النساء لا يثور بأي طريقة - أيا كانت - ضد دور المرأة، ولكن الواحدة منهن تحمل في داخلها ذلك "الوعي" المعذب بأنه مكتوب عليها أن تحيا - طوال حياتها - في وضع دون وضع الرجل، وأن تظل مرعوسة به إلى الأبد. إنها مقتنعة تمام الاقتناع بدونية المرأة كما أنها مقتنعة أيضًا بأن الرجل وحده هو الذي يستطيع أداء الوظائف المهمة في الحياة، ونتيجة لهذا فهي تتقبل وضع الرجل المميز، بل إنها تشارك مع كل الأصوات التي تتغنى بعظمة الرجل وقدراته على الإنجاز، وتطالب بوضع خاص له.

إن مثل هذه المرأة تظهر مشاعر ضعفها بوضوح كما لو كانت تنتظر التعويض وتطالب بالمزيد من التأييد بسبب هذا الضعف، لكن هذا الموقف ما هو

إلا مقدمة للانتقام الذى أمضت الكثير من الوقت فى الإعداد له، فهى تضع كل مسئولياتها على الزوج وتطالبه بتحملها، فهى كمن يقول:

"لا يستطيع إلا الرجال تحمل مثل هذه المسئوليات".

ورغم شيوع ذلك الاعتقاد بدونية المرأة، فإن تربية الأطفال قد تركت لها، والآن دعنا نتخيل هذه الأنواع الثلاثة من النساء، وما الذى يمكن أن يقوم به كل نوع منها فى مواجهة هذه الوظيفة المهمة والصعبة؟ وعندها سيزداد وضوح الفوارق بين الأنواع الثلاثة:

إن النساء من النوع الأول - ذوات الموقف الرجالى Masculine attitude - ستصبح الواحدة منهن متشددة بطريقة مبالغ فيها وستهتم بالعقاب قبل الثواب، وهكذا فإنها ستضع ضغطًا هائلاً على أطفالها، وبالطبع سيقاوم الأطفال هذه الضغوط ويحاولون الهرب منها. إن أمثال هذا النوع من التربية لا ينتج عنها إلا تنشئة عسكرية عديمة القيمة، وأطفال مثل هذه الأم يعتقدون أنها أم غير صالحة، وبالطبع فإن كل هذا الصراخ له تأثير سيئ جدا، كما أن هناك احتمالاً خطيرًا: وهو أن الفتيات ربما تحاول الواحدة منهن تقليد الأم فتصبح طاغية مثلها، أما الفتيان فقد يصابون بعقدة الخوف الدائم من النساء عمومًا ويتجنبونهن، ومن بين هؤلاء الفتيان الذين عانوا من طغيان أمثال هذه الأم سيخرج رجال يحاول الواحد منهم تجنب النساء والابتعاد عنهن بقدر إمكانه لأنه أصبح عاجزًا عن الثقة فى أى امرأة، وكنتيجة لهذا فإن الفجوة ستتزايد بين الرجل والمرأة.

أما النساء من النوعين الآخرين فإنهن يعانين من الفشل بطريقة مساوية للنوع الأول، فإن الواحدة منهن ستكون بالغة التردد ولا تثق فى نفسها، حتى إن الأطفال - عندما يكتشفون هذا - سيستغلونه أسوء استغلال وينطلقون بلا رقيب أو حسيب، وفى مثل هذه الحالة فإن الأم ستحاول من جديد، وتتذمر كثيرًا وتوبخ الأطفال وتهددهم بإبلاغ الأب، وهذه الحقيقة الأخيرة (التهديد بإبلاغ الأب) تفضح ضعفها وتظهر عدم إيمانها بقدراتها على تربية الأطفال، فهى تقذف بمسئولياتها نحو الأب، وكأنها تعترف مرة أخرى بأن الرجل هو الوحيد الذى يقدر على مواجهة كل شىء حتى تربية الأطفال. إن مثل هذه المرأة قد تحاول تجنب بذل أى مجهود فى تربية الأطفال وتضع كل المسئوليات بين يدى زوجها أو المدرس فى

المدرسة دون أن تشعر بالذنب حيث إنها تشعر بأنها غير قادرة على أداء هذه المهمة بنجاح.

إن عدم الرضا عن دور المرأة يظهر بوضوح أكثر بين الفتيات اللائي تحاول الواحدة منهن الهرب من مشكلات الحياة إلى ما يسمى "هدفًا أسمى" مثل الرهبنة، فإن دور الراهبة وكل ما يماثله من أعمال تتطلب التبتل هو ما نقصده في هذا الخصوص، فإن كراهية دور المرأة تصبح واضحة أكثر من خلال هذا العمل، وبالمنطق نفسه فإن الكثير من الفتيات تذهب الواحدة منهن إلى العمل في عمر مبكر لأنها تحقق الاستقلال المادى والذى يمكنها بدوره من تجنب الزواج، ومرة أخرى فإننا نرى هنا أن القوى الدافعة خلف هذه الأفعال هى الميل لرفض دور المرأة.

ودعنا الآن ندرس تلك الحالات التى يحدث فيها زواج، والتى يمكننا فيها أن نفترض أن المرأة قد رضيت بان تلعب دورها الطبيعى طواعية. إننا سنجد أن مجرد حدوث الزواج لا يعنى بالضرورة أن الفتاة قد تكيفت مع دورها (دور المرأة)، ولنأخذ حالة هذه الفتاة كمثال:

الحالة الأولى: سيدة فى السادسة والثلاثين من عمرها ذهبت إلى الطبيب وهى تشكو من أعراض عصبية مختلفة، كانت هذه السيدة هى الابنة الكبرى لزواج حدث بين رجل كبير فى السن وامرأة صغيرة تتميز بالسيطرة والتحكم، عندما ننظر إلى هذا الوضع ونعرف أن أمها كانت جميلة وصغيرة فى السن، وأنها بالرغم من هذا قد تزوجت من رجل كبير فى السن، فإن هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الوضع – فى بيت أم هذه السيدة – كان يميل إلى الحط من قدر دور المرأة أيضًا، وكما هو متوقع فإن هذا الزواج لم يكن سعيدًا، فإن الأم تحكمت فى المنزل بيد من حديد، وأصرت على أن تكون مشيئتها هى النافذة بأى ثمن مهما كان، وبغض النظر عن شعور باقى أفراد الأسرة ورأيهم فى تصرفاتها، حتى إنها كانت تمنع زوجها العجوز من أن يرقد على الأريكة ليستريح، وكانت كل نشاطات هذه الأم مركزة على تنفيذ روتين يومى محدد للعناية باقتصاد المنزل وشئونه الأخرى حتى أصبح هذا الروتين هو القانون المطلق داخل هذه الأسرة.

وكبرت ابنتها (مريضتنا) فى هذا الجو، ولكنها أصبحت طفلة قادرة وموضع فخر واعتزاز والدها، ومن ناحية أخرى فإن أمها كانت تبدو دائمًا غير راضية

عنها، وفيما بعد – عندما أصبح لها أخ صغير – فإن التباعد ازداد بينهما، واتجهت الأم بكل عواطفها وحنانها وقدرتها على التفهم إلى المولود الجديد، وازداد إهمالها لابنتها حتى أصبح التوتر بينهما لا يطاق.

ولكن مريضتنا كانت واعية بأن لها حليفًا قويا (والدها)، ومن ناحيته فإن الوالد – رغم ضعف شخصيته وتواضعه – لم يأل جهدًا فى الدفاع عن مريضتنا خاصة إذا ما تعلق الأمر بمصلحتها، وهكذا فإن مريضتنا بدأت تكره أمها بشدة.

وفى هذا الصراع الذى تميز بالعناد، فإن مريضتنا استغلت هوس الأم بالنظافة – كانت الأم لا تسمح للخادمة بأن تلمس أى شىء بدون غسله أولاً، وإذا لمست الخادمة مقبض الباب على سبيل المثال، فإن عليها أن تنظفه بعد كل مرة تلمسه فيها – فى الهجوم عليها ومضايقتها، فإن مريضتنا كانت تستمتع وهى صغيرة بإفساد كل ما تنظفه أمها، وبأن تجعل المنزل قذرًا كلما أتيحت لها الفرصة.

وهكذا فإنها قد اكتسبت خلال نموها كل المميزات والخصائص المضادة لرغبات والدتها وتوقعاتها بالنسبة لها،(*) فعندما اكتسبت مريضتنا هذه الخصائص – التى تضايق والدتها – فإنه لابد من أن هناك خطة فى الوعى، أو فى اللاوعى خلف هذه الخصائص المتبناة. إن الخصومة بينهما قد استمرت ووصلت فى شدتها ومرارتها إلى حدود لا يمكن تخيلها.

عندما أصبحت مريضتنا فى الثامنة من عمرها كان الموقف فى منزلها كما يلى:

كان الأب فى صف مريضتنا على الدوام ومهما كان موضع الخلاف، أما الأم فإنها كانت مثل الحيوان الحبيس، فإن التكشيرة لم تفارق وجهها، والتعليقات الجارحة لم تتوقف أبدًا، كما أنها مضت فى تطبيقها المتشدد لقواعد النظافة وإدارة شئون البيت، ولم تضع أى فرصة لتوبيخ مريضتنا، ومن ناحيتها فإن مريضتنا – والتى أصبحت مولعة بالشجار – استغلت أى فرصة متاحة لإغاظة أمها والتنغيص عليها، واستخدمت لسانها اللاذع فى إيذاء مشاعرها، ومما تسبب فى تعقيد الموقف أنه تم اكتشاف عيب خلقى فى قلب الأخ الصغير، والذى كان بالفعل محل تدليل

(*) إن هذه الحقيقة وحدها تتناقض بشدة مع تلك النظريات القائلة بأن المميزات الشخصية يمكن أن تورث، وتؤيد ما سبق وقلناه من أنه لا توجد أى خصائص لا يمكن تغييرها. (المؤلف)

زائد من والدته، بالإضافة إلى أنه استغل مرضه فى الحصول على المزيد من اهتمام الأم وحنانها، وأصبح من الواضح أن كلا الوالدين قد اتخذ من أحد الأطفال حليفًا دائمًا له، ودار صراع بين الفريقين.

وعند هذا أصيبت مريضتنا بمرض عصبى لم يستطع أى طبيب تفسيره، وكانت أهم مظاهر هذا المرض هى وجود العديد من الأفكار الشريرة تجاه الأم، وكانت هذه الأفكار تعذب مريضتنا – عندما كانت صغيرة – بشدة حتى إنها أثرت على جميع أفعالها.

وأخيرًا تحولت مريضتنا تحولاً مفاجئًا، فإنها أصبحت – فى تلك السن الصغيرة – شديدة التدين، وبعد مضى بعض الوقت اختفت هذه الأفكار الشريرة، وادعى البعض أن هذا الدواء أو غيره، أو هذا الطبيب أو ذاك هو المسئول عن شفائها، أما أنا فإنى أعتقد أن السبب هو أن الأم قد أجبرت على اتخاذ موقف الدفاع، كما أن هذه الأفكار الشريرة لم تختف تمامًا، بل إن بعض آثارها ظلت موجودة، وعبرت هذه البقايا عن نفسها فى صورة خوف شديد من البرق والرعد.

فإن الفتاة الصغيرة (مريضتنا) اعتقدت أن البرق والرعد ما هما إلا نتيجة لضميرها المثقل بالأفكار الشريرة، وأنهما سيتسببان – ذات يوم – فى موتها عقابًا لها على مثل هذه الأفكار، من الواضح أن هذه الفتاة الصغيرة كانت تحاول أن تحرر نفسها من كراهيتها لأمها، وقد حققت بعض التقدم، وبدأ مستقبلها يبدو مشرقًا، وذات يوم قال المدرس فى معرض حديثه عنها:

"إن هذه الفتاة يمكنها أن تفعل أى شىء إذا أصرت بما فيه الكفاية على القيام به".

إن مثل هذه العبارة العادية كان لها تأثير بالغ عليها وأخذت تفكر فى نفسها قائلةً:

– "يمكننى إنجاز أى مهمة إذا ما حاولت بصدق".

وكانت هذه الفكرة هى السبب فى تزايد حدة الصراع بينها وبين أمها.

ثم أتت مرحلة المراهقة، ونضجت هذه الفتاة، وتحولت إلى امرأة شابة جميلة أعجب بها الكثيرون، ولكن كل علاقاتها مع الجنس الآخر كانت تتحطم بسرعة بسبب لسانها اللاذع، ولم تشعر بالانجذاب نحو أى رجل، ما عدا ذلك

الرجل المسن، والذى كان يعيش فى الجوار، وخشى الجميع – لفترة – أن ترغب فى الزواج منه، ولكن انتقل هذا الرجل إلى مكان آخر بعيد، وظلت الفتاة بدون رفيق حتى أصبحت فى السادسة والعشرين من عمرها، وكان هذا أمرًا شديد الغرابة – فى مجتمعها – وعجز الجميع عن معرفة السبب لأنهم كانوا جميعًا يجهلون ماضيها وتاريخها مع أمها، وتسببت هذه الخلافات والمعارك المستمرة فى أنها أصبحت مولعة بالخلافات والمعارك الناتجة عنها، وأصبحت هذه المعارك هى متعتها الوحيدة، وكان سلوك أمها يضايقها باستمرار ويجعلها تسعى نحو إحراز "التفوق" عليها، وهكذا فإن المعارك الكلامية المريرة أصبحت مصدر سعادة لها – لأنها استطاعت فيها أن تحرز نوعًا من "التفوق" – وبدأ موقفها الرجالى فى الظهور لأنها كانت لا تفكر فى دخول هذه المعارك الكلامية إلا عندما كانت متأكدة من النصر.

وفى السن نفسها – السادسة والعشرين – قابلت رجلاً محترمًا وشريفًا، ولم تضايق عاداتها فى الولع بالشجار هذا الرجل، وبدأت فترة خطوبة سعيدة بينهما، وكان هذا الرجل من النوع المتواضع والسلبى المستسلم، وبدأ الكثير من الضغط عليها لإتمام الزواج خاصة من بين أقاربها، ولكنها قالت إنها لا تشعر بأى جاذبية نحوه، وإنها لا يمكنها الزواج منه.

ومن خلال معرفتنا بشخصيتها، فإنه يمكننا فهم موقفها هذا بسهولة، ولكن بالرغم من كل شىء، فإنه بعد مرور عامين من المقاومة الشديدة من جانبها، فإنها وافقت فى النهاية لإيمانها العميق بأنها قد تمكنت من إخضاعه تمامًا. لقد كان يداخلها الأمل – سرا – فى أنها قد وجدت نسخة مكررة من أبيها والذى كان يخضع لها كثيرًا.

ولكنها سرعان ما اكتشفت خطأها بعد أيام قليلة من الزواج، لأن زوجها كان يتصرف بحريته، فيدخن غليونه ويقرأ جريدته براحته، وكان يذهب فى الصباح إلى مكتبه، ويعود إلى المنزل فى موعد الوجبات بدقة، ويشكو إذا كانت وجبة طعامه غير معدة فى موعدها المحدد، كما أنه كان يطالب بأشياء كثيرة مثل النظافة والدقة والعواطف وكل تلك الأشياء التى كانت – هى – تعتبرها غير معقولة، ولم تكن مستعدة لأن تمنحها، وأصبحت علاقاتهما لا تشبه فى أى شىء علاقاتها مع أبيها.

كان اكتشاف هذه الحقيقة السابقة بمثابة صدمة شديدة بالنسبة لهـا، وكلمـا زادت مطالبها قلت استجابة زوجها، والعكس صحيح، فكلما ازدادت مطالباته لهـا بتحمل مسئولياتها المنزلية قلت نشاطاتها المنزلية، ولم تضيع أى فرصـة لتـذكيره بأنه لا يملك الحق فى مطالبتها لأنها قالت له بأنها لا تحبه، ولكن هذا لم يؤثر فيـه على الإطلاق لأنه استمر فى مطالبه بعناد شديد جعلها تنظر إلى المسـتقبل بقلـق، فإن هذا الرجل المنطوى والشديد الخجل الذى طاردها لمدة عامين قد تغير تمامًـا بعد أن تزوجها.

ولم يتحسن الوضع عندما أصبحت أمًّا، لأن هذا الوضع الجديد قـد وضـع المزيد من المسئوليات فوق كتفيها، وفى الوقت نفسه فإن علاقتها بأمهـا - كانـت أمها تأخذ جانب زوج ابنتها بحماس - ازدادت سوءًا، وكمـا هـو متوقـع فـإن النزاعات داخل بيتها هى تطورت إلى الأسوأ أيضًا، فإن الـزوج - كـأى زوج - كان يتصرف بطريقة خاطئة أحيانًا، ولا يراعى مشاعرها، ولهذا فإنها كانت علـى حق فى بعض شكواها منه، ولكن سلوك زوجها لـم يكـن إلا النتيجـة المباشـرة لعجرفتها، والتى كانت بدورها نتيجة لرفضها غير الواعى لدورها كامرأة، فعنـدما بدأت الزواج كانت تعتقد أنه يمكنها الاستمرار فى دور الأميرة المدللة إلى الأبـد، وأنه يمكنها أن تمضى حياتها فى صحبة "عبد" ينفذ جميع رغباتها، فقد كانت هـذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة - فى نظرها - للحياة.

فماذا تفعل الآن؟

فإنها إذا طلقت زوجها وعادت لأمها تكون بهذا قد أعلنت هزيمتها، وحيـث إنها كانت عاجزة عن اكتساب معيشتها لأنها لم تتعلم أى صنعة، فإن الطلاق سوف يعتبر ضربة قاضية لكرامتها واعتزازها بنفسها.

لقد أصبحت حياتها بائسة، فمن ناحية فإنها تواجه نقد زوجها الـدائم، ومـن ناحية أخرى فهناك أمها بلسانها اللاذع ونصائحها فى ضرورة التنظيم والنظافة.

وحدث الأمر فجأة، فإنها قد تحولت - هى الأخرى - إلـى امـرأة شـديدة الاهتمام بالنظام والنظافة!، وأخذت تمضى اليوم كله فى تنظيم البيت وتنظيفه، وبدا وكأنها قد أدركت خطأها، واقتنعت - أخيرًا - بتعاليم أمها، وفى البداية كـان كـل من الزوج والأم فى حالة سـرور شـديد بهذا التغير المفاجئ، وبمنظرهـا وهـى

تنظف البيت بهمة ونشاط، ولكن عمليات التنظيم والتنظيف لم تنتهى أبدًا، وامتـدت إلى ما لا نهاية وبلا توقف، حتى إنها أصبحت تعترض طريق الجميـع، كمـا أن الجميع أصبحـوا يعترضون طريقها، فإذا غسلت أحد الأشياء ثم قـام أى شـخص بلمسه، فإنها تعاود غسله من جديد ولا تسمح لأى شخص آخر بأن يقوم بهذا.

إن هذا المرض النفسى – والذى يظهر فى صورة هوس بالتنظيف – شـائع بين النساء خاصة اللاتى ترفض الواحدة منهن دورها كامرأة وتحاول – عن طريق التنظيف الدائم – أن تعوض الاختلال فى الموازين. إن كل هذه الجهود موجهـة – عن غير وعى – نحو غرضها الحقيقى فى إزعاج جميع أفراد المنزل، فإن هـدفها ليس النظافة، ولكن السيطرة وإثبات التفوق.

ويمكننى أن أذكر العديد من الحالات، والتى كانت المرأة فيها فى حاجة إلى التكيف والاقتناع بدورها كامرأة، وحتى فى أحسن الظروف فإنه لا يمكن دائمًـا أن نؤثر تأثيرًا إيجابيا على هذا التكيف، كما فى الحالة السابقة.

إن خرافة دونية المرأة مازالت مستمرة فى عصرنا الحالى من خلال العديد من القوانين والعادات والتقاليد، ورغم أن أى شخص لديه ولو قليل من المعلومـات النفسية يمكنه أن يقرر بسهولة أن المرأة مساوية للرجل، ولهذا فإنه يجب علينـا أن نكون منتبهين لكل مظاهر هذه الخرافة، وأن نحـاول تصـحيح مواقـف الأفـراد الخاطئة التى تنشأ عن هذه المظاهر، وهذا ضرورى، ليس لأننا نحترم المرأة فقط، ولكن لأن هذا الموقف يحمل الكثير من الأفكار الخاطئة التى تتناقض مـع حياتنـا الاجتماعية ككل.

ودعنى هنا أنتهز هذه الفرصة وأناقش موضوعًا آخر يُسـتخدم أيضًا فـى الحط من قيمة المرأة، وهو ما يسمى "العمر الخطـر Dangerous age " أو سـن اليأس. إن هذه الفترة من حياة المرأة تحدث فى سن الخمسين تقريبًـا، ويصـاحبها الكثير من الأعراض التى تظهر بوضوح لخصائص معينة فى شخصيتها، ويبـدو كما لو كانت التغيرات التى تحدث فى جسد المرأة ما هى إلا الإشارة التـى تشـير إلى أنها فى طريقها لأن تخسر كل ما بقى لها من أهمية ومعنى فى الحياة، وتحت ضغط هذه الظروف فإن المرأة تبحث – بجهد مضاعف – عن أى وسيلة لتـأمين وضعها المهدد. إن حضارتنا تسيطر عليها مبادئ تؤكد أهمية وقيمة القدرة الحاليـة

على الأداء والإنجاز، ولهذا فإن جميع الأفراد كبار السن – وخاصة النساء من بينهم – يعانون أشد المعاناة، وتواجههم صعوبات كثيرة.

إن الحط من قيمة المرأة المسنة يسبب لها الكثير من الضرر، وهذا الضرر يمتد ليشمل الجميع لأن حياة كل إنسان بها فترة يكون فيها عاجزًا عن الأداء والإنجاز، والوضع الصحيح هو أن: ما أنجزه الفرد خلال فترة شبابه يجب أن يحسب له عندما يتقدم فى السن، ومن الخطأ أن نحرم المسنين من وسائل الراحة – المادية والروحية – التى يوفرها المجتمع، لا لشىء إلا لأنهم تقدموا فى السن، وفى حالة المرأة المسنة فإن إساءة معاملتها تعنى ببساطة الحط من قيمتها والوصول بها إلى مستوى العبيد، ودعنا نتخيل مدى قلق وتوتر فتاة مراهقة، تعرف ما سوف ينتظرها فى تلك المرحلة – سن اليأس – القادمة من حياتها. إن دور المرأة لا ينتهى بسن اليأس، وقدر وقيمة الإنسان تمتد لأبعد من هذا السن، وبالتالى فإنه يجب علينا أن نضمن للمرأة القدر المناسب من الاحترام.

التوتر بين الرجل والمرأة:

إن كل هذه الأوضاع التعيسة ما هى إلا نتيجة للأخطاء التى ارتكبتها حضارتنا، فلو أن حضارة من الحضارات كانت معروفة بالتحيز والتمييز، فإن هذا التحيز وذلك التمييز سوف يمتد ويصل إلى كل جوانب هذه الحضارة وستظهر آثاره فى كل مكان، وخرافة دونية المرأة – وما تبعها من الزعم بتفوق الرجل – تتسبب دائمًا فى قلة التناغم بين الجنسين، وكنتيجة لهذا فإن القلق والتوتر بين الرجل والمرأة يدخلان كعامل جديد فى جميع العلاقات الموجودة بينهما ويهدد – وأحيانًا يدمر – أى فرصة لتحقيق السعادة بين الجنسين، وكل الموجود من علاقاتنا يتشوه ويتسمم بهذا التوتر، وهذا يفسر قلة عدد الزيجات السعيدة الناجحة لأنها تشكل مهمة خطرة وبالغة الصعوبة.

إن التمييز والتحيز قد يمنع الأطفال من فهم حقيقة الحياة، ودعنا نفكر فى كل أولئك الفتيات الصغيرات التى تنظر الواحدة منهن إلى الزواج على أنه مهرب الطوارئ فى الحياة، وتظن أن الزواج شر لابد منه، وضرورة لا يمكن تجنبها!، وفى أيامنا هذه فإن الصعوبات التى نشأت عن هذا التوتر الدائم بين الرجل والمرأة

قد تضخمت بشدة، وكلما قل استعداد النساء للعب دور الأنثى المستسلمة وكلما ازداد سعى الرجال للحفاظ على امتيازاتهم ازداد التوتر بينهم واتسعت الفجوة.

إن الرفقة والصداقة من السمات المميزة لتقبل الدور الجنسى ووجود مساواة حقيقية بين الجنسين، كما أن خضوع فرد من الأفراد للآخر أمر لا يمكن أن يحتمل فى العلاقات الجنسية، وفى غيرها من العلاقات، وعلينا أن ندرس هذه المشكلة بحرص شديد لأن الموقف الخاطئ ينتج عنه الكثير من المصاعب بين الزوجين. إن هذا الجانب من الحياة الإنسانية بالغ الأهمية، ولهذا علينا جميعًا أن نهتم به، ومما يزيد الأمور تعقيدًا أن يجبر الأطفال على تبنى نمط سلوكى يشمل الحط من قدر وأهمية الآخرين والانتقاص من مكانتهم أو رفضهم.

إن التربية الهادئة تستطيع أن تتغلب على كل الصعوبات الهادئة، ولكننا نعيش فى أوقات صعبة ينتشر فيها النقص فى استخدام الوسائط التعليمية المضمونة، والمنافسة واحدة من هذه المشاكل المنتشرة فى جميع جوانب الحياة، وبين جميع الفئات العمرية حتى فى دور الحضانة، وكل هذه الأشياء تحدد بقسوة نمط الحياة المتوقع، والخوف – الذى يجعل الكثير من البشر يتراجعون عن الدخول فى علاقات حب وزواج – ما هو إلا نتيجة للضغوط التى تجبر الرجل على إثبات رجولته فى جميع الظروف وحتى من خلال استخدام القوة والعنف أو اللجوء إلى الخداع والتسبب فى إيذاء الآخرين عن عمد.

ومن الواضح أن هذه العوامل تتضافر كلها معًا لتدمير الثقة المفترض تواجدها فى العلاقات بين الرجل والمرأة. إن (الدون جوان Don Juan) ما هو إلا هذا النمط غير المتأكد من رجولته، ويحاول دائمًا تأكيدها من خلال غزواته الغرامية المتعددة، وغياب الثقة بين الرجل والمرأة – وهو أمر شائع عالميا – يمنع البشر من أن يكونوا صرحاء مع بعضهم البعض، وكنتيجة لهذا فإن البشرية كلها تعانى، كما أن النموذج الرجالى المثالى المبالغ فيه يمثل تحديًا دائمًا، ومنبهًا مؤلمًا دائمًا، ومصدرًا للقلق الدائم، وكلها تقود إلى الغرور والخيلاء والاهتمام بصغائر الأمور واستمرار الموقف المصر على الاحتفاظ بالامتيازات، وكلها أشياء تضر بصحة الحياة الجماعية المشتركة.

لا يوجد أى سبب منطقى لمعارضة حركات تحرير المرأة، بل إن من واجبنا أن نؤيدها فى كفاحها من أجل الحصول على الحرية والمساواة، ولأنها

تبحث عن سعادة البشرية كلها، والتى تعتمد على خلق الظروف المناسبة للمرأة لكى تعيش حياتها كاملة وفقًا لقدراتها، وحتى يتمكن الرجل من تحقيق علاقة هادئة سعيدة مع المرأة.

ما الذى يمكننا فعله:

إن التعليم المشترك هو أهم وأحسن الوسائل التى اكتشفناها لتحسين العلاقات بين الرجل والمرأة، وهذه الوسيلة لا تلقى التقبل فى جميع أنحاء العالم، فهناك الكثيرون من المعارضين للتعليم المشترك، ولكن هناك الكثير من المؤيدين أيضًا، إن المؤيدين لهذه الوسيلة يقولون إن التعليم المشترك يعطى الفرصة للجنسين للتعرف على بعضهم البعض فى مرحلة مبكرة من العمر، وأن هذا التعارف المبكر يمكنه أن يحطم - إلى حد ما - التحيز ويوفر علينا جميعًا الكثير من القلق والتوتر الذى يسود العلاقات فيما بعد، بينما المعارضون يقولون إن الفتيان والفتيات تكون بينهم اختلافات شديدة - بالفعل - فى وقت دخولهم المدرسة لأول مرة، وإن تواجدهم معًا يعمل على زيادة إظهار هذه الفوارق وزيادة الضغط الذى يشعر به الفتيان، وهذا لأنه فى خلال الأعوام الأولى من الدراسة فإن الفتيات تنمو الواحدة منهن وتتطور بسرعة أكبر - جسديا، ومن حيث الذكاء أيضًا - من سرعة الفتى المساوى لها فى السن، والفتى الذى يشعر بأنه من الواجب عليه أن يؤكد أهميته ويظهر تفوقه، يجد نفسه فجأة فى موقف لا يحسد عليه، فيبدأ فى الاعتقاد بأن تفوق الرجل ما هو إلا وهم وخداع.

وهناك رأى ثالث، فإن بعض الدارسين يعتقدون أن التعليم المشترك يجعل الفتيان أكثر قلقًا فى صحبة الفتيات، مما يجعلهم يفقدون احترامهم لذاتهم وثقتهم بقدراتهم.

وأنا لا أشك فى وجود قدر من الصحة فى كل من الآراء السابقة، ولكنها جميعًا تنظر إلى التعليم المشترك على ضوء أنه منافسة بين الجنسين من أجل الحصول على مواهب وقدرات أعظم. إذا كان هذا هو معنى التعليم المشترك بالنسبة للمدرسين والتلاميذ فإنه يكون ضارا، أما إذا أردنا للتعليم المشترك أن ينجح، فإننا فى حاجة إلى مدرس يتفهم معناه الحقيقى، فإن التعليم المشترك يمثل

فرصة للتدريب والاستعداد للمستقبل، وفرصة للتعاون بين الجنسين فى أداء مهام مشتركة، وبدون أمثال هذا المدرس فإن التعليم المشترك سوف يفشل، والمعارضون له سيشعرون بأنهم كانوا على حق فى معارضته.

إن الشاعر وحده القادر على أن يصف كل هذه الفوارق الدقيقة فى الوضع بين الرجل والمرأة، ويجب أن نكتفى بالإشارة إلى النقاط الأساسية:

– إن الفتاة المراهقة تتصرف من خلال شعورها بالدونية، وكل ما سبق وذكرناه عن التعويض بسبب الإعاقة الجسدية ينطبق كله على الفتاة المراهقة، والفارق هو أن البيئة المحيطة بها هى التى تحاول إجبارها على الإيمان بدونيتها، لقد تم استدراجها لاتباع هذا السلوك، حتى إن بعض الدارسين الذين يملكون الكثير من المعلومات عن الوضع قد وقعوا فى خطأ الإيمان بدونيتها، وكنتيجة لهذا فإن كلا الجنسين وجد نفسه فى خضم صراعات جانبية، وكلا الجنسين أصبح الآن يحاول أن يلعب دورًا لا يناسبه على الإطلاق، فما الذى حدث؟ إن حياة الجميع أصبحت معقدة، والعلاقات بينهم خالية من أى ثقة، وعقولهم مملوءة بالأفكار الخاطئة والمغالطات والتحيز الأعمى الذى يدمر أى أمل فى السعادة.

وحدة العائلة

لقد حاولت كثيرًا أن ألفت الأنظار إلى وجوب دراسة الوضع الذى نشأ فيه الفرد ومعرفة كل التأثيرات التى تدخلت فى تكوينه قبل أن نستطيع الحكم عليه، وأحد هذه التأثيرات المهمة هو وضع الأطفال فى الأسرة. إن لدينا الآن قدرًا كافيًا من الخبرة، ويمكننا أن نقسم البشر طبقًا لهذه الخبرة، ويمكننا أن نحدد من هو الطفل البكر، ومن هو الطفل الوحيد، ومن هو الطفل الأصغر فى الأسرة..إلخ.

وفيما يبدو فإن الناس قد عرفوا - منذ زمن طويل - أن حالة الطفل الأصغر شديدة الخصوصية، وهناك أدلة لا حصر لها موجودة فى الكثير من قصص الأطفال والأساطير والقصص المذكورة فى الكتاب المقدس، وفيها فإن الطفل الأصغر يتخذ دائمًا المظهر نفسه، والواقع أنه ينشأ فى وضع متميز جدا لأن الوالدين يعتقدان أنه طفل مميز، ولأنه الصغير فإنه يلقى معاملة مميزة. إنه ليس الأصغر فقط ولكنه الأقل حجمًا وبالتالى فهو أكثرهم عجزًا، إن أخوته وأخواته قد سبقوه فى النمو والتطور والاستقلال النسبى، ولكل هذه الأسباب فإن الطفل الأصغر ينشأ فى جو دافئ جدا أكثر دفئًا من الجو الذى نشأ فيه بقية أطفال الأسرة جميعًا، ولهذا فإنه يطور مجموعة من الخصائص والمميزات التى تؤثر على شخصيته وموقفه من الحياة.

وعلينا أن نلاحظ حقيقة غريبة، وهى أنه لا يوجد طفل يحب أن يكون الطفل الأصغر غير القادر، فإن مثل هذا الوضع يحفز الطفل ويدفعه لأن يحاول إثبات أنه قادر على فعل أى شيء، وبالتالى فإن سعيه الحثيث نحو إحراز القوة يصبح شديدًا، وعلى هذا فإن الطفل الأصغر يكون - عادة - شديد التشوق لإحراز الامتياز، ومصممًا على أن يكون الأحسن فى كل شيء، ومن الشائع أن يصبح الأخ الأصغر أحسن أفراد الأسرة وأكثرهم قدرة.

وهناك أيضًا مجموعة أخرى من الأطفال الأصغر فى كل أسرة - والتى تعانى هى الأخرى من سوء الحظ - التى ترغب بشدة فى الامتياز، لكن الواحد

منهم تنقصه الطاقة الضرورية والثقة بالنفس، بسبب طبيعة العلاقات السائدة بينه وبين إخوته وأخواته الكبار، فإذا لم يستطع - هذا الطفل الأصغر - أن يتغلب ويتفوق على إخوته الكبار، فإنه غالبًا ما يبدأ في التراجع والانسحاب وتجنب المهام التي تلقيها أمامه الحياة، ويصبح جبانًا ودائم الشكوى والبحث عن أعذار لتجنب الواجبات الملقاة على عاتقه. إن هذا الطفل الأصغر لا يصبح أقل طموحًا، ولكنه يبدأ في تبني تلك الطموحات التي تجبره على التملص من أي أوضاع تجعله يبدو مشغولاً في نشاطات جانبية - وتخرج بعيدًا عن مشاكل الحياة الأساسية - يهدف منها إلى تجنب أي اختبار حقيقي لقدراته.

ولابد من أنه قد خطر على بال الكثيرين من القراء أن الطفل الأصغر يتصرف وكأنه قد تم تركه مهملاً. إن شعوره بالدونية شديد الوضوح، وقد كنا قادرين على الكشف عن وجود مشاعر الدونية، أيضًا فإننا استطعنا تحليل نموه وتطوره النفسي في وجود هذه المشاعر التي تعذبه، ومن هذا الجانب فإن الطفل الأصغر يكون مشابهًا في حالته للطفل الذي أتى إلى العالم وهو يعاني من "إعاقة جسدية"، ومرة أخرى فإن علينا أن نلاحظ أن ما يشعر به الطفل هو الأمر المهم، وأنه من غير المهم ما إذا كان حقيقيا أم لا، كما أنه أيضًا من غير المهم ما حدث بالفعل أو ما إذا كان هذا الفرد دون مستوى باقي البشر أم لا. إن المهم هو "فهم" الفرد لوضعه، نحن نعلم أن الطفل يسيء فهم الأمور بسهولة، فإن مرحلة الطفولة تكون مليئة بالأسئلة والاحتمالات والنتائج.

فما الذي يجب على المدرس أن يفعله؟ هل عليه أن يزيد من تحفيز الأطفال ويشجعهم على التمادي في الغرور والاهتمام بتوافه الأمور؟ أم من الأفضل أن يقوم بدفعهم باستمرار إلى دائرة الضوء حتى يكونوا - دائمًا - في المقدمة وقبل الجميع؟ ولكن هذا سيكون رد فعل ضعيفًا لتحديات الحياة، وقد علمتنا الخبرة أنه لا فرق بين من في المقدمة ومن لم يصل إليها، بل لعله من الأفضل أن نتطرف في عكس الاتجاه، وأن نقول إن الأول والأحسن هي أمور غير مهمة. لقد مللنا من سماع عن من هو "الأول" و"الأحسن" من بين الناس، كما أن الخبرة - والتاريخ أيضًا - قد أظهرت أن الحياة أكثر بكثير من مجرد البحث والسعي نحو الوصول إلى "الأول" و"الأحسن"، كما أن الإصرار على هذا السعي يجعل الطفل ضيق الأفق One - sided، ويحرمه من فرصته في النمو والتطور ليصبح إنسانًا صالحًا.

والنتيجة الرئيسية التى نحصل عليها من السعى نحو الوصول إلـــى "الأول" و"الأحسن" هى النمط الأول، وفيه فإن الطفل يبدأ فى التفكير فى نفسه فقط، ويضيع الكثير من الوقت في القلق خوفا من أن يتغلب عليه أحدهم، وستمتلئ روحه بالحقد والكراهية على زملائه، والتوتر القلق على وضعه الشخصـــى، ونحــن نعلــم أن وضعه في الأسرة - كأصغر الأطفال - يجعله يحب المنافسة، ويحاول جاهــدًا أن يتغلب على الآخرين، وهذا العنصر التنافسى يظهر فى جميع جوانــب شخصــيته وتصرفاته، خاصة تلك التصرفات الصغيرة والتى تكون واضحة لكل من تعلــم أن يتفحص الجوانب النفسية للعلاقات بين البشر. إن الطفل الأصغر يحــب دائمًــا أن يمشى فى مقدمة الصفوف، ولا يتحمل أن يرى أى شخص يسبقه، وهــذا الموقــف التسابقى Racecourse attitude هو سمة من السمات البارزة لعــدد كبيــر مــن الأطفال الأصغر.

إن هذا النمط من الطفل الأصغر يظهر أحيانًا بصورة تقليدية جدا وواضحة، ومن بينهم فإننا نجد أفرادًا يتميزون بالنشاط والقدرة، وتقدموا بصورة واضحة حتى إن الواحد منهم قد أصبح عماد أسرته ومنقذها، ولعله من المفيد هنا أن نذكر قصة يوسف فى التوراة فهى تظهر بوضوح وضع الأخ الأصغر، وهذه الحالــة تعلمنــا بوضوح أكثر بكثير من كل الأبحاث الحديثة التى تملك كل الأدلة، ولقد فقدنا الكثير من المادة العلمية فى خلال القرون السابقة، وعلينا أن نحاول إعادة اكتشافها.

النمط الثانى: هناك نمط آخر من أنماط "الطفل الأصغر"، وهذا النمط يشــبه كثيرًا ذلك الرياضى الذى يجرى فى سباق للمسافات الطويلة، ولكنه يفاجأ بوجــود عقبة لا يثق فى قدرته على تجاوزها، فيحاول تجنب هذه العقبة عن طريق الالتفاف حولها، عندما يفقد - هذا النمط من الطفل الأصغر - شجاعته، فإنه يصــبح أكثــر الأشخاص جبنًا، فيبدأ فى التخلف عن الجميع، وأى مهمة - مهما كانت صغيرة - تبدو له خارج نطاق قدراته، ويصبح خبيرًا فى خلق الأعذار، وفى النهاية يتحــول إلى شخص عاجز عن المشاركة فى أى شىء مفيد، ويستخدم طاقته فــى إضــاعة الوقت، وعندما يواجه أى مشكلة حقيقية فإنه يفشل دائمًا، ونجده يســعى بحــرص لاكتشاف نشاط لا توجد فيه أى فرصة للمنافسة، وسيجد مبررات كثيرة لأى فشــل يحيق به، مثل أن يدعى أنه كان أضعف، أو أقل خبرة، أو أن إخوته وأخواتــه لــم يعطوه الفرصة المناسبة للنمو، وتزداد حياته مرارة لو أصيب بالفعل بــأى إعاقــة جسدية، وعندها فإنه سيستغل ضعفه أحسن استغلال ليبرر فشله.

إن كل الأنماط السابقة لا يمكن أن ينمو ويتطور الفرد منها ليصبح عضـوًا نافعًا في المجتمع، والنمط الأول والذي يسـعى فيـه الطفـل لأن يكـون "الأول" و"الأحسن" يتقدم بسرعة في عالم يقدر قيمة المنافسة ويمجدها، وأمثال هـذا الفـرد سيحاول الواحد منهم الحفاظ على روحه المعنوية على حساب الآخرين.

أما النمط الثاني فإن الواحد منهم يظل مسحوقًا تحت ضغط مشاعره الدونية، ويعاني من عدم قدرته على التكيف مع الحياة طوال عمره.

أما الطفل الأكبر في الأسرة فإن له – هو الآخر – مميـزات وخصـائص تميزه عن غيره، وأهم هذه الخصائص هي أن الطفل الأكبر له وضع ممتاز لتحقيق نمو وتطور نفسي جيد، وهناك أمثلة كثيرة تاريخية تعترف بهذه الحقيقـة، وهـذا الوضع المتميز – لكثير من الناس في مختلف الطبقات – قد أصبح مشابهًا للعادات والتقاليد الثابتة، وعلى سبيل المثال فإنه بين العـائلات الأوروبيـة التـي تعمـل بالزراعة فإن الطفل الأكبر يعلم جيدًا وضعه في الأسـرة منـذ مراحـل طفولتـه المبكرة، ويعرف أنه في يوم ما سيكون هو المتحكم في المزرعة، ولهذا فإنه يكون في وضع أفضل بكثير من وضع باقي أطفال الأسرة الذين يكون عليهم أن يتركـوا مزرعة الأب إن آجلاً أو عـاجلاً، أو يعملـوا تحـت أمرتـه، وفـي العـائلات الأرستقراطية فإن الطفل الأكبر هو الذي يرث لقب العائلة، وحتى فـي العـائلات المتواضعة فإن الطفل الأكبر هو الذي ينسب إليه القدرة على مسـاعدة الأب والأم وتقديم العون لهما، ومن كل هذا فإنه يمكننا أن نرى مدى الأهميـة التـي يعلقهـا الأطفال على ثقة الآخرين الدائمة فيهم والتي تظهر عندما يُطلب منهم تحمل بعض المسئوليات، ويمكننا أن نتخيل أن الطفل يفكر في نفسه قائلاً:

"أنا الأكبر سنا، والأقوى جسديا من الآخرين، ولهذا فـإن علـى أن أكـون أكثرهم مهارة أيضًا".

وعندما يستمر نمو الطفل وتطوره في هذا الاتجاه – دون عقبـات – فإنـه سيطور المميزات والخصائص الشخصية التي تميز من يحرس النظام والقانون في المجتمع. إن مثل هذا الفرد يقدر "القوة" حق قدرها، وأنا هنا لا أتحدث عـن قوتـه الشخصية فقط، بل إن تقديره لـ"القوة" على وجه العموم يكـون مرتفعًـا، فـالقوة بالنسبة له شيء مهم يجب احترامه، ولهذا فإننا يجب أن نتوقع أن يكون مثل هـذا الفرد من النوع الذي يميل إلى التحفظ.

أما بالنسبة للطفل الثانى فى الأسرة فإن سعيه نحو القوة يتميز بالكثير من الفوارق الدقيقة عن غيره من أطفال الأسرة، فإن هذا الطفل يكون تحت ضغطًا دائم، ويسعى سعيًا حثيثًا نحو التفوق، والموقف التسابقى Racecourse attitude هو الذى يحدد هدفه فى الحياة ويكون ظاهرًا فى كل أفعاله، والسبب فى هذا هو وجود شخص فى المقدمة دائمًا - الأخ الأكبر - والذى يمثل وجوده حافزًا للطفل الثانى لمحاولة اللحاق به أو تجاوزه، والطفل الثانى سوف يحقق تقدمًا سريعًا، بينما الطفل الأكبر - الذى حصل بالفعل على قوة أكثر - سيشعر بالأمن حتى يبدأ الطفل الثانى فى اللحاق به. إن هذا الوضع قد تم وصفه بواقعية شديدة فى التوراة فى قصة يعقوب وعيسو، فى هذه القصة فإن المعركة بينهما تستمر بلا هوادة، ليس بغرض الحصول على القوة الفعلية، ولكن بأحد رموزها المشهورة "البركة"،(*) وفى أمثال هذه الحالات فإن الطفل الثانى يصارع باستمرار حتى يحقق هدفه ويتغلب على أخيه الأكبر، أو يخسر المعركة ويبدأ فى التراجع - ويتميز هذا التراجع غالبًا بوجود أمراض عصبية - والذى سيصبح سمة مميزة من سمات شخصيته بقية حياته، لأن الطفل الثانى يضع نصب عينيه هدفًا عاليًا جدا وبالغ الصعوبة، حتى إنه يعانى طوال حياته ويدمر راحة باله من خلال هذا السعى الحثيث لإحراز ذلك الهدف المستحيل. إن موقف الطفل الثانى His attitude مشابه لمواقف الحقد والحسد التى تتبناها الطبقات الفقيرة، فإنه يسيطر على مثل هذه المواقف وينتشر فيها نوع من الكراهية والإهمال.

إن الطفل الوحيد فى وضع بالغ الخصوصية، لأنه يكون تحت رحمة التعليم، فإن الأب والأم لا يكون أمامهما أى خيار، فيركزان عليه كل التركيز لأنه كل ما لديهما، وهذا يجعل الطفل الوحيد من النوع غير المستقل، فهو ينتظر دائمًا أن يقدم له الآخرون المساعدة وأن يدلوه على الطريق، فقد اعتنى به الجميع طوال حياته وهو لم يعتد مواجهة الصعوبات بنفسه لأنه كان يوجد دائمًا من يمهد له الطريق ويذلل جميع الصعوبات وعندما يكون الطفل مركز الاهتمام دائمًا، فإن هذا يعطيه الشعور بأن له قيمة خاصة تختلف عن قيمة باقى البشر، ولهذا فإن وضعه يكون

(*) كان "إسحاق" يشعر بدنو أجله، فطلب من ابنه البكر "عيسو" أن يذهب ويعد له وجبة من صيد يديه حتى يمنحه البركة، سمعت رفقة (زوجته) حديثه، وأخبرت يعقوب الذى ذهب وأعد وجبة شهية لوالده - بمساعدة رفقة والدته - وقدمها له، واحتال على والده الطاعن فى السن حتى حصل على البركة بانتحال صفة أخيه الأكبر عيسو. (المترجم)

شديد الصعوبة حتى يكون من المؤكد أنه سوف يتفهم بعض جوانب الحياة - على الأقل - بطريقة خاطئة وبعيدة عن الواقع، وعلى الأب والأم أن يتفهما خطورة هذا الوضع الشديدة حتى يمكنهما أن يمنعا هذا الفهم الخاطئ من الحدوث، ولكن حتى فى أحسن الظروف فإنها تظل مشكلة صعبة.

إن الوالدين - للطفل الوحيد - غالبًا ما يكونان شديدى الإخلاص، والحياة - بالنسبة لهما - مليئة بالأخطار والمغريات، ولهذا فإنهما يعاملان الطفل بحرص مبالغ فيه وعناية شديدة، والطفل يتفهم هذه الطريقة فى المعاملة - التحذير الدائم من المخاطر - على أنها مصدر جديد من مصادر الضغط التى عليه أن يتحملها، وأخيرًا فإن هذا الاهتمام الدائم بصحة الطفل الوحيد وأمانه يتسبب فى أنه يرى العالم على أنه مكان عدائى جدا وملىء بالأخطار، وقد يصبح شديد التخوف من الصعوبات، أو يحاول معالجتها بطريقة غير سليمة لأنه لا يملك الخبرة الكافية بمشاكل الحياة من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه لم يمر إلا بالخبرات السعيدة فى الحياة. إن مثل هذا الطفل يعانى من مشاكل عديدة مع أى نشاط يتطلب اتخاذ قرارات مستقلة، ويصبح - إن آجلاً أو عاجلاً - غير قادر على التلاؤم مع الحياة. إن الكوارث والمصائب قادمة لا محالة، فهو يتصرف كالطفيليات التى تستمتع بالحياة على حساب الكائنات الأخرى.

كما علينا أن نتذكر إمكانية وجود خليط، فى هذا الخليط عدد من الإخوة والأخوات يتنافسون مع بعضهم البعض، ولهذا يكون من الصعب جدا تقييم مثل هذه الحالات، كما أن وضع الصبى الذكر الوحيد بين عدة فتيات هو وضع شديد الخصوصية أيضًا، لأن التأثيرات الأنثوية سوف تسيطر على جو المنزل حتى إن الصبى سيدفع جانبًا إلى خلفية الصورة - خاصة إذا كان الصبى أصغر أطفال الأسرة - عندما يجد نفسه فى وجه معارضة جماعية من كل نساء الأسرة، وهذا سيضع صعوبات كبيرة أمام سعيه الحثيث للظهور، ولن يستمتع بأى من الخبرات والامتيازات - التى توفرها حضارتنا ذات الطابع الذكرى - الممنوحة لجميع الرجال لأنه سيكون مهددًا من كل جانب، وسيشعر دائمًا بعدم الأمان، والعجز على تقدير نفسه كإنسان سيكون أكثر ما يميز شخصيته، وبالنسبة له فإن المرأة ستصبح مخلوقًا مخيفًا حتى إنه سي... يشعر أن الرجال مخلوقات من الدرجة الثانية، ومن ناحية فإن شجاعته وثقته بنفسه ستبدأ فى التلاشى، ومن ناحية أخرى فإن المثير

The stimulus قد يكون من العنف حتى إن هذا الفتى الصغير سيحاول إجبار نفسه ودفعها لتحقيق إنجازات عظيمة، وفى كلتا الحالتين فإن رد الفعل يأتى من الوضع نفسه، ومصير مثل هذا الصبى يتحدد - فى النهاية - من خلال بعض الظواهر الأخرى شديدة الارتباط بهذا الوضع.

ولهذا فإنه يمكننا أن نرى مدى تأثير وضع الطفل فى الأسرة (ترتيبه) على جميع الإمكانيات النفسية والعقلية التى ولد بها، وهذه الحقيقة تقضى على كل نظريات الوراثة - والتى سببت الكثير من الضرر لكل الجهود التعليمية - قضاءً مبرمًا، وهناك حالات لا يمكن فيها الشك فى تأثير الوراثة لأنه يكون ظاهرًا بوضوح، ومن أمثال هذه الحالات حالة الأطفال الذين يتم تربيتهم بعيدًا عن أسرهم الحقيقية، ومع ذلك تظهر عليهم بعض الخصائص المميزة لأسرتهم الحقيقية، ويمكننا فهم الحقيقة السابقة بطريقة أفضل لو أننا تذكرنا كيف أن بعض الأنماط الخاصة للنمو والتطور المعيب الخاطئ - فى الطفل - تكون مرتبطة بعيوب جسدية مورثة، ولنأخذ حالة طفل ولد بضعف جسدى يجعله يصاب بالقلق والتوتر، فإذا حدث وكان والده قد ولد هو الآخر بالنمو المعيب نفسه - الذى يتميز بالقلق والتوتر - وتعامل مع العالم بالطريقة نفسها، فلا عجب إذن أن الطفل سيرتكب أخطاءً مشابهة، كما أن خصائص شخصيته ستكون مشابهة لخصائص شخصية والده، إذا نظرنا إلى الأمور من هذه النقطة، فإن نظرية الوراثة Acquired characteristics ستبدو لنا مبنية على أسس واهية جدا.

من الأوصاف السابقة يمكننا أن نفترض أنه مهما كانت طبيعة الأخطاء التى تعرض لها الطفل - خلال نموه وتطوره - فإن أخطر النتائج تخرج من: رغبة الطفل فى السيطرة على زملائه والبحث عن القوة التى تعطيه التميز اللازم له لتحقيق التفوق عليهم، وفى حضارتنا فإن الطفل يجد نفسه مدفوعًا إلى النمو والتطور طبقًا لأنماط محددة، فإذا أردنا تجنب هذا النمو النمطى، فإنه يجب علينا أن نتفهم الصعوبات التى يواجهها الطفل، وهناك وجهة نظر وحيدة وضرورية تساعدنا على التغلب على جميع هذه الصعوبات:

وهى وجهة النظر القائلة بوجوب تنمية وتطوير الشعور الاجتماعى، فعندما يتمتع الطفل بهذه الروح الاجتماعية، فلن تضره أيا من العقبات التى تواجهه خلال نموه وتطوره، ولكن علينا أن نتذكر، حيث إن الفرص المتاحة للحصول على هذا

الشعور الاجتماعى نادرة نسبيا، فإن العقبات التى يواجهها الطفل تلعب دورًا مهمـا - وفى الأغلب الأعم ضارا - فى حياته.

عندما نأخذ هذه الأشياء فى الاعتبار، فلا يجب أن نتعجب عندما نجد الكثيرين الذين يضيعون حياتهم فى الحرب والقتال، وأولئك الآخرين الذين تكون الحياة بالنسبة لهم واديًا من الألم والدموع، علينا أن نتفهم أن أمثال هؤلاء الناس ليسوا إلا ضحايا، فإن نموهم وتطورهم النفسى قد انحرف واتخذ منحنى خاطئًا تمامًا، وكنتيجة لهذا فإن موقفهم من الحياة يكون هو الآخر موقفًا خطأً.

إنه من الواجب علينا أن نتواضع، وعندها فإنه يمكننا تقييم زملائنا فى البشرية، أيضًا فإنه لا يجوز أن نصدر أحكامًا أخلاقية - وهى الأحكام المتعلقة بالقيمة الأخلاقية لأفراد الجنس البشرى - على الآخرين، وعلى العكس من هذا فإن علينا استخدام معلوماتنا ومعارفنا من أجل الصالح العام للمجتمع، كما أنه يجب علينا أن نتعامل معهم - الأفراد الذين اختاروا الطريق الخطأ والمرضى العصابيون - بتعاطف؛ لأننا فى وضع أحسن يمكننا من فهم ما يدور بداخلهم. إن بصيرتنا قد مكنتنا من تكوين وجهات نظر جديدة خاصة بالتعليم، فإننا عندما تعرفنا على مصدر الخطأ، أصبحنا قادرين على التأثير بفاعلية شديدة وعلى تحسين الموقف، ومن خلال تحليل البناء النفسى، ونمو وتطور الإنسان، فإنه يمكننا أن نتفهم ماضيه، وأن نكون استنتاجات علمية عن الشكل الذى سيكون عليه بمستقبله، وهكذا فإن هذا العلم قد أعطانا بعض المفاهيم التى توضح حقيقة الإنسان، وهذه المفاهيم الحية المتغيرة تمنحنا شعورًا قويا بقيمتنا كبشر.

الجزء الثانى

علم دراسة الشخصية

اعتبارات عامة

كيف تحولنا إلى الحالة التى نحن عليها الآن:

إن ما نسميه بالمميزات والخصائص الخاصة بالشخصية ما هــو إلا تعبيــر عن بعض محاولات الأفراد للتكيف مع العالم الذى يعيشــون فيــه. إن الشخصــية مفهوم اجتماعى، ولا يمكننا الحديث عن مميــزات الشخصــية إلا إذا أخــذنا فــى الاعتبار الفرد وعلاقاته وارتباطه ببيئته المحيطة به، وعلى سبيل المثــال فإنــه لا أهمية لنوع شخصية روبنسون كروزوا Robinson Crusoe حتى يلتقى بفرايــداى Friday، فإن الشخصية ما هى إلا موقف نفسى، فهى طبيعة وقيمة طريقــة الفــرد فى التعامل مع البيئة التى يعيش فيها، وهى نمط السلوك الذى يتبعه الفرد فى سعيه الحثيث لتحقيق التفوق من خلال شعوره الاجتماعى.

ولقد رأينا من قبل كيف أن هدف تحقيق التفوق، والقــوة، والتغلــب علــى الآخرين، هو الهدف الذى يوجه نشاطات الفرد، فإن هذا الهدف هو الــذى يكيــف وجهة نظر الفرد نحو العالم ويحورها، كما أنه يشكل نمط سلوكه ويوجــه أفكــاره ومشاعره فى قنوات محددة، ومميزات الشخصية ما هــى إلا المظهــر الخــارجى والتعبير الظاهر لأسلوب حياة الفرد ونمط سلوكه، وعلى هذا فإنها تمكننا من فهــم موقفه تجاه البيئة، وتجاه زملائه من البشر، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه، وتجــاه التحديات التى يمر بها على وجه العموم. إن مميزات الشخصية ما هى إلا أدوات، وهذه الأدوات تستخدمها الشخصية ككل فى المطالبة بالاعتراف بالوجود الفــردى المتميز لهذا الشخص، وهذا الاستخدام يتحول بعد فترة إلــى تقنيــة Technique تمكننا من الحياة.

إن خصائص الشخصية لا تورث – كما يحب البعض أن يعتقد – كما أنهــا تكون غير موجودة عند الميلاد، ولكن خصائص الشخصية مثلها مثل برنامج العمل الذى يوضح للعامل الطريقة التى يجب أن يسير عليها العمــل Blueprint، فــإن خصائص الشخصية هى التى تمكن الفرد من أن يعــيش حياتــه وأن يعبــر عــن

شخصيته فى أى وضع وبدون الحاجة للتفكير الواعى، وكما قلنا فهى ليست تعبيرًا عن قوى أو ميولٍ مورثة، فنحن نكتسب هذه الخصائص لكى تساعدنا على المضى فى الحياة بطريقة معينة.

وعلى سبيل المثال فإنه لا يوجد طفل - أيا كان - كسول بالوراثة ومنذ ميلاده، فإن الطفل يصبح كسولاً لأن الكسل يبدوا له كأحسن طريقة لجعل حياته أسهل، وفى الوقت نفسه يمكنه من الحفاظ على شعوره بالتفوق. إن السعى الحثيث نحو الحصول على القوة يمكن التعبير عنه - إلى حد ما - من خلال الكسل، فإن الفرد يستطيع جذب الاهتمام نحو إعاقة خلقية وهكذا يمكنه إنقاذ ماء وجهه قبل أن تحدث الهزيمة، والنتيجة النهائية لهذا الفحص الذاتى (الاستبطان) هى أفكار مثل ما يلى:

"إذا لم أكن أعانى من مثل هذه الإعاقة، فإن مواهبى كانت ستنمو وتتطور بطريقة مذهلة، ولكن لسوء الحظ أنا معاق".

وفى حالة فرد آخر كانت الفتاة مشتبكة فى حرب دائمة مع البيئة المحيطة بها - بسبب سعيها الحثيث غير المنضبط للحصول على القوة - ومن ثم فإنها قامت بتطوير الأدوات والأسلحة التى يمكن أن تساعدها فى جهودها الساعية نحو تحقيق هدفها، أسلحة مثل: الطموح، والحقد، وعدم الثقة..إلخ، وأنا أؤمن أن مثل هذه الخصائص والمميزات الشخصية هى جزء لا يتجزأ من شخصيتها، ولكنها لم ترثها ولم تولد بها، ومن الممكن جدا للفتاة أن تعمل على تغييرها، فهى غير ثابتة.

وإذا درسنا الفرد عن قرب فإننا سنجد أنه قد وجد مثل هذه المميزات والخصائص مناسبة، بل وضرورية لنمط سلوكه، وأنه قد اكتسب هذه الخصائص والمميزات من أجل تحقيق هدفه فى الحياة، وفى بعض الأحيان يحدث هذا فى مرحلة مبكرة جدا من الحياة. إن مثل هذه الخصائص والمميزات ليست العوامل الرئيسية، ولكنها عوامل ثانوية، وقد تم إخراجها إلى الوجود بطريقة جبرية، والدافع الذى أخرجها للوجود هو ذلك الهدف السرى الذى تضعه الشخصية لنفسها كهدف نهائى، ولهذا فإنه يجب الحكم عليها من خلال غائية(*) Teleology هذا الهدف.

(*) الغائية أو Teleology هى كون الشىء (وبخاصة الطبيعة وعملياتها) موجهًا نحو غاية ما، فهو الاعتقاد بأن كل شىء له قصد أو غاية يعمل على تحقيقها. (المترجم)

لقد سبق لنا وقلنا إن أسلوب حياة الفرد، وأفعاله، وسلوكه، ووضعه في العالم، كلها مرتبطة ببعضها البعض وبالهدف النهائى، فإنه لا يمكن للفرد أن يفكر فى أى شيء، ولا أن يبدأ فى أى أفعال بدون أن يكون له هدف بعيد محدد فى عقله، فى غياهب أعماق نفس الطفل Child's Psyche، فإن هذا الهدف موجود بالفعل، وهو الذى يقوم بتوجيه نموه وتطوره النفسى منذ أيام حياته الأولى. إن هذا الهدف هو الذى يعطى الشكل والشخصية لحياته، وبسبب هذا الهدف فإن كل فرد يكون كائنًا قائمًا بذاته، ومختلفًا فى شخصيته عن كل الشخصيات الأخرى، فكل أفعاله وكل تعبيرات حياته تكون موجهة نحو هذا الهدف الخاص، ومعرفة هذا الهدف تمكننا من معرفة الفرد وفهمه.

إن الوراثة لا تلعب أى دور مهم أو كبير فى التأثير على نفسية الفرد وشخصيته، ولا يوجد أى إثبات أو دليل قاطع يؤيد النظريات القائلة بإمكانية تورث مميزات وخصائص الشخصية. إن شخصية الفرد تبدأ فى التشكل فى مرحلة مبكرة جدا من حياة الفرد، وهذا هو السبب الذى يجعلها تبدو كما لو كانت موروثة، أما الحقيقة فإنها قد تم تعلمها من خلال مراقبة وتقليد الأفراد المحيطين به، والسبب فى شيوع عدد معين من المميزات والخصائص بين أفراد أسرة، أو أفراد شعب من الشعوب، أو أفراد جنس من الأجناس، هو ببساطة فى أن الفرد يكتسب هذه المميزات والخصائص من الآخرين عن طريق التقليد والمشاركة فى النشاطات نفسها، والأطفال والمراهقون أحسن من يقلد.

إن التشوق للمعرفة - والذى يتخذ فى بعض الأحيان صورة الرغبة فى المشاهدة والمراقبة - قد يقود الفرد إلى اكتساب عادة الفضول حتى تصبح ميزة وخاصية من خصائص شخصية الطفل الذى يعانى من عيوب فى النظر، ولكن إذا كانت أنماط سلوك هذا الطفل تتطلب الفضول، وهذا التشوق إلى المعرفة ذاته يمكن أن ينمو ويتطور فى اتجاه مختلف تمامًا ليحصل الفرد على مجموعة أخرى ومختلفة من المميزات والخصائص الشخصية، فإن الطفل ذاته يمكن أن يقنع نفسه ويكتفى بدراسة الأشياء وفكها وربطها أو تكسيرها، ومثل هذا الطفل أيضًا - تحت ظروف مختلفة - يمكن أن يصبح مغرمًا بالدراسة وعاشقًا للكتب.

والآن دعنا ندرس ميول بعض الأفراد - الذين يعانون من عيوب فى السمع - لعدم الثقة فى غيرهم من الناس، فإن المنطق السابق نفسه ينطبق عليهم أيضًا،

ففى حضارتنا الحالية فإن الفرد منهم معرض لأخطار عظيمة، وهو يشعر - شعورًا قويا - بهذه الأخطار، كما أنه معرض للكثير من التسخيف والاستهزاء والاحتقار، وكثيرًا ما يعامله البعض على أنه معاق ذهنيا، وكل هذه العوامل السابقة لها أهمية عظمى فى نمو وتطور خاصية "عدم الثقة" في شخصيته. إن الفرد الأصم يتم استبعاده ولا يستطيع المشاركة فى الكثير من مباهج الحياة، فلا عجب إذن فى أن يكون عدوانيا فى شعوره نحو هذه المباهج، ولكن علينا أن نتفهم كل هذا لأنه يكون من الخطأ أن نفترض أن مثل هذا الفرد قد ولد بخاصية عدم الثقة هذه.

هناك أيضًا تلك النظرية التى تقول بأن شخصية المجرم - وما يميزها من ميزات وخصائص - ما هى إلا عيب خلقى Congenital defect، ولكن يمكننا الرد على هذه النظرية بسهولة، فالكثير من العائلات تتخصص فى إنتاج المجرمين. هذه حقيقة، ولكن هذا يحدث لأن الأعضاء الأكبر سنا فى هذه العائلة قد نقلوا مواقفهم المعادية للمجتمع إلى الأعضاء الأصغر سنا فى العائلة، وهكذا فإن الصغار منهم يتعلمون - من خلال القدوة - كيف يصبحون مجرمين. إن الطفل فى مثل هذه العائلات يتم تعليمه - فى مرحلة مبكرة جدا من طفولته - أن السرقة ما هى إلا وسيلة جيدة لكسب العيش، وهكذا فإن عادات وتقاليد هذه العائلة تستمر.

ويمكن النظر إلى السعى الحثيث للفرد للحصول على تقدير واحترام الغير بالمنطق نفسه، فكل الأطفال يواجه الواحد منهم الكثير من العقبات فى حياته، ولهذا فإنهم جميعًا يخرجون إلى الحياة وبداخلهم هذا الشعور - السعى الحثيث للحصول على تقدير واحترام الآخرين - الذى يدفعهم إلى البحث عن ذواتهم، فإن هذا السعى يأخذ أشكالاً وصورًا مختلفة، وكل فرد يعالج هذه المشكلة بطريقة فردية تختلف عن غيره، ولقد لاحظنا من قبل أن الطفل يكون مشابهًا - نوعًا ما - لوالديه فى الشخصية، وقد فسرنا هذه الحقيقة بأن الطفل - خلال سعيه للبحث عن الذات - يقارن بين نفسه ومن حوله من الأفراد الذين حصلوا بالفعل على تقدير واحترام الآخرين ووجدوا ذواتهم. إن كل جيل من الأجيال يتعلم من سابقه بهذه الطريقة، ويحتفظ بهذه المعلومات خلال حياته التى يواجه فيها الكثير من الصعوبات والتعقيدات خلال سعيه للحصول على القوة.

إن هدف "التفوق" هو هدف سرى، ووجود الشعور الاجتماعى يمنعه من الظهور بطريقة مكشوفة، ولهذا فإن هدف التفوق ينمو فى سرية ويختفى خلف

أقنعة مختلفة تتصف بأنها مقبولة من المجتمع، وهنا يجب علينا أن نؤكد أن هذا النمو لا يمكن أن يصل إلى مداه الأقصى إذا تمكنا من فهم بعضنا البعض بطريقة أحسن، فلو أن كل واحد منا كانت لديه القوة والقدرة على أن يرى ما وراء القناع - أى أن يرى الشخصية الحقيقية خلف القناع - فعندها سنتمكن من أن نحمى أنفسنا بطريقة أفضل، كما أننا سنجعل من الصعب على الآخرين أن يستمروا فى سعيهم الحثيث نحو القوة حتى نجعل منه سعيًا لا قيمة له، ولا يستحق الوقت الذى يتم إضاعته فى محاولة عقيمة للوصول إلى المزيد من القوة.

وعندما يتحقق مثل هذه الظروف فإن الصراع المقنع لتحقيق التفوق سوف يختفى، ولهذا فإنه من المفيد جدا أن ندرس هذه العلاقات بدقة، وأن نستخدم هذه الأدلة التجريبية التى حصلنا عليها، ونستفيد منها.

إننا نعيش فى حضارة ذات ظروف معقدة، وهذا يجعل الحصول على مستوى جيد من التعليم - مناسب للحياة - أمرًا بالغ الصعوبة، فإن الناس محرومون من الوسائل والأدوات الأساسية لتحقيق نمو وتطور بصيرة النفس Psychological insight، وحتى الآن فإن وظيفة المدارس الوحيدة كانت نشر المعلومات الأولية والمعارف الأساسية بين الأطفال، والسماح لهم بتحصيل ما يمكن تحصيله بدون إثارة اهتمامهم به، وبالرغم من كل هذا فإن عدد هذه المدارس قليل أيضًا.

فى محاولاتنا لفهم الطبيعة البشرية فإننا قد أهملنا أهم الافتراضات المنطقية، كما أننا تعلمنا أن نقيس البشر بطريقة المدرسة القديمة فى التفكير، ولقد تعلمنا هنا أن نميز بين الصالح والردىء، ولكننا لم نتعلم كيف نقيم أحكامنا، وكنتيجة لهذا فإننا قد حملنا معنا هذا الفهم المغلوط وعانينا من ثقله حتى اليوم.

عندما نصل إلى مرحلة البلوغ والنضج العقلى، فإننا نجد أن الواحد منا مازال يستخدم هذه الأفكار المغلوطة والمتحيزة التى حملها معه من مرحلة الطفولة كما لو كانت قانونًا مقدسًا، فإننا لم ندرك بعد - تمام الإدراك - أننا فى داخل تلك الحضارة المعقدة الباعثة على الارتباك، حتى إننا نتبنى وجهات نظر مخالفة للبصيرة الحكيمة، وفى النهاية فإننا لا نتفهم الأشياء إلا من خلال "وجهة النظر" التى ترفع من احترامنا للذات، وبهدف الحصول على المزيد من القوة.

الشعور الاجتماعي ونمو وتطور الشخصية:

إن الدافع الثاني الذي يلعب دورًا مهما في نمو وتطور الشخصية هو "الشعور الاجتماعي". إن الدافع الأول هو السعي الحثيث للحصول على المزيد من القوة، وهو أيضًا يظهر مبكرًا جدا في التفاعلات النفسية للطفل، خاصة في رغبته الاتصال بالآخرين وإظهار العواطف مثل الحب والحنان، ولقد سبق لنا الكلام عن الشروط اللازمة للحصول على نمو وتطور صحي لمشاعر الفرد الاجتماعية، وأنا أرغب في تكرارها هنا - مرة أخرى - باختصار:

إن الروح الاجتماعية (أو الشعور الاجتماعي) تتأثر بمشاعر الفرد الدونية، وبسعيه الحثيث لتعويض ضعف قواه. إن الإنسان يشعر بعقد النقص المختلفة بسهولة، وعملية النمو والتطور النفسي - نشوء ونمو "القلق" والذي يدفع للبحث عن التعويض والأمان - تبدأ بمجرد أن تظهر مشاعر الدونية، كما أن القواعد التي نتبعها في تربية الطفل يجب أن تأخذ في الاعتبار أننا نعرف بوجود مشاعر الدونية عند الطفل، وهذه القواعد يمكن تلخيصها فيما يأتي:

١- لا تجعل حياة الطفل شديدة المرارة، ولا تدعه يرى الجانب المظلم من الوجود في مرحلة مبكرة من حياته.

٢- أعطي الطفل الفرصة ليستمتع بمباهج الحياة، وقد لا يمكن تطبيق هذه القاعدة في جميع الحالات لأسباب اقتصادية، ولسوء الحظ فإن الكثير من الأطفال ينمو الواحد منهم في ظل ظروف شديدة القسوة من الفقر والحاجة، كما أن الإعاقة الجسدية تلعب دورًا مهما أيضًا؛ لأنها تجعل أسلوب الحياة الطبيعي مستحيلاً، وتقنع الطفل بحاجته في الحصول على امتيازات خاصة، والطفل الذي يعاني من الفقر أو الإعاقة الجسدية سيجد من المحتم عليه أن يشعر بأن الحياة قد أساءت معاملته، وقد يدفعه هذا إلى "الخطر الأكبر"، ألا وهو فقد شعوره الاجتماعي.

ولا يمكن لنا الحكم على البشر إلا من خلال استخدام الروح الاجتماعية كمعيار، وعن طريقها يمكننا قياس أفكار الفرد وأفعاله، ويجب أن نحتفظ بوجهة النظر هذه؛ لأن كل فرد من الأفراد يجب أن يشارك بقية أفراد المجتمع، فيجب أن نلاحظ واجبنا نحو زملائنا في البشرية، فنحن في وسط مجتمع، ولهذا يجب علينا

أن نعيش بمنطق "الوجود الجماعي المشترك"، لأن هذا المنطق هو الذى يحدد حقيقة مهمة، ألا وهي حاجتنا لمعايير محددة لقياس وتقييم زملائنا، ودرجة نمو وتطور الشعور الاجتماعي في الفرد هي المعيار العالمي الوحيد المقبول لقيمة الإنسان، وحيث إنه لا يمكننا إنكار اعتمادنا النفسي على الشعور الاجتماعي، فلا يوجد أى فرد - أيا كان - يستطيع أن يتجاهل شعوره الاجتماعي تمامًا.

إن علينا واجبات نحو زملائنا في البشرية، وشعورنا الاجتماعي هو الذى يذكرنا باستمرار بهذه الواجبات، ولكن هذا لا يعني أن الشعور الاجتماعي موجود بأكمله في الوعي، بل يتطلب الأمر قدرًا معينًا من الإرادة حتى يتمكن الفرد من إنكاره ودفعه جانبًا، والشعور الاجتماعي عالمي بطبيعته، فلا يمكن لإنسان ما أن يبدأ أى نشاط بدون أن يعمل أولاً على أن يجد التبرير الكافي له والمقبول من مشاعره الاجتماعية، وهذا العمل (الحاجة لتبرير نشاطات الفرد) ما هو إلا حاجة داخلية لتبرير أفعال الفرد وفكرة تنشأ في مشاعر اللاوعي الخاصة به، والتي تعبر عن شعوره بكونه جزءًا من هذا المجتمع المحيط به، وهي السبب الذى يجعلنا نبحث عن ظروف مخففة Extenuating circumstances لنبرر بها أفعالنا.

ولعله من المثير أن نعلم أن الشعور الاجتماعي بالغ الأهمية وأساسي جدا، حتى إنه إذا كان الفرد لا يملك القدرة على الاهتمام بالآخرين - بالقدر نفسه الذى يهتم به الشخص الطبيعي بالآخرين - فإنه يحاول أن يتظاهر بمظهر من يهتم بالآخرين، وهذا يعني أن التظاهر الكاذب بوجود شعور اجتماعي يستخدم أحيانًا لإخفاء الأفكار المعادية للمجتمع والأعمال التي تعبر حقيقة عن شخصية الفرد، ولكن الصعوبة تكمن في التفريق بين المظاهر الكاذبة والحقيقية، وهذه الصعوبة ترفع من فهمنا للطبيعة البشرية إلى مستوى العلم المقنن، وسوف ندرس الآن بعض الأمثلة التي توضح الكيفية التي يمكن بها إساءة استخدام الشعور الاجتماعي.

المثال الأول: شاب صغير أخبرني ذات يوم كيف أنه - هو وبعض أصدقائه - سبح حتى وصل إلى جزيرة في البحر، وأنهم جميعًا قد قضوا بعض الوقت هناك، وحدث أن كان أحد زملائه ينظر من فوق حافة المنحدر، ففقد توازنه وسقط في البحر، وكيف أن الشاب الصغير قد ذهب إلى حافة المنحدر وراقب باهتمام زميله وهو يختفي تحت سطح البحر، عندما فكر هذا الشاب في تلك الحادثة - فيما بعد - فإنه لم يعتبر تصرفه غريبًا أو شاذا، ولقد تمكن بعضهم من

إنقاذ زميله هذا، ولكن مغزى القصة هو: " أنه يمكننا أن نؤكد أن حجم شعوره الاجتماعى صغير جداً "، وأنا لن أغير وجهة نظرى هذه حتى لو سمعت أنه لم يؤذ أى شخص طوال حياته، أو إذا سمعت أنه كان صديقًا صدوقًا لشخص ما فى أحد الأوقات.

إن افتراضى هذا قد تأكد من خلال حقائق أخرى، فإن أحد أحلام هذا الشاب الصغير - والذى كثيرًا ما تكرر - هو أنه حلم بأنه يعيش معزولاً عن باقى البشر فى منزل صغير جدا فى وسط إحدى الغابات، كما أنه - أيضًا - كان مغرمًا برسم نفسه فى الوضع السابق، وكل من يفهم معنى الخيالات الجامحة يستطيع أن يعرف من تاريخه السابق أن هذا الفتى لا يتمتع بالقدر الكافى من روح الجماعة، وأن هذا الحلم ما هو إلا تأكيد لهذه الحقيقة، فإن نفسيته قد نمت وتطورت بطريقة غير متجانسة. إن هذا الفتى يعانى من نقص خطير فى شعوره الاجتماعى.

ولدى حكاية أخرى - تعتبر نادرة من النوادر رغم واقعيتها - سوف تظهر الفروق بين الشعور الاجتماعى الحقيقى والمزيف.

المثال الثانى: كانت هذه السيدة العجوز تحاول اللحاق بالحافلة، ولكنها سقطت على الأرض المغطاة بالجليد حديث السقوط، كانت السقطة شديدة حتى إنها لم تستطع النهوض، ومر بها الكثيرون دون أن يعيروها انتباهًا، وظلت راقدة حتى أتى رجل وساعدها على النهوض، وفى هذه اللحظة ظهر رجل آخر - من حيث لا ندرى - وقام بتحية الرجل الذى تطوع بشهامة لإنقاذها بأن بادره قائلاً:

"حمدًا لله! فأنا أخيرًا قد تمكنت من العثور على إنسان مهذب وشهم، فقد وقفت فى مكانى لأكثر من خمس دقائق، وانتظرت لأرى ما إذا كان أحدهم سوف يتقدم لمساعدة هذه السيدة العجوز، وأنت أول شخص تقدم لمساعدتها".

إن هذه الحادثة تكشف لنا المظهر الخارجى لروح المجتمع - عند هذا الشخص - وكيف تم إساءة استخدامه. إن هذا الخداع المكشوف - والذى قام به الرجل الثانى - يفضح زيفه، فهذا الرجل قد عين نفسه قاضيًا، وسمح لنفسه بالحكم على الآخرين، وهو يوزع المدح والذم على الآخرين، ولكنه يستثنى نفسه، فهو لم يحرك ساكنًا لمساعدة هذه السيدة، بل سمح لنفسه بأن يقف ويراقب الموقف ليحكم على الآخرين.

وهناك العديد من الحالات المعقدة، والتى لا يكون من السهل فيها قياس الشعور الاجتماعى للفرد، وكل ما يمكننا فعله هو القيام بتحقيق ودراسة تقليدية لمثل هذه الحالات، لأننا عندما نفعل هذا فإن الكثير من الظلام المحيط بهذه الحالات يتبدد، وهذه الحالة التالية واحدة من تلك الحالات المعقدة:

المثال الثالث: فى هذه الحالة فإننا نتقابل مع أحد جنرالات الجيش، هذا الجنرال - قرب نهاية المعركة - كان يعلم أنه قد خسر المعركة، ورغم هذا فإنه تسبب فى موت آلاف من جنوده بلا داع، وقد ادعى هذا الجنرال أنه كان يتصرف بما يحقق صالح الأمة ككل، ولقد وافقه العديد من الأشخاص فى رأيه هذا، ولكن من الصعب جدا أن نعتبر مثل هذا الجنرال إنسانًا صالحًا، أيا كانت الأسباب والحجج التى قدمها لتبرير سلوكه خلال نهاية المعارك الحربية.

فإذا أردنا أن تكون أحكامنا صادقة وصحيحة فى حالة مثل الحالة السابقة - والتى يغلفها جو من الشكوك والتضارب فى الآراء - فإننا نكون فى حاجة إلى موقف عالمى يمكن تطبيقه على الجميع، وبالنسبة لعلم النفس الفردى فإننا قد وجدنا هذا الموقف فى المفهوم الخاص بـ"الصالح العام" للمجتمع ككل، فعندما نتبنى موقف "الصالح لعام"، فإننا نستطيع أن نحكم على هذه الحالات بسهولة.

إن حجم الشعور الاجتماعى يظهر فى كل نشاط نقوم به، وفى كل الأفعال التى يشارك فيها الفرد، وربما تظهر بوضوح أكثر من خلال التعبيرات التى اعتاد الفرد على استخدامها مثل: الطريقة التى ينظر بها الفرد للآخرين، والطريقة التى يصافحهم بها، والطريقة التى يتكلم بها. إن شخصية مثل هذا الفرد تترك انطباعًا لا يمحى - بطريقة أو بأخرى - ونشعر نحن بهذا الانطباع بطريقة غريزية، وأحيانًا فإننا نصل إلى مثل هذا الاستنتاج الصحيح - والعميق - عن سلوك الفرد بطريقة لا واعية حتى إن موقفنا يكون محكومًا تمامًا بهذه الاستنتاجات، ونحن الآن نحاول أن نأتى بهذه المعلومات الغريزية ونضعها فى نطاق الوعى، وبهذا نتمكن من تقييمها واختبارها حتى نتجنب بعض الأخطاء الفظيعة، وقيمة العملية السابقة - الإتيان بالمعلومات إلى نطاق الوعى - هى فى وجود تلك الحقيقة التى تقول: "إننا عندما نأتى بهذه المعلومات إلى نطاق الوعى فإن احتمالات أن نقوم بالتحيز والتمييز تقل إلى درجة بعيدة.(*)

(*) إن هذه الاحتمالات تنتج عندما نشكل أحكامنا فى اللاوعى، وإذا تشكل شىء ما فى نطاق اللاوعى، فإننا لا نستطيع التحكم فيه، وهكذا فإن هذه الأحكام تكون خارج نطاق قدراتنا على التحكم ولا توجد لدينا الفرصة لتعديلها أو تحويرها إلا إذا أدخلناها فى نطاق الوعى. (المؤلف)

ودعنا نكرر مرة أخرى: إنه لا يمكن تقييم شخصية الفرد بمعزل عن بقية العوامل التى تؤثر فيها، لأننا إذا أخذنا ظاهرة واحدة من حياة الفرد، وحكمنا عليه من خلالها - مثلما يحدث عندما نأخذ فى الاعتبار الحالة الجسدية، أو البيئة المحيطة، أو التربية - فإننا سيكون محكومًا علينا بأن نصل إلى استنتاجات خاطئة، وهذه النقطة بالغة الأهمية، لأنها تحرر البشرية من عبء ثقيل، فكلما زادت معرفتنا بأنفسنا، مكننا هذا من أن نتصرف بطريقة منطقية أكثر، وأن نحصل على أشياء أكثر من الحياة. إن طريقتى تمكن من التدخل عن طريق التأثير على الآخرين - خاصة الأطفال - والعمل على إنقاذهم من مصير محتوم، وبهذه الطريقة فإن كل فرد سينجو من حياة البؤس الناتجة عن وجوده فى أسرة بائسة، أو بسبب تاريخه الشخصى، إذا تمكنا من إنجاز ما سبق فإن هذا سيمثل خطوة هائلة إلى الأمام لصالح الحضارة البشرية، وسينشئ جيلاً جديدًا لا يخاف، وعلى وعى بأنه المتحكم الأول والأخير فى مصيره.

كيف تنمو الشخصية وتتطور:

إن جميع الخصائص والمميزات الشخصية الواضحة فى الفرد يجب أن تكون مناسبة للاتجاه الذى تسعى إليه نفسيته His psyche خلال نموها وتطورها المبكر. إن هذا الاتجاه قد يكون خطا مستقيمًا، أو قد يتميز بالكثير من المنحنيات والتفريعات الخارجة منه، وفى المرحلة الأولى فإن الطفل يسعى نحو تحقيق هدفه باستخدام الخط المستقيم، ولهذا فإنه يطور شخصية تتميز بالعدوانية والشجاعة. إن بدايات الشخصية تكون مقترنة بالكثير من المميزات النشطة والهجومية، ولكن ما أسهل أن ينحنى هذا الخط المستقيم، وما أيسر أن يتغير ويتحور.

إن الصعوبات تظهر لأول مرة عندما تمنع بعض القوى الطفل من تحقيق هدفه فى التفوق من خلال هجوم مباشر، ولهذا فإن الطفل سوف يحاول - بطريقة أو بأخرى - أن يتغلب - عن طريق المراوغة والحيلة - على هذه الصعوبات، ولهذا فإنه يخلق "طريقا فرعيا" فى خطه المستقيم، وهذا ستنتج عنه ميزة شخصية جديدة، وهكذا فإن كل عقبة ستؤدى إلى نمو وتطور شخصيته، ومن أمثلة هذه العقبات الإعاقة الجسدية، أو الرفض والهزائم التى يلقاها من الأفراد المحيطين به،

لأن كل هذه الأشياء لها تأثير مماثل عليه، كما أن البيئة المحيطة لها تأثير واسع لا يمكن الفكاك منه، أيضًا فإن عملية الحياة داخل حضارتنا - كما يُعبر عنها من خلال الحقوق والواجبات والمتطلبات التى توضع على الفرد والشكوك، والعواطف المتبادلة بين أطفال الأسرة والمعلمين - تؤثر على شخصية الفرد، وكل أنواع التعليم تتبع الطريقة التى اكتشف أنها تؤدى إلى أحسن نمو وتطور للتلاميذ فى اتجاه الحصول على حياة اجتماعية أفضل.

إن العقبات ضارة جدا بالنسبة لنمو وتطور الشخصية فى خط مستقيم، فإن الطريق - الذى يتخذه الطفل لتحقيق هدفه للوصول إلى المزيد من القوة - سوف ينحرف عن الخط المستقيم، أما إذا لم تكن هناك عقبات فإن جهود الطفل لن تواجه ما يعوقها، ولهذا فإنه سيواجه صعوباته بطريقة مباشرة، وهذا ما سوف نسميه النمط الأول من الأطفال، أما النمط الثانى فإنه سيكون مختلفًا تمامًا، لأن الطفل فى هذا النمط يفتقد ما يمتلكه الطفل من النمط الأول من الشجاعة، كما أن هذا الطفل - النمط الثانى - قد اكتشف بالفعل أن النار تحرق وأن الآخرين - أو بعضهم على الأقل - لن يعاملوه بالطريقة الصالحة نفسها، ولهذا فإن الطفل من النمط الثانى لن يختار الخط المستقيم كطريق للوصول إلى هدفه فى التفوق، ولكنه سيعمل على استخدام الكثير من التفريعات والطرق الجانبية، والطريقة التى ستنمو بها نفسيته وتتطور تعتمد على مدى خروجه وابتعاده عن الخط المستقيم، فإن هذه الطرق الفرعية (التفريعات) هى التى ستحدد مدى حذره وما إذا كان سيتكيف مع ضروريات الحياة، أو يكتفى بمحاولة تجنبها. إن الطفل من النمط الثانى لن يتعامل مع المهام الملقاة على عاتقه والمشكلات التى تواجهه بطريقة مباشرة، وإذا أصبح هذا الطفل خوافًا وخجولاً، ويرفض أن ينظر إلى الآخرين فى عيونهم أو أن يقول الحقيقة، فإن هذا لا يعنى أن هدفه يختلف عن هدف الطفل من النمط الأول، فإنه يمكن لفردين أن يتصرفا بطريقة مختلفة تمامًا، ولكن كلا منهما يحتفظ بالهدف نفسه.

ويمكن للنمطين أن يتعايشا معًا داخل نفس الفرد، ويحدث هذا عندما تكون شخصية الطفل لم تتشكل بعد بطريقة كاملة، وعندما تكون مبادئه لازالت مرنة بحيث يمكن التأثير عليها، وعندما لا يحتفظ الفرد بالطريق نفسه على الدوام، ولكنه يحتفظ لنفسه ببعض المرونة التى تسمح له بمعالجة الأمور بطريقة مختلفة إذا ما أثبتت المحاولة الأولى عدم كفايتها.

إن أول ما يشترطه المجتمع لتحقيق تكيف ناجح مع المتطلبات التى يفرضـها على الفرد هو حياة جماعية مشتركة تتسم بالاستقرار، ويمكننا بسهولة تعليم الطفل كيف يتكيف مع متطلبات المجتمع طالما كان موقف الطفل تجاه البيئة المحيطة به موقفًا غير عدائى، فإن الحرب التى تنشب داخل الأسرة لا يمكن استبعادها إلا إذا كان الوالدان قادرين على التقليل من حجم سعيهما الغريزى نحو القوة بحيث لا يمثل هذا السعى أى عبء على الأطفال فى الأسرة، وبالإضافة إلى ما سبق فإذا تمكن الوالدان من فهم أساسيات نمو وتطور الطفل فإنه من الممكن لهما أن يتجنبا المميزات والخصائص الشخصية التى تنتج عن المبالغة الشديدة فى الالتزام بـ"الخط المستقيم"، ففى مثل هذه الحالة تصبح الشجاعة وقاحة، والاستقلال غرورًا وأنانية، وبالطريقة نفسها فإن الوالدين سيصبحان قادرين على تجنب المبالغة فى التزمت وما ينتج عنه من طاعة عمياء بلا تفكير أشبه ما تكون بطاعة العبيد، فإن أمثال هذه الأخطاء قد تتسبب فى أن ينسحب الطفل من المجتمع وينغلق على نفسه ويصبح خائفًا من قول الحقيقة لأنه يعرف ما الذى سيترتب عليها من نتائج.

إن استخدام الضغط فى تربية الطفل هو سيف ذو حدين، فمن ناحية فإنه ينتج مظاهر التكيف والشكل الخارجى له، ولكن علينا أن نتذكر أن الطاعة التى نحصل عليها عن طريق الإجبار ما هى إلا طاعة ظاهرية، ونفسية الطفل تعكس علاقاته العامة بالبيئة المحيطة به، وما إذا كان سيواجه كل العقبات الموجودة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فإن هذا سيكون ظاهرًا أيضًا فى شخصيته. إن الطفل لا يكون عادة قادرًا على تقييم التأثيرات الخارجية والأفراد البالغون حوله إما لا يعرفون أى شىء عن هذه التأثيرات أو لا يستطيعون فهمها، وهكذا فإن نمط صعوبات الطفل بالإضافة إلى رد فعله تجاه العقبات التى تواجهه فى طريقه تمثل الكيفية التى ستتكون بها شخصيته.

ويمكننا أيضًا تقسيم الأفراد طبقًا للطريقة التى يعالج بها كل فرد الصعوبات التى تواجهه، فهناك الشخص المتفائل: والفرد الذى ينتمى إلى هذه المجموعة تكون شخصيته قد نمت وتطورت – إلى أبعد الحدود – فى اتجاه الخط المستقيم، وهو يتعامل مع الصعوبات بشجاعة ولا يبالغ فى جديته عندما يتعامل معها، فإن الفرد المتفائل يؤمن بنفسه، ويجد أنه من السهل عليه الاحتفاظ بموقف مستبشر Happy attitude تجاه الحياة، وهو لا يطالب بالكثير من الحياة لأن لديه قدرًا لا بأس به

من الإحساس بقيمته، فهو لا يعتبر نفسه مهملاً أو غير مهم أبدًا، وهكذا فإنه يصبح قادرًا على التغلب على صعوبات الحياة بسهولة أكثر من الآخرين خاصة هؤلاء الذين تكون الصعوبات بالنسبة لهم ما هى إلا تبريرات جديدة يبررون بها إيمانهم الداخلى بضعفهم وعدم قدرتهم، وفى أصعب الظروف فإن الفرد المتفائل يبقى هادئًا لأنه مقتنع بأن الأخطاء يمكن إصلاحها دائمًا.

ويمكن التعرف على الشخص المتفائل بسهولة من خلال أخلاقياته وسلوكه، فهو غير خائف، ويتكلم بطلاقة ووضوح وحرية، كما أن يتميز بأنه ليس شديد التواضع، أو شديد التمنع أو شديد التزمت، وأنا أتخيل أنه إذا ما طُلب منى أن أرسم الفرد المتفائل، فإننى سأرسمه بأذرع مفتوحة مستعدة لاستقبال الآخرين والترحيب بهم، لأن الفرد المتفائل يتواصل مع الآخرين بسهولة، ولا يجد أى صعوبة فى خلق المزيد من الأصدقاء، وهذا لأنه يتميز بالثقة فى الآخرين، وهو لا يتحامل على أحد، ولا يتصنع فى حديثه، كما أنه يقف ويتحرك بطريقة طبيعية تتميز بالسهولة واليسر، وسنجد أن النماذج الصرفة (النقية) من هذا النمط لا توجد إلا نادرًا وفى خلال فترة السنين الأولى من الطفولة، ومع ذلك فإنه يوجد الكثير من الأفراد الذين يتميزون بدرجة أقل من التفاؤل ومن القدرة على إنشاء صلات اجتماعية كافية.

أما الشخص المتشائم: فهو يمثل نمطًا مختلفًا تمامًا عن النمط السابق، كما أن الفرد المتشائم يمثل أعظم المشاكل التى تواجه العملية التعليمية، فأمثال هذا الفرد قد اكتسب الواحد منهم عقدة نقص Inferiority complex كنتيجة للتجارب التى مر بها والانطباعات التى خرج بها من طفولته. إن الصعوبات التى مر بها – الفرد المتشائم – قد أعطته الشعور بأن الحياة صعبة، فهو ينظر دائمًا إلى الجانب المظلم من الحياة لأنه يتبنى تلك الفلسفة الشخصية المتشائمة والتى سمحت لها التربية والمعاملة غير الحكيمة التى لقيها خلال طفولته بأن تنمو وتزدهر، وهو يكون واعيًا – بطريقة مبالغٍ فيها – بصعوبات الحياة أكثر من الشخص المتفائل، ومن السهل عليه أن يفقد شجاعته ومشاعره الودية نحو الآخرين. ويطارده دائمًا الشعور بعدم الأمان، مما يجعله يبحث باستمرار عن العون والتأييد، وسنجد أن مطالبة الآخرين بالعون والمساعدة هى صفة من صفات سلوكه؛ لأنه لا يستطيع أن يستقل بنفسه، فهو مثل الأطفال الذين يبكى الواحد منهم ويطالب بأن تكون أمه بجانبه،

ويمكننا أن نجد مثل هذا السلوك ظاهرًا حتى خلال المراحل المتقدمة من عمره بعد البلوغ.

إن هذا النمط يتميز أيضًا بنوع من الحرص والحذر غير عـادى، ويتضـح هذا من خلال موقفه الذى يتميز بالخوف والتراجع، فإن الشخص المتشـائم يتـذكر دائمًا المتاعب والأخطار الموجودة فى الحياة، ومن الواضح أن الشخص المتشـائم يكون غير مرتاح فى نومه، والنوم هو مقياس من أفضل المقـاييس لقيـاس نمـو وتطور الفرد؛ لأن القلق خلال النوم يكون مؤشرًا على حذره المبالغ فيـه وعلـى شـعوره بعدم الأمان. إن الفرد منهم يبدو وكأنه ذئب ينام بعين واحدة مغلقة حتـى يتمكن من الدفاع عن نفسه ضد مخاطر الحياة وما أقل سعادته وراحة باله وفهمـه للبيئة المحيطة به. إن الفرد الذى لا يستطيع النوم يتبنى فلسفة خاطئة فـى الحيـاة لأنه إذا كان على صواب فى استنتاجه بأن الحياة مريرة لما أمكنه أن ينـام علـى الإطلاق، وميله إلى التعامل بطريقة عدائية مع ظـواهر الحيـاة الطبيعيـة، فـإن الشخص المتشائم يظهر نقص استعداده للتعامل مع الحياة، ولا يوجد أى سبب لحالة النوم القلق التى يعانى منها الشخص المتشائم، ويمكننا أن نتوقـع ظهـور الميـول التشاؤمية نفسها فى الفرد الذى يحاول باستمرار أن يبقى مشغولاً بفحص الأقفـال والقلق من اللصوص، بل إنه يمكن تحديد الشخص المتشائم عن طريق الهيئة التـى يتخذها ووضعه خلال النوم، فإن المتشائم يكور نفسه ويحتل أقل فراغ ممكـن، أو ينام وقد غطى رأسه بالأغطية.

ومن ناحية أخرى فإنه يمكن تقسـيم البشـر إلـى نمطـين: "الهجـومى" و"الدفاعى":

النمط الأول: وهو النمط الهجومى، ويتميز هذا النمط بالحركات العنيفة، والفرد من هذا النوع الهجومى إذا كان شجاعًا فإنه يأخذ الشجاعة إلى أبعد الحدود حتى يظهر للعالم مدى تميزه، ولكنه بهذا يفضح مشاعره العميقة بعدم الأمان، أما إذا كان من النوع القلق فإنه يحاول أن يزيد مـن صـلابة نفسه ضد الأشياء التى تسبب له الخوف، فيبدأ فى لعب دور "الفتـوة" البلطجى بطريقة سخيفة ومضحكة، بينما قد يحاول فرد آخر أن يكبت كل مشاعره وأحاسيسه الرقيقة لأنه يرى أن مثل هذه المشاعر ما هى إلا علامة من علامات الضعف.

والأفراد الهجوميون يظهر الواحد منهم الكثير من خصائص القسوة والعنف، وإذا حدث وكان الواحد منهم يتميز بالتشاؤم أيضًا، فإن كل علاقاته بالبيئة المحيطة به تتغير لأنه عاجز عن التعاطف أو التعاون مع الآخرين بسبب عدوانيته تجاه العالم أجمع، كما أن شعوره الواعى بقيمته قد يكون وصل إلى أعلى درجاته فى الوقت ذاته، فيصبح الواحد منهم ممتلئًا زهوًا وفخرًا واعتدادًا بالنفس. إنه يعرض علينا غروره الأجوف كما لو كان أحد الغزاة المنتصرين ولكن الطريقة الواضحة التى يؤدى بها أفعاله والمبالغة الشديدة فى سلوكه تزعزع علاقاته بالعالم الخارجى وتفضح حقيقة شخصيته، فإن كل من خيلائه وزهوه الأجوف مبنى على أسس مزعزعة وضعيفة.

إن عملية النمو والتطور فى النمط الهجومى تكون غير سهلة، فإن المجتمع البشرى لا ينظر إلى هذا النمط بعين التسامح، فإن الفرد منهم يكون صاحب تطفل وفضول ظاهر يجعله غير محبوب فى المجتمع، ومن خلال جهوده لتحقيق التفوق، فإنه يجد نفسه فى مواجهة مشكلة، خاصة مع الآخرين الذين ينتمون إلى نوعه نفسه ويشعرون بضرورة التنافس معه، وتصبح الحياة سلسلة من المعارك، وعندما يعانى الواحد منهم – إن آجلاً أو عاجلاً – من الهزيمة، فإن سلسلة الانتصارات تأتى إلى نهاية مفجعة ومفاجئة. إن مثل هذا الفرد يكون من السهل إخافته. وتنقصه القدرة على المواصلة والاستمرار فى الخلافات الطويلة، وهو عاجز تمامًا عن تعويض خسائره.

إن فشل مثل هذا الفرد فى إنجاز المهام الملقاة على عاتقه له مفعول وتأثير معوق عليه، ونموه وتطوره النفسى يتوقف عند النقطة نفسها – تقريبًا – التى يبدأ عندها النمط الدفاعى فى النمو.

النمط الثانى: وهو النمط الدفاعى، والفرد من هذا النمط يشعر بأنه مهدد، فيتخذ وضع الدفاع دائمًا، ولهذا فإنه يعوض عن مشاعر عدم الأمان من خلال القلق – وليس من خلال العدوانية كما هو الحال فى النمط السابق – والشعور بوجوب اتخاذ الحيطة والحذر والجبن أيضًا، ويمكن التأكيد على أن الفرد لا يتخذ الوضع الدفاعى بدون أن يحاول – محاولة فاشلة – أن يتبنى الموقف الهجومى، فإن النمط الدفاعى يصاب بخيبة أمل سريعة من خلال التجارب المريرة والهزائم التى

يلقاها، وسرعان ما يلجأ إلى الهروب، وأحيانًا فإن الفرد منهم ينجح فى التغطية على هروبه هذا عن طريق التظاهر بأن هناك فرصًا ممتازة تنتظره فى الطريق الذى هرب إليه.

وهكذا فإن الفرد من هذا النمط عندما يسترجع ذكرياته ويحلم، فهو إنما يحاول أن يتجنب الواقع الذى يهدده، وبعض أفراد هذا النمط – الذين لم يفقدوا تمامًا قدراتهم على المبادرة – يستطيعون المساهمة الإيجابية فى حياة المجتمع عن طريق تحقيق إنجازات قيمة يستفيد منها الآخرون، والكثير من الفنانين ينتمون إلى هذا النمط، فإن الواحد منهم قد تقوقع على نفسه وابتعد عن الواقع المحيط به، وبنى لنفسه عالمًا من الخيال والمثاليات، ولكن أمثال هذا الفرد ما هم إلا الاستثناء للقاعدة العريضة من أفراد هذا النمط والذين يستسلم الواحد منهم أمام الصعوبات ويتقبل الهزيمة المرة تلو الأخرى لأنه يخاف من كل شىء، وعدم ثقته فى الناس تتزايد مع الوقت، وهو يتوقع أن العالم من حوله سيكون دائمًا عدوانيا تجاهه. أمثال هذا الفرد هم استثناءات.

فى حضاراتنا فإن هذا الموقف يتم تأكيده عن طريق الخبرات السيئة التى يلقاها الفرد على يد زملائه، ولهذا فإن الفرد سرعان ما يفقد إيمانه بالقيم الطيبة الصالحة الموجودة فى الإنسان، ويبدأ فى الاعتقاد بعدم وجود أى جوانب مضيئة فى الحياة، وأكثر الخواص والمميزات شيوعًا فى هذا الفرد موقفه الناقد His critical attitude – باستمرار – لكل ما حوله، ويصبح هذا الموقف مبالغًا فيه، حتى إن الفرد منهم سرعان ما يلاحظ أقل العيوب فى الآخرين، فإن الواحد منهم ينصب نفسه حكمًا على البشرية، وبدون أن يحمل نفسه عبء الانشغال بأى أفعال مفيدة للآخرين، وإنما يكتفى بأن يشغل نفسه بالنقد وتكدير حياة الآخرين. إن عدم ثقته فى الآخرين تدفعه إلى القلق الدائم والتردد، وكلما واجهته مشكلة من مشاكل الحياة، فإنه يبدأ فى استخدام هذا الشك والتردد كما لو كان يحاول تجنب اتخاذ أى قرار، وإذا أردنا أن نمثل هذا النمط بشكل رمزى، فإنه يمكننا أن نرسم الفرد فى شكل شخص له ذراع مرفوعة فى محاولة للدفاع عن نفسه وذراعه الأخرى تغطى عينيه لتخفى الأخطار.

إن أمثال هذا الفرد يتميزون بخاصية أخرى تبعث على الضيق والإزعاج، فإذا كان الواحد منهم لا يثق بنفسه – وبالتالى لا يثق فى الآخرين – فإن ظهور

صفات كريهة مثل الحقد والضغينة والجشع يصبح محتومًا لمن يتبنى مثل هذا الموقف، كما أن العزلة التي يعيش فيها مثل هذا الفرد تدل على رفضه للمساهمة في سعادة ورخاء الآخرين، ورفضه المشاركة فى احتفالاتهم وأفراحهم أيضًا، بل إننى أجرؤ على القول بأن سعادة الآخرين تكون سبب ألم بالنسبة له، وقد ينجح بعض أفراد هذا النمط فى الاحتفاظ بشعوره بالتفوق على بقية أفراد الجنس البشرى عن طريق الغش والخداع، وبسبب رغبته فى الاحتفاظ بالتفوق - بأى ثمن - فإنه يطور نمط سلوكى معقد لا يمكن الآخرين من الشك فى عدوانيته المتأصلة نحوهم.

المدرسة القديمة فى علم النفس:

إنه من الممكن أن نحاول أن نتفهم "الطبيعة البشرية" دون أن نكون على وعى بالاتجاه الذى تأخذه هذه الأبحاث، والطريقة المعتادة هى أن نحدد نقطة معينة فى النمو والتطور النفسى، ونحدد مجموعة من الأنماط كعلامات نستدل بها على موقعنا، وعلى سبيل المثال فإنه يمكن تقسيم البشر إلى مفكرين ومنفذين، المفكرون يكون الواحد منهم ميالاً إلى التأمل والتمعن فى كل ما حوله، فهو يعيش فى عالم من الخيال الجامح ويتعالى على الواقع. إن الفرد من هذا النمط يكون من الصعب عليه أن يبدأ فى الفعل والتنفيذ، أما المنفذون فإنهم يتأملون بدرجة أقل وينشغل الواحد منهم بالواقع المحيط به، ويعالج الأمور ومشاكل الحياة بطريقة عملية واقعية.

إن هذه الأنماط السابقة موجودة بالتأكيد، ولكن إذا اتفقنا مع طريقة هذه المدرسة النفسية، فإنه يمكننا أن نصل بسرعة إلى نهاية بحثنا، وسنجد أنفسنا مجبرين على أن نكتفى بالتأكيد على أن الخيال الجامح موجود فى النمط الأول وأن القدرة على العمل متوافرة فى النمط الثانى، ولكن هذا لا يكفى، فإن هذا لا يشكل مادة كافية لنتيجة علمية حقيقية، فنحن فى حاجة إلى اكتشاف مفاهيم أفضل توضح لنا الكيفية التى تحدث بها هذه الأشياء وسبب حدوثها وهل يمكن تجنبها أو التلطيف من حدتها، ولهذا السبب فإن مثل هذه المسميات الصناعية لا تكون مقبولة فى دراسة منطقية لـ"الطبيعة البشرية"، وبالرغم من أن الأنماط السابقة موجودة بالفعل.

إن علم النفس الفردى قد ركز على نمو وتطور النفس Psyche وخصوصًا عند النقطة التى فيها تبدأ أشكال مختلفة من الظاهرة النفسية فى الظهور والخروج من مصدرها خلال الأيام المبكرة فى مرحلة الطفولة، ولقد تم بالفعل إثبات أن هذه الظواهر تتلون وتتأثر بالشعور الاجتماعى الغالب، أو بالصراع من أجل الحصول على القوة، وهكذا فإن علم النفس الفردى قد وجد أحد المفاتيح التى تمكن من فهم البشر من خلال تطبيق مفهوم بسيط وعالمى فى الوقت نفسه. إن أى فرد يمكن تصنيفه طبقًا لهذا المفهوم الرئيسى (المفتاح)، والذى يسمح لنا باستخدامه وتطبيقه فى مجالات واسعة جدا، ومن الطبيعى أن نرغب فى معالجة كل حالة بحرص ومهارة تناسب علم النفس، وهذه المبادئ البسيطة تشكل معيارًا ثابتًا، ويمكنها أن تحكم على التعبيرات النفسية، وعلى ما إذا كانت تحمل الكثير من الشعور الاجتماعى مقترنة بسعى صامت للحصول على القوة والتفوق، أم أن هذه التعبيرات أنانية فى معظمها وطموحة ومفيدة فى خلق شعور بالتفوق لصاحبها فقط دون غيره، وعلى هذا الأساس فإنه يكون من السهل أن نفهم بوضوح طبيعة بعض خصائص الشخصية والتى كانت غامضة بالنسبة إلينا، كما يمكننا أن نحكم على هذه الخصائص والمميزات حسب موضعهما فى الشخصية ككل، أيضًا فإن فهم الخصائص أو نمط السلوك فى الفرد يعطينا أداة جيدة يمكننا بها أن نعمل على تغيير وتحوير سلوك الفرد.

إفرازات الغدد الصماء وعلاقته بمزاج الفرد:

إن المزاج واحد من أقدم التقسيمات فى الظاهرة النفسية وخصائص الشخصية، ومن الصعب تحديد المعنى المقصود بهذه الكلمة "مزاج"، فهل هى تعنى السرعة التى يفكر بها الفرد ويتكلم، أم سرعة أفعاله؟ أم ربما تكون القوة والاندفاع اللذين نباشر بهما مهمة من المهام؟، عندما درست "الشروح" التى تقدم بها علماء النفس بخصوص المعنى الحقيقى لكلمة "مزاج"، فإننى وجدتها غير كافية ولا تفى بالغرض، ويجب على أن أعترف بأن العلم كان عاجزًا عن التحرر من المفهوم القائل بوجود أربعة أمزجة، وهو المفهوم الذى يعود تاريخيا إلى العصور القديمة المظلمة، وفى هذه الفترة كانت الدراسات المتعلقة بـ"الطبيعة البشرية" لا

تزال تحبو فى مهدها. إن تقسيم المزاج إلى أربعة أنواع يعود إلى فترة قدماء اليونانيين وقد طوره الإبقراطيون Hippocrates ثم أخذه الرومان فيما بعد، وبقى بعدها – وحتى الآن – أثرًا مقدسًا ومحترمًا فى علم النفس الحديث.

النوع الأول Sanguine أو الممتلئ بالحياة: إن هذا النوع يشمل كل الأفراد الذين يشعر الواحد منهم بنوع معين من السعادة فى الحياة، فالفرد من هذا النمط لا يأخذ الأشياء بجدية مبالغ فيها، ولا يسمح لـ"الحياة" بأن تنهكه أو تفقده روح التفاؤل والثقة بالنفس، فهو يحاول أن يرى الجانب المضيء والجميل من كل شيء، وهو حزين عندما تكون مشاعر الحزن مناسبة، وبدون أن ينهار، كما أنه يكون سعيدًا بكل الأشياء التى تسبب السعادة، ودون أن يفقد أولوياته، وإذا ما وصفنا هذا الفرد بدقة، فإننا سنجد فردًا صحيح البدن وبلا عيوب خطيرة، ولا يمكننا أن نقول هذا عن الأنواع الثلاثة الأخرى.

النوع الثانى Choleric أو سريع الغضب: إن الفرد من هذا النوع قد وصف فى الأشعار القديمة بأنه ذلك الشخص الذى يركل حجرًا صغيرًا – فى الطريق – بعنف وشدة، بينما الفرد من النوع الأول يمشى بهدوء من حول هذا الحجر، إذا حاولنا أن نترجم هذا إلى لغة علم النفس الفردى فإن النوع الثانى من الأفراد هو ذلك الفرد الذى يسعى سعيًا حثيثًا نحو امتلاك المزيد من القوة، وهذا السعى يبلغ درجة كبيرة من الشدة حتى إن ردود أفعاله تتميز بالعنف والشدة تجاه جميع الأشياء، وهذه المشاعر تجبره – دائمًا – على محاولة إثبات قوته، فهو يندفع نحو كل عقبة، كما يندفع الثور نحو مصارعه، وفى الواقع فإن مشاعر العنف هذه تبدأ مبكرة جدا فى الطفولة عندما يشعر لأول مرة بمشاعر العجز، ويصبح من الضرورى – بالنسبة له – أن يحاول دائمًا إظهار قوته حتى يظل مقتنعًا بوجوده.

النوع الثالث Melancholic أو المكتئب: إن أفراد هذا النوع يتركون من خلفهم انطباعًا مختلفًا تمامًا، فإذا ما أتى الفرد من هذا النوع المكتئب نحو حجر صغير فى طريقه، فإنه يراه ويتذكر كل خطاياه، ويبدأ فى استرجاع حياته الماضية بحزن، وعلم النفس الفردى يرى فى مثل هذا الفرد، ذلك "المتردد العصابى" الذى لا يثق فى نفسه أو فى قدرته على التغلب على الصعوبات والتقدم فى الحياة. إن هذا النوع يفضل ألا يخاطر بالاشتراك فى أى مغامرة جديدة، فإذا كان الخيار له، فهو يفضل ألا يحرك ساكنا بدلاً من أن يتقدم فى اتجاه هدف ما، وإذا ما قرر

الحركة فإنه يفعل هذا بالكثير من الحرص والحيطة المبالغ فيهما، فى حياته، فإن الشك هو الذى يلعب الدور الرئيسى، وهذا النوع يفكر فى ذاته أكثر مما يفكر فى الآخرين، وهذا يجعل من المستحيل عليه إنشاء علاقات مناسبة والاحتفاظ بها، فإن شئونه الخاصة تلهيه عن الآخرين، ويضيع كل وقته فى فحص أفعاله، واجترار الماضى - القريب أو البعيد - محاولاً استعادة أوضاع يتعذر استردادها.

النوع الرابع Phlegmatic أو اللا مبالى: إن أفراد هذا النوع يكونون غرباء عن الحياة، فإن الواحد منهم يمر بالخبرات دون أن يكون قادرًا على الحصول على الاستنتاج السليم والمناسب منها، ولا يوجد أى شىء فى هذه الحياة يترك عليه انطباعًا كبيرًا، فهو غير مهتم بأى شىء، ولا يوجد لديه أصدقاء. وباختصار فإنه يمكن القول بأنه لا توجد الكثير من الصلات بينه وبين الحياة، وهذا النوع هو الوحيد - من بين الأنواع الأربعة - الذى يكون غير مهتم بأمور الحياة ومتطلباتها بسبب عدم حساسيته للبيئة المحيطة به.

وعلى هذا يمكننا أن نستنتج أن النوع الأول من الأفراد Sanguine (الممتلئ بالحياة) هو النوع الوحيد الذى يمكن له أن يُخرج بشرًا صالحين، ولكن علينا أن نذكر أنه من النادر جدا أن يوجد أفراد يمكن تقسيمهم بوضوح داخل التقسيمات الأربعة السابقة، وفى معظم الأحيان فإننا سنكتشف أننا نتعامل مع خليط من نوعين أو أكثر من الأنواع السابقة، وهذه الحقيقة تجعل " نظرية الأمزجة Theory of temperament عديمة القيمة، كما أن هذه "الأنواع" و"الأمزجة" ليست ثابتة أيضًا، فإننا كثيرًا ما نجد أحد هذه الأمزجة ذائبًا فى داخل نوع آخر، والطفل يمكن أن يبدأ كفرد من النوع الثانى Choleric (سريع الغضب)، ولكنه قد يتحول - فيما بعد - إلى النوع الثالث Melancholic (المكتئب)، وينهى حياته كصورة تقليدية من النوع الرابع Phlegmatic (اللا مبالى).

إن الأمزجة يمكن أن تكون عشوائية أيضًا، فإن النوع الأول من الأفراد يبدو وكأنه الأقل تعرضًا للشعور بمشاعر الدونية فى خلال مراحل الطفولة، فإن الفرد منهم نادرًا ما يعانى من الإعاقة الجسدية، ولا يتعرض للكثير من المضايقات. وكنتيجة لهذا فإن نموه وتطوره يكون خاليًا من الكوارث والمصائب، كما أنه يتميز بنوع خاص من الحب للحياة يمكنه من أن يعالج مشاكل الحياة وعقباتها بثقة.

وهنا يأتى العلم إلى مسرح الأحداث ليعلن لنا:

"أن الأمزجة تعتمد على الغدد الصماء".(*)

واحد من أهم الاكتشافات الحديثة فى علم الطب كان اكتشاف أهمية إفرازات الغدد الصماء، وهذه الغدد - هناك أكثر من سبع غدد صماء فى جسد كل فرد - مازالت وظيفتها غير معروفة تمام المعرفة.

إن الانطباع العام الذى يمكن أن نخرج به هو أن جميع أعضاء الجسد البشرى وأنسجته يتأثر "نموها" و"نشاطاتها" بإفرازات الغدد الصماء، وهذا لأن تلك الإفرازات يتم حملها مباشرة - بواسطة الدم - لكل خلايا الجسم. إن هذه الإفرازات تعمل كمنشط، أو كمزيل للسموم Detoxicant، وهى بهذا تكون "ضرورية" لاستمرار الحياة، ولكن التأثيرات الكاملة لمثل تلك الإفرازات لم يتم فهمها بعد بطريقة كاملة، وعلم إفرازات الغدد الصماء مازال فى مهده، والكثير من المعلومات المنتشرة - ومما نعتبره الآن حقائق - لا يمكن الاعتماد عليها فى فهم وظائف هذه الغدد وتأثيرها على السلوك البشرى.

وفى البداية دعنا نتعامل مع نقطة بالغة الأهمية، فإنه فى حالة إصابة الغدد الصماء بمرض عضوى حقيقى مثل مرض القَدامة(*) Cretinism، فى مثل هذه الحالة فإن إفراز الغدة الدرقية يكون غير كاف بسبب ضعف نشاط الغدة، ومن الحقيقى تمامًا أننا نجد بعض الأعراض النفسية المصاحبة لمثل هذا الاضطراب الوظيفى، والتى تؤدى - فى حالة "القَدامة Cretinism" - إلى ظهور أعراض - على "شخصية" الفرد ومزاجه - مشابهة للنوع الرابع والذى يتميز باللا مبالاة الشديدة. إن أمثال هذا الفرد يبدو الواحد منهم وكأنه منتفخ، كما أن نمو الشعر يكون غير عادى، ويكون الجلد سميكًا جدا، كما أن الفرد يظهر الكثير من البطء فى حركته. إن حساسية مثل هذا الفرد تكون قليلة، وقدرته على المبادرة والمبادأة تكون معدومة تقريبًا.

(*) الغدد الصماء هى غدد لا تخرج منها الإفرازات بواسطة قنوات، بل يتم ضخ إفرازاتها فى الدم مباشرة، ومن أمثلة الغدد الصماء: الغدة الدرقية، والغدة النخامية، والغدة الكظرية (الغدة التى تقع فوق الكلية)، والغدد جار الدرقية، والغدد الواقعة بين أنسجة كل من الخصيتين فى الذكر والمبيضان فى الأنثى، وجزر لانجر هانز فى البنكرياس. (المؤلف)

(*) "القَدامة" هى حالة مرضية "خلقية" ناشئة عن نقص إفراز الغدة الدرقية - أو اضطراب هذا الإفراز - وتتسم بتشوهات جسدية وقصر القامة والتخلف العقلى الخفيف. (المترجم)

والآن دعنا نقارن بين هذه الحالة السابقة، وبين حالة أخرى شخصناها على أنها تمثل حالة "اللا مبالاة Phlegmatic " – ولكـــن لا يوجـــد فيهـــا أى تغيـــرات مرضية خاصة بالغدة الدرقية – وعندها فإننا سنجد صـــورة مختلفـــة تمامًـــا، ولا تتشابه فى المميزات الشخصية، ولهذا فإنه يمكننا أن نستنتج أن إفرازات هذه الغـــدة تساعد على استمرار الوظائف الطبيعية للجسد بطريقة مناسبة، ولكن – من وجهـــة نظرى – لا يمكن القول بأن "المزاج اللامبالى" ينشأ عن اضطراب فـــى إفـــرازات الغدة الدرقية. .

إن النوع اللامبالى المرضى Pathologically Phlegmatic – أى الذى ينتج عن أمراض جسدية – يكون مختلفًا تمامًا عما اعتاد "علماء النفس" أن يسموه بالنوع اللامبالى النفسى Psychologically Phlegmatic، فإن مزاج ومميزات هذا النـــوع الأخير يمكن ملاحظتها بسهولة عن طريق التاريخ النفسى لهذا الفرد، إن أفراد هـــذا النوع اللا مبالى – الذى نهتم به كعلماء للنفس – لا يكون الواحد منهم ســلبيا علــى الإطلاق، بل إننا كثيرًا ما نفاجأ بسبب شدة وعنف ردود أفعال هذا النـــوع، وســـوف نكتشف – فيما بعد – أن مزاج الفرد منهم ما هو إلا غطاء صناعى يستخدمه الفـــرد كآلية للدفاع عن النفس – وربما كان هذا ميلاً خلال المراحل المبكرة من الطفولة تم تحديده من خلال الصفات الجسمانية والعقلية لذلك الفـــرد – خلقهـــا الفـــرد شـــديد الحساسية لحماية نفسه واستخدمها كفاصل بينه وبين العالم الخارجى.

إن هذا "المزاج اللامبالى" ما هو إلا آلية للدفاع ورد فعـــل – ذو هـــدف – لتحديات الوجود، وبهذا المفهوم السابق فإنه يكون مختلفًا تمام الاختلاف عن البطء والكسل الناتج عن اختلال فى إفرازات الغدة الدرقية، وحتى فى هذه الحالات التـــى يبدو فيها وكأن الأشخاص – الذين عانوا فيما مضى من اختلال إفـــرازات الغـــدة الدرقية – هم فقط الذين تحولوا ليصبحوا من النوع اللامبالى. إن هذه النقطة مهمة وذات مغزى خاص، ولا يمكن إلغاؤها، فهى ليست السبب فى المشكلة ككل، وإنما السبب هو مجموعة مركبة ومعقدة من الأغراض والمؤثرات الداخلية والخارجيـــة، والتى ينتج عنها شعور بالنقص والدونية. إن هذا الشعور بالنقص هو الذى يجعـــل الفرد يصاب بهذا المزاج اللامبالى حتى يستخدمه فى الـــدفاع عـــن نفســـه ضـــد الإهانات والجروح الموجهة نحو احترامه لذاته وثقته بنفسه، ولكننا نتعامل هنا مـــع هذا النوع الذى تكلمنا عنه فيما سبق بصورة عامة، وعدم كفاءة الغدة الدرقية مـــا

هو إلا عيب من العيوب العضوية ذات التأثير المهم، وهذه الإعاقة الجسدية تسمح للفرد بأن يطور موقفًا قلقًا من الحياة، ومن ثم يحاول الفرد أن يعوض باستخدام العديد من الخدع النفسية، والتى يكون استخدام المزاج اللامبالى أحد أمثلتها المعروفة.

وسنتأكد من صحة افتراضنا عندما نبدأ فى دراسة المشاكل التى تسببها الغدد الأخرى، وعن طريق دراسة المزاج المقترن بكل مشكلة من المشاكل السابقة، وهكذا فإن هناك مجموعة من الأفراد تحدث لديهم زيادة فى إفراز الغدة الدرقية مثل ما يحدث فى مرض "Basedow" أو "الجُوثر[*] Goitre"، فإن أعراض هذا المرض تكون زيادة فى نشاط القلب، وسرعة النبض، وجحوظ العينين، وتضخم الغدة الدرقية، كما أنها تقترن أحيانًا بارتعاش فى الأطراف – بسيط فى بعض الحالات، وشديد فى حالات أخرى – خاصة اليدين. إن مثل هذا المريض يعانى من كثرة العرق، وغالبًا ما يعانى من مشاكل فى الهضم كنتيجة لتأثير كثرة إفراز الغدة الدرقية على وظائف البنكرياس، كما أنه يكون شديد الحساسية، وسرعان ما يفقد صبره، مما يجعل الكثير من تصرفاته تتسم بالتسرع وتقترن بحالة واضحة من القلق، والصورة التقليدية من حالة مريض الـ Goitre ذى العيون الجاحظة، مشابهة نوعًا ما لحالة الشخص الذى يعانى من قلق شديد Over - anxious .

ولكننا نكون بعيدين كل البعد عن الحقيقة إذا ما قلنا إن هناك تطابقًا تامًا بينها وبين حالة القلق النفسى Psychological anxiety، فإن الظاهرة النفسية التى نراها فى حالة مريض الـ Goitre ذى العيون الجاحظة تكون مختلفة، فإن حالة القلق والعجز عن القيام ببعض الأعمال الجسدية، والعقلية، والسهولة الشديدة التى يصل بها الفرد إلى مرحلة التعب والضعف الشديد، كلها تنبع من أسباب نفسية وعضوية فى الوقت نفسه، أما الأفراد الذين يعانون من العصاب الذى يتميز بالقلق والرغبة فى الإسراع يمثلون حالة مختلفة، وهناك تباين واضح بين الأفراد الذين تكون الأعراض النفسية عندهم ناتجة عن زيادة إفرازات الغدة الدرقية، وبين

(*) "الجُوثر" هذا هو اللفظ الذى أطلقه مجمع اللغة العربية على مرض "تضخم الغدة الدرقية" – وهى غدة فى مقدمة العنق تؤثر على نمو ونشاطات الفرد – وفى الصورة "البسيطة" من هذا المرض، لا تظهر على المريض أى أعراض تدل على وجود زيادة غير طبيعية فى إفرازات الغدة، أما الصورة "السمية" من هذا المرض فإنها تحدث عندما تزداد إفرازات الغدة الدرقية حتى إن المريض يبدأ فى فقدان الوزن ويصبح أكثر عصبية. (المترجم)

العصابيين الذين يتميزون بالتسرع والقلق وسهولة إثارتهم، لأن حالتهم - بأكملها تقريبًا - تكون نتيجة لخبراتهم النفسية السابقة، أما الفرد الذى يعانى من زيادة إفرازات الغدة الدرقية فإنه رغم وجود تشابه فى السلوك، إلا أن نشاطاته ينقصها عنصر التخطيط والسعى نحو هدف، والذى هو مؤشر رئيسى وضرورى على الشخصية والمزاج.

والآن دعنا ندرس بعض الغدد الصماء الأخرى، وعلاقة الكيفية التى تؤدى بها هذه الغدد وظائفها بنمو وتطور كل من الخصيتين فى الرجل والمبيضين فى المرأة. إن موضوع البحث هنا هو أننا دائمًا ما نجد أن اضطراب وظائف الغدد الصماء مقترن - دائمًا - باضطرابات الغدد الجنسية. إن هناك علاقة خاصة بين هذه الغدد، والسبب فى اقترانها بظهور هذه الاضطرابات لم يتم فهمه - على الوجه الأكمل - بعد، فى حالة وجود عيوب عضوية فى هذه الغدد، فإنه يمكننا أن نصل إلى النتيجة نفسها، فإن الفرد الذى يعانى من الغدد التناسلية يشعر بعدم كفاءته ويجد أنه من الصعب عليه التأقلم مع الحياة، وكنتيجة لهذا فإنه يكون عليه أن يفكر "أكثر" من غيره فى حيل نفسية وفى آليات للدفاع يمكن أن تساعده على التأقلم.

وقد قادتنا أبحاث ودراسات المتحمسين للغدد الصماء إلى أن نتوقع أن تكون شخصية الفرد ومزاجه معتمدة بصورة كلية على إفرازات هذه الغدد، خاصة الغدد الجنسية منها، ولكنه قد ثبت أن الاضطرابات الشديدة فى الخصيتين والمبيضين تكون نادرة جدا، ووجود حالات يحدث فيها تفسخ مرضى وتحلل - نتيجة لإفرازات الغدد الصماء - تمثل الشذوذ وليس القاعدة، ولا يوجد أى "مرض نفسى" محدد - متصل بعدم قدرة الغدد التناسلية على أداء وظيفتها - لا يمكن إرجاعه لبعض الأمراض الخاصة بهذه الغدد التناسلية، فإننا سنجد أنه لا يوجد أى أساس طبى متين لوجهة النظر القائلة بأن "الشخصية" تعتمد على أداء الغدد الصماء لوظائفها، أو عجزها عن القيام بها، وبالطبع فإن هناك بعض المؤثرات (المنبهات التى تتسبب فى الإثارة) الضرورية لحيوية أعضاء الجسم البشرى، وإن هذه المؤثرات تنشأ عن "الغدد الجنسية"، وأنها هى التى تحدد وضع الطفل فى البيئة المحيطة به، ومع كل هذا فإن هذه المنبهات المثيرة يمكن إنتاجها بواسطة بعض أعضاء الجسم الأخرى وهى ليست بالضرورة الأساس الذى بنى عليه أى بناء نفسى محدد.

وحيث إنه من الصعب تحديد قيمة للإنسان، كما أنه مهمة حساسة قد يعني الخطأ فيها الفارق ما بين الحياة والموت، فإنني أشعر بأنه من الواجب على إصدار تحذير في هذا الصدد، فإن الأطفال الذين يأتي الواحد منهم إلى الحياة وهو يعاني من ضعف أو إعاقة جسدية كثيرًا ما يقع في إغراء تبني "خدع نفسية" معينة في محاولة منه للتعويض، ولكن هذا الإغراء يمكن التغلب عليه، فلا توجد أي إعاقة جسدية – مهما بلغت شدتها – يمكنها أن تجبر الفرد بطريقة دائمة ولا شفاء منها على تبني "موقف معين Particular attitude " من الحياة. إنها قد تتسبب في إضعاف إرادته، ولكن هذه مسألة أخرى، والرأي العكسي موجود فقط لأنه لم يحدث أن يحاول أي شخص التغلب على الصعوبات النفسية التي تحدث خلال نمو وتطور الطفل المصاب بإعاقة جسدية، فإننا قد سمحنا لهذا الطفل – وأمثاله – بأن ينمو ويتطور بطريقة مختلفة عن الطفل السليم، وقد فحصناه وراقبناه، ولكننا لن نحاول أن نساعده، أو ننبهه ونثيره، وباختصار فإن هذا يعني أن الوضعية الجديدة – أو علم النفس الاجتماعي الجديد – قد بنيت على اكتشافات سيثبت "علم النفس الفردي" أنها أكثر دقة من علم النفس المبني على الوراثة.

ملخص ما سبق:

قبل أن نبدأ في دراسة مميزات وخصائص الشخصية دعنا نراجع باختصار النقاط التي ناقشناها بالفعل، وأهم النقاط التي عرضتها هي: أن فهم "الطبيعة البشرية" لا يمكن أن يحدث عن طريق دراسة وفحص ظواهر معزولة (أي ظواهر أخذت بعيدًا عن المحيط النفسي للفرد ككل)، من الضروري – لتحقيق هذا الفهم – أن نقارن بين ظاهرتين على الأقل، وعلى أن تفصل فترة زمنية طويلة – بقدر الإمكان – بين هاتين الظاهرتين، وأنه علينا أن نربط بينهما من خلال نمط سلوكي موحد، لقد ثبتت فائدة هذه "الطريقة" لأنها قد مكنتنا من أن نجمع عددًا كبيرًا من الانطباعات وأن نركز هذه الانطباعات، بنظام حتى يصبح لدينا تقييم صحيح لشخصية هذا الفرد، أما إذا كان علينا أن نحكم على ظاهرة معزولة (بمفردها)، فإننا سنجد أنفسنا نواجه الصعوبات نفسها التي أحاطت بكل علماء النفس والمعلمين الآخرين، وبالتالي سيكون علينا أن نعاود استخدام تلك المعايير التقليدية، والتي ثبت عقمها وعدم جدواها، ولكن إذا نجحنا في اكتشاف بعض النقاط الجوهرية، فإنه يمكننا أن نطبق عليها "الطريقة" السابقة، ونصل بين هذه النقاط

ونضعها فى نمط واحد، فقد أصبح لدينا الآن نظام "الطريقة" الذى له اتجاه عام واضح، وهذه "الطريقة" تعطى تقييما كاملاً وواضحًا للفرد، وأن هذا فقط هو ما سيمكننا من أن نقف على أساس علمى متين.

لقد تمت مناقشة طرق عديدة يمكن بها استخدام "الطريقة" السابقة، وكتوضيح فإننى استخدمت حالات حقيقية كان لى بها[1] خبرة مباشرة، أو حالات يمكن قبولها على أنها مثال شائع للسلوك البشرى.

ونحن نصر هنا على أن عاملاً واحدًا فى هذه "الطريقة" المستحدثة هو ضرورة مطلقة، وأنا أعنى بهذا "العامل الاجتماعى"، فإنه من غير الكافى أن ندرس ظواهر نفسية عشوائية، بل يجب علينا – دائمًا – أن نرى هذه الظواهر فى إطار علاقاتها مع الحياة الاجتماعية. إن أهم فرضية وأكثرها قيمة بالنسبة لحياتنا الجماعية المشتركة هى أن شخصية البشر لا يمكنها أن تشكل الأساس لـ "حكم أخلاقى"، بل إننا نفضل أن نستخدم "التقدير الاجتماعى" للكيفية التى يتواصل بها البشر مع بيئتهم المحيطة، ونوعية (The quality) علاقاتهم (أى مدى جودة هذه العلاقات) بالمجتمع الذى يعيشون فيه وفى دراستنا لهذه الأفكار فإننا اكتشفنا ظاهرتين عالميتين، وهما:

الظاهرة الأولى: ونحن هنا نتكلم عن الوجود العالمى للشعور الاجتماعى (أى وجوده فى كل مكان فى العالم)، والذى يربط أفراد الجنس البشرى معًا. إن هذا الشعور الاجتماعى (أو الروح الاجتماعية) يمثل الأساس الذى بنيت عليه كل الإنجازات العظيمة فى حضاراتنا، وهذه المساهمات (الإنجازات) فى رخاء ورفاهية المجتمع تمثل المعيار الوحيد الذى يمكن به قياس شعور الأفراد الاجتماعى، لقد رسمنا صورة للنفس البشرية Human psyche من خلال معرفتنا بالطريقة التى يتواصل بها الفرد مع المجتمع، والكيفية التى يعبر بها عن زمالته للجنس البشرى، والكيفية التى يجعل بها حياته ذات معنى.

الظاهرة الثانية: والتى يمكن بها تقييم شخصية الفرد هى دراسة تلك التأثيرات التى تتسم بالعدوانية تجاه "الشعور الاجتماعى"، وميل الفرد للسعى الحثيث نحو إحراز القوة الشخصية و"التفوق"، وهاتان النقطتان تمكنانا من فهم كيف أن العلاقات بين أفراد الجنس البشرى تتشكل من خلال درجة توافر الشعور الاجتماعى داخل كل فرد، وسعيه نحو تحقيق التفوق، فإن الميلين السابقين يكونان

فى صراع دائم مع بعضهما البعض، وهذه هى آليات التفاعل، فإن تـداخل وضـم هذه القوى يظهر نفسه فيما نسميه بـ"الشخصية".

ميزات الشخصية الهجومية

الغرور والطموح:

عندما يبدأ السعى الحثيث نحو التفوق فى السيطرة على الفـرد، فـإن هـذا السعى يحث التوتر النفسى على المزيد من الظهور والزيادة، وكنتيجة لهـذا فـإن الهدف الخاص بالحصول على المزيد من القوة والتفوق يصبح شـديد الوضـوح، ويبدأ الفرد فى السعى نحو هذا الهدف بشدة وعنف أكبر، ويحيا حياته فى انتظـار الانتصارات العظيمة المتوقعة. إن مثل هذا الفرد يفقد إحساسه بمـا هـو حقيقـى وواقعى فى الحياة عن طريق أن يشغل نفسه دائمًا بالتساؤل عما يظنه النـاس بـه وبالانطباع الذى يتركه على الآخرين. إن أفعاله تكون مقيدة - إلى حـد بعيـد - بسبب أسلوب حياته هذا، وتكون أكثر صفاته الشخصية وضـوحًا هـى الغـرور والخيلاء.

أنا أعرف أن كل إنسان به بعض من الغرور والخيلاء بـدرجات متفاوتـة، ولكن عندما يُظهر الفرد ما به من غرور وخيلاء، فإن هذا يعتبر - من المجتمع - تعبيرًا عن صورة سيئة من جوانب شخصية الفرد، ولهذا فإن الغـرور والخـيلاء يتخفيان ويلبسان العديد من الأقنعة، وعلى سبيل المثال فإن هناك نوع من التواضع الذى ما هو إلا القناع الذى يخفى ذلك الغرور والخيلاء، وأحد الأفـراد يمكـن أن يكون مغرورًا جدا حتى إنه لا يحاول الحكم - أبدًا - على الآخرين، بينما فرد آخر قد يحاول البحث - بجشع - عن القبول العام من المجتمـع ويسـتغله لصـالحه، والغرور شىء خطير جدا خاصة إذا ما بالغنا فيه، فالغرور يقود الفرد نحو العديـد من النشاطات الضارة ويجعله مهتما بالمظاهر أكثر من الجوهر، كما أنـه يجعـل الفرد يفكر باستمرار فى نفسه، أو فى رأى الآخرين وانطباعهم عنه، ولكن أكثـر أخطار الغرور ضررًا على الإطلاق أنه يجعل الفرد منفصلاً عن الحقائق والواقـع المحيط به، فيبدأ الفرد فى فقدان فهمه لمعنى العلاقات البشرية، كما أن موقفه مـن الحياة يصبح مختلا، فهو ينسى واجباته كإنسان، ويفقد الهدف من القيام بدوره فـى

المجتمع ككل، حتى إننى أجرؤ على القول بأن الغرور هو أسوء الصفات وأكثرها ضررًا لأنه يمكن أن يتسبب فى وقف نمو وتطور الفرد، وهذا لأنه يجبر الفرد على التعامل مع المجتمع بفكرة واحدة، ألا وهى: "ما هو النفع الذى سيعود على من التعامل مع الآخرين؟".

إن البشر قد اعتادوا على إخفاء هذا الغرور عن طريق استخدام كلمة ذات وقع طيب فى النفس مثل "الطموح"، وكلنا يعرف الكثير من الناس الذين يتفاخر الواحد منهم بطموحاته!، وهناك مفاهيم أخرى كثيرًا ما تستخدم مثل "ممتلئ بالحيوية"، أو "شديد النشاط"، وطالما استخدم الفرد هذه الطاقة فيما يفيد المجتمع فإننا يجب أن نعترف بقيمة هذه الأفعال، ولكن الحقيقة هى أن أمثال هذه المفاهيم كثيرًا ما تستخدم لإخفاء غرور الفرد الشديد وخيلائه.

وللأسف فإنه سرعان ما يتمكن الغرور من الفرد، ويمنعه من أن يلعب دوره بأمانة وطبقًا للقواعد الموضوعة، وكثيرًا ما يتسبب أيضًا فى إفساد الطريقة التى يؤدى بها الآخرون أدوارهم، وهكذا فإن أمثال هذا الفرد - عندما يصبح الواحد منهم عاجزًا عن إرضاء غروره الشخصى - غالبًا ما يسعى لمنع الآخرين من الاستمتاع بحياتهم والوصول إلى أهدافهم، والطفل الذى مازال غروره فى مرحلة النمو والتطور يحاول إظهار شجاعته فى المواقف الخطرة، ويستمتع بإظهار مدى قوته أمام الأطفال الأكثر ضعفًا، طفل آخر - إذا ما كان قد أصيب بخيبة الأمل بالفعل - قد يحاول إشباع غروره عن طريق استخدام أكثر الأشياء تفاهة وحقارة، فهو قد يتجنب مشكلة العمل ويحاول أن يرضى غروره بأن يلعب الدور البطولى فى أى جانب فرعى - يحلو له - من جوانب الحياة، وهناك أيضًا تلك الفئة من البشر التى تُكثر من الشكوى من مرارة الحياة وكيف أن القدر قد أساء إليها تنتمى إلى الفئة السابق الحديث عنها، فإن الواحد منهم يحاول أن يجعلنا نؤمن بأنه إذا كان قد حصل على تعليم أفضل، أو ظروف أحسن لكان الآن من قواد العالم البارزين، ولكن كل ما يفعله هو خلق المزيد من الأعذار والتبريرات التى تبرر تخلفه عن خطوط الحياة الأمامية، وكل ما يشبع غروره يمكن أن نجده فى أحلامه التى خلقها بنفسه.

ومعظم الناس يجدون صعوبة فى التعامل مع أمثال هذا الفرد لأنهم يكونون عاجزين عن تقييم هذا الفرد أو نقده، فإن الشخص المغرور يعرف كيف ينقل

المسئولية – عن أية أخطاء – ويلقى بها بعيدًا عن نفسه، فإن الشخص المغرور يعتقد بأنه على صواب دائمًا، وأن الآخرين هم المخطئون، ولكن فى حياتنا اليومية فإنه لا يهم من المخطئ ومن على صواب، إن ما يهم هو الأعمال، وتحمل المسئوليات الملقاة على عاتقنا، والمساهمة فى رفاهية ورخاء الآخرين، أما الفرد المغرور فإنه يكون مشغولاً بالشكوى وخلق الأعذار والتبريرات التى منعته من مشاركة الآخرين فى المساهمة فى رفاهية المجتمع. إننا نتعامل هنا مع خدع نفسية وحيل متعددة يستخدمها الفرد فى محاولاته للحفاظ على شعوره بالتفوق مهما كان الثمن، وليحمى نفسه وغروره من أى إهانات يمكن أن توجه إليه.

وكثيرًا ما سمعنا أنه بدون الطموحات الشديدة، فإنه ما كان لأى من إنجازات الإنسان العظيمة أن تحدث، ولكن المقولة السابقة تحمل الكثير من المغالطات لأنها تنظر إلى الأمور نظرة خاطئة، فإن كل واحد منا به قدر من الغرور، ولكن الغرور ليس وحده المسئول عن توجيه نشاطات الفرد، كما أن الغرور ليس هو الذى أعطى الإنسان القوة والقدرة على تنفيذ إنجازاته العظيمة لأن هذه الإنجازات لم تنبع إلا من اهتمام الناس وشعورهم الاجتماعى، وأعمال أى عبقرى لا تكون لها قيمة إلا فى ظل المجتمع، وأقل قدر من الغرور يدخل فى تنفيذ هذه الأعمال ينقص من قيمتها، فإن دور الغرور ضئيل جدا فى الأعمال الحقيقية التى قام بها العباقرة.

فى الجو الاجتماعى الحالى يكون من المستحيل علينا أن نفصل أنفسنا تمامًا عن الغرور، ومجرد اعترافنا بهذه الحقيقة السابقة سيكون عاملاً مساعدًا وذا قيمة فى حد ذاته، لأن هذه الحقيقة هى صلب أحد نقاط الضعف الموجودة فى حضارتنا الحالية، وهى السبب فى التعاسة الدائمة لكثير من الناس، فهذه الأرواح ستظل معذبة وعاجزة عن التوافق مع الآخرين، ولن تستطيع التكيف مع الحياة لأنها تهدف إلى خداعنا عن طريق الظهور بمظهر من هو أكثر أهمية، ولهذا فإننا كثيرًا ما نجدهم على خلاف مع الجميع، لأنهم يهتمون بذواتهم فقط وما يحقق صالحهم الشخصى.

حتى فى أكثر الحالات تعقيدًا فإننا نجد أن المشكلة الأساسية – فى أى حالة – هى فشل محاولات الفرد فى إرضاء غروره، ولهذا فإننا عندما نحاول أن نتفهم إحدى الشخصيات المعقدة، فإنه من المهم أن نكون قادرين على تحديد حجم ودرجة غرور هذا الفرد، والاتجاه الذى يدفعه غروره لأن يتخذه، وما هى الأدوات التى

يستخدمها الغرور لتحقيق أهدافه. إن مثل هذا الفهم سوف يكشف لنا دائمًا عن حجم الضرر الذى يسببه الغرور لـ"الشعور الاجتماعى"، فإن الغرور لا يستطيع أن يتواجد ولا أن يعيش فى البيئة نفسها التى يعيش فيها الاهتمام بالآخرين، فإن هاتين الميزتين الشخصيتين فى حالة عداء كامل ودائم؛ لأن الغرور لن يسمح لنفسه بأن يكون تابعًا أو خادمًا لحاجات المجتمع.

إن الغرور ما هو إلا أنانية وتركيز على الذات، ونمو وتطور الغرور يكون مهددًا – بصفة مستمرة – من خلال تلك الاعتراضات المنطقية التى تفرضها الحياة الجماعية المشتركة. إن المجتمع والحياة الجماعية المشتركة ما هما إلا مبادئ مطلقة لا يمكن إنكارها، ولهذا فإن الغرور يكون مجبرًا على الاختفاء والتخفى فى مرحلة مبكرة جدا من نموه، ولهذا فإنه يتنكر ويأخذ طريقًا فرعيا فى محاولته للوصول إلى هدفه النهائى، والفرد المغرور سيكون دائمًا ضحية للكثير من الشكوك المحيطة بقدرته على تحقيق النصر، وبينما يحلم الواحد منهم ويفكر، فإن الوقت يسرقه، وبعد أن يضيع الوقت فإن الشخص المغرور يكون جاهزًا بالتبريرات والأعذار التى تؤكد أن الفرصة لم تتح له لإظهار قدراته العظيمة!! .

إن الأحداث تتوالى فى تسلسل مشابه لما يلى:

إن الشخص المغرور يبحث عن وضع أو وظيفة مميزة، وينأى بنفسه عن تيار الحياة الرئيسى، ويقف هناك – وحيدًا – وهو يراقب بقية البشر – يسعون ذهابًا وإيابًا – ويتشكك فيهم، فكل الناس أعداء له بطريقة أو بأخرى، فإن الشخص المغرور يجد أن من الواجب عليه أن يفترض وضع الدفاع أو الهجوم، وكثيرًا ما سنجده يتخبط فى شكوكه العميقة، والتى تبدو له منطقية، والتى تعطيه المظهر الخارجى للفرد المحق فى تفكيره، ولكن فى غمرة تخبطه وشكوكه فإنه يفقد الفرص المتاحة أمامه، ويخسر صلاته بالحياة والمجتمع، ويتراجع عن إنجاز المهام المفروضة على جميع أفراد المجتمع.

وإذا تمكن من دراسة مثل هذا الفرد عن قرب، فإننا سنكتشف أن غروره – ورغبته فى الغزو – ظاهرة بوضوح فى آلاف التفاصيل والأشكال، وموقفه يحمل الكثير من الغرور أيضًا، ويظهر هذا فى ملبسه وفى طريقة حديثه واتصاله بالآخرين، وباختصار فإننا سنرى أن الفرد المغرور والطموح لا يتورع عن استخدام أى سلاح – أيًا كان – فى حربه المعلنة من أجل تحقيق التفوق، وحيث إن هذه الظواهر تتخذ طابعًا

كريهًا جدا بالنسبة لنا – باقى أفراد المجتمع – فإن الفرد المغرور يبذل كل جهد لإخفاء علامات غروره، وهكذا فإننا سنجد فردًا ما يتظاهر بالتواضع، ويرتدى ملابسه بلا عناية، ويهمل مظهره فى محاولة يائسة لإقناع الآخرين بأنه ليس مغرورًا!!، ولقد أخبرنا بعضهم عن تلك القصة عندما خاطب سقراط Socrates ذلك الشاب الذى اعتلى المنبر وهو يرتدى أسمالاً بالية ممزقة قائلاً:

– "أيها الشاب، إن غرورك يُطل علينا من خلال كل ثقب فى ملابسك!".

إن هناك الكثيرين ممن يعتقد الواحد منهم بأنه قد تحرر من الغرور، فهو ينظر إلى الجزء الخارجى من نفسه فقط، وهو يعلم حق العلم أن غروره أكثر عمقًا، كما أن الغرور يمكن التعبير عنه من خلال محاولة الإصرار على احتلال مركز الصدارة فى كل الدوائر الاجتماعية، ومن خلال الحكم على قيمة كل اجتماع من خلال قدرة الفرد على احتكار الأضواء فيه، كما أن الفرد المغرور قد يرفض الاختلاط بالمجتمع، ويحاول تجنبه بقدر الإمكان، ويعبر هذا الفرد عن رغبته بطرق مختلفة: عن طريق الوصول متأخرًا إلى الحفل، أو رفض الدعوى، أو إجبار المضيف على تملقه وملاطفته حتى يحضر، فكلها علامات تقليدية تدل على غرور صاحبها، هناك أيضًا ذلك الفرد الذى لا يشارك إلا بشروط محددة، ويظهر غروره عن طريق اختيار من يختلط بهم فى هذا الحفل، وهو يعتبر مثل هذه التصرفات ميزات شخصية تستحق الفخر والاعتزاز بها، فرد آخر قد يظهر غروره بالإعراب عن رغبته فى حضور كل المناسبات الاجتماعية، بصرف النظر عما إذا كان مدعوا لها أم لا.

إن هذه التفاصيل مهمة جدا، ولا يجوز أن نشعر أبدًا بأنها غير ذات مغزى، لأنها تضرب بجذورها العميقة فى النفس، وفى الواقع فإن الفرد الذى يرتكب مثل هذه الأفعال السابق ذكرها لا يملك مساحة كافية فى شخصيته ليهتم بالمجتمع من حوله ويشعر به، فهو عدو للمجتمع أكثر منه صديقًا له، ونحن فى حاجة إلى قدرات الشاعر البلاغية حتى نستطيع أن نصف جميع التفاصيل الموجودة فى هذه الأنماط المختلفة والمتباينة، ولكنى هنا قد حاولت – على قدر الإمكان – أن أحدد المعالم الأساسية والبارزة فيهم.

إن "الدافع" المشترك بين جميع أنواع وأشكال الغرور هو أن الفرد المغرور قد خلق لنفسه "هدفًا" لا يمكن الوصول إليه وتحقيقه خلال حياته، فهو

يرغب فى أن يكون مهما وناجحًا أكثر من الجميع، وهذا الهدف ما هو إلا نتيجة مباشرة لشعوره بالنقص، حتى إننا يمكننا القول بأنه إذا كان غرور أى فرد شديد الوضوح، فإن هذا يعنى أنه لا يقدر قيمته الحقيقية حق قدرها وأنه يشعر بالنقص، وربما هناك أفراد يكون الواحد منهم على وعى بأن غروره ما هو إلا النتيجة المباشرة لشعوره بالنقص، ولكن أمثال هذا الفرد إذا لم يحاول الواحد منهم أن يستغل هذه المعلومة بطريقة مفيدة فإن وعيه بها سيكون عديم القيمة.

إن الغرور يظهر ويتطور فى مرحلة مبكرة جدا من العمر، وعادة ما يكون هناك نوع من الصبيانية مختلطًا بالغرور، وكنتيجة لهذا فإن الفرد المغرور كثيرًا ما يترك لدينا الانطباع بعدم نضوجه (صبيانيته)، وهناك الكثير من الأوضاع المرتبطة بظهور الغرور، فإن الطفل قد يشعر بالإهمال بسبب تربية خاطئة، وربما يعانى من الكبت من خلال شعوره بضآلته وضعفه، طفل آخر قد يكتسب نوعًا من الغطرسة عن طريق العادات والتقاليد السائدة داخل أسرته، ويمكننا التأكد أن الوالدين أيضًا قد اصطنعا هذه الهالة من الأرستقراطية حتى يتمكنا من تمييز أنفسيهما عن الآخرين، وحتى يتمكنا من الشعور بالفخر والكبرياء.

إن هذا الموقف المتغطرس يخلق طبقة مميزة من الناس تولد فى أسرة تدعى أنها أحسن من باقى الأسر، وأمثال هذه الأسر تدعى أيضًا احتكارها لمستوى أعلى وأحسن من مكارم الأخلاق والأصل النبيل، وتشعر بأن حقها الطبيعى والمكتوب عليها – من خلال انتسابها لسلالة معينة – هو الاحتفاظ بمجموعة محددة من الامتيازات، كما أن المطالبة بمثل هذه الامتيازات يجعل حياة الفرد منهم تتخذ اتجاهًا معينًا، وتحدد للفرد نمط سلوكه، وحيث إن الحياة لا تتعاطف مع أمثال هذه الطموحات السابقة، وحيث إن الفرد الذى يطالب بمعاملة خاصة لا يلقى إلا السخرية والتحقير، أو تعذبه هذه المشاعر، فإن أمثال هذا الفرد كثيرًا ما ينسحبون من المجتمع ويعيش الواحد منهم فى عزلة، أو يبدأ فى التصرف والحياة بطريقة غريبة، فإن الفرد منهم – طالما بقى فى منزله – يكون غير مسئول أمام أى شخص آخر، وعلى هذا فإنه يمكنه الاستمرار فى أوهام العظمة، ويبدأ فى الشعور بأنه على حق فى موقفه عن طريق الإيمان بأنه كان من الممكن له أن ينجز الكثير ويبلغ هدفه لو أن الظروف كانت مختلفة.

وفى بعض الأحيان نجد أن الفرد القادر والمميز – والذى نمى وطور من نفسه إلى أقصى الحدود – ينتمى إلى هذه المجموعة، لو أن هذا الفرد قد استخدم مواهبه

لخير العالم وأشرك الآخرين فى الاستفادة بها، فإنه قد يكون ذا قيمة، ولكنه يسىء استخدام مواهبه عن عمد حتى يتمكن من الاستمرار فى خداع النفس، فهو يحدد مجموعة من المطالب المستحيلة ويجعل منها شرطًا أساسيا لتعاونه مع المجتمع، وعلى سبيل المثال قد يطالب الفرد بشروط مستحيلة من الناحية الزمنية كأن يقول:

"لو أننى تمكنت من فعل شىء ما، أو تعلمت شيئًا ما، أو عرفت بوجود شىء ما، فإنه كان من الممكن لى تحقيق إنجازات أفضل".

كما أنه قد يحاول أن يستبعد لتبرير فشله المتوقع عن طريق استخدام "طبيعة الأشياء" ذاتها، كأن يقول:

"إن الرجل والمرأة يجب أن "يفكرا" و"يتصرفا" بطريقة مختلفة".

إن مثل هذه الشروط يستحيل الوفاء بها حتى إذا حاولنا، ومن هنا فإن علينا أن نستنتج أنها كلها ليست إلا مبررات عديمة الجدوى، مثلها فى هذا مثل التنويم المغناطيسى، أو العقارات التى تحررنا من ضرورة التفكير فى الوقت الذى أضعناه هباء دون أن نستفيد منه.

إن هذا الفرد ممتلئ بالعدوانية، وهو يميل لعدم الإحساس بآلام وأحزان الآخرين ومعاناتهم، وهو يستخدم هذه الطريقة لكى يتمكن من الشعور بالعظمة، وقد كان Rochefoucauld (*) قادرًا على الحكم بصدق على الطبيعة البشرية عندما قال:

"إن معظم الناس يستطيعون تحمل آلام الآخرين بسهولة".

وكثيرًا ما يعبر هذا الفرد عن عدوانيته الاجتماعية عندما يتبنى أسلوبًا حادا وناقدًا لكل ما حوله، وهذا الفرد يكون عدوا للمجتمع لأنه دائمًا ما يلوم وينتقد ويسخف ويصدر أحكامًا مسبقة ويدين العالم، فهو غير مقتنع أو مكتف بأى شىء، ولكن علينا - نحن أيضًا - أن نعلم أنه من غير الكافى أبدًا أن نتعرف على العيوب وندينها، وإنه يجب على كل واحد منا أن يسأل نفسه أولاً:

(*) فرانسوا دى لا روشفيكوو (١٦١٣ - ١٦٨.) كاتب فرنسى حقق الكثير من الشهرة "الأدبية" فى الحقبة الأخيرة من حياته، أما الفترات الأولى من حياته فكانت تتميز بالاضطراب والقلق، فقد شارك مدام شيفريز فى معارضتها للكاردينال ريشليو، وفيما بعد شارك فى Frondes، وجرح فى وجهه، فقرر الاعتزال، وأمضى الفترة من ١٦٥٢ إلى ١٦٥٨ فى إقطاعيته فى Angoumois وبعدها انتقل للحياة فى باريس وهناك اختلط بالأدباء وتأثر بهم، وعرف بفلسفته الميالة إلى التشاؤم، ونشر كتابه عن المبادئ والمأثورات والحكم فى عام ١٦٦٥، ومن أقواله الشهيرة "إن حب الذات (أو الأنانية) هو المحرك الأساسى للسلوك البشرى". (المترجم)

"ما الذى فعلته لتحسين الأوضاع من حولى؟".

إن بعض الأفراد يستخدم ذكاءه الفطرى فى محاولة لرفع نفسه فوق باقى البشر عن طريق أن يجرح شخصيات الآخرين ويلسعهم بلسانه الحاد ونقده، ولهذا فيجب ألا ندهش عندما يطور - مثل هذا الفرد - نظامًا ممتازًا للنقد اللاذع لأنه كان لديه الكثير من الوقت ليتدرب، ومثل هذا النظام الممتاز يمكن أن نجده مستخدمًا على نطاق واسع بين أمثال هذا الفرد، والإنسان يمكن أن يسبب الكثير من الضرر باستخدام هذه الطريقة، فهو كمن يهاجم الآخرين بسلاح مميت، ومن المؤسف أن هناك من اتخذوا من النقد مهنة تمكنهم من تحقير الآخرين.

إن هذا السلوك السابق ما هو إلا تعبير عن ميزة شخصية شائعة فى أمثال هذا الفرد وقد أسميتها "عقدة الإبخاس Deprecation complex"، وهى تحدد بدقة هدف الفرد المغرور، على أنه "محاولة لإبخاس قيمة الآخرين"، فهى محاولة للشعور بالتفوق عن طريق الحط من الآخرين، وعلى سبيل المثال: فإن قيمة "المؤلف" والاحترام والاعتبار الذى يناله يراها الفرد - ذو الشخصية المغرورة - على أنها إهانة شخصية له وانتقاصًا من قدره، وهذه الحقيقة وحدها تمكننا من الوصول إلى استنتاجات عميقة، كما أنها تعرفنا مدى عمق جذور مشاعر الضعف والنقص وتأصلها فى شخصية الفرد المغرور.

وعلينا أن نتذكر هنا أن فى داخل كل واحد منا بعض الغرور، وعلى هذا فإنه يمكننا تطبيق المعايير السابقة على أنفسنا أيضًا، وحتى إذا كنا عاجزين عن نزع هذه الميول - التى نمت وتطورت من خلال العادات والتقاليد التى استمرت لآلاف السنين - خلال وقت قصير، فإن مجرد المحاولة سيعتبر خطوة فى الاتجاه الصحيح، عندما نتعرف على الفخ الذى نصبناه لأنفسنا والتحيز الخطير الذى وقعنا فيه.

يمكننى أن أقول إنه لا توجد داخلنا رغبة حقيقية فى أن نكون مختلفين عن الآخرين، أيضًا فإنه لا يوجد من يرغب فى البحث عمن هو مختلف عن باقى المجتمع، فإن كل واحد منا يشعر بوجود "قانون طبيعى" يتطلب منه أن يتعاون مع الآخرين، وفى عصرنا هذا، والذى يتطلب الكثير من التعاون، فإنه لم يعد هناك مكان لمن يبحث عن - ويسعى نحو إرضاء - غروره الشخصى، فإن العيوب - فى مثل هذا الموقف تجاه الحياة - تكون واضحة، لأننا نرى كل يوم كيف أن

الفخر والغرور يقودان صاحبهما إلى التهلكة، لأنه إما أن يجد نفسه دائمًا في صراع مع المجتمع، أو يكون في حاجة إلى تعاطف المجتمع معه، ولقد أصبحت هذه العيوب (الفخر والغرور) الآن موضع اعتراض ونقد من الجميع، وأقل ما يجب فعله، هو أن يبحث الفرد عن أشكال أخرى - تكون أكثر قبولاً من المجتمع - للتنفيس عن غروره، وعلى هذا فإنه إذا كان على الفرد أن يستمر في ممارسة "غروره"، فإن عليه أن يمارسه في اتجاه يحقق الصالح العام.

إن الحالة التالية تعرض بوضوح الآليات التي يتحرك بها الغرور، سيدة صغيرة السن هي أصغر أخواتها الإناث، وعلى هذا فإنها لاقت الكثير من التدليل منذ مرحلة مبكرة جدا من حياتها، وكانت أمها في خدمتها دائمًا، واستجابت لجميع رغباتها ليلاً ونهارًا، وكنتيجة لهذا الاهتمام فإن طلباتها قد زادت عن الحد. كانت هذه السيدة الصغيرة كثيرة المرض في طفولتها، ولقد اكتشفت - في مرحلة مبكرة جدا من حياتها - أنه عندما تكون أمها مريضة، فإن كل رغباتها تكون مجابة، وهكذا فإن هذه الصغيرة تعلمت أن "المرض" يمكن أن يكون أداة ثمينة، وأنه يمكن استخدام هذه الأداة الثمينة للحصول على كل ما يريده الفرد.

إن الشخص الطبيعي يكره أن يكون مريضًا، ولكن هذه الفتاة الصغيرة تمكنت من أن تتغلب على هذه الكراهية الطبيعية، وبدأت تستمتع بالمرض الذي كان يصيبها بين الحين والآخر، ولم يمض الكثير من الوقت قبل أن تصبح خبيرة في التمارض كلما رغبت في هذا، وكثيرًا ما كان هذا يحدث خاصة عندما كانت ترغب في الحصول على شيء ما، وما كان أكثر الأشياء التي رغبت في الحصول عليها، وكنتيجة لهذا فإنها أصبحت دائمة المرض (أو التمارض بمعنى أصح)، وهناك الكثير من المظاهر التي يمكننا بها التعرف على "عقدة المرض Sickness complex " هذه، وكل من الأطفال والبالغين يشعرون بتزايد قوتهم، ويستخدمون المرض لابتزاز الاهتمام والحب من أفراد الأسرة، وإذا ما كان الفرد ضعيفًا وحساسًا فإن الاحتمالات والإمكانيات - لاستغلال هذا الوضع - تكون كثيرة، ومن الطبيعي أن يستخدمها لأنه يكون قد ذاق حلاوة اهتمام الآخرين به وبصحته.

والوضع السابق يمكن هذا الفرد من أن يلعب بمشاعر الآخرين لكي يتمكن من تنفيذ أغراضه، وعلى سبيل المثال فإنه قد يتوقف عن الأكل أو يأكل القليل، وبالتالي يبدو - ظاهريا - سيئ الصحة، ومن ثم يدفع أسرته لأن تحاول بكل

جهدها أن تتفنن فى طبخ الأكلات الشهية حتى تغريه بالأكل، وخلال هذه المرحلة يمكن لهذا الفرد أن يطور رغباته بأن يطالب بأن يكون هناك من يرعاه دائمًا ويغدق عليه العطف والحنان، وهذا الفرد لا يطيق أبدًا أن يبقى وحيدًا، وعن طريق التمارض، أو الادعاء بأنه فى خطر، فإنه يحصل على ما يريد (العطف والحنان والاهتمام).

ولقد عرفنا من قبل أن القدرة على الشعور بأحاسيس الآخرين تسمى "التعاطف"، ولكن هناك أيضًا ما يسمى بـ"تخيل التعاطف Imaginative empathy" ويظهر هذا فى خلال أحلامنا عندما نشعر كما لو كان ما نراه فى الحلم يحدث بالفعل لنا، وما إن يكتشف الفرد – الذى يعانى من "عقدة المرض Sickness complex" – هذه الطريقة فى الضغط على الناس، حتى ينجح بسهولة فى إنتاج مشاعر التوعك التى تؤذن ببدء المرض، وتكون هذه المشاعر أصيلة وحقيقية حتى إنه لا يمكننا أن نصفها بالمشاعر الكاذبة أو المشوهة أو المتخيلة، ونحن نعلم أنه عندما يتعاطف الفرد مع وضع من الأوضاع، فإنه ينتج التأثير نفسه الذى يحدث إذا ما كان هذا الوضع موجودًا فى الحقيقة، ونحن نعرف أيضًا أن مثل هذا الفرد يمكن أن تظهر عليه أعراض المرض مثل أن يتقيأ، أو تظهر عليه مظاهر القلق والارتباك، كما لو كان يتعرض بالفعل لدوخة حقيقية.

والسيدة الصغيرة فى المثال السابق قد قالت:

"أنا أشعر كما لو كنت سوف أعانى من "جلطة فى المخ Stroke" فى أى لحظة".

إن هناك من يستطيع أن "يتخيل" الشىء بوضوح شديد حتى إنه يشعر بالفعل بأعراضه ويفقد توازنه، ولا يمكن أن نتحدث هنا عن التخيل أو التمثيل، فكل ما هو ضرورى هو أن ينجح الفرد – مرة واحدة على الأقل – فى إقناع الآخرين بأعراض مرضه الوهمى، وبعدها فإن كل من اقتنع يبقى إلى جانب هذا الفرد المتمارض، ويعتنى به ويلبى كل رغباته، وحقيقى أن مرض إنسان آخر يجب أن يستدعى الشعور الاجتماعى لكل شخص طبيعى، ولكن النمط السابق يستغل هذه الروح الاجتماعية ويوجهها، حتى يتمكن من استخدام شعوره بالقوة.

إن هناك تعارضًا بين قوانين المجتمع وبين الحياة الجماعية المشتركة التى تتطلب الكثير من الاعتبار من زملائنا فى البشرية، وهذا التعارض يصبح شديد

الوضوح فى ظل الظروف السابقة، وعادة ما نجد هذا الفرد عاجزًا عن المشاركة فى أحزان وأفراح الآخرين، فإنه من الصعب عليه الاعتراف بحقوق جيرانه، ولا يهمه أن يشترك فى مساعدتهم، وبين الحين والآخر قد ينجح أمثال هذا الفرد فى الحياة كنتيجة لمجهودات هائلة وباستخدام التعليم الذى حصل عليه والظروف الحضارية المحيطة به، ولكن مجهوداته تكون موجهة نحو اهتمامات الآخرين بطريقة ظاهرية، أما سلوكه فإنه يكون مبنيا – فى الأساس – على حبه لنفسه وغروره.

وبالتأكيد فإن هذا ينطبق على السيدة الصغيرة التى سبق لنا وأن تحدثنا عنها، فإن عنايتها المفرطة وقلقها الزائد على أقاربها كان بلا حدود، فهى كانت تقلق إذا ما تأخرت أمها بضع دقائق عن موعدها المعتاد لإحضار الإفطار لغرفتها، وعندما كان هذا يحدث فإنها كانت توقظ زوجها وترسله لأمها ليرى سبب تأخيرها، وبمرور الوقت تعودت أمها على الوصول فى موعدها بدقة شديدة وهى تحمل إفطار ابنتها.

وكان الشيء نفسه – تقريبًا – يحدث مع زوجها، فقد كان الزوج رجل أعمال، وكان عليه العناية بزبائنه وزملائه، ومع هذا فإنه فى كل مرة وصل إلى المنزل متأخرًا، فإنه كان يجد زوجته على حافة انهيار عصبى، وهى ترتجف من القلق، والعرق يغطى وجهها، وهى تشكو بمرارة من قلقها عليه وخوفها على سلامته، وفعل الزوج ما فعلته أمها من قبل، وأصبح هو الآخر شديد الدقة فى ذهابه وإيابه بالرغم من التكلفة الباهظة التى عانت منها أعماله.

وقد يقول البعض إن هذه السيدة الصغيرة لم تحصل على أى فائدة حقيقية من خلال أفعالها السابقة، وإن انتصاراتها هى انتصارات ضئيلة، ولكن علينا أن نتذكر أننا لم نر الصورة الكاملة بعد، وأن الجزء الصغير الذى رأيناه (مرضها) يعتبر علامة خطيرة جدا تحذرنا مما سوف يقع فى المستقبل، كما أن مرضها يعتبر المفتاح الذى يمكننا من فهم الجوانب الأخرى من حياتها.

إن هذه السيدة الصغيرة قد تمكنت من التحكم فى كل من حولها بهذه الآلية البسيطة (ادعاء المرض)، وهى أيضًا قد أرضت غرورها عن طريق تبنى هذا الدور خلال سعيها الحثيث للوصول إلى هدفها النهائى "التفوق"، ودعنا نتخيل حجم المجهود الذى يمكن أن يبذله الفرد من هذا النوع ليصل إلى هدفه؟ وهذا الجهد

الهائل يجعلنا نستنتج أن موقف هذه السيدة الصغيرة وسلوكها قد أصبحا ضرورة مطلقة بالنسبة لها حتى إنها وافقت – عن طيب خاطر – على بذل كل هذه الجهود الهائلة للحصول عليه، فهى لا تستطيع أن تهدأ أو تستريح حتى يستجيب كل من حولها لرغباتها بدون قيد أو شرط.

لكن الزواج يعنى أشياءً كثيرة – أكثر من زوج دقيق فى مواعيد ذهابه وإيابه – فهناك آلاف الجوانب فى هذه العلاقة الزوجية قد تأثرت بهذا السلوك المستبد، فهذه السيدة الصغيرة قد تعلمت كيف تؤيد أوامرها ونواهيها بأن تهدد بأن عدم الطاعة يؤدى إلى قلقها الشديد وما يليه من أمراض، كما أن عنايتها الشديدة بأمن ورخاء الآخرين ما هى إلا الجائزة التى تكافئ بها كل من يطيعها طاعة عمياء. من كل ما سبق لا يمكننا أن نخرج إلا بنتيجة واحدة فهى تستخدم القلق كأداة لإرضاء غرورها.

وكثيرًا ما وجدت مثل هذا الحافز النفسى المتضخم، والذى يبلغ من القوة حدا مخيفًا، حتى إن حصول الفرد على الطاعة العمياء يكون أكثر أهمية بالنسبة له من الحصول على ما يرغبه، ويتضح هذا أكثر من خلال حالة فتاة تبلغ من العمر ستة أعوام، وكانت هذه الفتاة أنانية بلا حدود، ولا تهتم إلا بمن يرضى كل رغباتها، وكان سلوكها مشبعًا بالرغبة فى إظهار قدراتها على السيطرة والهيمنة، والعجيب أنها كانت عادة ما تنجح فى هذا، فأمها كانت بالغة الحرص على إرضائها مهما كلفها الثمن، فى إحدى المرات حاولت الأم أن تفاجئ الفتاة بأن أحضرت لها حلوى من النوع الغالى الذى تحبه وقالت لها:

"لقد أحضرت لكِ هذه الحلوى الغالية لأننى أعرف أنكِ تحبينها".

فما كان من الفتاة الصغيرة إلا أن ألقت بالطبق على الأرض، وداست عليه بقدميها وهى تصيح قائلة:

"ولكنى لا أريد هذه الحلوى عندما تعطيننى إياها، وإنما أريدها فقط عندما أطلبها".

وفى مرة أخرى كانت الصغيرة تتلصص على الأم وهى تحدث الخادمة متسائلة ما إذا كانت الصغيرة تفضل شرب القهوة أم اللبن؟ وعندها أظهرت الصغيرة نفسها قائلة بوضوح:

"إذا قالت قهوة، فأنا أريد لبنا، وإذا قالت لبنا، فأنا أريد قهوة".

لقد عبرت هذه الفتاة الصغيرة عن نفسها بوضوح شديد، ولكن هناك العديد من الأطفال الذين يعانى الواحد منهم من مثل هذا القدر من الأنانية، ولكنه لا يعبر عن أفكاره بهذه الصراحة، ربما يحمل كل الأطفال هذه الخاصية في داخلهم بدرجات مختلفة، وربما يحاول الواحد منهم بشدة الحصول على الطاعة، حتى ولو كان لا يجنى أى فائدة من طاعة الناس له، بل إنه فى بعض الأحيان قد يعانى الألم ويجلب على نفسه البؤس كنتيجة لهذا. إن الطفل الذى يسمح له بإشباع كل شهواته وأى رغبة تهواها نفسه يعتاد هذا، وتكون النتيجة الحصول على أمثال هذه الفتاة الصغيرة ذات السنوات الست، ويمكننا أن نجد الكثير من أمثالها حولنا فى كل يوم، وكنتيجة لهذا فإننا سنجد أفرادًا بالغين يصابون بالقلق الشديد لا لشىء إلا لغرض الحصول على طاعة من حولهم، وبعضهم يتمادى فى غروره، حتى إنه يصبح عاجزًا عن فعل أى شىء يطلبه الآخرون منه، حتى ولو كان هذا الشىء فى مصلحته، أو كان الفعل الوحيد المتاح، وأمثال هذا الفرد لا يستطيع الواحد منهم أن ينتظر حتى ينتهى الآخر من كلامه، بل يسارع إلى معارضته، بل إن هناك حالات يكون فيها الفرد مدفوعًا بغروره إلى درجة أنه يقول "لا" حتى عندما يرغب فى أن يقول "نعم".

إن حصول الفرد على استجابة مباشرة (الطاعة العمياء) طول الوقت ممكن فى نطاق الأسرة، فهناك بعض الأفراد الذين يكون اتصال الواحد منهم بغيره من الغرباء سهلاً، ولكن لا تستمر هذه الاتصالات لفترة طويلة، فإننا نجد أن هذه العلاقات سرعان ما تفتر، ونحن نعلم كيف تسير الحياة، وكيف أن البشر سرعان ما يجتمعون، وسرعان ما يفترقون أيضًا، فلا عجب أن نجد فردًا يستطيع أن يكسب قلوب الآخرين، ثم يسارع إلى هجرهم بلا سبب.

إن هناك الكثيرين الذين يسعى الواحد منهم بشدة إلى تحجيم نشاطاته وقصرها على نطاق الأسرة، والحالة السابقة ينطبق عليها هذا الوصف تمامًا، فإن الفتاة الصغيرة - بسبب شخصيتها الطفولية الساحرة - كانت معروفة ومحبوبة بشدة خارج منزلها، ولكنها كانت لا تحب أن تطيل بقاءها بعيدًا عن المنزل، وهذه الرغبة فى العودة إلى منزل الأسرة كانت تتحقق باستخدام حيل متنوعة، فعندما تذهب إلى حفلة فإنها سرعان ما تصاب بالصداع، مما يضطرها إلى ترك الحفلة،

ففى حفل اجتماعى فإنه يكون من غير الممكن لها السيطرة بصورة مطلقة - بالطريقة نفسها التى تسيطر بها داخل نطاق المنزل - وهذا هو السبب فى إصابتها بالصداع والتى يمكن أن تستخدمها كمبرر للعودة إلى المنزل.

حيث إن هذه المرأة لا تتمكن من تحقيق هدفها الرئيسى فى الحياة - إرضاء غرورها - إلا فى نطاق أسرتها فهى مجبرة على أن تحتفظ بنظام ما يعيدها لهذه الأسرة كلما اقتضت الضرورة ذلك، وهذه المشكلة تفاقمت بشدة إلى درجة أنها أصيبت بالقلق والتوتر فى كل مرة خرجت فيها مع مجموعة من الغرباء، حتى إنها أصبحت عاجزة عن الذهاب إلى المسرح، وأخيرًا امتد هذا العجز حتى إنها أصبحت غير قادرة على مجرد الخروج إلى الشارع، لأنها فى مثل هذا الموقف تشعر بأن العالم لم يعد تحت تحكمها وسيطرتها، وكنتيجة لهذا فإنها سرعان ما أعلنت عدم قدرتها على الخروج من المنزل إلا إذا كانت فى صحبة أعضاء حاشيتها (أفراد الأسرة). كان هذا هو الوضع الذى تعشقه وتحبه، فأن تكون محاطة دائمًا بأفراد قلقين عليها ومهتمين بها وبرخائها هو ما ترغب فيه مثل هذه الفتاة، وقد أوضح فحصى لها أنها قد تبنت هذا النمط منذ أيام طفولتها المبكرة.

فقد كانت أصغر أطفال هذه الأسرة، وأضعفهم، وأكثرهم تعرضًا للمرض، وبالتالى كانت فى حاجة إلى عناية أكثر من الآخرين، ولكنها تمسكت بهذا الدور وأصبح كل حياتها، وكانت ستتمسك به بقية حياتها لولا أن تماديها المبالغ فيه قد حطم بعض قوانين الحياة الثابتة Life’s iron rules، والتى ترفض بشدة هذا النمط من السلوك. كانت نوبات القلق والتوتر التى تعانيها هذه الفتاة تزداد وضوحًا حتى آمن الجميع بحقيقتها، لكن الحقيقة هى أنها وقعت فى الفخ الذى كانت تعتقد أنه الحل الذى سيخرجها من مشكلة الغرور، ولكن هذا الحل كان غير مناسب، فهى لا تملك الإرادة الكافية لتخضع نفسها لمنطق الحياة الاجتماعية فى الأخذ والعطاء بنسب متساوية، وهكذا فإن نتائج فشلها فى حل المشكلة أصبحت شديدة الإيلام لها حتى إنها بدأت فى البحث عن مساعدة طبية.

والآن فمن الضرورى أن نفكك ما قامت هى ببنائه طوال حياتها، فهذا الذى استغرق منها سنوات عديدة من البناء الحريص يجب أن يتم تفكيكه وتجريده من كل تجهيزاته، وعلينا أن نعلم أننا سنواجه بمقاومة عظيمة، فبالرغم من أنها هى التى اختارت البحث عن مساعدة طبية، فإنها غير مستعدة داخليا للتغيير. إن ما

ترغب فيه حقيقة هو الاستمرار فى التحكم فى أسرتها كما اعتادت من قبل، وبدون أن تدفع هذا الثمن الباهظ - القلق الذى يعذبها والتوتر الذى ينتابها عندما تخرج وحيدة فى الشارع - ولكنها كانت عاجزة عن الفصل بينهما، ولقد أوضحت لها كيف أنها أصبحت سجينة فى هذا النمط السلوكى غير الواعى لأنها تريد أن تتمتع بمزاياه، ولكنها لا تريد أن تواجه عيوبه.

إن هذا المثال قد أظهر بوضوح كيف أن أى مستوى من مستويات الغرور يمثل عبئًا ثقيلاً على أكتاف الفرد خلال حياته بأكملها، وأن هذا الغرور يمنع النمو والتطور الكامل للفرد، ويقوده فى النهاية إلى الانهيار، إن المريض لا يستطيع أن يتفهم هذه العيوب لأن اهتمامه موجه نحو المزايا فقط، ولهذه الأسباب فإن الكثير من الأفراد يكون الواحد منهم مقتنعًا بأن طموحاته - ربما يكون من المناسب أكثر أن نسميها باسمها الصحيح "غرورًا" - ما هى إلا مميزات ذات قيمة ثمينة، ولكنه عاجز عن فهم أن هذه المميزات الشخصية تجعل الفرد فى حالة عدم رضا دائم، وتحرمه من النوم الهنىء.

وأنا لدى مثال آخر يثبت وجهة نظرى، فهذا الشاب الذى كان فى الخامسة والعشرين من عمره، كان من المفترض أن يدخل امتحانه النهائى فى القريب العاجل، ولكنه لم يحضر الامتحان لأنه فقد اهتمامه بالموضوع، فقد كان يلاحقه الكثير من المشاعر الكريهة، وقد بدأ يشك فى قدراته الشخصية وقيمته، وبدأ هذا الشك يتزايد حتى أصبح عاجزًا عن دخول الامتحان، وكل ذكريات طفولته الأولى كانت مشبعة وممتلئة بالتأنيب العنيف والتوبيخ تجاه والديه، لأن هذين الوالدين قد تسببا - بعجزهما عن الفهم - فى إعاقة نموه وتطوره، وعندما كانت هذه الحالة تنتابه، فإنه كان يعتقد أن البشر جميعًا بلا قيمة ولا يهمونه فى شىء، وبهذه الطريقة فإنه نجح فى عزل نفسه عن العالم.

لقد ثبت أن الغرور هو المحرك والدافع الذى أعطاه القوة والمبرر ليتجنب أن يضع نفسه موضع الاختبار، ولهذا فإنه عندما حان موعد الامتحان النهائى، فإن الشكوك ملأته، كما أن ضعف حماسه نحو الامتحان بدأ يعذبه، وهذه كلها أشياء فى غاية الأهمية بالنسبة له؛ لأنه إذا استسلم الآن فإنه سيتمكن من الاحتفاظ بشعوره بقيمته الذاتية، ولهذا فإنه حمل معه - دائمًا - طوق النجاة حتى يشعر بالأمان، وأخذ يعزى نفسه عن طريق الفكرة القائلة بأنه لولا مرضه وسوء حظه لتمكن من النجاح.

إن أمثال هذا السلوك السابق تمثل شكلاً من أشكال الغرور، خاصة عندما يتردد الفرد فى وضع نفسه موضع الاختبار، فإن الغرور هو الذى يجبر الفرد على اتخاذ طريق فرعى فى اللحظة نفسها التى يجب عليه فيها أن يتخذ قرارًا شجاعًا بخصوص قدراته، فإن الفرد يفكر فى المجد الذى سيفقده إذا فشل، ويبدأ فى الشك فى قدراته، فهو قد تعلم السر الذى يعلمه كل من لا يثق فى نفسه وفى قدراته على اتخاذ القرار، وخلال وصف المريض السابق لنفسه، فإنه أظهر لنا أنه كان دائمًا من هذا النوع الذى لا يستطيع أن يتخذ قرارًا، وفى كل مرة كانت الضرورات تجبره على اتخاذ قرار، فإنه كان يتردد ويضعف، وإذا ما ركزنا على دراسة الحركات وأنماط رد الفعل، فإن هذا السلوك يعنى رغبته فى التوقف وفى تقليل سرعة تقدمه.

فهذا الشاب كان أكبر إخوته، كما أنه كان الذكر الوحيد بين أربع من الإناث، ولهذا فإنه كان معزولاً لأنه كان المرشح الوحيد للالتحاق بالتعليم الجامعى، فهو "القدوة" والنموذج الذى تفتخر به هذه الأسرة، والذى يتوقع منه أن ينجز الكثير من الأشياء العظيمة، وكان والده – دائمًا – يحاول أن يشجع طموحاته، ولم يتعب أو يمل من إخباره عن كل الأشياء العظيمة التى يمكنه أن ينجزها، ولهذا فإن هدفه كان "أن أكون الأول والأحسن"، ولكن عندما حان وقت الامتحان فإن الخوف قد شله والشك والقلق منعاه من الحركة، وأخذ يتعجب مما إذا كان سيتمكن من إنجاز ما هو متوقع منه أبدًا، وهنا أتى "الغرور" لينقذه ويرشده إلى طريق التراجع.

إن هذا يوضح لنا أنه فى نمو وتطور الفرد المغرور والطموح فإن التقدم يكون مستحيلاً، لأن الغرور يتعارض مع الشعور الاجتماعى ولا مفر من الصدام بينهما، وكثيرًا ما نشاهد الفرد المغرور يبتعد عن المجتمع وعن الروح الاجتماعية فى مرحلة مبكرة من طفولته، ويحاول أن يعيش بطريقته الخاصة فى عزلة عن الآخرين. إنه مثل ذلك الفرد الذى يتخيل مدينة فاضلة ويتجول فى شوارعها بالاستعانة بخريطة خيالية بحثًا عن مبان خيالية يعتقد هو وحده أنها موجودة، ومن الطبيعى أنه لا يجد أبدًا ما يبحث عنه، ويبدأ فى توجيه اللوم إلى قسوة الحياة والواقع المرير. إن هذا هو المصير التقريبى للفرد الأنانى الذى يحاول أن يحصل على ما يريد من خلال القوة، أو الحيلة، أو الخداع فى علاقاته مع الآخرين. إن أمثال هذا الفرد ينتظر الواحد منهم الفرصة – بفارغ الصبر – لكى يستطيع إثبات

أن الآخرين هم المخطئون وأنهم أقل منه، فهو سعيد عندما ينجح في إظهار مهاراته وأفضليته عن الآخرين، وحتى إذا كان هو الوحيد المقتنع بهذه المهارات وتلك الأفضلية، والآخرون كثيرًا ما يتجاهلونه، ويتجاهلون كل محاولاته للتظاهر، وقد تنتهي المعركة بالهزيمة أو النصر، ولكن أيا كانت النتيجة فإن الفرد المغرور يكون مقتنعًا بأنه على صواب وبأنه الأكثر تفوقًا.

إن هذه الحيل الرخيصة التي تمكن أي فرد من أن يؤمن بصحة تخيلاته، قد تحدث - في حالة مثل الحالة السابقة - لفرد يجب أن يستذكر دروسه (أي لشخص يجب أن يُخضع نفسه للحكمة الموجودة في الكتب، أو أن يُخضع نفسه لامتحان يختبر قدراته الحقيقية) وهذا الفرد يعي بطريقة مبالغ فيها بنقص قدراته لأنه ينظر إلى الأشياء بمنظور خاطئ، ونتيجة لهذا فإنه يبالغ في تقدير الوضع ويؤمن بأن سعادته في الحياة ونجاحه موضع شك، ومن هنا فإنه يصل بنفسه إلى حالة من التوتر لا يستطيع أي إنسان أن يتحملها.

إن كل اتصال - لأمثال هذا الفرد - يتطلب الأهمية الخاصة التي يجب إعطاؤها لحدث عظيم، وكل فعل من الأفعال وكل كلمة تقيم على أنها إما نصر وإما هزيمة، فإن هذا الفرد في معركة مستمرة تقود - الفرد الذي جعل من الغرور، والطموح، والآمال الكاذبة، نمطًا لسلوكه - نحو المزيد من الصعوبات التي تحرمه من أي سعادة حقيقية، ولكن علينا أن نتذكر أن السعادة الحقيقية لا تكون ممكنة إلا عندما نتقبل شروط الحياة ومتطلباتها، أما إذا اخترنا أن نتجنب هذه الشروط الضرورية والأساسية، فإن الفرد يسد طريق السعادة الحقيقية على نفسه، ويفشل في كل الأشياء التي تمنح الإنسان الرضا عن النفس والسعادة، ويصبح أحسن ما في إمكان هذا الفرد هو أن يحلم بتفوقه وسيطرته على الآخرين، بالرغم من أنه لا توجد أي طريقة لتحقيق هذه الأحلام.

وحتى إذا كان الواحد منهم يمتلك هذا "التفوق" حقيقة، لما وجد صعوبة في أن يجد أفرادًا على أتم استعداد للتشكيك في هذا "التفوق". إن هذا أمر لا يمكن تجنبه، فلا يمكن إجبار أي فرد على الاعتراف بـ"التفوق" لشخص آخر، وكل ما يتبقى هو حكم الفرد الغامض وغير المؤكد عن نفسه، ومن الصعب أن نتواصل بزملائنا في البشرية، أو نتمكن من تحقيق أي نجاح عندما يكون لنا مثل هذا الأسلوب في الحياة، وفي اللعبة السابقة فإن الكل يخرج خاسرًا، لأن المشتركين

فى هذه اللعبة يكون الواحد منهم معرضًا دائمًا للهجوم والتدمير، لأن عليه أن يؤدى ذلك الدور الفظيع، وهو أن يظهر بمظهر الماهر المتفوق طوال الوقت.

ولكن الأمر مختلف تمامًا عندما تكون سمعة الفرد مبنية على خدماته التى يقدمها للآخرين، فعندها يصبح الشرف - بالنسبة له - مسألة طبيعية، وعندما يعارضه الآخرون، فإن معارضتهم تكون قليلة القيمة، وسرعان ما يستعيد هذا الفرد شرفه لأنه لم يبن كل شىء على غروره وخيلائه (أى أنه لم يبنه على أشياء فارغة وباطلة)، والفارق هنا هو ذلك الموقف الأنانى المتبجح Egotistical attitude الذى يتبناه الفرد لأن هذا الموقف يصبح العامل المحدد الذى يدفعه لأن يبحث دائمًا عما يرفع ويعظم من شخصيته. إن الفرد المغرور يركز على التوقعات، على عكس الفرد الذى يتميز بشعور اجتماعى متطور، والذى يسأل دائمًا: "ما الذى يمكننى أن أفعله وأسهم به؟"، وسنرى على الفور الفوارق الضخمة بين الشخصيتين وبين قيمة كل منهما.

وهكذا فإننا سنصل إلى وجهة نظر قد فهمها الناس منذ قرون عديدة، وقد شرحها الإنجيل عندما قال: "إنه من الأفضل أن نعطى أكثر من أن نأخذ"، وإذا تأملنا فى معنى هذه الكلمات - والتى خرجت كتعبير عن خبرة طويلة بالطبيعة البشرية استمرت لآلاف السنين - فإننا سنرى "الموقف" attitude و"الشعور" Feeling المقترن بالعطاء هو الذى تم التركيز عليه هنا. إن الاستعداد للعطاء يساعد الفرد على الشعور بتناغم وتوافق نفسى يعوضه عما أعطاه، فهذا الاستعداد للعطاء هو مثل "ذهب الآلهة" فى الأسطورة، والذى يعود إلى الفرد فى كل مرة يمنحه فيها.

ومن ناحية أخرى فإن الفرد المولع بالاكتناز يكون عادة غير راض عن حياته لأنه يكون مشغولاً بأفكار مثل: "إنه يجب أن أنجز المزيد، وأمتلك أشياء أكثر حتى أكون سعيدًا"، إن الفرد المكتنز - والذى لا يأخذ فى الاعتبار أبدًا حاجات الآخرين وما هو ضرورى بالنسبة لهم، والذى يسعد عندما يصاب فرد آخر بكارثة - لا مكان فى عالمه العقلى (تفكيره) للتوافق مع الحياة وقبولها، لأنه يطالب الآخرين بالاستسلام غير المشروط للقوانين التى وضعها هو من خلال غروره وأنانيته، فهذا الفرد يطالب بسعادة مختلفة عما يسعد الآخرين، وطريقة فى التفكير والشعور مختلفة عنهم، وعدم قناعته ورضاه هو أمر مكروه مثله فى ذلك مثل باقى خصائصه الشخصية.

وهناك صور أخرى - أكثر بدائية - للغرور، يمكننا أن نجدها فى مثل هذا الفرد الذى يرتدى ملابسه بطريقة منافية للذوق السليم، أو بشعور خـاص بأهميتـه (فهو كمن يستعرض ملابسه، وهى الطريقة نفسها التى يستخدمها الشخص البـدائى عندما يضع ريشة فوق رأسه عندما يصل إلى مرتبة معينة فى قبيلته، وهناك العديد من الأفراد الذين يجدون الرضا فى أن يظهروا دائمًا بملابس جميلة توافق أحـدث خطوط الموضة، والأشياء المختلفة التى يرتدونها تكون معيارًا لغرورهم، وأحيانـا ما يتم التعبير عن هذا الغرور من خلال الوشم أو ارتداء الشعارات المثيرة.

إن أمثال هذه الحالات تجعلنا نشعر أن هذا الفرد يسعى سعيًا حثيثًا لأن يترك انطباعًا طيبًا، ولكنه عجز عن استخدام أى طريقة إلا اللجوء إلـى هـذه الطريقـة الجريئة الوقحة. إن السلوك الوقح يعطى الانطباع بأن صـاحبه يشـعر بعظمتـه وتفوقه، أو أنه قاس وعنيد، أو يحب الانعزالية حتى يتمكن من الاحتفاظ بالمشـاعر السابقة (كلها أو بعضها)، وفى الحقيقة فإن هذا الفرد قد يكـون أكثـر حسـاسية ورقة، وأنه يتظاهر فقط بهذا المظهر، وفى البعض الآخر، فإننا نجد نوعًا من التبلد الظاهرى، وفى الحقيقة فإنه يخفى موقفًا عدوانيا من المجتمع، والفرد الذى يدفعـه هذا النوع من الغرور - والذى يرغب فى أن يلعب دور المنتصر - يشعر بالإهانة عندما يحاول بعضهم أن يلجأ إلى محاولة إثارة المشاعر النبيلة داخله. إن مثل هذه المحاولة تتسبب فى أن يتمادى الفرد فى مواقفه العنيدة، ولقد رأيت حالات حـاول فيها الوالدان أن يعالجا الطفل عن طريق الادعاء بأن سلوك الطفل قد تسـبب فـى أذية الوالدين، وفى بعض هذه الحالات، فإن الطفل تملكه شعور بالتفوق لأنه تمكن من أن يؤذى أحدهما.

ولقد لاحظنا من قبل أن الغرور يحب أن يتخفى وراء أقنعة عديدة، والفـرد المغرور - الذى يحب التحكم فى الآخرين - يجب عليه أولاً أن يتمكن منهم حتى يستطيع أن يربط الآخرين به، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بأن نخدع بالمظهر اللطيف الودود لمثل هؤلاء الأفراد، كما أنه يجب علينا أن نؤمن بأن أمثال هذا الفرد ما هم إلا أعداء مهاجمون لا يبحثون إلا عن نصر رخـيص ليسـاعدهم على الاستمرار فى الإيمان بـ"التفوق" الشخصى، وأولى مراحل هذه المعركة: هى إقناع الشخص الآخر بحسن نواياه، وبالتالى فإنه يتمكن مـن أن يسـتدرجه نحـو الشعور بالأمان، وخلال هذه المرحلة الأولى، فإن الشخص الآخر يكـون قـد تـم

إقناعه بأن ذلك العدو المهاجم ممتلئ بالشعور الاجتماعى، فى المرحلة الثانية: فإنه يكشف عن نواياه ويظهر خطأ هذه القناعة السابقة، فإن مثل هـذا الفـرد (العـدو المهاجم) دائمًا ما يصيبنا بخيبة الأمل، ويمكننا أن نقول إن مثـل هـذا الفـرد ذو وجهين، وفى الحقيقة فإنه ذو وجه واحد فقط، وأن هذا الوجـه اللطيـف الـودود (الوجه الثانى) لم يكن موجودًا أبدًا.

وطريقة الاقتراب من الآخرين تكون - بالنسبة له مثل الرياضة، فهو يذهب لـ"صيد" الأصدقاء، وتكون هناك علامات واضحة لإخلاصه، فإن مثل هذا الفـرد يتكلم بدفء وحنان عن البشرية جمعاء، ويظهر الكثير من الحب نحو الآخرين فى أفعاله، ولكنه يفعل هذا من خلال محاولات واضحة للفت الأنظار نحوه حتى إنـه يمكن للشخص الذى يعرف الطبيعة البشرية أن يخمن حقيقة مقاصده، وذات مـرة فإن أحد علماء علم النفس الإجرامى الإيطاليين قد قال:

"عندما يتصرف الفرد بطريقة غاية فى الطيبة والصلاح، وعندما تتسم أفعاله بمحاولات سمجة للفت النظر نحو أفعاله الصالحة، فإنه يجب علينا أن نحترس".

وعلينا أن نكون حذرين فى تطبيقنا لوجهة النظر السابقة، رغم أنها تحمـل الكثير من الصدق فى طياتها.

وعلى وجه العموم فإنه يمكن القول بأنه من السهل التعرف على أفراد النوع السابق، فإن التملق الزائد عن الحد يكون مزعجًا وغير مريح لأى شخص، ويجب أن نحترس ونبحث عن الغرض الحقيقى المختفى وراء هذا التملق، ورغم أن هناك ميلاً لأن ننصح الطموحين بعدم اتباع هذا الأسلوب، فإنه من الأفضل اختيار طريقة أكثر كفاءة ولياقة.

وفى النهاية أحب أن أذكر حالة أخرى سوف توضح الجوانب المختلفة التى سبق لنا وأن ناقشناها، كما أنها تعطينا فهمًا أفضل لإحدى الظـواهر التـى يلعـب الغرور الدور الرئيسى فيها، ألا وهى "الجنوح[*] Delinquency"، فى هذه الحالة، فإن هناك أخًا وأختًا، وكان الأخ هو الأصغر سنا، كما أنه كان يعتبر غير موهوب، أما الأخت فإنها تمكنت من تربية سمعة بأنها شديدة الذكاء والقدرة، وعندما أصـبح

(*) الجنوح: وهى نزعة نفسية إلى الانحراف وانتهاك القانون، ويطلق هذا التعبير - غالبًا - على صـغار السن (من هم أقل من سن الخامسة عشرة). (المترجم)

الأخ الأصغر عاجزًا عن اللحاق بأخته ومنافستها، فإنه أصيب بالإحباط واستسلم، وأصبح مجرد خيال في خلفية المسرح الذي احتقرته أخته، ورغم أن الجميع كانوا يحاولون تمهيد الطريق أمامه وتذليل الصعوبات، كان العبء شديد الثقل على كتفيه، لأنه اعترف بأنه لا يصلح لأي شيء، لقد تعلم - في مرحلة مبكرة جدا من طفولته - أن أخته ستتمكن دائمًا من التغلب على مشاكل الحياة بسهولة، وأن كل ما يصلح له هو الأشياء عديمة الأهمية، وبسبب تفوق أخته فإن الآخرين قد نسبوا إليه الكثير من العجز، والذي كان في الحقيقة غير موجود على وجه الإطلاق.

نشأ الطفل في هذا الجو، وعندما حان الوقت ذهب إلى المدرسة، وهناك اتخذ موقفًا متشائمًا، وكان يميل لمحاولة إخفاء عجزه بأي ثمن، وبمرور السنين بدأت رغبة جديدة في الظهور، فقد بدأ يكره محاولات إجباره على أن يلعب دور الطفل عديم الذكاء، وأصبح راغبًا في أن يعامله الآخرون كما يعاملون أي شخص بالغ طبيعي، عندما وصل إلى سن الرابعة عشرة كان عادة ما يختلط مع البالغين، ولكن شعوره العميق بالنقص كان يزعجه، وجعله يبحث عن طرق تمكنه من أن يلعب دور البالغ الرشيد بكفاءة.

ولكنه وقع في خطأ مصاحبة بنات الليل والعاهرات، وأصبح ينفق كل نقوده عليهن، ولكن رغبته الشديدة في أن يلعب دور البالغ الرشيد منعته أن يسأل والده عن مزيد من النقود، ولهذا فإنه بدأ يسرق من والده، ولم تكن هذه السرقات تضايقه على الإطلاق لأنه قد شعر بأن له كل الحق في الحصول على نقود أبيه، وقد استمر في هذا السلوك حتى أصبح موقفه في المدرسة شديد السوء، وعرضه للفصل النهائي، إن مثل هذا الفشل كان يمكن أن يكون دليلاً على نقص قدراته، وكما سبق وقلنا فإنه كان يحاول إخفاء عجزه مهما كان الثمن.

كان هذا هو الوقت الذي بدأ فيه هذا الصبي الصغير في الشعور فجأة بتأنيب الضمير، حتى إنه أصبح عاجزًا عن الدراسة الآن، فإن وضعه قد تحسن لأنه إذا فشل فإنه يستطيع أن يلوم فشله على ضميره الحي الذي تسبب في عجزه عن الاستمرار في الدراسة، أي أنه كان شهيدًا لحساسيته الشديدة، وأي شخص في وضعه كان سيعاني القدر نفسه من الفشل، كانت عدم قدرته على التركيز هي العائق الذي منعه من العمل وأجبره على التفكير في أشياء أخرى، فقد كان اليوم بطوله يضيع بهذه الطريقة السابقة، وعندما يأتي الليل فإنه كان يذهب إلى النوم وقد

خلف الانطباع بأنه قد بذل كل ما فى جهده، وكانت الأحداث التالية عاملاً مساعدًا مكنه من أن يلعب هذا الدور بإتقان.

فقد كان عليه أن يستيقظ مبكرًا، وبالطبع فإنه كان متعبًا فى الصباح الباكر، ولم يستطيع أن يركز فيما يقوم به من أعمال، وبالتأكيد لم يكن هناك من يتوقع منه أن ينافس أخته، ومن الناحية الظاهرية فإن نقص قدراته لم يكن السبب فى وضعه الدراسى السيئ، ولكن ضميره الحى وحساسيته الشديدة هما اللذان تسببا فى هذا الوضع، أى أنه قد وصل أخيرًا إلى وضع مكنه من أن يسلح نفسه من كل الجوانب، ولم يعد هناك ما يؤذيه، فإنه إذا فشل فإن لديه ظروفا مخففة، ولن يتمكن أى شخص من أن يدعى نقص قدراته، وإذا نجح فإنه بهذا يكون قد أثبت خطأ الجميع فى اعتقادهم السابق.

إننى عندما أرى الفرد يستخدم أمثال هذه الحيل، فإننى أكون واثقًا من أن الغرور يختفى خلف كل هذا، وفى هذه الحالة فإنه يمكننا أن نرى إلى أى مدى يمكن للفرد أن يخاطر بكشف نفسه - حتى أخطار ارتكاب جريمة السرقة - حتى يتمكن من تجنب انكشاف ادعاءات (حتى ولو كانت غير صحيحة) عن نقص قدراته الشخصية ومواهبه. إن الطموح والغرور هما السبب فى ظهور مثل هذه التعقيدات والذرائع فى الحياة، فهما السبب فى تدمير الصراحة والسعادة الحقيقية والمباهج التى يفترض وجودها فى الحياة.

رغبة الفرد فى الاعتقاد بألوهيته:

لقد تعلمنا جميعًا الكثير عن "الطبيعة البشرية" من الأساطير، ومن خصائص هذه الأساطير أنها تعطينا أمثلة للخطر الفظيع الذى يمثله "الغرور"، ودعنا ندرس أحد هذه الأساطير التى توضح كيف أن الغرور يقود بطريقة تلقائية إلى تدمير شخصية الفرد. إنها قصة "إناء الخل" عن H. C. Anderson، وفى هذه القصة فإن هناك صياد فقير يعيش فى كوخ صغير، وذات يوم عندما يصطاد سمكة فإنها تطلب منه أن يطلق سراحها، وفى مقابل هذا فإن السمكة تعده بأن تحقق له أمنية واحدة، ويطلب الصياد أن يكون له بيت جميل، وفى الحال تتحقق الأمنية، ولكن زوجته تظل غير راضية عن هذه الأمنية المتواضعة، وتطالبه بأن يغير

أمنيته ويطالب بقلعة بدلاً من البيت الجميل، ويتكرر هذا النمط عدة مـرات، وفـي كل مرة فإن الزوجة ترسل الصياد الفقير ليطالب السمكة بتغيير الأمنيـة، فتصـبح دوقة ثم ملكة ثم إلهة، وهذا الطلب الأخير يغضب السمكة أشد الغضب حتى إنهـا تذهب بعيدًا تاركة إياهما في كوخهما الصغير.

إن الغرور والطموح لا حدود لهما، ويمكننـا أن نـرى - فـي الأسـاطير وخيالات الفرد المغرور - أن السعي الحثيث للحصول على المزيد من القوة يستمر في التزايد حتى يصبح رغبة في أن يأخذ الفرد دور الإله ذاته، فإن الفرد المغرور كثيرًا ما يتصرف كما لو كان يعتقد أنه إله، أو على الأقل شيء مشـابه لـه فـي صورته، أو يعبر عن رغبات وأمانٍ لا يمكن إلا للآلهة أن تنفذها. إن هذه الظاهرة (محاولة التشبه بالآلهة) ما هي إلا ميل مبالغ فيه متواجد في جميع نشاطات الفـرد المغرور، وينتهي به الحال في أن يرغب في أن يصـور نفسـه خـارج حـدود شخصيته وإمكانياتها.

وهناك الكثير من الأمثلة لمثل هذا الميل المبالغ فيه، وعلى سبيل المثال فإننا إذا درسنا مجموعة كبيرة من الأفراد المهتمين بالمسائل الروحية والدراسات النفسية والتخاطب عن بعد، فإن هؤلاء الأفراد يتكونون من أناس يرغب الواحد منهم بشدة في أن ينمو خارج حدود الشخصية الإنسانية العادية وإمكانياتها، ويحاول أن يصل إلى قوة غير عادية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتمكنه من الاتصـال بـأرواح وأشباح الموتى.

وإذا ما درسنا هذا الموضوع عن قرب، فإننا سنجد أن جـزءًا كبيـرًا مـن البشر يميل إلى هذا الاتجاه، وهو اتجاه البحث عن مكان يسمح للفـرد بـأن يعلـو بنفسه ويقربها من يمين الله، ومازال هناك عدد مـن المـدارس يكـون غرضـها التعليمي المثالي هو التشبه بالإله في صفاته، وفي الماضي كان هـذا النـوع مـن البحث المثالي هو الهدف المباشر والـ"واعي" لجميع أنواع التعليم الديني، ويمكننـا أن نرى النتائج المرعبة لهذا التعليم الخاطئ في وقتنا الحالي، ولهذا فإن علينـا أن نبحث عن مثاليات معقولة وأكثر منطقية، ولكن من المفهوم أن هذا الميـل عميـق جدا في كل أفراد الجنس البشري، وجزء كبير من الأفراد يحصـل علـى فهمـه الأولى لـ"الطبيعة البشرية" من خلال العبارات المشهورة الموجودة فـي الكتـاب المقدس، والتي أعلنت أن الإنسان قد خلق على هيئة الله.

يمكننا أن نتخيل النتائج المترتبة على هذه الفكرة، وما تتركه من آثار في روح الطفل الغضة، والكتاب المقدس عمل مدهش يمكننا أن نقرأه المرة بعد الأخرى، وأن نعجب بالبصيرة النافذة التي تميزت بها كلماته، ولكن لا يجوز أن يحدث هذا إلا بعد أن تتضح قدراتنا على الحكم، ولكن دعنا نتوقف عن تعليم الطفل هذه الأفكار دون التعليق عليها وتوضيح المقصود منها، فإنه من الواجب علينا أن نعلم الطفل أن يكون سعيدًا وقانعًا بحياته الحالية دون حاجة لافتراض وجود قوى سحرية تطالب بأن يكون الجميع خاضعًا لها؛ لأننا قد خلقنا على هيئة الله.

أيضًا فإن أسطورة اليوتوبيا(*) شديدة القرب من هذا العطش الشديد للتشبه بالآلهة عندما يتمكن الجميع من تحقيق أحلامهم، إن الطفل نادرًا ما يعتمد على الحقائق الموجودة في هذه العوالم الخيالية، ولكن إذا لاحظنا أن الطفل يهتم كثيرًا بالسحر، فإن هذا لا يدع مجالاً للشك في تأثير هذه العوالم الخيالية الشديد عليه

وكيف أنه من السهل عليه أن يغرق حتى أذنيه في عالم الأحلام الجامحة Fantasies فإن فكرة القوة لها سحرها وبريقها، والإيمان بتأثير السحر على الآخرين موجود بدرجة كبيرة في البعض، ولا يزول هذا التأثير حتى يصل الواحد منهم إلى عمر متقدم جدا.

ومن ناحية أخرى فإن كل واحد منا يحمل في داخله – بدرجات متفاوتة – بعض الأفكار التي تحمل طابع التفاؤل – أو التشاؤم – بمجموعة معينة من الأشياء أو الأحداث "Superstitious thoughts" أو ما يسمى بـ"الفأل"، وهناك الكثير من الرجال الذين يتصرف الواحد منهم كما لو كان يعتقد أنه قد تعرض للتأثير السحري لشريكة حياته. إن هذا الاعتقاد بالغيبيات وبـ"الفأل" يذكرنا بتلك الأيام الخوالي عندما كانت هذه الاعتقادات راسخة في قوة إيمان الفرد بعقيدته، تلك الأيام التي كانت فيها المرأة معرضة للاتهام بأنها "ساحرة Witch"، وهي جريمة عقوبتها الحرق حيا، وكانت هذه الخرافات منتشرة في جميع أنحاء أوروبا وأثرت على تاريخ تلك الحقبة لعشرات السنين، وسقطت ملايين النساء ضحايا لهذا الوهم، ولهذا لا يمكن الادعاء بأنه كان خطأ بسيطا، بل إننا يجب أن نقارن بين تأثير الاعتقادات الحالية بـ"الفأل"، والمذابح التي حدثت في خلال محاكم التفتيش والحروب العالمية.

(*) قصة للفيلسوف "توماس مور" تخيل فيها قيام مجتمع مثالي فوق أحد جزر الكاريبي.

هناك أيضًا تلك المحاولات التى يبذلها الفرد لإرضاء غروره من خلال استغلال الدين والعقيدة الدينية، ففى خلال صراع الفرد وسعيه الحثيث نحو محاولة التشبه بالإله قد يستغل الفرد "الدين" والتدين، ولعلنا جميعًا لاحظنا مدى أهمية العزلة بالنسبة للفرد الذى عانى من مرض عقلى، فإن أمثال هذا الفرد ينسحب الواحد منهم من المجتمع ويبدأ فى مخاطبة إلهه على انفراد. إن هذا الفرد – من خلال استخدام الطريقة السابقة – يعتبر نفسه أكثر قربًا من الله، لأن الإله يصبح أكثر قربًا من خلال ورع عبيده، ومن خلال تلك الطقوس التقليدية الملتزمة، وأن الفرد يكون – بهذه الطريقة – تحت رعاية إلهه. إن هذه المعتقدات تبتعد كل البعد عن تعاليم الدين الحقيقية حتى إنها تعطينا الانطباع بأنها ليست إلا تعبيرًا عن مرض نفسى أصاب هذا الفرد، والكثير منا سمع هذا الفرد أو ذاك يقول إنه لا يستطيع النوم إلا إذا قام بأداء بعض الصلوات الخاصة، وأنه إذا لم يؤد هذه الصلوات، فإن هذا قد يتسبب فى ضرر لشخص ما فى مكان ما.

والآن دعنا نحاول فهم هذه الفكرة الواهية. إن هذه الفكرة تعطينا نتيجة منطقية واحدة، فكما قال: "إذا أديت صلاتى، فلن يلحق الضرر بأى شخص". والنتيجة التى نخرج بها هى أن أحدهم قد يتأذى ويتضرر عندما لا يقوم – هذا الفرد – بأداء صلاته، وهكذا فهذه هى بداية الطريق الذى يؤدى بهذا الفرد إلى الإيمان بعظمته، ومن خلال هذه الحيلة الرديئة، فإن الفرد ينجح فى إقناع نفسه بأنه قد تم إنقاذ شخص آخر من الضرر بفضل صلوات هذا الفرد، وفى أحلام اليقظة – لمثل هذا الفرد المتدين بطريقة خاطئة – فإنه يمكننا أن نجد هذا الميل بوضوح، والذى يتجاوز جميع القدرات الطبيعية للبشر، فى هذه الأحلام فإننا سنجد إشارات فارغة، وأعمالاً بطولية غير قادرة على تغيير طبيعة الأشياء، ولكنها تنجح – فى مخيلته – فى أن تبقيه بعيدًا عن العالم الواقعى.

وفى أيامنا هذه فإن هناك شيئًا وحيدًا له قوى سحرية ألا وهو "النقود"، فالكثير من الأفراد يعتقد الواحد منهم بأنه قادر على تحقيق أى شىء يحبه باستخدام "النقود"؛ لهذا فلا عجب فى أن طموحه وغروره قد قاداه لأن يقع فى غرام "النقود" والأشياء المادية، وفى هذا الضوء فإنه يمكن تفهم سعيه الحثيث والدائم لتملك متاع العالم، وبالرغم من أنه قد يبدو لنا أن مثل هذا السعى "مرضٍ"، ومرة أخرى: فإن تكديس "النقود" والممتلكات ما هو إلا صورة من صور الغرور، وبالنسبة للبعض

فإن هذا التكديس يماثل – فى مفعوله – الحصول على القـدرة بمعرفـة الغيبيـات (قدرة العراف)، أحد الرجال الأثرياء كان لديه الكثير من الأموال التـى تكفـى أى شخص عادى، ولكنه استمر فى البحث عن المزيد حتى إنه قد اعترف ذات مرة – بعد أن أصيب بمرض نفسى – قائلاً:

"نعم فإن النقود لها سلطان لا يقاوم على أفعالى، وهى تجذبنى دائمًا نحوهـا المرة بعد الأخرى".

إن هذا الرجل قد فهم مشكلته حق الفهم، ولكن هناك الكثيرين غيره الذين لا يجرءون على محاولة تفهم المشكلة، وفى أيامنا هذه فإن الاسـتحواذ علـى القـوة مرتبط بشدة بامتلاك "النقود" والممتلكات، والسعى الحثيث من أجل الحصول عليهما يبدو طبيعيا فى حضارتنا الحالية، حتى إنه لا يوجد من يهتم بالحقيقة التى تقول بأن "الفرد الذى يمضى حياته فى تكديس الأموال، فإنما يفعـل هـذا بسـبب رغبتـه المغرورة فى التشبه بالآلهة".

الغيرة:

إن الغيرة أحد خصائص الشخصية، وهى ميزة مثيرة للاهتمام، وهذا لأنهـا شائعة بين الكثير من الأفراد، والغيرة ليست مقصورة على العلاقـات الغراميـة، ولكن هناك أيضًا غيرة فى جميع العلاقات الإنسانية، ففى مرحلة الطفولة فإننا نجد الطفل الذى يصاب بالغيرة خلال محاولاته لتحقيق "التفوق"، وأمثـال هـذا الطفـل يمكن للواحد منهم أن يصبح شديد الطموح بطريقة مبالغ فيها، وهاتـان الميزتـان (الغيرة والطموح) تكشفان عن موقف هذا الفرد الهجومى من العالم، فـإن الغيـرة هى رفيق الطموح الذى يمكن أن يظل معه طوال الحياة، والغيرة تنشأ من شـعور الفرد بأنه مهمل، وبأن الآخرين يتحيزون ضده.

ومعظم الأطفال يعانون من الغيرة، خاصة الغيرة من الأشقاء الأصغر سنا، فبسبب حاجة الأخ الأصغر (أو الأخت) إلى المزيد من العناية، فإن الطفل الأكبـر يشعر بأنه كالملك المخلوع، لأنه كان ينعم – قبل وصول أخيه الأصغر – بـالعش الدافئ وحده وبكل الحب الموجود لدى أبويه، وهذا يجعله شديد الغيرة، وهذه هـى

حالة فتاة ارتكبت ثلاث جرائم قتل قبل أن تصل إلى سن الثامنة، وهذه الحالة توضح لنا المدى الذى يمكن أن يصل إليه الإنسان الذى يشعر بالغيرة، حتى ولو كان لا يزال طفلاً.

إن هذه الفتاة الصغيرة كانت متخلفة إلى حد ما، وقد منعها أبويها من القيام بالكثير من النشاطات القوية لأنها كانت رقيقة جدا، وبسبب هذه المعاملة فإنها قد وجدت نفسها فى وضع جيد، ولكن هذا الوضع الجيد لم يستمر طويلاً لأنها عندما بلغت السادسة من عمرها، فإنه قد أصبح هناك من ينافسها، لقد ولدت لها أخت صغيرة، وتغيرت شخصيتها تمامًا، وبدأت تضطهد القادمة الجديدة بكراهية لا ترحم، وكان الوالدان عاجزين عن فهم سلوكها هذا، ولهذا فإنهما أصبحا شديدى التزمت والقسوة معها، محاولين إفهامها خطأ اتباع مثل هذا السلوك.

وفى يوم من الأيام تم اكتشاف جثة فتاة صغيرة فى إحدى القنوات الصغيرة التى تخترق القرية التى تعيش فيها هذه العائلة، وبعد فترة وجيزة تم اكتشاف جثة أخرى غارقة لفتاة صغيرة، وأخيرًا فإنهم أمسكوا بها وهى تحاول أن تلقى بطفلة ثالثة فى المياه، ولقد اعترفت بجرائمها السابقة، وتم وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية لمراقبتها، وأخيرًا تم وضعها فى أحد المعاهد الإصلاحية.

إن غيرة هذه الفتاة من أختها الصغيرة قد تحولت إلى كراهية شملت كل الأطفال الصغار، ولكننا لاحظنا أنها لا تكره الأطفال الذكور، وفيما يبدو أنها كانت ترى أختها الصغرى فى كل واحدة من ضحاياها التى قتلتهن، ومن خلال هذه الجرائم، فإنها قد حاولت أن تنتقم من الإهمال الذى اعتقدت أنها كانت تعانى منه.

إن الظواهر والأشكال التى تظهر بها الغيرة تحدث كثيرًا عندما يكون هناك إخوة أو أخوات، وفى حضارتنا الحالية فإن مصير الفتاة الصغيرة ليس مغريًا، فهى تشعر بالإحباط عندما يولد لها أخ أصغر منها، ثم يعامله الجميع بحماس وبطريقة فيها الكثير من الاحترام وأفضل من الطريقة التى عوملت هى بها، ويزداد هذا الإحباط عندما ترى العناية العظيمة والميزات التى تعطى له، والتى حرمت هى منها.

إن مثل هذا الجو يسمح بسهولة لظهور المشاعر العدوانية والكراهية فى مثل هذه العلاقة، ومن الشائع أن الأخت الكبرى تكون محبة وتعامل أخاها الأصغر

بأمومة، ولكن من الناحية النفسية فإن هذا لا يختلف كثيرًا عن الحالة السابقة لتلك الفتاة الصغيرة القائلة، فعندما تأخذ الأخت الكبرى موقف الأمومة من الطفل الأصغر، فإنها عن طريق هذا تكون قد استعادت "وضع القوة" الذى يسمح لها أن تتصرف كيفما شاءت. إن هذه الحيلة البارعة قد مكنتها من خلق مصدر جديد للقوة مكنها من الخروج من هذا الموقف الخطير.

والمبالغة فى التنافس بين الإخوة (أو الأخوات) هو واحد من أهم الأسباب التى تؤدى إلى الغيرة، فإن الفتاة قد تشعر بأنها مهملة، ومن ثم فإنها ربما تبدأ فى السعى باستمرار للتغلب على أخيها، وكنتيجة لهذا فإنها قد تنجح – غالبًا – فى زيادة المسافة بينها وبين أخيها، ونحن نعلم أن الطبيعة تكون إلى جانبها (لأن الفتاة تنمو وتتطور – عقليا وجسديا – بسرعة أكبر خاصة فى فترة البلوغ)، مما يمكنها من تحقيق هدفها، وإن كانت تلك الفجوة الفسيولوجية تتلاشى مع مرور الزمن.

إن الغيرة مثلها مثل بروتس Proteus فى الأساطير، يمكنها أن تأخذ آلاف الأشكال والصور، ويمكننا أن نتعرف عليها فى "عدم الثقة"، وفى الطريقة التى ننصب بها الفخاخ للآخرين، وفى محاولاتنا لقياس وتقدير الآخرين، وفى الخوف الدائم من أن نتعرض للإهمال، وظهور إحدى الصور السابقة يعتمد تمامًا على الطريقة التى تم بها إعداد الفرد للحياة الاجتماعية، وأحد صور الغيرة هى " تدمير الذات Self - destruction"، كما أنه يمكن التعبير عن الغيرة فى صورة "عناد" قوى، أيضًا فإن إفساد متعة الآخرين، والاعتراض الدائم غير المبرر والخالى من أى منطق، ووضع قيود على حرية الآخرين ومحاولة إخضاعهم، كلها من صور "الغيرة".

كما سبق وقلنا، فإن محاولة الفرد لإعطاء الآخرين مجموعة من الأوامر والنواهى بغرض التحكم فى سلوكهم هى واحدة من أحب الطرق للشخص الغيور، وأحد الأمثلة المعروفة عندما يحاول الفرد تقييد والديه بسلاسل الحب، أو عندما يبنى حوائط وأسوارًا حول من يحبهم، أو عندما يحاول أن يحدد ما الذى يجب أن يروه أو يفعلوه أو يفكروا فيه، أيضًا فإنه يمكن استخدام الغيرة فى تحقير وتوبيخ الآخرين. إن الشخص الغيور يستخدم الغيرة فى حرمان الآخرين من حقهم فى الاختيار الحر، وفى سجنهم، وتقييدهم إليه.

ويمكننا أن نرى وصفًا رائعًا لهذا النوع من السلوك فى قصة دوستوفيسكى "نيتوشكا نيسيفانوفا"، عندما تمكن الزوج الغيور من قمع زوجته طوال حياتها، وبهذا تمكن من السيطرة والهيمنة عليها. إن هذه القصة قد عرضت لنا بوضوح أن الغيرة ما هى إلا شكل من أشكال السعى الحثيث نحو إحراز "التفوق".

الحسد:

إننا نعلم أنه عندما يكون هناك سعى حثيث لإحراز القوة والسيطرة، فإنه يكون هناك قدر من الحسد أيضًا. إن الفجوة – بين الفرد وبين هدفه الذى لا يستطيع الوصول إليه – يتم التعبير عنها فى صورة عقدة نقص، وهذه العقدة تسبب للفرد الكثير من الكبت والقمع، وتؤثر على سلوكه العام كثيرًا وموقفه من الحياة، وهذا الموقف هو الذى يعطينا الانطباع أنه أبعد ما يكون عن هدفه، وانطباعنا هذا يتأكد من خلال تقدير الفرد لنفسه، وعدم اقتناعه بحياته وعدم رضاه عنها، فهو يمضى وقته فى النظر إلى الآخرين وإلى حجم نجاحهم وإنجازاتهم، وهو يشغل نفسه بالتفكير فيما يظنه الآخرون به، فهو ضحية شعوره بالإهمال، وبأن الآخرين يتحيزون ضده، رغم أن هذا الفرد – فى الواقع – قد يكون أسعد حظا من غيره.

إن الصور المختلفة للشعور بالإهمال ما هى إلا علامات على شعور شديد بالغيرة، والرغبة فى الحصول على ما هو أكثر مما فى يد الغير، أو ببساطة أن يمتلك فى يديه "كل شىء"، لكن الشخص الحسود من النوع الذى لا يقول إنه يرغب فى أن يمتلك كل شىء لأن مشاعره الاجتماعية تمنعه من التفكير فى هذه الأفكار، ولكنه يتصرف كما لو كان يرغب فى امتلاك "كل شىء".

إن الشعور بالحسد يتزايد كرد فعل لاستمرار الفرد فى المقارنة بين إنجازاته وإنجازات الآخرين، وهذا لا يساعد الفرد على أن يكون سعيدًا، وحيث إن الشعور الاجتماعى هو شعور عالمى، فإن هذا يجعل من الحسد أمرًا مكروهًا عالميا، ومع هذا فإنه لا يوجد من يخلو من الحسد تمامًا، فعندما تجرى الحياة بهدوء وسلاسة، فإن الحسد قد لا يكون ظاهرًا بوضوح، ولكن عندما يكون الناس فى ألم أو يشعرون بالقمع والكبت، أو تنقصهم النقود، أو الملابس والغذاء، أو أيا من احتياجات البشر الضرورية عندما يفقدون الأمل فى المستقبل ويرون أنه لا يوجد مخرج من هذا الوضع التعيس، فإن الحسد يبدأ فى الظهور.

إن حضارتنا مازالت فى مراحلها الأولى، ورغم أن الأديان والمبادئ عمومًا تحرم الحسد، فإننا لم نصل إلى مرحلة النضوج النفسى التى تمكننا من التخلص منه، ويمكن أن نتفهم الحسد الذى يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء، ويمكننى القول بأن الأغنياء سوف يشعرون بالحسد أيضًا، إذا كانوا فى الموقف نفسه، وكل ما أبغى قوله هنا هو: إنه يجب أخذ الحسد فى الاعتبار كعامل مؤثر فى "النفس البشرية Human psyche"، والحقيقة أن الحسد يظهر فى الأفراد أو الجماعات بمجرد أن يظهر ما يقيد ويحد من نشاطات هؤلاء الأفراد أو المجموعات بصورة كبيرة، وعندما يظهر الحسد فى أسوء صوره، فإننا لن نتمكن من التخلص منه أو من الكراهية المصاحبة له، وهناك شىء واحد واضح بشدة لكل فرد فى مجتمعنا ألا وهو أنه لا يجوز أبدًا اختيار تلك الميول التى تتصف بالحسد، أو العمل على إثارتها، كما أنه لا يجوز أن نحاول التركيز على أى مظهر من مظاهر الحسد، أو جذب الانتباه نحوه، ورغم أن هذا الأسلوب لا يساعد كثيرًا على تحسين الأمور، وعلى أى حال فإن أقل ما يجب أن نطالب به الفرد هو: "ألا يتعمد أن يتباهى بممتلكاته وبتفوقه على الآخرين، لأنه قد يتسبب فى أن يؤذى شعورهم بلا داعٍ".

إن الأصل الذى تتبع منه هذه الخاصية الشخصية (الحسد) يعكس الارتباط الذى لا ينفصم بين الفرد والمجتمع، فلا يوجد أى فرد يستطيع أن يرفع نفسه فوق المجتمع، أو أن يُظهر قوته وسيطرته على الآخرين بدون أن يتسبب - فى الوقت نفسه- فى أن يتعالى السخط والاعتراض من جانب هؤلاء الذين لا يرغبون فى السماح له بمواصلة نجاحاته، وعندما حاولت الدعوة إلى تطبيق المقاييس السابقة، فإنما كنت أحاول أن أمنع الحسد وأن أحقق المساواة بين الجميع، ومن المنطقى أن نصل إلى الاستنتاج الذى شعرنا به غريزيا، ألا وهو: "أن هناك قانونا طبيعيا يساوى بين البشر جميعًا، وأن هذا القانون لا يمكن مخالفته بدون أن ينتج - عن هذه المخالفة - معارضة وخلافات كثيرة". إن هذا القانون واحد من القوانين الأساسية التى تحكم المجتمع البشرى.

ويمكن التعرف بسهولة على مظاهر الحسد، حتى إنه يمكننا أن نرى هذه الدلائل بوضوح فى ملامحه الجسدية، فنحن نتكلم ونصف الشخص الحسود - فى أمثالنا العامية - بأنه قد تحول إلى اللون الأخضر(*) من كثرة حسده للآخرين

(*) فى اللغة الإنجليزية "Green - eyed monster"، أو "He's green with envy" أو "He turned green" & أما فى الألمانية "Er ist grün von neid"، وكلها تشير إلى الشحوب (أو التغير فى لون بشرة الوجه) الذى يحدث للحاسد. (المترجم)

وهناك منطق نفسى سليم خلف هذه التعبيرات الشعبية، فإنها تلمح لأن الحسد يـؤثر على الدورة الدموية، ومن هذا فإن الجسد البشرى قد عبر عن الحسد عن طريـق زيادة فى انقباض مُحيط الشـعيرات الدموية.

حيث إنه لا يمكننا أن نقضى على الحسد قضاءً تاما، فإنه يجـب علينـا أن نستخدمه لصالحنا، ويتم هذا إذا ما وجهنا هذه الطاقة الضائعة (الحسد) فـى اتجـاه مفيد، وبدون الإخلال بالتوازن النفسى لهذا الفرد، وهذا ينطبق على الفـرد وعلـى الجماعات أيضًا، فى حالة الفرد فإنه يمكننا أن نقترح على الفرد أن يختار وظيفـة ترفع من احترامه لذاته وثقته بقدراته، وأما فى حالة الجماعات فإننا كثيرًا ما نجـد – فى حياة الأمم – بلادًا تشعر أنها مهملة وتحسد جيرانها الأكثر تقـدمًا ورخـاءً، ويجب علينا أن نساعد هذه الدول على أن تنمى وتطور مواردها المادية والبشرية، وأن نساعدهم على أن يحتلوا مكانهم المهم بين دول العالم.

إنه لا يمكن لأى شخص جسود طوال حياته أن يكون عضـوًا نافعًـا فـى المجتمع، فإن الفرد الحسود مهتم فقط بأن يأخذ الأشياء مـن الآخـرين ويحـرمهم منها، لأنه يشعر بأنه – عندما يحرمهم منها – يحط من قدرهم، وفى الوقت نفسـه فإنه يميل إلى خلق الأعذار لفشله فى الوصول إلى هدفه عن طريق أن يلقى باللوم فى هذا الفشل على الآخرين، وأمثال هذا الفرد يكون الواحد منهم محاربًا لا يمـل، ولا يعطى "الصداقة" أى قيمة، ولا يهتم بأن يسهم فى رخاء الآخرين، وحيث إنه لا يتعاطف مع موقف غيره من الناس، فإنه لا يتفهم "الطبيعة البشرية" ولا يتعامل مع البشر بالطريقة السليمة، ورغم أن أفعاله تتسبب فى الكثير من الضرر للآخـرين، فإن هذا لا يؤثر فيه على الإطلاق، فإن الحسـد يقود صاحبه لأن يتشـفى ويبتهج بمصائب الآخرين.

الطمع:

إن الطمع له علاقة قوية بالحسد وغالبًا ما نجدهما معًـا إذا كـان أحـدهم متواجدًا فى الفرد، ونحن هنا نتكلم عن الطمع الذى يظهر من خلال تكديس الأموال بكل الطرق الممكنة، وهناك نوع آخر من الطمع أكثر شيوعًا يُظهر نفسه من خلال التردد وعدم الاستعداد لإسعاد الآخرين. إن مثل هذا الفرد يكون جشعًا وبخيلاً فـى

موقفه Avaricious attitude نحو المجتمع والآخرين، وأمثال هذا الفرد يبنى الواحد منهم سورًا عاليًا حول نفسه حتى يحافظ على كنوزه الحقيرة فى مأمن، وكما قلنا سابقًا فإن هناك علاقة قوية بين الطمع والحسد، وهذه العلاقة تمتد لتشمل الطموح والغرور أيضًا، ونحن لا نبالغ عندما نقول إن "كل" هذه الخصائص الشخصية يمكن أن تكون موجودة - عند الفرد - فى الوقت نفسه، ونحن فى غير حاجة للكثير من البصيرة النفسية لكى نقرر أنه عندما تكون إحدى هذه الخصائص الشخصية موجودة، فإن باقى الخصائص تكون موجودة معها أيضًا.

وكل فرد منا لديه بعض الجشع، وأحسن ما يمكن أن يفعله الفرد العادى هو أن يحجبها أو يخفيها خلف قناع من المبالغة فى الكرم الأجوف، والذى ما هو إلا طريقة - يستخدمها هذا الفرد الطماع - لتدعيم احترامه لذاته وثقته بنفسه على حساب الآخرين.

وفى بعض الأحيان قد يبدو أن الجشع والبخل صفتان قيمتان، وعلى سبيل المثال فإنه يمكننا باستخدام الجشع والبخل أن نقتصد فى الوقت والجهد المبذول، وبهذه الطريقة فإننا قد نتمكن من إنجاز شىء مفيد، وفى وقتنا الحالى فإن هناك تقليدًا شائعًا لمحاولة استخدام الوقت بأفضل الطرق، ويطالب هذا التقليد بأن نقتصد ونوفر وقتنا وجهدنا لأفضل استخدام ممكن لهما، ويبدو هذا كإجراء حكيم من الناحية النظرية، ولكن الواقع شىء مختلف تمامًا، فإننا نجد أن هدف بعض الأفراد فى إحراز "التفوق" والمزيد من القوة هو الذى يستفيد من هذا الإجراء. إن هذا الإجراء يستغل أسوء استغلال لأنه يوجه نحو محاولة تحويل ووضع العبء والمسئوليات على أكتاف الآخرين، وهذا النشاط - مثله مثل غيره من النشاطات - لا يمكن الحكم عليه إلا من خلال فائدته للمجتمع فقط، ولقد أصبحت معاملة الإنسان كآلة سمة من سمات عصر التكنولوجيا الذى نعيشه الآن، فإن الإنسان يعامل معاملة الماكينات التى لا تحس ولا تشعر، ويُتوقع منه أن ينفذ كل الأوامر وأن يتبع كل القوانين بالطاعة الآلية نفسها التى تؤدى بها الماكينة دورها، ولكن الإنسان يختلف كثيرًا عن الآلة، ومعاملته بهذه الطريقة تقود إلى العزلة والوحدة، وتؤدى إلى تحطيم العلاقات الإنسانية وزوالها.

ولهذا فإنه من الأفضل للجميع أن نحاول التكيف حتى يمكننا أن نعطى ونمنح بدلاً من أن ندخر ونكتنز، وإذا ما حاولنا جميعًا أن نطبق هذه القاعدة،

وأبقينا الصالح العام كهدف رئيسى، فإننا لن نبتعد كثيرًا عن الطريق الصحيح.

وهناك أمر آخر متعلق بما سبق، فإن الناس فى عالم الأعمال والتجارة لا يهتمون كثيرًا برخاء وصالح منافسيهم، كما أنهم لا يهتمون أيضًا بالشعور الاجتماعى الذى نعتبره جميعًا ضروريا جدا، والواقع العملى هو أن هناك بعض طرق التعامل – فى عالم التجارة والمال – التى تقضى بأن تفوق الفرد لا يكون نتيجة إلا لخسارة فرد آخر، كما أن القانون يساعد على انتشار هذا السلوك السابق لأنه لا يعاقب من يتبعه، بالرغم من توافر عامل "التعمد" وعامل "سوء النية Malicious intention". إن كل الممارسات السابقة تتسبب فى تسميم الجو الاجتماعى، وفى قتل الشعور الاجتماعى بين البشر.

وحتى إذا سلمت النية، فإنه تحت ضغط عالم الأعمال – الذى لا يعرف الرحمة – فإن الفرد سيحاول حماية نفسه بقدر الإمكان، وكثيرًا ما يتغاضى الناس عن الحقيقة التى تقول: "إن هذه الحماية الشخصية – التى يوفرها لنفسه – تكون على حساب الأذى الذى يتعرض له الآخرون"، ولقد ذكرت هذه النقطة لأنها توضح الصعوبات التى يواجهها الشعور الاجتماعى تحت ضغط التنافس بين رجال الأعمال، إنه من الواجب علينا أن نجد حلا لهذه المشكلة حتى يكون تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع فى اتجاه تحقيق الصالح العام أسهل، والواقع أن روح الإنسانية كانت دائمًا تعمل فى هذا الاتجاه من أجل خلق وضع أفضل، إن علم النفس يجب أن يتعاون فى هذه المهمة أيضًا عن طريق دراسة هذه التغيرات بغرض فهم العلاقات القائمة بين رجال الأعمال والتجارة وفهم ما يجرى داخل عقولهم، والكيفية التى يفكرون بها، وبهذه الطريقة فإنه يمكننا أن نعرف ما هى أحسن وسيلة تحقق صالح الفرد والمجتمع.

الكراهية:

إن الكراهية كثيرًا ما تقترن بالفرد ذى الطبيعة العدوانية الهجومية، فإن أمثال هذا الفرد يميل الواحد منهم نحو الكراهية – وكثيرًا ما تظهر هذه الكراهية فى مراحل مبكرة من الطفولة – وقد تصل إلى مستوى مرتفع جدا حتى إنه يصاب بـ" نوبات غضب Temper tantrums " أو قد تظهر بصورة أخف فى شكل تذمر

دائم وسوء نية متعمد، والدرجة التى يمكن أن يصل إليها الفرد فى كراهيته أو تذمره الدائم تعتبر مؤشرًا جيدًا على شخصيته، لأنها تخبرنا الكثير عنه، لأن الكراهية وسوء النية تترك أثرها الذى لا يمحى على الشخصية.

إن الكراهية توجه نفسها فى اتجاهات مختلفة، فهى قد تتوجه نحو المهام التى يجب علينا أن ننجزها، كأن تكون ضد فرد معين أو ضد دولة من الدول، أو ضد طبقة من الطبقات، أو ضد جنس Race من الأجناس، أو "ضد الجنس الآخر The other sex "، فإن الكراهية لا تظهر نفسها دائمًا بطريقة واضحة مثل الغرور، فإن الكراهية تحب أن تتخفى، وتعرف كيف تظهر فى صور متخفية مثل موقف ناقد بطريقة عامة Generally critical attitude، كما أنه يمكننا أن نرى الكراهية فى الطريقة التى يرفض بها الفرد كل الفرص - التى تقدم له - لإقامة علاقات وصلات مع الآخرين، وفى بعض الأحيان فإن قدرة الفرد على الكراهية تتكشف بطريقة مفاجئة، وقد حدث هذا فى حالة أحد المرضى، والذى تم إعفاؤه من الخدمة العسكرية، فلقد أخبرنى هذا المريض كيف أنه كان يستمتع بقراءة التقارير التى تصف عمليات القتل الفظيعة والمذابح التى حدثت للآخرين.

كذلك فإن الجريمة ما هى إلا طريقة يظهر بها الفرد كراهيته، وإذا كانت هذه الكراهية فى صورة خفيفة، فإنها يمكن أن تلعب دورًا رئيسيا فى حياتنا الاجتماعية، وهذا لأنها تظهر فى صورة لا تكون مخيفة أو مهينة لأحد، و"بغض الجنس البشرى Misanthropy " ما هو إلا صورة أخرى من صور الكراهية التى تعبر عن درجة عظيمة من العدوانية الموجودة فى البشر فى صورة مقنعة، حتى إن هناك مدارس فلسفية ممتلئة بالعدوانية و"بغض الجنس البشرى" إلى درجة فظة، فهى عنف عشوائى سافر وقسوة لا مبرر لها، وفى بعض الأحيان فإننا نرى الكراهية - عندما يسقط القناع عنها - تظهر بوضوح فى قصة حياة الكثير من المشاهير، ومن غير المهم أن نفكر كثيرًا فى مصداقية العبارة السابقة، وإنما المهم هو أن نتذكر أن الكراهية قد توجد فى الفنان الذى يكون فى حاجة لأن يظل قريبًا من البشر حتى يكون إنتاجه الفنى معبرًا وذا قيمة.

إن الكراهية لها الكثير من النتائج الخطيرة المترتبة عليها، ويمكننا أن نجد هذه النتائج فى كل مكان، ولكنه ليس الوقت المناسب لمناقشة كل هذه النتائج المترتبة على الكراهية، وعلى سبيل المثال فإن بعض الوظائف لا يمكن اختيارها

بدون أن يكون الفرد له هذا "الموقف المبغض للجنس البشـــرى Misanthropic attitude"، وهذا لا يعنى بالطبع أن الكراهية هى الشرط الأساسى وأحد المتطلبات - المفترض توافرها - من أجل الحصول على مثل هذه الوظائف، بل إن العكـس هو الصحيح، وعلى سـبيل المثال فإنه فى اللحظة نفسها التى يكون فيها الفـرد - ذو الميول العدوانية - قد قرر أن يتخذ من العسكرية مهنة له، فـإن كـل ميولـه الهجومية وعدوانيته تكون موجهة نحو تشكيل ذاته - مـن الناحيـة الظاهريـة - بحيث يتناسب مع هذا المخطط الاجتماعى، وهذا يحدث لأن عليه أن يتكيـف مـع هذه المنظمة الجديدة التى انضم إليها، وأن يتعاون مع الآخـرين الـذين اختـاروا المهنة نفسها.

وهناك مسألة مهمة تتخفى فيها الكراهية والمشاعر العدائية بطريقـة جيـدة جدا، وهذه المسألة هى: الإهمال الجسـيم Criminal negligence. إن الإهمـال الجسيم تجاه الآخرين وممتلكاتهم يظهر ويتميز من خلال حقيقة مهمة، ألا وهى أن الفرد المهمل لا ينتبه لكل هذه الاعتبارات التى يحترمها الفرد الذى يتمتع بشـعور اجتماعى طبيعى. إن الجوانب القانونية لهذه المسألة قد تسببت فى مناقشات طويلة، ولكنها لم تصل إلى حل مرض لأى طرف، ومن الواضح أن جميع الأفعال التـى تصنف على أنها "إهمال جسيم" تختلف فى الكثير من نواحيها عما يصنف على أنه "جريمة"، وعلى سبيل المثال فإننا إذا وضعنا أصيص زرع علـى حافـة النافـذة بإهمال حتى إن أقل اهتزاز يمكن أن يتسبب فى سقوطه على رأس المـارة، فـإن الفعل السابق يختلف تمامًا عن القيام بإسـقاطه عن عمد على رأس أحدهم، ولكـن ما سبق لا ينفى أن سلوك الفرد الذى يتميز بالإهمال الجسيم قوى الصلة بالجريمة، كما أنه يعتبر قرينة جديدة ومفتاحًا يمكننا من فهم البشر.

ومن وجهة نظر القانون فإن الحقيقة السابقة - والتى تقـول: إن الإهمـال الجسيم هو أفعال تمت عن غير قصد وبدون تعمد واعٍ من الفرد - تجعل القـانون يعتبرها ظرفًا مخففًا يدعو إلى استخدام الرأفة، ومما لا شك فيه أن العمل العدوانى غير الواعى مبنى على أساس الدرجة نفسها من العدوانية والكراهية التى بنى عليها العمل العدوانى الواعى، وعندما نراقب الأطفال وهم يلعبون، فإنه يمكننا أن نـرى بعضهم لا يأخذ فى الاعتبار ولا ينتبه لأمان الآخرين، ومن هذه الملاحظة يمكننـا أن نستنتج أن أمثال هؤلاء الأطفال يكون الواحد منهم غير ودود نحـو زملائـه،

ولكن يجب أن ننتظر حتى نحصل على المزيد من الأدلة التى تؤيد هذا الاستنتاج، وعندما نجد أنه فى كل مرة يشترك فيها طفل محدد فى اللعب مع زملائه، فإن المتاعب تحدث ويصاب واحد من الأطفال - أو أكثر - بالأذى، فإننا عندها نكون مجبرين على الاعتراف بأن هذا الطفل غير حريص على سلامة زملائه فى اللعب، وأن أمانهم شيء لا يعنيه.

إن الإهمال منتشر بين العائلات، وفى المدارس، وغيرها، ويمكننا أن نجده فى معظم مؤسساتنا، وبين الحين والآخر فإننا نجد هؤلاء - الأفراد المتهمين بالإهمال الجسيم - مذكورين فى عناوين الصحف الرئيسية، وبالطبع فإن إهمالهم هذا لا يمر دون عقاب، وسلوك الفرد المهمل تكون له - دائمًا - نتائج سيئة بالنسبة له، ولكن أحيانًا ما يتأخر هذا العقاب وتلك النتائج السيئة حتى إن هذا الفرد لا يستطيع أن يرى الصلة بين إهماله والنتائج السيئة التى ترتبت على هذا الإهمال، وحيث إن هذا الفرد لا يستطيع فهم العلاقة التى تربط بين إهماله الجسيم، وبين النتائج المترتبة بسبب طول الفترة الزمنية التى قد تفصل بينهما؛ لهذا فإننا كثيرًا ما نراه يشكو من المصائب التى لحقت به عن غير استحقاق، ومن ناحية أخرى فإن المصير السيئ الذى يلحق بهذا الفرد يمكن أن يكون نتيجة لأن الآخرين لم يعودوا قادرين على تحمل إهماله المستمر، ومن ثم فإنهم قد يئسوا منه، وبدأوا يتجنبونه ويتجنبون صحبته.

ومن وجهة نظرى فأنا أعتقد أننا عندما ندرس "الإهمال الجسيم" عن قرب، فإننا سنجد أنه ما هو إلا تعبير عن كراهية هذا الفرد للآخرين وعدم حبه لهم، وعلى سبيل المثال فإن هناك الكثير من السائقين الذين يتجاوز الواحد منهم حدود السرعة المقررة، ويتسبب بهذا فى الكثير من الأذى لغيره، وإن أمثال هذا السائق يلتمسون الأعذار المختلفة مثل: الإرهاق، أو وجوب الحفاظ على مواعيد مهمة، أو غيرها من الأعذار الواهية، وهذه الأعذار تمكننا من أن نفهم أن مثل هذا السائق يعطى لشئونه الشخصية أهمية أكبر من أهمية "حياة" الآخرين، وأن هذا هو ما يجعله يتجاهل الأخطار التى يعرض الآخرين لها بسلوكه المهمل. إن التباين الشديد بين اهتمامات الفرد الشخصية، وبين أمان ورخاء المجتمع يعطينا مؤشرًا قويا على عدوانية - مثل هذا الفرد - للجنس البشرى.

ميزات الشخصية غير الهجومية

إن المميزات والخصائص الشخصية – التى تميز الشخص غير العدوانى بطريقة مباشرة نحو المجتمع، ولكنها تعطى الانطباع بميله نحو "العزلة الوحشية"(*) – يمكن تصنيفها ضمن "الخصائص الشخصية للإنسان غير الهجومى - Non - aggressive human character traits"، ولأول وهلة فإن تيار العدوانية يبدو وكأنه قد اتخذ مجرى فرعيا، ونحن هنا نتعامل مع أفراد لن يحاول الواحد منهم أن يؤذى أى شخص، ولكنه ينسحب من المجتمع، ويتجنب أى صلات بالآخرين، كما أنه يفشل – بسبب عزلته – فى التعاون مع زملائه فى الجنس البشرى، وحيث إن مهام الحياة تتطلب التعاون من الجميع، فإن الفرد الذى يعزل نفسه عن الآخرين يكون موضع شكهم فى أنه هو الآخر "عدوانيا" مثله فى ذلك مثل الشخص العدوانى الذى يواجه المجتمع فى حرب مباشرة وكراهية معلنة، وهناك الكثير من الأبحاث التى يمكن إجراؤها فى هذا الموضوع، وسوف ندرس – بالتفصيل – العديد من الجوانب البارزة لهذا الموضوع، ولكن الخاصية الأولى التى يجب أخذها فى الاعتبار هى الانسحاب.

الانسحاب:

إن الانسحاب – أو العزلة – يأخذ أشكالاً عديدة، فإن الفرد الذى ينسحب من المجتمع لا يتكلم كثيرًا – فى بعض الأحيان، لا يتكلم على الإطلاق – وهو لا ينظر إلى عيون الآخرين عندما يتحدث إليهم، كما أنه لا يصغى باهتمام عندما يحدثه الآخرون، وحتى فى أبسط العلاقات الاجتماعية فإنه يظهر نوعًا من البرود يُجبر الآخرين على تجنبه والابتعاد عنه. إن هذا البرود يكون ظاهرًا فى كل أفعاله

(*) أى مثل عزلة "الوحوش" التى لا تعرف الحياة الاجتماعية وحياة الذئب – على سبيل المثال – نموذج لهذه العزلة الوحشية. (المترجم)

وفى تصرفاته وأخلاقه فى الطريقة التى يصافح الآخرين بها فى نبرة صوته، فــى الطريقة التى يحيى بها الآخرين، أو يرفض تحيتهم، إنه يبدو – فى كل إشارة يقوم بها – كما لو كان يرغب فى أن ينأى بنفسه عن بقية العالم المحيط به.

إن كل الآليات السابقة تهدف إلى عزل الفرد لنفسه عن المجتمع، وفى كـل واحد منها فإننا نجد الطموح والغرور متخفيًا تحت السطح الظاهر للجميع. إن هـذا الفرد يحاول أن يرفع نفسه فوق الآخرين عن طريق التركيـز علـى الاختلافـات الموجودة بينه وبين باقى المجتمع، ولكن أقصى ما يمكن – لمثل هذا الفـرد – أن يحصل عليه هو مجد غير حقيقى (متخيل). إن هذه العدوانية والرغبة الدائمة فـى الشجار تكون واضحة فى موقف أمثال هذا الفرد، والذى يبدو لأول وهلة كما لـو كان موقفًا غير ضار Harmless attitude.

إن "العزلة" يمكن أيضًا أن تكون خاصية منتشرة بين مجموعـات كبيـرة، وكلنا يعرف أن هناك عائلات بأكملها لا ترغب فى الاختلاط بغيرها، وأنها تكـون مغلقة بإحكام فى وجه أى محاولات خارجية للتقرب منها. إن عدوانيـة وغـرور أمثال هذه العائلات تتمثل بوضوح فى اعتقادهم بأنهم أحسـن وأكثـر نـبلاً مـن الآخرين، إن "العزلة" يمكن أن تكون – أيضًا – خاصية مميزة لطبقة من الطبقـات أو دين من الأديان أو جنس من الأجناس، أو حتى لمـدن أو دول بأكملهـا، وفـى بعض الأحيان يمكنك – إذا ما ترجلت داخل مدينة غريبة – أن تـرى التصـرفات التى لا تتسم بالود من كل سكان هذه المدينة، وكيف أنه حتى فى بنائهم لمنازلهم قد عزلوا طبقة اجتماعية كاملة عن باقى سكان المدينة.

إن هناك ميلاً عميقًا فى حضاراتنا يسمح للبشر بأن يعزلوا أنفسهم، وينقسموا إلى أوطان وعقائد وطبقات مختلفة ومتناحرة، ويمكننا أن نرى هذا التناحر معبـرًا عنه بوضوح شديد من خلال العادات والتقاليد العقيمة، والتـى لا يكـون لهـا إلا أسـوء النتائج، كما أنها تمكن بعض الأفراد من أن يستغلوا عوامل الخلاف الكامنة لإحداث الوقيعة بين الجماعات المختلفة حتى يتمكنـوا مـن إرضـاء غـرورهم الشخصى. إن أمثال هذا الفرد يعتبر الواحد منهم نفسه مميزًا، ويعطى لنفسه قيمـة أكثر مما يستحقها، وغالبًا ما يكون شغله الشاغل هـو محاولـة إظهـار عيـوب الآخرين.

إن تلك الفئة التى تعمل بجد واجتهاد مركزة على الخلافات الموجودة بين الطبقات، أو الأمم إنما تفعل هذا من أجل إرضاء غرورها الذاتى فى المقام الأول، وإذا ما حلت المصائب والكوارث، فإن هذه الفئة ترفض أن يوجه لها اللوم بسبب إثارة المتاعب إن هذه الفئة يعانى أفرادها من الشعور بعدم الأمان، وتلك المحاولات الدائمة لإثارة المتاعب ما هى إلا محاولة للشعور بـ"التفوق" والاستقلال على حساب الآخرين. إن العزلة التى يفرضونها على أنفسهم فى عالمهم الضئيل ما هى إلا مصيرهم المؤسف، ولا داعى للقول بأنهم غير قادرين على إحراز التقدم أو المساهمة فى حضارتنا لأن هذا – قد أصبح – من الأمور الواضحة.

القلق:

إن الأشخاص الذين يتميزون بـ"بغضهم للجنس البشرى Misanthropists" يتميزون أيضًا بـ"القلق"، فإن القلق خاصية شديدة الانتشار، وتصاحب الفرد منذ مرحلة مبكرة جدا من طفولته وتبقى معه حتى يصل إلى شيخوخته، ويتسبب "القلق" فى انتشار المرارة فى حياته لأبعد الحدود، كما أنه يبعده عن كل الصلات الإنسانية ويدمر أمله فى بناء حياة مسالمة أو تقديم مساهمة مفيدة للعالم. إن القلق – وما يصاحبه من خوف – يمكن أن يؤثر على كل النشاطات الإنسانية، فنحن يمكن أن نخاف من العالم الخارجى، أو من العالم الداخلى على حدا سواء.

وربما تتجنب إحدى السيدات مجتمعها لأنها تخاف منه، وفى حالة أخرى فإن السيدة قد تتجنبه بسبب خوفها من الوحدة، ومن بين هذه الفئة من الأشخاص القلقين فإننا سنجد تلك المجموعة من الأفراد التى تظن بنفسها الكثير، ويهتم الواحد منهم بنفسه أكثر من اهتمامه بزملائه من البشر، وفى اللحظة نفسها التى يتبنى فيها الفرد وجهة النظر القائلة: "إن صعوبات الحياة يجب تجنبها"، فإنه يكون كمن وجه دعوة لـ"القلق" لأن يسيطر على حياته، وما أن يدخل "القلق" إلى حياة الفرد حتى يعمل على تأكيد صحة وجهة النظر السابقة، وهناك الكثير من الناس الذين يكون رد فعل الواحد منهم نحو أى جديد فى الحياة هو "القلق"، وطبيعة هذا الشىء الجديد غير مهمة، فإنه قد يكون الانتقال من منزل إلى آخر، أو الانفصال عن صديق، أو

البدء فى وظيفة جديدة، أو الوقوع فى الحب. إن أمثال هذا الفرد يكون الواحد منهم مقطوع الصلة بالحياة ومن فيها حتى إن أى تغيير فى أى وضع من الأوضاع يكون مصحوبًا بالخوف.

إن نمو وتطور شخصية هذا الفرد وقدرته على المساهمة فى رخاء المجتمع تكون مقيدة ومحدودة بسبب الوجود الدائم لـ"القلق"، وعلينا هنا أن نوضح أن "القلق" لا يعنى بالضرورة الارتجاف والهروب من كل موقف، وإنما يمكن أن يظهر عندما يجر الفرد قدميه (يتعامل ببطء شديد) مع المشكلة التى تواجهه، أو يتردد فى معالجة وضع من الأوضاع، أو يبحث عن الأعذار والمبررات التى تمكنه من تجنب التعامل مع هذه المشكلة أو هذا الوضع، وغالبًا ما يكون - هذا الفرد الخائف - غير واعٍ أن هذا الموقف القلق Anxious attitude يسارع إلى الظهور فى كل مرة يظهر فيها وضعًا جديدًا أو مشكلة مختلفة.

ومن المثير أننا نجد الكثير من الناس الذين يفكرون فى الماضى، أو فى الموت، ونجد الواحد منهم يعيش فى هذا الماضى - بصفة مستمرة - مما يجعله يتميز بعدم الجرأة أو الإقدام، ولهذا فإن التفكير الدائم فى الماضى ليس إلا أحد الوسائل الشائعة لتقييد الذات وتحديد حجم حركتها. إن الخوف من الموت أو المرض ما هو إلا خاصية تقليدية تميز الأفراد الذين يبحثون عن مبرر لتجنب القيام بالواجبات الملقاة على عاتقهم، وسنجد أن الواحد منهم يصيح بأعلى صوته بأن الحياة فانية، وأنها شديدة القصر، وأنه لا يوجد من يعلم بما سيحدث فى المستقبل، وكما رأينا من قبل فإن هذا الفرد سيحاول تجنب أى اختبارات لأنه يخاف على كرامته من أن تجرح إذا ما انكشفت قيمته الحقيقية من خلال هذه الاختبارات.

هناك اعتقادات لها تأثير مشابه جدا لما سبق مثل الجنة والحياة الأخرى، لأن الفرد الذى يكون هدفه الحقيقى هو الوصول إلى الحياة الأخرى، فإن حياتنا الدنيوية فى هذا العالم تكون بالنسبة له صراعًا جانبيا لا أهمية له ولا علاقة له بهدفه الحقيقى، ولكنه - مثله مثل الآخرين - يظل محتفظًا بالهدف نفسه والسعى نفسه نحو "التفوق" على الآخرين، كما أن الاعتزاز المفرط بالكرامة والطموح الزائد هما السبب فى أنه يكون غير مجهز وغير مستعد - بدرجة كافية - لمواجهة الحياة.

ويمكننا أن نجد فى بعض الأطفال الكثير من "القلق" فى أول صوره وأكثرها بدائية، فإن الطفل يكون منزعجًا بشدة عندما يترك بمفرده، وحتى عندما ينجح فى إجبار أحدهم على الحضور، فإنه يكون غير راضٍ، بل إنه يظل مشغولاً بمحاولاته لاستخدام قوته، فإن الأم - عندما تترك الطفل القلق وحده - سرعان ما تجد نفسها تعود إليه بسبب قلقه الظاهر، وهذا الفعل فى حد ذاته يشير إلى أن الطفل مهتما بالضغط على الأم حتى تبقى فى خدمته دائمًا، وهذا علامة على أن الطفل لم يطور أى إمكانيات للاعتماد على نفسه، ولكنه على العكس قد اكتسب هذه العادة - من خلال التربية الخاطئة - فى أن يطالب الآخرين بتقديم الخدمات له.

إن التعبيرات عن هذا "القلق" الطفولى معروفة عالميا، وهذه التعبيرات تزداد وضوحًا فى فترة الليل لأن فترة الظلام هذه تقطع الطفل عن بقية العالم، ولهذا فإن صراخه القلق يصله بالعالم مرة أخرى، فهو - بهذه الطريقة - لم يعد وحيدًا أو منسيا، وعندما يسارع أحدهم إليه، فإنه يكون سعيدًا لأنه قد تمكن من استخدام قوته، وعندها قد يطالب بأن يظل النور مضاءً، أو يطالب ببقاء هذا الشخص إلى جانبه، أو أن يلاعبه..إلخ، وطالما استطاع أن يحصل على تحقيق كامل لكل رغباته، فإن هذا "القلق" سوف يتبدد، ولكن إذا شعر بأن "تفوقه" مهدد، فإن "القلق" سيعاوده فى الحال، وعلى هذا فإن "القلق" هنا لا يستخدم إلا لتقوية موقف الطفل.

وهناك ظاهرة مشابهة لما سبق فى حياة البالغين، فهناك بعض الأفراد الذين لا يحب الواحد منهم الخروج بمفرده، ويمكننا التعرف على مثل هذا الفرد فى الشارع عندما نرى إشارته وتعبيراته القلقة التى تملأ وجهه، وبعض الناس لا يحب الواحد منهم أن يتحرك من مكان إلى آخر، والبعض الآخر يجرى فى الشارع كما لو كان هناك من يطارده، وبعضنا قابل هذا النمط من الأفراد، فإن الواحد منهم قد يسألنا أن نساعده فى عبور الشارع. إن هذا الفرد ليس عاجزًا، بل إنه يستطيع الحركة بسهولة، وهو فى أتم الصحة، ولكنه - فى مواجهة صعوبة بسيطة مثل عبور الشارع - يجد نفسه وقد تملكه "القلق" والخوف حتى إنه أصبح فى حالة عجز، رأحيانا فإن القلق وعدم الشعور بالأمان قد يتملكان هذا الفرد بمجرد خروجه من منزله.

إن فوبيا الأماكن المفتوحة Agoraphobia هى ظاهرة مثيرة للاهتمام، لأن الشخص الذى يعانى منها لا يستطيع أن يتخلص من شعوره بالخوف، ومن أنه

ضحية لاضطهاد ظالم، فهو يؤمن بأن هناك ما يميزه عن الآخرين، كذلك فإن الخوف من السقوط - والذى يعتبر مؤشرًا على أن الفرد يظن بنفسه الرفعة والامتياز، وأنه أحسن من الآخرين - ما هو إلا أحد الأعراض التى تدل على تبنى الفرد لمثل هذا الموقف، وفى كل أشكال الخوف المرضى يمكننا رؤية الهدف نفسه فى الحصول على القوة و"التفوق".

إن "القلق" يعتبر - بالنسبة لكثير من الناس - آلية واضحة متاحة يمكن استخدامها لإجبار الآخرين على أن يظلوا بقرب الفرد القلق ولإجبارهم أيضًا على الاستمرار فى العناية به، وفى ظل هذه الظروف فإنه يكون من غير الممكن لأى فرد أن يترك الغرفة - بزعم أن حالة القلق سوف تعاود هذا الفرد إذا ما تركوه - وعلى الجميع أن يبقوا حوله، وبهذه الطريقة فإن قلق فرد واحد يمكن أن يؤثر على العديد من الأشخاص، وعندما يأتى الجميع إليه فإن هذا يعنى بالتبعية أنه لا يجوز له الذهاب إلى أى شخص، وهكذا فإنه يصبح الآمر الناهى.

إن الطريقة الوحيدة لهزيمة الخوف و"القلق" هى أن نعمل على تقوية الروابط التى تربطنا بزملائنا فى البشرية، فعندما يكون الفرد واعيًا بأنه ينتمى إلى الجنس البشرى، فإنه يكون قادرًا على الاستمرار فى الحياة بدون "القلق".

والآن دعنى أضيف أحد الأمثلة المثيرة، والتى حدثت بعد الحرب العالمية، ففى أيام الثورة النمساوية (١٩١٨) فإن عددًا لا بأس به من المرضى أعلنوا عدم قدرتهم على الذهاب إلى الاستشارة، وعندما تم سؤالهم عن السبب فإنهم قالوا:

"إن الأوقات الحالية تتميز بالقلق وعدم الاستقرار، ولا يمكن للفرد أن يتنبأ بنوع الأشخاص الذين سوف يقابلهم، فإذا ارتديت ملابس أحسن من ملابس الآخرين، فلا يعلم إلا الله ما الذى يمكن أن يحدث لى".

لا شك فى أن هذه الأوقات كانت صعبة جدا ومع ذلك فإنه أمر مثير للاهتمام أن هناك فئة معينة من الأفراد هى التى تبنت المقولة السابقة، فلماذا يا ترى اقتصر هذا الرأى على فئة معينة من الناس؟، وأنا لا أعتقد أن هذا قد حدث بالمصادفة، فإن خوف هذه الفئة لم يكن إلا نتيجة لأنها لم تكن لها أى صلات قوية بزملائهم من البشر، ولهذا فإن هذه الفئة شعرت بعدم الأمان فى ظل ظروف عدم الاستقرار السياسى السائدة، بينما الآخرون - والذين شعروا بأنهم ينتمون حقيقة

إلى المجتمع - فإن الواحد منهم لم يشعر بأى قلق، واستمر فى ممارسة حياته بالطريقة التى اعتادها.

الجبن أو نقص الثقة بالنفس:

إن "الجبن" ما هو إلا صورة مخففة من القلق، ولكنه - مثله مثل القلق - ميزة من المميزات غير المرغوب فيها، وما سبق وقلناه عن القلق ينطبق أيضًا على الجبن، وأيا كانت طبيعة العلاقات - التى يجد الطفل الجبان نفسه فيها - فإن جبنه وعدم ثقته بنفسه يُمكنه من تجنب جميع أشكال التواصل، أو يتسبب فى تحطيمها عندما تكتمل. إن مشاعر الدونية، وإحساسه بأنه مختلف عن الآخرين يمنعانه من أن يجد أى متعة فى صلاته الجديدة مع الآخرين.

إن الجبن هو خاصية يتميز بها الفرد الذى يشعر بأن كل المهام التى تواجهه بالغة الصعوبة، فهو ينتمى إلى تلك الفئة التى لا تثق فى قدرتها على إنجاز أى شىء، ويمكن القول بأن هذه الخاصية تظهر بوضوح من خلال الحركة البطيئة والتردد فى خوض التجارب، أو حتى محاولة الاقتراب منها. الفرد الذى يتشاغل بأعمال أخرى - بدعوى أنها عاجلة مثلاً - عندما يكون من المفروض عليه أن يركز كل مجهوداته على مواجهة إحدى المشاكل ينتمى إلى هذه الفئة. إن مثل هذا الفرد يكتشف فجأة أن المهنة التى اختارها لا تناسبه، أو يختلق عيوبًا واعتراضات سخيفة تمنعه من الاستمرار فى ممارستها، وحتى بصرف النظر عن الحركات البطيئة فإن الجبن يظهر أيضًا فى انشغال الفرد بالأمن والأمان، كما أن نشاطاته تكون موجهة نحو محاولة تجنب المسئولية.

إن علم النفس الفردى قد أطلق على مجموعة الأسئلة والاستفهامات المحيطة بهذه الظاهرة المنتشرة بطريقة غير عادية اسم "مشكلة المسافة Problem of distance"، فقد خلقنا نقطة افتراضية يمكننا عن طريقها أن نحكم على البشر، وأن نُقيم مدى بعدهم عن حل مشكلات الحياة الثلاث الرئيسية، وأولى هذه المشكلات هو الاستفهام الخاص بالمسئوليات الاجتماعية والعلاقات بين الـ"أنا" وبين الـ"آخر"، وخاصة فيما يتعلق بالتساؤل الذى يدرس ما إذا كان - الـ"أنا" والـ"آخر" - قد ساعدا على التواصل بينهما وبين الآخرين فى المجتمع البشرى أم

أنهما قد تسببا فى إعاقة هذا التواصل وتحجيمه، المشكلة الثانية تتعلق باختيار الفرد لمهنة أو وظيفة، والمشكلة الثالثة هى مشكلة الحب والزواج، إن دراسة مدى بُعد البشر عن حلّ هذه المشكلات الثلاثة، يمكننا من الوصول إلى استنتاجات عميقة عن شخصية الفرد محل الدراسة، وفى الوقت نفسه، فإنه يمكننا استخدام المعطيات - التى تم جمعها لهذا الغرض - لتساعدنا على فهم "الطبيعة البشرية".

إن كل أنواع "الجبن" التى وصفناها يمكن أن تكون نتيجة رغبة الفرد لأن يفصل نفسه عن مهام الحياة، وبالرغم من هذا فإن هناك جانبًا مشرقًا لهذه الشخصية التشاؤمية التى وصفناها، ويمكننا أن نفترض أن الفرد قد اختار هذا الوضع التشاؤمى بسبب هذا الجانب المشرق وحده، ويكمن هذا الجانب فى الحقيقة التى تقول: .

"عندما يعالج الفرد مهمة من المهام ويحاول حلها وهو غير مستعد لها، فإنه بهذا تكون لديه ظروف مخففة Extenuating circumstances تمكنه من استغلالها كـ"مبرر" فى حالة فشله، وأن غروره واحترامه لذاته سيبقى سليمًا - دون التعرض لأى إهانات - عندما يستخدم هذه الظروف المخففة".

والفرد - فى هذا الوضع - يكون أكثر أمانًا، فهو مثله مثل البهلوان الذى يمشى على حبل مشدود وهو يشعر باطمئنان لأنه حتى فى حالة سقوطه فإن هناك شبكة منصوبة تحته لتحميه.

ونتيجة لهذا فإنه عندما يفشل فى مهمته بسبب عدم استعداده الكافى لمواجهتها فإنه يحتفظ باحترامه لذاته وثقته بقدراته فى أمان من أن يلحق بهم أى إهانة، فإنه إذا كان قد بدأ فى مواجهة المشكلة فى وقت مناسب، أو إذا كانت لديه استعدادات أفضل، لكان نجاحه مؤكدًا، ولكن الظروف غير المتوقعة - والظروف وحدها، وليس عيب شخصى فيه - هى المسئولة عن هذا الفشل.

أما إذا نجح، فإن نجاحه سيكون أكثر إبهارًا، لأنه عندما يحاول أحدهم أداء المهام الملقاة على عاتقه بضمير حى، فإنه لن يوجد من يعجب أو يدهش من تمكنه من النجاح، لأن هذا النجاح يبدو نتيجة طبيعية، ومن ناحية أخرى فإنه عندما يبدأ الفرد فى مواجهة المشكلة متأخرًا، أو يعالجها بدون الاستعدادات الكافية - ومع هذا يتمكن من حلها - فإنه يظهر وكأنه ذو مواهبَ خاصة، ويراه الناس فى ضوء

مختلف، فقد استطاع أن ينجز بيد واحدة ما كان يتطلب من الآخرين التركيز الكامل واستخدام كلتا اليدين.

متلازمة الطريق الفرعي The detour syndrome

إن ما سبق ما هو إلا أمثلة على الميزات النفسية التي يمكن للفرد أن يحصل عليها من خلال اختياره لطرق فرعية، ومع هذا فإن متلازمة الطريق الفرعي تعكس طموح الفرد وغروره، وتشير إلى حقيقة أن الفرد يحب أن يلعب دور البطولة في نظر نفسه على الأقل، فإن كل نشاطات الفرد تكون موجهة نحو التمجيد الذاتي لنفسه حتى يتمكن من الظهور بمظهر من هو أكثر قوة وأهمية من الآخرين.

والآن دعنا نأخذ في الاعتبار بعض الأفراد الآخرين الذين يرغب الواحد منهم في أن يتجنب مواجهة مشكلات الحياة الثلاث - السابق وصفها - بأي طريقة، وتكون النتيجة أن تبقى هذه المشكلات دون أن يقترب منها على الإطلاق، أو يقترب منها بطريقة مترددة تخلو من الحماس. إن الفرد الذي يلجأ إلى هذه الطرق الفرعية يكون منغمسًا إلى أذنيه في مختلف أنواع التصرفات الغريبة والمختلفة عن السلوك الطبيعي للبشر: مثل الكسل والتغيير الدائم للوظيفة والجرائم الصغيرة وما شابهها، وبعض الأفراد يعبر الواحد منهم عن هذا الموقف من الحياة عن طريق أسلوب تصرفاته، فيكون لديه مشية متعرجة (ملتوية) ومرونة غير عادية في حركاته، ومثل هذا المظهر لا يأتي بالمصادفة، ومن خلال بعض التحفظات فإنه يمكننا أن نقيم هذا الفرد الذي يرغب في تجنب مشكلات الحياة عن طريق محاولة خلق طرق فرعية تدور حولها بدلاً من الدخول في مواجهة مباشرة معها.

وسأعرض الآن حالة حقيقية تظهر بوضوح الخصائص السابقة، وهي حالة رجل قد أظهر بوضوح خيبة أمله في الحياة وملله منها حتى إنه فكر في الانتحار، فلم يكن هناك ما يسعده، وموقفه من الحياة أظهر عدم رغبته فيها، وبعد الكشف عليه اتضح لي أنه أكبر إخوته الثلاثة، وأن والده كان يتمتع بالكثير من الطموح، وأنه شق طريقه في الحياة بطاقة لا تنفد حتى تمكن من إنجاز نجاح ملحوظ، وكان

مريضنا هو الطفل المفضل فى هذه الأسرة، وكان الجميع يتوقعون له أن يقتفى خطوات والده بنجاح. كانت أم الفتى قد توفيت وهو فى سن صغيرة، ولكن كانت له علاقة طبيعية بزوجة أبيه لأن والده كان شديد الحرص عليه وعلى إخوته.

وهذا المريض – مثله مثل الابن الأكبر فى كل أسرة – كان يقدس القوة بلا حدود، وكان كل ما يفعله يدل على موقفه الإمبراطورى Imperial attitude الذى تبناه، وكان من أوائل مدرسته عندما حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وبعد تخرجه فإنه بدأ فى إدارة أعمال والده، وكان يتصرف كشخص محسن وكريم، فكان حلو الحديث مع الجميع، وكانت معاملته للعاملين حسنة، فقد كان يدفع أفضل الأجور، ودائمًا ما كان يستجيب لطلباتهم المعقولة.

ولكن كل هذا تغير بعد الثورة النمساوية فى ١٩١٨، فإنه قد بدأ يشكو بمرارة من سلوك العاملين الفوضوى وطلباتهم التى لا نهاية لها، فإن ما كانوا يرجونه منه فى الماضى قد أصبح الآن مطالب وحقوقًا لهم، وقد سبب له هذا الكثير من المرارة حتى إن فكرة التخلى عن مصنعه قد استحوذت عليه.

وهكذا فإننا رأيناه وهو يستخدم الطريق الفرعى The detour فى الخط الأمامى للقوة، وقد رأينا أنه قد اعتاد أن يكون محسنًا وكريمًا، ولكن عندما اهتزت علاقاته بالعاملين – نفوذه وقوته فى مواجهتهم – فإنه أصبح غير قادر على الاستمرار فى هذه اللعبة، فإن فلسفته كانت تعطل مجريات الأمور فى كل من مصنعه وحياته الشخصية أيضًا، وأنا أعتقد أنى أعرف السبب، فلو أنه كان أقل طموحًا فى محاولته لإثبات أنه السيد المطاع فى كل مكان لتمكن بنجاح من استخدام الأسلوب غير المباشر فى مواجهة مشكلاته، ولكن كانت الهيمنة والسيطرة الشخصية – بالنسبة له – هى كل ما يهم، وحيث إن النمو والتطور المنطقى للعلاقات الاجتماعية والتجارية قد جعل من المستحيل على أى شخص أن يستمر فى ممارسة السيطرة المطلقة والهيمنة الشخصية، فإن مشكلاته قد بدأت فى الظهور، وكنتيجة لهذا فإنه فقد أى متعة كان يجدها فى العمل أو الحياة نفسها، وأصبح لديه ميل واضح للانسحاب، وهذا الميل ما هو إلا احتجاج على المطالبات التى حاول العاملون لديه فرضها عليه كما أنه كان هجومًا عليهم فى الوقت نفسه.

ولكن غروره لم يحمله بعيدًا، لأنه وجد نفسه فى خضم العناصر المتناقضة لهذا الوضع المتفجر، وقد أصبح عاجزًا عن مواكبة التغيرات الحادثة والتكيف

العقلى معها - لأن نموه وتطوره كان أحادى الجانب - بحيث لم يتمكن من وضع خطة جديدة للعمل، ولقد أصبح عاجزًا عن النمو والتطور لأن هدفه الوحيد كان الحصول على القوة وإثبات "التفوق"، وكان هذا هو السبب فى أنه سمح لغروره لأن يصبح الخاصية الرئيسية والمسيطرة على شخصيته.

إذا درسنا العلاقات فى حياة هذا المريض، فإننا سنجد أن مهاراته الاجتماعية كانت غير مناسبة على الإطلاق، فهو قد جمع حوله أولئك الذين اعترفوا له بـ"التفوق" فقط، وأطاعوه طاعة عمياء، وفى الوقت نفسه فإنه كان يتميز بنقده اللاذع، وحيث إنه كان شديد الذكاء فإنه كثيرًا ما كان ينجح فى توجيه ملاحظات جارحة لمن حوله، وهذه السخرية الجارحة قد تسببت فى ابتعاد الكثيرين عنه حتى إنه أصبح بدون أصدقاء حقيقيين، ولكنه عوض عن هذا النقص فى صلاته بالبشر عن طريق الاستمتاع بكل مباهج الحياة الأخرى.

ولكن شخصيته تفككت وتفسخت عندما حاول أن يواجه مشكلة الحب والزواج، ففى مواجهة هذه المشكلة فإنه واجه المصير المتوقع، فإن الحب يطالب بوجود رفقة والتزام من كلا الطرفين، ويرفض الاعتراف أو التعامل مع من يتبنى سلوك التعالى والموقف الإمبراطورى Imperial attitude، وحيث إنه كان يصر دائمًا على أن يبقى زمام الأمور فى يده، فإنه كان عليه أن يختار شريكة حياته بحيث تنصاع هى الأخرى لأوامره، لكن الشخصية المصابة بجنون القوة لن تختار أبدًا فردًا ضعيفًا سهل الانقياد كشريكة للحياة،(*) ولكنه سيبحث عن شخصية قوية، حتى يستطيع أن يغزوها المرة بعد الأخرى، فتبدو كل غزوة وكأنها نصر جديد، وبهذه الطريقة فإن عقليتين متشابهتين فى شدة الهيمنة تكونان منجذبتين نحو بعضهما البعض، ويكون زواجهما سلسلة متصلة من المعارك، وبالفعل فإن

(*) لقد أفرد إبراهام "مازلو" Abraham Maslow دراسة متكاملة أوضح فيها كيف يمكن تقسيم البشر - من حيث رغبتهم للسيطرة - إلى ثلاث مجموعات رئيسية. المجموعة الأولى: تتميز بأنها شديدة الهيمنة High dominance أو الـ "٥ % المسيطرون Dominant five percent " (وهذا لأن "مازلو" قدر حجم هذه الفئة بـ ٥ % من الحجم الكلى للمجتمع)، والمجموعة الثانية: متوسطة فى ميلها نحو الهيمنة dominance.Med، والمجموعة الثالثة: وتضم باقى أفراد المجتمع الذين يتميزون بالانخفاض الشديد فى رغبتهم فى الهيمنة Low dominance، وقد خرجت هذه الدراسة بنتيجة مؤداها: أن كل مجموعة من المجموعات الثلاث لا تنجذب - بطريقة طبيعية - للتزاوج إلا من أفراد ينتمون إلى المجموعة نفسها وبحيث تكون درجة شدة الهيمنة أكبر قليلاً فى الرجل منها فى المرأة داخل المجموعة. (المترجم)

مريضنا قد اختار "امرأة" كانت مشابهة له إلى حد بعيد خاصة في موقفها الإمبراطوري Imperial attitude، وعلى هذا فإن كلا منهما استغل كل فرصة متاحة لمحاولة السيطرة والهيمنة على الآخر، وهكذا فإن التباعد والشقاق قد استحكم بينهما، ولكن أيا منهما لم يجرؤ على مجرد التفكير في الطلاق لأن كلا منهما كان يأمل في تحقيق النصر النهائي ورفض كل منهما الانسحاب من ميدان المعركة (الزواج).

إن حالة مريضنا العقلية قد ظهرت بوضوح من خلال حلم تراءى له في هذه الفترة، لقد حلم المريض بأنه كان يتكلم مع سيدة صغيرة السن كانت تشبه في مظهرها الخادمات حتى إنها كانت تذكره بكاتبة الحسابات التي تعمل في مصنعه، وخلال حديثهما كان يقول لها:

"ولكنكِ تعلمين أنني أنتمي إلى النبلاء".

ومن السهل علينا أن نتفهم الطريقة التي كان يفكر بها عندما رأى هذا الحلم، فمن ناحية هناك الطريقة التي نظر بها في احتقار للآخرين، فالجميع يبدون له كما لو كانوا خدمًا وأقل منه في كل شيء - "كانت تشبه في مظهرها الخادمات" - خاصة إذا كان هذا الشخص "امرأة"، وعلينا أن نتذكر أنه في حالة حرب مع زوجته، ولهذا فإن علينا أن نفترض أنه قد رمز إلى زوجته بهذه المرأة الموجودة في حلمه.

إنه لا يوجد من يستطيع فهم هذا المريض تمام الفهم، ولا حتى هو نفسه، لأنه يتكبر على الجميع محاولاً - بلا جدوى - الوصول إلى هدفه النهائي في إثبات تفوقه، وانفصاله عن العالم ما هو إلا فعل مواز لتكبره وغروره ومطالبته لنا بالاعتراف بتميزه علينا، رغم أنه لا يوجد أي مبرر منطقي عادل لهذا المطلب، وفي الوقت نفسه الذي يفشل فيه هو في الاعتراف بقيمة الآخرين وبحقوقهم، فالحب والصداقة لا مكان لهما في فلسفة مثل هذا المريض.

إن "الحجج" التي يقدمها لتبرير اتخاذه مثل هذه "الطرق الفرعية النفسية Psychological detours" بالغة التحديد، ومعظم هذه الحجج المحددة تكون منطقية جدا ويمكن تفهمها، ولكنها في الحقيقة تنطبق على أوضاع أخرى ولا تنطبق على وضعه الشخصي الحالي، وعلى سبيل المثال فإن مريضنا يقرر أنه من الواجب

عليه أن يكون اجتماعيا أكثر، ولهذا فإنه ينضم إلى أحد النوادى، وهناك يمضى وقته في الشرب ولعب الورق، وغيرها من النشاطات عديمة الفائدة، وهذا لأنه يعتقد أن الطريقة السابقة هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها أن يخلق الأصدقاء ويجمعهم حوله، ولهذا فإنه يبدأ العودة متأخرًا، وفى الصباح يكون متعبًا - لأنه لم يحصل على كفايته من النوم - ويدعى أنه إذا كان عليه أن يحافظ على علاقاته الاجتماعية، فإنه لا يجوز أن يتوقع منه الآخرون أن تكون لديه الطاقة الكافية للقيام بأى نشاطات أخرى، وقد كان يمكننا التغاضى عن هذه الحجج الضعيفة لو أنه كان يعطى عمله الاهتمام الكافى والضرورى، ولكننا نرى أن اجتماعاته فى النادى تمنعه من مواجهة مشكلاته الحقيقية، ومن الواضح أنه مخطئ حتى ولو كان يستخدم مثل هذه "الحجج" المنطقية.

إن الحالة السابقة قد أثبتت بوضوح أن خبراتنا العملية لا تبعدنا عن الطريق السليم نحو النمو والتطور، ولكن موقفنا الشخصى Personal attitude نحو هذه الخبرات العملية وتقييمنا للأحداث هو السبب فى أن نضل الطريق، ونحن نتعامل هنا مع مجموعة متكاملة من الأخطاء البشرية، والحالة السابقة قد أظهرت سلسلة من الأخطاء المتتالية واحتمالات ظهور المزيد منها، وعلينا أن نحاول أن ندرس هذه الأخطاء فى ظل علاقاتها مع نمط سلوك هذا الفرد حتى نستطيع أن نتفهم مدى خطأه فى الحكم على الأشياء ونقدم النصيحة المناسبة. إن هذا الإجراء مشابه جدا فى طبيعته للعملية التعليمية، والتى تعمل على محاولة إزالة الأخطاء الموجودة فى نمط سلوك الفرد.

إن نمو وتطور الفرد فى اتجاه خاطئ - اعتمادًا على فهمه الخاطئ - يمكن أن يؤدى إلى مآسى فظيعة، وعلى هنا أن أعترف بحكمة قدماء اليونانيين، والذين لابد قد تعرفوا على هذه الحقيقة عندما تكلموا عن نيمسيسز Nemesis،(*) أو ربة الانتقام، إن الفرد يعانى من سوء الحظ - كنتيجة لوجود عيوب فى نموه وتطوره - وتتضح نتائج هذه العيوب خاصة فى السعى الحثيث نحو إحراز القوة الشخصية والتفوق الذاتى بدلاً من السعى نحو تحقيق المصلحة العامة، فإن هناك مجموعة من

(*) نيمسيسز "Nemesis" ربة العدل والانتقام فى الأساطير اليونانية القديمة، وهى ابنة Nyx Erebus & وكانت مشهورة بأنها خصم قوى ورهيب، ولعل من الأمور ذات الدلالة أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أطلقت اسمها على أحدث وأقوى حاملات الطائرات. (المترجم)

القوى الشخصية التى تدفع الفرد نحو هدفه بطريقة غير مباشـــرة، وبدون أن يأخذ فى الاعتبار مصلحة زملائه فى البشــرية، وعندها فإننا نجد – فى نمــو وتطــور هذا الفرد – "الأعراض العصبية" التى نشأت بغرض خاص، ألا وهو منع الفرد من إنجاز إحدى المهام، إن مثل هذه الأعراض تهدف لأن يكون الفرد واعيًا – فى كل خطوة يخطوها – بأن هناك الكثير من الأخطار غير العادية التى تواجهه.

إن المجتمع لا يتعاطف كثيرًا مع الفرد الذى يتجنب المواجهات، فإن هنــاك درجة ضرورية من "التكيف" و"التعاون" يطالب بها المجتمع كل فرد حتى تســتمر لعبة الحياة، فنحن فى حاجة لأن نكون مفيدين، وألا يحاول الفــرد منــا أن يأخــذ لنفســه موقف الزعامة والقيادة لمجرد أنه يحب أن يكون فى هذا المركز أو يرغب فى القيام بهذا الدور، وكلنا يعرف بعض الأفراد الذين يحاول الواحد منهم أن يكون اجتماعيا ويتصرف بطريقة لائقة، ولا يتسبب فى إزعاج الآخرين ولكنــه يكــون عاجزًا عن خلق صداقات حقيقية لأن سعيه الدائم نحو الوصول لمزيد مــن القــوة يمنعه من ذلك، ولهذا فإننا نجد أن رفقاءه من البشر يرفضون تقبله أو الدخول فــى صداقات حقيقية معه. إن مثل هذا النوع من الأفراد يكون الواحــد مــنهم صــحبة مبهجة للآخرين، فهو من النوع الذى يفضل أن يتكلم وحده باستمرار على أن يدخل فى حوار يشترك فيه الجميع، كما أنه سوف يظهر على حقيقته فــى الكثيــر مــن الأشياء الصغيرة والتصرفات غير الملحوظة، وعلى سبيل المثال فإنه قد يذهب إلى الكثير من الجهد والعناء فى محاولة لإثبات صحة رأيه حتى إذا كان هذا الــرأى لا يهم الآخرين فى شىء، وقد يكون الموضوع نفسه غير مهم بالنسبة لهذا الفرد، أما الشىء المهم فهو أن يتمكن من إثبات صحة وجهــة نظــره، وأن الآخــرين هــم المخطئون، ومرة أخرى فإنه على أن أؤكد أنه عند النقطة التى يتفرع لديها الطريق (نقطة بداية الطريق الفرعى)، فإن هذا الفرد يُظهر الكثير من الأعراض المحيــرة، ومن أمثلة هذه الأعراض: تعب لا يمكن شرح أسبابه، وعجلة لا مبرر لها، وأرق، وعدم قدرة على التركيز، وغيرها من الشكاوى، وباختصار فإننا لا نسمع منــه إلا الشكاوى التى لا سبب لها، فهو يبدو وكأنه مريض و"العصبية" تتملكه.

أما الحقيقة فهى أن كل ما سبق ما هو إلا آليات تمكن هذا الفرد من تشــتيت النظر وإبعاده عن الأعراض التى تظهر أنه فى الحقيقة خائف جدا و"جبــان"، ولا عجب فى اختياره لمثل هذه الأسلحة، فكل ما علينا أن نفعله هو أن نفكر فى العناد

الذى يتميز به بعض الأفراد الذين يخافون من مواجهة ظاهرة طبيعية مثل "الظلام"، فإن هذا الخوف يمكن تفسيره على أن الواحد منهم مازال حتى الآن لم يتكيف مع متطلبات الحياة على الأرض، وأنه لا يوجد ما يرضى غروره وأنانيته إلا التخلص من ظلام الليل بالرغم من معرفته باستحالة هذا، فهو يطالب بإلغاء الظلام كشرط مسبق يجب توافره، قبل أن يبدأ فى التكيف مع الحياة الطبيعية، ولكننا نعلم جميعًا أن محاولته لفرض هذا الشرط المستحيل التحقيق ما هى إلا انعكاس حقيقى لما يبطنه، فهو يرفض الحياة.

إن كل المظاهر العصبية – من النوع السابق – إنما تظهر أصلاً عند النقطة التى يصبح لديها الفرد العصبى "خائفًا" من المشاكل التى عليه أن يواجهها، وبرغم من أن هذه المشاكل لا تزيد عن كونها الواجبات المفروضة علينا جميعًا خلال حياتنا اليومية، عندما تبدأ هذه المشاكل فى الظهور فى الأفق، فإن الفرد من النوع السابق يبدأ فى البحث عن مبررات تمكنه من التعامل مع المشاكل ببطء، أو فى ظل ظروف مخففة، حتى إن الواحد منهم قد يبدأ فى البحث عن "مبرر" يمكنه من تجنب المشكلة برمتها، وبهذه الطريقة فإنه يتمكن من تجنب تلك الواجبات المفروضة على جميع أفراد المجتمع البشرى، ولكنه فى الوقت نفسه يتسبب فى إلحاق الضرر بالبيئة المحيطة به، وبالمجتمع ككل، وعندما نتمكن من فهم "الطبيعة البشرية" بطريقة أفضل، ونصبح قادرين على استبعاد تلك التصرفات التى تتسبب فى نتائج مأسوية، فإننا سنجعل من المستحيل – على مثل هذا الفرد – أن يبحث عن مثل هذا "المبرر" أو أن يتبناه.

وعلينا أن نعرف أنه من غير المفيد أن نهاجم القوانين المنطقية الثابتة الخاصة بالمجتمع البشرى، لأن هذا قد يتسبب فى ضياع الكثير من الوقت وحدوث المزيد من التعقيدات، وعلينا أن نعلم أنه من الصعب جدا تحديد الصلة بين الأخطاء ونتائجها مما يمنعنا من الخروج باستنتاجات سليمة دائمًا، وأنه لن يمكننا دراسة هذه الصلة ومعرفة المنشأ الذى خرجت منه الأخطاء الأصلية إلا إذا سمحنا لنمط سلوك الفرد طوال حياته بأن يتكشف أمامنا، ودرسنا – بدقة شديدة – تاريخ حياته.

إن هناك الكثير من الأفراد الذين يظهر الواحد منهم الكثير من المميزات والخصائص التى يمكن وصفها بأنها "أخلاق سيئة" أو "سلوك غير حضارى"، والواحد منهم يتميز بأنه يقرض أظافره، أو يعبث بأنفه، أو يأكل بشراهة شديدة، وغيرها من الصفات التى تجعله ينتمى إلى هذه الطبقة. إن هذه العادات لها معنى واضح، خاصة عندما نراقب الفرد الذى يتميز بالجشع، فإننا نراه يأكل بنهم، ويُحدث الكثير من الجلبة خلال الأكل، وكميات هائلة من الطعام يتم ابتلاعها فى لحظات قصيرة، ويتكرر هذا السلوك بطريقة مقززة، والكثير منا قد رأى أمثال هذا الفرد الذى لا يكون سعيدًا إلا إذا كان يأكل.

وهناك مظهر آخر يعبر به الفرد عن الأخلاق السيئة والسلوك غير الحضارى ألا وهو عدم النظافة والنظام، ونحن هنا لا نتحدث عن نقص التحيات التى قد نجدها عند الفرد المزحوم بالعمل، أو الفوضى الطبيعية التى يمكن أن نجدها أحيانًا عندما يكون أحدهم مشغولاً بأعماله، إنما نحن هنا نتكلم عن تلك المجموعة والتى يكون الواحد منها لا يعمل على الإطلاق، أو نادرًا ما يعمل، ومع هذا فإنه يكون محاطًا من كل ناحية بالأشياء المختلفة غير النظيفة. إن هذا الفرد - والذى يبدو وكأنه لا يستطيع الحياة بدون القذارة والفوضى - لا يمكن تخيله بدون هذه الخاصية المميزة التى تفصله عن الآخرين.

إن ما ذكرناه سابقًا ما هو إلا بعض الخصائص التى تميز الأفراد غير المتحضرين، وهذه الخصائص توضح لنا أنهم لا يلعبون "اللعبة" طبقًا للقواعد المتفق عليها، وأنهم يفضلون لو اعتزلوا العالم وابتعدوا عن البشر أجمعين. إن كل من ينغمس فى مثل هذه الأفعال الفظة يدفعنا للاعتقاد بأنه فى غير حاجة لغيره من البشر، ومعظم السلوك غير الحضارى يبدأ خلال مرحلة الطفولة، وهذا لأن الأطفال نادرًا ما يكون نموهم وتطورهم فى خط مستقيم، وحتى بعض البالغين لا يتغلبون على هذه العادات والخصائص الطفولية ويحتفظون بها طوال حياتهم.

إن الأساس الذى بنيت عليه مظاهر السلوك غير المتحضر هو "ميل ظاهر لرفض التواصل مع الآخرين"، فإن الفرد غير المتحضر يرغب فى خلق مسافة بينه وبين الحياة وهو لا يرغب فى "التعاون"، ومن السهل أن نفهم كيف أنه غير

مستعد للاستماع والإصغاء لكل النصائح التى تحضه على التخلى عن طرقه غير الحضارية، لأنه عندما يكون الفرد غير راغب فى المشاركة فى لعبة الحياة، ولا يريد الانصياع لقواعدها، فإن تصرفه يكون منطقيا تمامًا، بل إنه من الصعب أن نتخيل وجود طريقة أفضل لإبعاد الآخرين عنه أكثر من قضم الأظافر، أو ارتداء ملابس قذرة. إن هذا السلوك غير الاجتماعى يمنع هذا الفرد – بفاعلية – من أن يحتفظ بأى وضع أو مكانة تعرضه للنقد أو المنافسة، ولا توجد طريقة أفضل من هذا لتجنب الحب والزواج لأن هذا الجانب غير الجذاب – من الفرد – سوف ينفر الجنس الآخر منه، وسوف نجده دائمًا ما يخسر فى كل المنافسات، وفى كل مرة يخسر فيها يكون لديه المبرر، فإن غياب الكياسة واللياقة الاجتماعية يخلصه من لوم الآخرين له، ويمكنه من أن يتعجب قائلاً:

"ما الذى كان يمكننى أن أصل إليه لو أننى كنت حرا من هذه العادة؟!".

إنه يتعجب، ولكنه يحمد الله فى سره قائلاً:

"ولكن هذه العادة قد تمكنت منى لسوء الحظ".

ودعنا نتدارس تفاصيل إحدى الحالات، وفى هذه الحالة فإن المريضة قد استخدمت "عادة سيئة" كأداة للدفاع عن نفسها، والسيطرة والهيمنة على الآخرين. إن مريضتنا فى هذه الحالة هى سيدة فى الثانية والعشرين من عمرها، وكانت تبلل فراشها، ومن حيث الترتيب فإنها كانت الطفل قبل الأخير فى أسرتها، ولأنها كانت طفلة ضعيفة ومريضة، فإنها كانت تستمتع كثيرًا بعناية أمها المفرطة وقلقها عليها، حتى إنها أصبحت شديدة الاعتماد عليها فى كل شىء، لقد تمكنت مريضتنا من أن تقيد والدتها بها ليل نهار من خلال نوبات القلق التى كانت تنتابها خلال النهار، وأيضًا من خلال الأحلام المفزعة وبلل الفراش خلال الليل، وفى البداية فإن هذا لابد من أنه كان يبدو كنصر عظيم بالنسبة لها وإرضاءً لغرورها، فإنها قد نجحت فى استخدام هذا السلوك السيئ فى احتكار كل جهود أمها، وعلى حساب باقى إخوتها وأخواتها.

أيضًا فإن هذه المريضة كانت غير عادية فى نقطة أخرى، فقد عجز الجميع عن إقناعها فى البدء بخلق صداقات، أو الذهاب إلى المدرسة، فقد كان القلق ينتابها فى كل مرة تترك فيها منزل الأسرة، وعندما بدأت تكبر وكان عليها أن تقوم

بقضاء بعض المشاوير خلال المساء فإن مشيها وحيدة فى الظلام كان عذابًا لا يطاق بالنسبة لها، وعندما كانت تصل إلى المنزل، فإنها كانت تعانى من الإرهاق الشديد، وكانت تخبر أسرتها بقصص فظيعة عن الأخطار التى تعرضت لها خلال هذا المشوار، ويمكننا أن نرى كيف أن كل هذه المميزات والخصائص تشير إلى شيء واحد فقط، ألا وهو: "أن هذه السيدة الصغيرة كانت ترغب بشدة فى البقاء بصفة دائمة بجانب والدتها"، ولكن حيث إن الوضع الاقتصادى للأسرة لم يكن يسمح بهذا، فإنهم كان عليهم أن يجدوا لها وظيفة، وكان عليها أن تقبل، أخيرًا أقنعوها بقبول إحدى الوظائف، ولكن بعد مرور يومين فقط عاودتها مشكلة التبول اللا إرادى وأجبرتها على التخلى عن وظيفتها، كانت والدتها لا تستطيع أن تفهم المعنى الحقيقى لمرضها، ولهذا فإنها كانت تلومها وتوبخها بمرارة، وعندها حاولت مريضتنا الانتحار، ونقلت إلى المستشفى، وعندها أقسمت والدتها ألا تتركها مرة أخرى.

إن كل الأشياء السابقة – بلل الفراش، خوفها من الظلام، رعبها عندما تكون وحيدة، محاولتها الانتحار – كلها كانت موجهة نحو الهدف نفسه، وبالنسبة لنا فإنها تعنى رغبتها الشديدة فى البقاء بجانب والدتها، أو أنه على أمها أن ترعاها وتعتنى بها بصفة مستمرة، وبهذه الطريقة فإن السلوك غير المقبول اجتماعيا (بلل الفراش) قد أصبح له معنى مسموح به، والآن يمكننا أن نعترف بأن الإنسان يمكن تحليله طبقًا لأمثال هذه العادات السيئة، وفى الوقت نفسه فإننا نرى أن هذا السلوك غير المقبول يمكن تصحيحه ومعالجته إذا ما تفهمنا حالة المريضة بدقة وعلاقاتها بوضعها الاجتماعى.

وكلنا يعلم أن هذه العادات السيئة الطفولية تكون موجهة نحو محاولة الحصول على اهتمام البالغين، والطفل الذى يرغب فى أن يلعب دورًا عظيمًا، أو أن يظهر للبالغين ضعفه وعجزه سوف يستخدم هذه العادات ويستغلها، أيضًا فإن تلك العادة الشائعة بين الأطفال عندما يبدأ الواحد منهم فى التصرف بصورة سيئة أمام أى غرباء يزورون منزل الأسرة لها المعنى نفسه، وأحيانًا فإنه حتى بعض الأطفال الذين يتميزون بحسن السلوك يبدو الواحد منهم وكأن الشيطان قد تلبسه بمجرد دخول أحد الغرباء لمنزل الأسرة. إن هذا الطفل يرغب فى أن يلعب دورًا تمثيليا ولا تتوقف محاولاته حتى يتمكن من تحقيق غرضه بطريقة مرضية له،

وعندما يكبر هذا الطفل فإنه سيحاول أن يتجنب كل الواجبات التي يلقيها المجتمع على عاتقه من خلال اتباع سلوك مشابه، أو محاولة إعاقة الصالح العام عن طريق إزعاج المجموع، ويكون هذا الغرور والطموح المتبجح مختفيًا خلف كل هذه الأعراض والمظاهر، وحيث إن هذه الأعراض والمظاهر غالبًا ما تكون مختلفة ومتخفية، فإن هذا يمنعنا من التعرف على سببها بوضوح، وما هو هدفها النهائي.

تعبيرات أخرى للشخصية

المزاج والطباع:

إن علماء النفس مخطئون إذا ظنوا أن للوراثة أى دخل فى أن بعض الأفراد يكون موقف الواحد منهم من الحياة Attitude to life معتمدًا على مزاجه وطبعه، فإن ميل الفرد لأن يسمح لمزاجه بأن يتحكم فيه لا يمكن أن يكون خاصية مورثة، ولكنها غالبًا ما تحدث لدى الفرد الشديد الطموح - بطريقة مبالغًا فيها - والذى يكون ذا طبيعة حساسة جدا وغير راض عن الحياة، ويعبر عن عدم رضاه من خلال محاولاته المختلفة لتجنبها. إن حساسيته الشديدة تكون مثل قرون الاستشعار الممدودة، والتى يختبر عن طريقها كل وضع من الأوضاع الجديدة قبل أن يبدأ فى معالجته.

ولكن يبدو أن هناك بعض الأفراد الذين يكون الواحد منهم فى حالة مزاجية جيدة دائمًا، فهو يبذل أقصى ما فى جهده للاستمتاع بحياته فى جو مبهج، ودائمًا ما يؤكد على الجوانب المضيئة من الحياة. إن المرح والابتهاج - مثله مثل أى شىء آخر - له درجات متعددة من الشدة، وهناك البعض يكون الواحد منهم خاليًا من الهموم ومبتهجًا، وهناك شىء ما يحببنا فى هذا الفرد وفى حماسه الطفولى نحو الحياة، فهو لا يخاف من المهام الملقاة على عاتقه ولا يحاول تجنبها، ولكنه يعالجها ببساطة وبطريقة شبابية، فهو يواجه المشكلة كما لو كانت مجرد لعبة أو لغز عليه أن يحله، وكل ما سبق يجعله أكثر الأنماط جاذبية وسحرًا فى تعامله مع الحياة.

ولكن - من ناحية أخرى - فإن هناك البعض الذى يبالغ بشدة فى مرحه وابتهاجه، حتى إن الواحد منهم يتعامل مع الأوضاع الخطيرة بالأسلوب الطفولى نفسه الذى يتعامل به مع غيره من الأوضاع، وهذه الطريقة تكون غير مناسبة لجدية وخطورة الحياة حتى إنها تسبب لنا القلق، وعندما نرى هذا الفرد خلال عمله، فإنه يتولد لدينا الانطباع بأنه من النوع "المستهتر" وأنه لا يأخذ الأوضاع

الصعبة بجدية كافية، وعلى هذا فإننا غالبًا ما نجده مبعدًا عن التعامل مع هذه الأوضاع الخطيرة، والتى يكون هو ميالاً إلى تجنبها على أية حال.

ومع هذا فإننا لا يمكننا تجنب هذا الفرد الذى يبالغ فى تفاؤله لأن هذا النمط يستحق المزيد من الدراسة، فإن الواحد منهم يكون محبوبًا فى عمله، ووجوده يكون محل ترحيب بعكس الآخرين الذين يتميزون بالكآبة. إن الفرد المرح يمكن اكتسابه بسهولة أكثر بكثير من الشخص الكئيب والذى يرى الجانب المظلم فى كل وضع من أوضاع الحياة، ولقد ذكرنا تلك الحقيقة التى تقول: "إنه يمكن قياس الشعور الاجتماعى للفرد عن طريق معرفة مدى استعداده لخدمة الآخرين ومساعدتهم والمساهمة فى رخائهم". وعلى هذا فإن تلك الموهبة التى يتمتع بها الفرد المرح تجعله مثارًا لاهتمام الآخرين بسبب قدرته على منحهم المزيد من السعادة، فإن الشخص المرح يتقرب منا بسهولة، كما أننا نتقبله - من ناحيتنا - بالكثير من التعاطف.

ويبدو وكأننا نشعر بطريقة غريزية أن المزاج المرح ما هو إلا مؤشر على وجود شعور اجتماعى قوى ومتطور فى الفرد، وبعض الناس يمكن للواحد منهم أن يبقى متفائلاً، ولا يمضى يومه فى القلق أو الهم، وعندما يكون فى صحبة الآخرين، فإنه يكون قادرًا على التواصل معهم ونقل مرحه وبهجته إليهم، مما يجعل للحياة معنى ويضفى عليها الجمال، ويمكن للمرء أن يشعر بأن هذا الفرد إنسانًا طيبًا وصالحًا، وأن هذا الصلاح وتلك الطيبة يمتدان ليشملا كل تصرفاته وطرقه فى التعامل والحديث واهتمامه بما يهم الآخرين، كما أن مظهره الخارجى من حيث الملابس والإشارات واستعداده الدائم للضحك والابتسام يكونان مؤشرًا واضحًا على كونه إنسانًا صالحًا.

وعالم النفس دوستوفيسكى(*) - والذى تميز بالشفافية وحدة الملاحظة - قد قال ذات مرة: - "يمكننا الحكم على شخصية الفرد - بطريقة أفضل - من خلال الطريقة التى يضحك بها أكثر من كل الفحوص النفسية المملة التى يمكن إجراؤها عليه".

(*) إشارة من المؤلف إلى عمق "التحليلات النفسية" الصائبة التى كان يخرج بها "الروائى" العظيم "دوستوفيسكى" فى رواياته الخالدة، والتى استخدمها المؤلف فى السابق أكثر من مرة. (المترجم)

فإن الضحك هو الذى يخلق الصلات بين البشر أو يحطمها، وكلنا قد سمعنا الضحكة الهجومية Aggressive laughter التى يطلقها البعض - عندما يجد الواحد منهم - أن تعاسة الآخرين والكوارث التى حدثت لهم ما هى إلا موضوع للتفكه والتندر، ومن ناحية أخرى فإن هناك بعض الأفراد الذين لا يستطيع الواحد منهم أن يضحك وهذا لأنه يكون متباعدًا بشدة عن كل ما يربطه بالآخرين حتى إنه يفتقد القدرة على الأخذ أو عطاء وتبادل المباهج مع الآخرين، وهناك مجموعة صغيرة من الأشخاص يكون الواحد منهم عاجزًا تمام العجز عن منح السعادة لأى شخص آخر لأن اهتمامه يكون مركزًا على إفساد كل فرصة تتاح له للاتصال بغيره، فهو يمضى فى الحياة، كما لو كان يرغب فى إطفاء كل مباهجها، فهو لا يضحك، على الإطلاق، أو عندما لا يكون هناك مفر من الضحك أو عندما يرغب فى التظاهر بالرقة والوداعة.

وكل هذا يكشف الغموض عن مشاعر مثل "التعاطف Sympathy" و"الكراهية الفطرية Antipathy"، وعلى الطرف النقيض من النوع المتعاطف، فإننا نجد ذلك الفرد هادم اللذات ومفسد المتعة، فهو يرى العالم على أنه موطن الآلام والأحزان، وبعض الأفراد يقضى الواحد منهم حياته كما لو كان يرزح تحت عبء ثقيل، فهو يبالغ فى حجم كل صعوبة تقابله، والمستقبل - بالنسبة له - مظلم ويبعث على الاكتئاب، وهو لا يضيع أى فرصة دون أن يخرج علينا بتنبؤات حزينة ووجهات نظر متشائمة، ولا توجد أى حدود لتشاؤمه، فلا يقتصر هذا التشاؤم عليه شخصيا، بل يمتد ليشمل الجميع، وإذا حدث ووجد شخصًا سعيدًا فى محيطه، فإنه يصبح متململاً وقلقًا، ولا يهدأ حتى يجد جانبًا سيئًا فى الوضع، وهو لا يستخدم الكلمات فحسب، ولكنه يقوم بالكثير من الأفعال المزعجة لتحقيق هذا، وبهذه الطريقة فإنه يمنع الكثيرين من الحياة بسعادة، ومن الاستمتاع بزمالة الآخرين.

أسلوب الحديث:

إن الطريقة التى يفكر بها بعض الأفراد، والأسلوب الذى يعبرون به عن أنفسهم يترك انطباعًا لا يمحى ويعطينا فكرة عميقة عنه، وعلى سبيل المثال فإنه توجد فى كل حضارة "أفكار" و"كلمات" لا يمكن التعبير عنها أو ذكرها فى صحبة

المهذبين من الناس. إن سوقية هذه الكلمات والأفكار يكون لها صداها فى حديث الناس، وفى بعض الأحيان فإنها ترعج حتى الذى يتكلم بها. إن هذا النوع من الحديث يظهر أن المتكلم تنقصه الكثير من القدرات الإبداعية والحكم الصائب.

إن الآخرين يفكرون ويتكلمون كما لو كان أفقهم الذهنى Mental horizon محاطًا بالكثير من الأمثال والحكم والشعزرات التى تعمل على توجيهه، فإنه يمكننا أن نعرف مقدمًا ما الذى سيقوله الواحد منهم، فهم مثل الروايات الرخيصة لأن كل كلامهم مملوء بالعبارات المأثورة العامية والرطانة المضطربة وعديمة المعنى، فإن الواحد منهم يظهر عدم تعاطفه مع الآخرين عندما يجيب عن أسئلتهم بشعارات جوفاء أو تعبيرات عامية، وهو يفكر ويتصرف طبقًا لأنماط معدة مسبقًا clichés أو مستخرجة من الأفلام والصحف الصفراء، وللأسف فإن هناك الكثير من الأشخاص الذين لا يستطيع الواحد منهم أن يفكر بأى طريقة أخرى، وهكذا فإنه يكشف عن القصور فى نموه وتطوره النفسى.

سلوك التلاميذ داخل الفصل الدراسى Schoolroom behavior

إن الواحد منا كثيرًا ما يقابل تلك الفئة من الأشخاص التى يعطى الواحد منها الانطباع بأنه يعانى من القصور الشديد فى نموه وتطوره النفسى، وأن هذا النمو والتطور النفسى قد توقف تمامًا خلال تعليمه المدرسى، ولم يجاوز المرحلة الابتدائية، وهو دائمًا ما يتصرف كأطفال المدارس فى كل مكان فى المنزل وفى مقر عمله، فالواحد منهم يصغى بلهفة، وينتهز أى فرصة ليدلى برأيه، فهو متحفز دائمًا للإجابة عن أى سؤال يتم طرحه فى أى لقاء، كما لو كان متشوقًا لإثبات أنه قد أدى واجباته المدرسية على أكمل وجه، ويسعى للحصول على الشهادة المدرسية التى تؤيد ذلك.

والمفتاح لفهم هذا الفرد هو تلك الحقيقة التى تقول "إن أمثال هذا الفرد لا يشعر الواحد منهم بأمان إلا إذا كان موجودًا فى وضع منظم ومركب، مثل وضع المدرسة"، فهو يشعر بالقلق وعدم الأمان عندما يجد نفسه فى وضع يكون فيه "سلوك التلاميذ داخل الفصل الدراسى Schoolroom behavior " سلوكًا غير مناسب، وهذه الخاصية تظهر بين كل المستويات العقلية، وأكثر أشكالها قبحًا هو

الفرد الذى يظهر بمظهر جاف وصارم، ويتميز بالتزمت محاولاً أن يترك الانطباع باستحالة الوصول إليه، أو يحاول أن يأخذ دور من يعرف كل شيء متظاهرًا بأنه يفهم كل شيء في الحال، أو يسعى لترتيب وتصنيف كل شيء طبقًا لقواعد ومعادلات محددة مسبقًا.

المتحذلق والمتحامل المتحيز Pedantry and prejudice

يمكننا أن نجد مثالاً مثيرًا لهذا النوع المدرسى (أى الذى يتشبث بالتعاليم والأساليب التقليدية) بين الأفراد الذين يحاول الواحد منهم أن يصنف كل نشاط وكل حدث طبقًا لمبادئ وقواعد ثابتة لا تتغير، فهو يؤمن أشد الإيمان بهذه المبادئ والقواعد ولا يمكن إقناعه بالتخلى عنها، كما أنه يكون غير مستريح على الإطلاق لو أنه تم اكتشاف بعض الأشياء التى لا يمكن إخضاعها لهذه المبادئ والقواعد، فهو جاف ومتزمت فى تمسكه بالمعلومات النظرية التى اكتسبها بدون أى خبرة عملية. إن مثل هذا الفرد يعطينا الانطباع بأنه لا يشعر بالأمان لأنه يجد نفسه مجبرًا على تقسيم الحياة ومن فيها إلى مجموعات صغيرة تنطبق عليها قواعد معينة ومعادلات خاصة، وإلا كانت الحياة – بالنسبة له – أكثر مما يطيق أو يتحمل، وهو يتجنب كل الأوضاع التى لا يكون لها قواعد معينة أو معادلات خاصة، وهو يشعر بالإهانة عندما يبدأ الآخرون فى ممارسة لعبة ذات قواعد غير مألوفة بالنسبة له، ومن الواضح أن الفرد تتاح له الفرصة لاستغلال قوته واستخدامها بهذه الطريقة، وعلى سبيل المثال فإنه يمكننا أن نأخذ فى الاعتبار ذلك العدد الذى لا يحصى من الحالات، والتى يدعى فيها الفرد أن ضميره يجبره على الاعتراض Conscientious objectors على ما اتفق عليه المجتمع، وكلنا يعلم أن هذا الفرد الذى يدعى أن ضميره حى أكثر منا جميعًا إنما هو فى الحقيقة يكون مدفوعًا بغرور مفرط ورغبة قوية وثابتة فى السيطرة على الآخرين.

وحتى إذا كان هذا الفرد يؤدى نصيبه من العمل فى المجتمع بنشاط (عامل جيد)، فإن هذا "الموقف المتحذلق Pedantic attitude " يكون واضحًا، وأمثال هذا الفرد يفتقد الواحد منهم القدرة على المبادأة حتى إنه يصبح محدودًا فى اهتماماته وتمتلئ أراؤه بالبدع والنزوات، وأحيانًا فإن بعض هؤلاء الأفراد قد يطور الواحد

منهم عادات غريبة مثل استخدام الحافة الخارجية للسلالم خلال صعوده أو نزوله أو تجنب المشى على الشروخ الموجودة فى أسفلت الطريق، والبعض الآخر يتشبث بالمشى فى طريق معين - مألوف بالنسبة له - لا يحيد عنه مهما كانت الأسباب ومهما كان الثمن. إن كل الأنواع السابقة لا يتمتع فيها الفرد بالإحساس الكافى بمشاكل الحياة، ولا يتعاطف مع المشاكل الحقيقية فيها بدرجة كافية، وفى محاولاته العقيمة لتطبيق مبادئه وقواعده، فإنه يُضيع الكثير من الوقت والطاقة كما أنه - إن آجلاً أو عاجلاً - يفقد تناغمه الداخلى وأيضًا التناغم بينه وبين البيئة المحيطة، لأنه عندما يواجه مشكلة غير مألوفة له، فإنه يفشل - فشلاً ذريعًا - بسبب عدم استعداده لمواجهتها، فهو يؤمن بأنه لا يمكن إنجاز أى شىء بدون القواعد والمعادلات السحرية، ولهذا فإننا سنجده دائمًا يقاوم بتعصب كل محاولات التغيير.

وعلى سبيل المثال فإنه يكون من الصعب على هذا الفرد أن يتعود على مجىء فصل الربيع لأنه قد أمضى الكثير من الوقت فى محاولاته الخاصة للتكيف مع فصل الشتاء!، والعالم الخارجى - عندما أتى بالجو الربيعى - قد أيقظ خوفه من أن عليه الآن أن يقوم بإجراء المزيد من الاتصالات مع الآخرين، ولهذا فإنه يشعر بالتعاسة عندما يأتى الربيع علينا، وأمثال هذا الفرد يشكو الواحد منهم بأنه يشعر بالمرض فى الربيع، وحيث إنه يجد صعوبة شديدة فى التكيف مع الأوضاع الجديدة، فإننا سنجده يحتل الوظائف التى لا تتطلب الكثير من المبادأة، أو تتطلب وجود روح المبادرة، وعلى هذا فإننا نجد أن رئيسه لا يغامر بوضعه فى أى وظيفة أخرى وعلينا هنا أن نذكر أن تلك الخاصية يمكن تغييرها كما أنها غير موروثة، ولكنها تنبع فقط من "موقفه الخاطئ His Misguided attitude" تجاه الحياة. إن هذا الموقف الخاطئ قد استحوذ على نفسيته حتى إنه قد أصبح يسيطر على جميع جوانب شخصيته، وفى النهاية فإن هذا الفرد سيصبح عاجزًا عن أن يتحرر من تحامله وتحيزه.

الشخصية الاستسلامية Submissiveness

إن الأفراد الذين يتميزون بشخصية استسلامية يكون الواحد منهم غير مستعد للتكيف مع الوظائف التى تتطلب وجود روح المبادرة، فهو لا يشعر بالراحة

إلا عندما يطيع أوامر غيره، وهذا الفرد الذليل يعيش بالقواعد والقوانين التى يضعها الآخرون وهو لا يبحث إلا عن وظيفة ذليلة تليق به، ويمكننا أن نجد هذا الموقف فى الكثير من العلاقات المختلفة التى تنشأ فى الحياة، ويمكننا أن نخمن وجود مثل هذه الموقف Attitude فى سلوك الشخص وتصرفاته لأن هذا الشخص يتميز مظهره بأنه: منحن نوعًا ما (محدودب الظهر)، كما أنه يكون من النوع الذى ينكمش بغرض التذلل أو التملق، أو إظهار الخنوع، فهو من النوع الذى يقول "نعم" دائمًا، ونراه فى حالة انحناء دائم فى وجود الآخرين، وهو يصغى بحرص لكل كلمة ينطقون بها ليس بغرض فهمها وإنما بغرض تنفيذ الأوامر، فهو يتصرف كصدى الصوت ويؤكد آراء الآخرين ووجهات نظرهم، فهو يعتبر أن ظهوره بهذا المظهر ما هو إلا شرف ما بعده شرف، فهو يستمتع بإخضاع نفسه للآخرين، ولكن يجب علينا أن نوضح أن هناك الكثير من الجوانب السلبية لحياة الفرد الذى يجد فى الاستسلام والخنوع حلا لمشاكل حياته.

ومن العدل أن نقول إن هناك الكثير من الناس الذين يرى الواحد منهم فى الاستسلام والخنوع قانونًا من قوانين الحياة، وأنا هنا لا أعنى فئة الخدم المحترفين وإنما أتحدث عن النساء، فوجوب كون المرأة مستسلمة هو "قانون" غير مكتوب ولكنه موجود بقوة ويؤمن به الكثيرون كما لو كان تعاليم ثابتة أو دينًا من الديانات، فهناك الكثيرون الذى يؤمن الواحد منهم بأن وظيفة المرأة هى الاستسلام للرجل، وأمثال هذه الخزعبلات هى السبب الرئيسى فى تدمير الكثير من العلاقات الإنسانية أو تسميمها، ومع كل هذا فإننا مازلنا عاجزين عن التخلص من هذه الخرافات، وللأسف فإن هناك من يؤمن بهذه الخزعبلات حتى من بين النساء وأن استسلام المرأة ما هو إلا قانون أبدى يجب الخضوع له، ولكنى أعلن هنا أنه لا يوجد مستفيد من وجهة النظر السابقة، بل إنها قد تتسبب فى الكثير من الضرر عندما يأتى أحدهم ويشكو من أن المرأة إذا لم تبالغ فى استسلامها لما حدثت كل هذه المشاكل.

وبصرف النظر عن الحقيقة التى تقول "إن الروح البشرية لا يمكنها أن تتحمل هذا الإجبار المستمر على الاستسلام – لفترة طويلة – دون أن تميل نحو الثورة"، فإن المرأة المستسلمة سرعان ما تصبح غير مستقلة وتبدأ فى الاعتماد على غيرها مما يحولها إلى "طفيل اجتماعى Social parasite "، والحالة التالية

ستوضح هذا. إنها حالة امرأة قد تزوجت عن حب من رجل مشهور، وكلاهما كان من المؤمنين بمبدأ وجوب استسلام المرأة، وبمرور الوقت فإنها تحولت إلى مجرد آلة، فبالنسبة لها كانت الحياة عبارة عن واجبات وخدمات عليها القيام بها المرة تلو الأخرى، وبالتدريج اختفت أى علامة تدل على استقلالها، وأصبح كل المحيطين بها معتادين على استسلامها الدائم هذا، ولم يعترض أحد، ولكن هذا الصمت الجماعى لم يساعد كثيرًا على تحسين الوضع.

إن هذه الحالة لم تصل إلى مرحلة "الأزمة" لأنها حدثت بين طبقة من الأشخاص المتحضرين، ولكن إذا اعتبرنا أن استسلام المرأة هو مصير طبيعى فى رأى الكثيرين، فيمكننا تفهم حجم الخلافات التى يمكن أن تتسبب فيها وجهة النظر السابقة، فعندما يعتبر الزوج أن استسلام المرأة هو حق من حقوقه، وحيث إن الاستسلام الكامل مستحيل من الناحية الواقعية فمن الطبيعى أن يتملكه الغضب فى أى لحظة، ولكن من ناحية أخرى فإن هناك بعض النساء تكون الواحدة منهن متشبعة بروح الاستسلام حتى إنها تختار أكثر الرجال فظاظة وخشونة. إن هذه العلاقة غير السوية يكون من المحتوم أن تتحول - إن آجلاً أو عاجلاً - إلى حرب معلنة، وأحيانًا ما يتولد لدينا الانطباع بأن ما ترغب فيه هذه المرأة - حقيقة - هو تسخيف فكرة وجوب استسلام المرأة، وإثبات خطأها للجميع.

ولقد تعلمنا بالفعل طريقة الخروج من هذه المشاكل ومواجهة هذه الصعوبات، فعندما يعيش رجل وامرأة معًا، فإنهما يجب أن يعلما أنه من شروط الشركة فى الحياة اقتسام العمل Division of labour، وبحيث لا يخضع أى شخص للآخر، وإذا كان ما سبق مستحيلاً - فى الوقت الحاضر - أو مثالية من المثاليات التى لا يمكن الوصول إليها، فإنه يعطينا - على الأقل - "وسيلة" يمكن بها قياس تقدم الفرد الحضارى.

إن مسألة الاستسلام تلعب دورًا كبيرًا فى العلاقات بين الرجل والمرأة حتى إنها ترهق كاهل الإنسان بآلاف المشاكل التى لا يمكن حلها، كما أن هذه المسألة تلعب دورًا مهما أيضًا فى حياة الشعوب، فالحضارات القديمة قد أقامت بناءها الاقتصادى على مؤسسات استخدمت العبودية، ولعل معظم البشر الذين يعيشون الآن قد نتجوا عن عائلات كانت ترزح - فى وقت من الأوقات - تحت نير العبودية، ولقد استمر هذا الوضع لمئات من السنين، وفى خلال هذه الفترة كانت

هناك طبقتان من البشر تعيش كل منهما فى غربة كاملة عن بعضهما البعض، واليوم لا تزال هناك بقايا هذا النظام موجودة بين بعض الطبقات، وتلك المبادئ البغيضة فى ضرورة الاستسلام لم يتم القضاء عليها بعد.

فى تلك الأزمنة السحيقة كان من المعتاد الاعتقاد بأن العمل يحط من قيمة الفرد، وأن طبقة العبيد هى التى عليها أن تعمل، وكان "السيد" لا يقوم بأى أعمال، فهو قائد البشر وممثل لكل الخصائص والمميزات التى تستوجب الاحترام والتبجيل، وكانت الطبقة الحاكمة تتكون من كل من هو "أحسن Best "، فالكلمة اليونانية "Aristos" تؤكد هذا الفهم، فإن الطبقة الأرستقراطية Aristocracy كانت محتكرة بين كل من هو "أحسن Best"، ولكن هذا "الأحسن" كان يتم تحديده عن طريق القوة، وليس عن طريق الأخلاق والقيم التى يتمتع بها، وكانت هذه التقسيمات الطبقية تحدث بين طبقة العبيد وحدهم، فقد كان الفرد الأرستقراطى هو الذى يملك القوة وحده.

أما فى العصر الحديث فإن وجهة نظرنا قد تأثرت بهذا التاريخ المملوء بالعبودية والأرستقراطية، وحتى مفكرين عظام مثل "نيتشه Nietzsche" كانوا من دعاة أن يتولى الحكم كل من هو "أحسن"، وأن على الباقى الخضوع والطاعة، وحتى فى أيامنا هذه فإن هناك أفرادًا يتميزون بالذل والاستكانة حتى إن الواحد منهم لا يكون سعيدًا إلا إذا كان خاضعًا لأحدهم. إن الواحد منهم يبدو وكأنه فى حالة "اعتذار" دائم عن كل شىء، حتى عن مجرد وجوده فى العالم، ولا يجب أن يخدعنا مثل هذا السلوك، أو يدفعنا إلى تصديق أنه يفعل هذا عن طيب خاطر لأنه فى معظم الوقت يكون شديد التعاسة.

إنه من الصعب علينا أن ننتزع من تفكيرنا فكرة انقسام البشر إلى سيد ومسود (معبود وعبد)، وأن نعتبر الجميع سواسية، ومع هذا فإن هناك حاجة شديدة نحو محاولة جمع البشر وتقريبهم من بعضهم البعض، وهذه الحاجة قد حرمت مؤسسات العبودية والأرستقراطية من أهميتها، لأن مجرد وجود وجهة نظر جديدة (ألا وهى المساواة المطلقة بين جميع البشر) يمثل تقدما جيدًا ودرعًا يحمينا من الأخطاء المستقبلية التى يمكن أن نرتكبها.

إن هذه الصفة الشخصية شديدة التناقض مع سابقتها التى انتهينا من وصفها، فإن الفرد الشديد التعجرف والذى يشعر بعظمتــه Imperious individual يشــعر بأن من حقه أن يكون دائمًا المهيمن والمسيطر على من حوله، وتنحصر اهتماماته – طوال حياته – فى تساؤل وحيد ألا وهو: "كيف يمكننى أن أكون فوق الجميع؟".

ولكن هذا الدور يحمل خيبة الأمل فى طياته.

إن هذا الدور المتعجرف قد يكون مفيدًا أحيانًا إذا لم تصاحبه الكثيــر مــن الدوافع الهجومية والعدوانية، ففى أى مكان نحتاج فيه إلى شخصية منظمة (تستطيع أن تجبر الجميع على اتباع نظام ما) فإن الفرد ذا العقلية المتعجرفة ســرعان مــا يتقدم لاحتلال هذا المنصب، فهو دائمًا ما يبحث عن منصــب المدير أو القائــد أو الآمر الناهى.

وفى أوقــات الاضطرابات – كأن تكون الدولة فى حالة ثورة مثلاً – فــإن مثل هذا الفرد يظهر فى الخطوط الأمامية بوضوح، ويمكننا أن نتفهم هذا بســهولة لأن سلوكه وتصرفاته وموقفه ورغباته كلها تكون مناسبة للاضطلاع بهذه المهــام، كما أنه تكون لديه – عادة – الاستعدادات اللازمة لتحمل دور "القائد" لأنه قد اعتاد على الأمر والنهى فى منزله، ولكنه لا يكون راضيًا عن أى وضــع إلا إذا كــان يستطيع أن يلعب دور الملك فيه (الدور الرئيسى)، وأمثال هذا الفرد يوجد من بينهم من يعجز عن أداء أبسط المهام إذا كان هناك شخص آخر يعطى الأوامر غيــره، فهو يصبح ثائرًا وقلقًا بمجرد أن يتم وضعه تحت قيادة شخص آخر.

أما فى أوقــات الاستقرار فإننا نجد أمثال هذا الفرد قادة لمجموعات صغيرة فى عالم المال والأعمال، أو فى المجتمع، وهو دائمًا ما يكون فى الخطوط الأمامية لأنه يحاول دائمًا أن يعطى نفسه دفعة إلى الأمام، وأن يدلى بدلوه فى كــل شــىء، ولا يمكننا أن نعارض أسلوبهم فى الحياة، طالما أن الواحد منهم لم يخالف قواعــد اللعبة، ولكن لا يمكننا أن نوافق على القيمة المبالغ فيها، والتى يمنحهــا المجتمــع لأمثــال هذا الفرد فى مجتمعنا الحديث، فهو – مثله مثل غيره من البشر – يخطئ ويصيب، كما أنه لا يؤدى عملاً ممتازًا، خاصة إذا كان من يعطى الأوامر شخص غيره، أيضًا فإنه لا يجيد العمل كفرد فى فريق، فحياته كلهــا ليســت إلا صــراعًا مريرًا وحتى النهاية، فهو لا يهدأ حتى يتمكن من إثبات تفوقه بطريقة ما.

من الحقائق البديهية فى علم النفس أن: الفرد الذى يقع فـى متاعـب مـع "الحقيقة المطلقة" (منطق الحياة الجماعية المشتركة)، أو يصطدم بها، فإنه سـيعانى – إن آجلاً أو عاجلاً – من "النتائج الخطيرة" المترتبة على هذه المخالفـة، وغالبًـا فإن الفرد الذى يرتكب هذا الخطأ الفظيع يكون من النوع الذى لا يتعلم من خـلال خبرات الماضى، ولكنه يرى تلك "النتائج الخطيرة" على أنها مجـرد سـوء حـظ وكارثة لا يستحقها، وقد يقضى الفرد منهم حياته فى محاولة إظهار مـدى سـوء الحظ الذى تعرض له، وإثبات أن فشله المتكرر فى كل ما قام به لم يكن إلا نتيجة لضربات الحظ العاثر، وهذا الفرد يميل أحيانًا لأن يكون فخورًا بسوء حظه لأنـه يعتقد أن ثمة قوى عليا قد اختصته بغضبها، وإذا ما درسنا وجهة النظر السابقة عن قرب، فإننا سنجد أن الغرور يطل برأسه القبيح – مرة أخرى – من خلف مثل هذه الأفكار، فإن هذه الفئة من البشر تتصرف كما لو كان هناك ثمة قـوة إلهيـة قـد اختصتها بالاضطهاد والتعذيب، وخلال عاصفة رعدية فإن الفرد منهم يعتقد بـأن الصاعقة ستختاره وحده دون الآخرين، وهو يخاف من أن اللصوص سـيختارون بيته بالذات، وعندما يتوقع الآخرون حدوث أحد الكوارث فإن اليقين يملؤه بأن هذه الكارثة ستجعله من المختارين.

والفرد الذى يعتبر نفسه مركزًا للكون هو وحده الذى يبالغ عن طريق اتباع الطريقة السابقة، وظاهريا فإنه قد يبدو على العكس من الأنانية أن يكـون الفـرد ملاحقًا دائمًا بسوء الحظ، ولكن علينا أن نعلم أنه ذلك الغرور اللعين الـذى يعمـل بعناد على جعل الفرد يظن أن هناك قوى عدوانية تهدف للانتقـام منـه وتحطـيم حياته. إن الواحد منهم كانت طفولته مريرة لأنه كان يعتقـد أنـه مسـتهدف مـن الجميع، كما لو كان الناس جميعًا ليس لديهم ما يفعلونه خيـرًا مـن التفكيـر فـى استهدافه ومحاولة إيذائه.

وعلى هذا فإنه يكون من المتوقع أن يعبر هذا الفرد عن موقفـه Attitude من خلال المظهر الذى يميزه، فهو يمشى كما لو كان يرزح تحت عبء الكثير من الأثقال، ودائمًا ما نراه وقد انحنت هامته إلى الأمام حتى يذكر الجميع بحجم أعبائه التى يعانى منها، فهو يذكرنا بتلك الأعمدة اليونانيـة القديمـة Caryatids – هـذه الأعمدة كانت منحوتة على شكل امرأة – التى كانت تحمل مداخل المعابد. إن هذه

الفئة من الأفراد يميل الواحد منهم لأن يتعامل مع كل شيء بجدية مبالغ فيها، كما أن حكمه على الأشياء يكون شديد التشاؤم، وهذا يجعل من السهل علينا تفهم الأسباب التى تجعل كل شيء فى حياته يسير بطريقة خاطئة، ويمكننا أن نقول إن سوء الحظ يضطهده لأنه يتسبب فى نشر المرارة فى حياته وحياة الآخرين، ولكن علينا أن نتذكر أن الغرور هو أساس كل هذه الكوارث والسبب فيها، فعندما يحاول الإنسان أن يشعر بأنه سيئ الحظ بطريقة خاصة جدا. فإن محاولاته هذه ما هى إلا طريقة تمكنه من الشعور بأهميته.

الشخصية المتدينة Religiosity

إن الفرد الذى يشعر - دائمًا - بأن الجميع عاجزون عن فهمه قد ينسحب ويحتمى خلف "الدين"، وهناك فإنه يستمر فى طريقته السابقة دون تغيير، فإن الواحد منهم يشكو ويرثى نفسه ويرمى أحماله على إله الخير الكريم، فهو لا يفكر إلا فى نفسه، ولهذا فمن الطبيعى بالنسبة له أن يؤمن بأن الإله - الذى خلق الكون، والذى يعبده الجميع - لا هم له إلا العناية به وبطلباته، كما أنه يؤمن أيضًا بأن هذا الإله مسئول عن جميع أفعاله، وهذا الإله - فى رأيه - يمكن التقرب منه باستخدام وسائل مثل الصلاة والدعاء بحرارة ونشاط لمدد طويلة أو غيرها من الطقوس والشعائر الدينية، وباختصار فإن هذا الإله - من وجهة نظره - لا يجد ما يشغله إلا مشاكل ومتاعب هذا الفرد، وإن كل انتباهه واهتمامه مركزًا عليه وعلى أمثاله. إن هناك الكثير من الهرطقة Heresy فى تفكير هذا النوع من الأفراد وفى عباداته، حتى إننى أجرؤ على القول بأنه لو عادت أيام "محاكم التفتيش Inquisition" لأصبح أمثال هذا الفرد المتعصب دينيا من أول من يتعرضون للحرق، فهو يتقرب من إلهه بالطريقة نفسها التى يتقرب بها من زملائه من البشر عن طريق "الشكوى" و"التذمر"، ولكنه لا يفعل أى شيء عملى ليساعد نفسه أو يحسن أوضاعه، وهو يشعر أن "التعاون" هو واجب مفروض على الآخرين فقط.

ودعنا الآن نروى حالة مريضة فى الثامنة عشرة من عمرها لأن هذه الحالة توضح إلى أى مدى يمكن أن تندفع "الذات" فى غرورها وأنانيتها. لقد كانت هذه الفتاة الشابة طيبة وصالحة ومفيدة لكل من حولها بالرغم من أنها كانت شديدة

الطموح، وقد ظهر هذا الطموح فى تدينها، فقد كانت تمارس كل الطقوس والشعائر بالكثير من الطاعة والتقوى، وفى أحد الأيام فإنها بدأت توبخ نفسها بشدة على كونها غير ملتزمة فى إيمانها وعدم اتباعها للتقاليد لأنها لم تتبع الوصايا بحذافيرها وفكرت فى أفكار شريرة من وقت لآخر، وعلى هذا فإنها أمضت يومها فى تأنيب شديد متهمة بنفسها بعنف شديد حتى إن الجميع ظنوا أنها فقدت عقلها، فقد كانت تركع فى أحد الأركان وتوبخ نفسها بمرارة، ومع هذا فإنه لم يكن مسموحًا لأى شخص آخر أن يوبخها على أى شيء أيا كان، وفى أحد الأيام حاول الكاهن أن يرفع عبء الشعور بالذنب عنها عندما شرح لها أنها فى الحقيقة لم تخطئ، وأن خلاص روحها سيكون مؤكدًا، فى اليوم التالى عندما رأته فى الشارع ذهبت إليه، وأخذت تصرخ مدعية أنه لا يستحق دخول الكنيسة لأنه قد أخذ عبء خطيئتها على كاهله.

إنه لا حاجة بنا لمناقشة ودراسة المزيد عن هذه الحالة، لكنها توضح كيف أن الطموح يتسلل إلى الدين، وكيف أن الغرور يجعل الفرد يعتقد بأنه هو القاضى الذى يقرر ما هو غير أخلاقى وما هو أخلاقى، وأن من حقه تقرير ما هو ملوث وما هو طاهر، والتفريق بين ما هو شرير وما هو صالح.

المشاعر والعواطف

إنه قد تم التركيز على المشاعر والعواطف عندما درسنا خصائص ومميزات الشخصية، والعواطف تعبر عن نفسها في تدفقات مفاجئة تحت ضغط ضرورة من الضرورات الواعية أو غير الواعية، والعواطف - مثلها مثل الخصائص الشخصية - لها اتجاه محدد، تتخذه في سعيها نحو الهدف المحدد، ويمكننا أن نسمي هذه الحركات "النمو والتطور النفسي" الذي يتم خلال مدة زمنية محددة، أما المشاعر فإنها ليست بالظاهرة الغامضة التي تتحدى الفهم، لأن المشاعر تحدث كلما وجدت المكان مناسبًا لأسلوب الحياة Life style ولنمط السلوك الذي سبق وأن تبناه الفرد، وهدف المشاعر هو أن تحور وتشكل لصالحها "وضع الفرد"، والذي حدثت من خلاله هذه المشاعر، والمشاعر تعمل على زيادة وضوح الحركات العنيفة التي تحدث للفرد الذي هجر الآليات الأخرى الهادفة إلى الوصول لهدفه النهائي، أو فقد إيمانه بإمكانية استخدام أي وسائل أخرى في الوصول لهذا الهدف.

ومرة أخرى فإننا نتعامل هنا مع هذه الفئة من الأفراد التي تشعر بأنها تعاني من مشاعر النقص والدونية Feeling of inferiority والتي تجبر كل فرد في هذه الفئة وتحثه على أن يستجمع كل قواه ويبذل جهدًا أكبر مما يبذله الآخرون. إن قوة هذه الجهود تجعل الفرد يؤمن بأنه قادر على أن يحتل مكان الصدارة في دائرة الضوء، ويثبت أنه قادر على الانضمام إلى فريق المنتصرين، فلا يمكن للفرد أن "يغضب" بدون أن يكون له "عدو"، وبالمثل فإنه من غير الممكن تفهم "عاطفة الغضب" بدون أن نأخذ في الاعتبار هدف هذه العاطفة والذي يتمثل في محاولة "الانتصار" على هذا العدو، وفي حضارتنا فإنه مازال من الممكن للفرد أن يصل لهدفه من خلال السلوك المبالغ فيه، وما أعنيه هو: أنه سيكون لدينا عدد أقل من "ثورات الغضب" إذا كان من المستحيل على الفرد الوصول لهدفه باستخدام هذه العاطفة.

إن الفرد الذى لا يثق فى نفسه وفى قدرته على الوصول إلى هدفه يميل إلى عدم الاستسلام لأن شعوره بعدم الأمان يمنعه من ذلك، وعلى هذا فإنه يحاول الوصول لهدفه من خلال بذل المزيد من الجهد، وبمساعدة مشاعر وعواطف إضافية، وبهذه الطريقة فإن الفرد - مدفوعًا من خلال شعوره بالنقص - يستجمع قواه ويحاول أن ينتصر من خلال الحصول على شىء مرغوب، وهو فى هذا يذكرنا بالشخص الهمجى غير المتحضر الذى ينتقم من خلال الحصول على شىء آخر.

وحيث إن المشاعر والعواطف تكون شديدة الارتباط بالشخصية، فهى بذلك لا تكون خاصة بمجموعة معينة من الأفراد، ولكنها تتواجد بطريقة منتظمة بين البشر جميعًا، وأى فرد من البشر يكون قادرًا على إظهار عواطف محددة لو كان فى وضع مناسب ويمكننا أن نسمى هذه القدرة: "قدرة الشخصية على التعاطف Faculty for emotion"، والعواطف جزء ضرورى من حياة الإنسان، وكل واحد منا قادر على الشعور بهذه العواطف.

بمجرد أن نكتسب فهمًا جيدًا بأفراد المجتمع البشرى، فإنه يمكننا أن نتخيل مشاعرهم العادية وعواطفهم، وبدون أن نتواصل مع هذه المشاعر والعواطف، ومن الطبيعى أن ظاهرة بهذا العمق يظهر تأثيرها على الجسد مع ما هو معروف عن وجود ارتباط حميم بين العقل والجسد، والمظاهر الجسدية التى تصاحب المشاعر والعواطف يظهر تأثيرها فى تغيرات عديدة فى الأوعية الدموية والجهاز التنفسى، وعلى سبيل المثال فإن شحوب الوجه أو احمراره أو تسارع نبضات القلب أو اضطراب التنفس كلها مظاهر جسدية مصاحبة لكل من المشاعر والعواطف.

المشاعر الاختيارية

الغضب Anger

إن الغضب ما هو إلا شعور يُجسد سعى الفرد الحثيث للوصول إلى المزيد من القوة والسيطرة، وغرض هذا الشعور هو: "التدمير القوى والسريع لكل العوائق التى تعترض طريق الفرد الغاضب"، وقد أثبتت الأبحاث السابقة أن الفرد الغاضب:

«هو ذلك الفرد الذى يسعى - بشـدة - نحو "التفوق" من خلال كل الوسائل المتاح استخدامها للقوى المتوفرة له»، وهذا السعى نحو التفوق أحيانًا ما يتحول إلى جنون قوة حقيقى، وعندما يُحدث هذا فإنه يمكننا أن نتوقع أن نجد تلك الفئة مـن الأفـراد التى يحاول الواحد منهم أن تكون ردود أفعاله هى "ثورة غضب" عنيفة فى مواجهة أبسط الأمور وأصغرها إذا ما كان هذا الأمر ينتقص من شعور هذا الفرد بـالقوة، فإن هذا الفرد يؤمن - نتيجة لخبرته السابقة - بأن أفضل طريقة لفـرض مشـيئته هى الانفجار فى "ثورة غضب"، وهكذا فإنه يدمن اسـتخدام هـذه الطريقـة فـى الانتصار على معارضيه، ولكن هذا الإجراء لا يقف على أساس فكرى سليم، ومع هذا فإن "ثورة الغضب" تكون فعالة فى معظم الحالات، والكثير من النـاس يجـد الواحد منهم أن من السهل عليه أن يتذكر كيف أنه قد استعاد هيبته أو اسـتطاع أن يفرض مشيئته من خلال استخدام "ثورة غضب".

وهناك مناسبات كثيرة يكون فيها للغضب ما يبرره، ولكن هـذه المناسـبات ليست موضع الدراسـة الآن، ففى مناقشتنا لموضوع استخدام "الغضب" فإننا نشير لهذه الفئة من الأفراد الذين يحاول الواحد منهم أن يستحضر هذا الشعور حتى إنـه قد أصبح - بالنسبة له - "عادة" و"رد فعل" معروفًا عنه. إن بعض الناس يسـتخدم الواحد منهم بانتظام "غضبه" كوسيلة لتحقيق ما يريد، وهذا لأنه لا يملك أى وسيلة أخرى لمعالجة المشكلة التى تعترضه، وهذا لأنه - عادة - ما يكـون متغطرسًـا ومتعجرفًا كما أنه يكون من تلك الفئة التى تتميز بشدة الحساسية والتى لا تطيق أن يتفوق عليهما أحد، أو حتى أن يكون مساويًا لهما، فإن الفرد من هذه الفئة يجد أنـه من الواجب عليه أن يكون متفوقًا على الجميع حتى يكون سعيدًا، وعلى هذا فإنـه يكون دائم الحذر حتى لا يتمكن أى فرد من الاقتراب من مستواه أو يحاول أن يقلل من قيمته المفترضة، وهذا يجعل "عدم الثقة" صفة من صفاته خاصة بسبب ارتباط هذه الصفة بالفرد الحساس، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن هذا النوع من الحساسية هو الذى يجعل الفرد غير قادر على الثقة فى الآخرين.

وهناك خواص شـخصية أخرى تصاحب "الغضب" و"الحساسـية" و"عـدم الثقة"، ففى الحالات الشديدة يمكننا أن نجد الفرد الشديد الطموح والذى يتجنب كـل مهمة حقيقية والعاجز عن التكيف مع المجتمع، وأنه إذا ما تم حرمان مثل هذا الفرد من أى شىء - أيا كان - فإنه لا يعرف إلا طريقة واحدة فى الرد، وهو يعبر عن

احتجاجه بأسلوب شديد الإيلام لكل فرد آخر، وعلى سبيل المثال فإنه قد يحطم مرآة أو إناء ثمينا، ولا يمكننا تقبل اعتذارات هذا الفرد عندما يحاول أن يبرر تصرفه بأن يقول إنه: "يكون على وعى بما يفعله"، فإن رغبته فى التعبير عن نفسه من خلال التدمير والتحطيم كانت ظاهرة بوضوح لأنه دائمًا ما يدمر كل ما هو ثمين ولا يقتصر فى "ثورة غضبه" على الأشياء قليلة القيمة، وعلى هذا فإنه يمكننا أن نستنتج أن هناك خطة واضحة خلف هذه الأفعال.

وبالرغم من أن هذه الطريقة تحقق بعض النجاح، فإنه بمجرد أن يتسع نطاق الخلاف وحجمه فإن هذه الطريقة تفقد فاعليتها تمامًا، وعلى هذا فإن هذا الفرد الذى اعتاد استخدام "ثورة غضب" يجد نفسه فى صراع مع العالم كله.

إن علامات "الغضب" الخارجية معروفة للجميع، وعلينا فقط أن نفكر فى كلمة "fury" – وهى تعنى فى الأساطير اليونانية "الروح المنتقمة" – حتى نتصور بشاعة هذا الفرد. إن موقفه العدوانى Hostile attitude من العالم شديد الوضوح. إن الشعور بالغضب يعنى إنكارًا كاملاً لكل المشاعر الاجتماعية، والسعى الحثيث نحو إحراز القوة يتم التعبير عنه بمرارة حتى إن "القتل" – فى عرف أمثال هذا الفرد – يعتبر شيئًا مقبولاً وغير مستبعد، والآن دعنا نختبر معرفتنا بـ"الطبيعة البشرية" عن طريق تحليل المشاعر والعواطف المختلفة، حيث إنها – المشاعر والعواطف – هى أكثر مؤشرات الشخصية وضوحًا، وفى البداية علينا أن نصنف كل الأفراد الذين يتميز الواحد منهم بالغضب على أنهم "أعداء" للمجتمع وللحياة، ومرة أخرى فإننى ألفت النظر إلى الحقيقة التى تقول: "إن سعى هذا الفرد الحثيث نحو إحراز المزيد من القوة يضرب بجذوره فى شعور هذا الفرد بالنقص"، فإن أى فرد يثق فى نفسه وفى قوته الشخصية يكون فى غير حاجة لإظهار هذه العدوانية أو ردود الفعل العنيفة. إن هذه الحقيقة يجب التركيز عليها كثيرًا لأهميتها، وخلال "ثورة الغضب" فإن كلا من نمط "النقص" و"التفوق" يظهر بوضوح شديد، ولكننا نعلم أن استخدام مثل هذه الطريقة لزيادة احترام الفرد لذاته وثقته بنفسه على حساب الآخرين ما هو إلا حيلة رخيصة.

إن الكحول هو واحد من أهم المحفزات التى تساعد الفرد على أن يفقد أعصابه بسهولة ويدخل فى "ثورة غضب"، وكمية صغيرة من الكحول تكون كافية عادة لإحداث هذا التأثير فى الفرد، ومن المعروف أن الكحوليات تقلل من تحفظ

الفرد، وتطلق العنان لكل النوازع المكبوتة داخله والتى أخفتها الحضارة، والفرد المخمور يتصرف كما لو كان لم يعش فى حياته فى مجتمع متحضر، وبهذه الطريقة يتمكن من التخلى عن تحكمه فى نفسه، وعن كل الاعتبارات التى كان عليه أن يراعيها فى تعامله مع الآخرين. إن هذا الفرد نفسه - عندما لا يكون مخمورًا - يحتاج جهودًا عظيمة حتى يستطيع أن يخفى مشاعره العدوانيةَ نحو المجتمع، ولكنه بمجرد أن يصبح مخمورًا فإن شخصيته الحقيقية تخرج إلى الوجود، وتلك الفئة من الأفراد التى فقدت التناغم بينها وبين الحياة كثيرًا ما تلجأ إلى الكحوليات، فإن الواحد منهم يجد أن الكحوليات ما هى إلا وسيلة للتعزية والنسيان كما أنها مبرر لفشله فى الوصول إلى هدفه.

و"ثورة الغضب" أكثر شيوعًا بين الأطفال منها بين البالغين، وأحيانًا قد يكون حدث صغير وغير ملحوظ سببًا كافيًا - فى نظر الطفل - فى حدوث "ثورة الغضب"، والسبب فى هذا هو شعور الأطفال العظيم بالدونية وقلة الخبرة التى حصلوا عليها خلال حياتهم القصيرة، ولهذا فإننا نجد أن الطفل يُظهر سعيه الحثيث نحو إحراز القوة من خلال أساليب أكثر شفافية ووضوحًا من التى يستخدمها البالغون. إن الطفل الغاضب يسعى بشدة للحصول على تقدير الآخرين واعترافهم بتميزه وهذا لأن كل عقبة فى طريقه تبدو كما لو كانت عقبة هائلة لا يمكن التغلب عليها.

عندما يتجاوز الفرد حدود السلوك المتعارف عليه من الغضب المعتاد ويصبح الغضب لديه شعورًا عميقًا ومتأصلاً، فإنه قد يتسبب فى إلحاق أضرار جسدية ومعنوية شديدة بنفسه، ولعله من المفيد أن نذكر - فى هذا الخصوص - شيئًا عن طبيعة الانتحار، لأن الانتحار غالبًا ما يكون محاولة من الفرد لإلحاق الأذى بالأقارب أو الأصدقاء، والانتقام لنفسه عما تعرض له من هزائم.

الحزن الشديد Grief

إن الحزن الشديد يحدث عندما يكون الفرد عاجزًا عن الحصول على تعزية على ما فقده أو حرم منه، وهذا الشعور - مثله مثل غيره من المشاعر - ما هو إلا تعويض للتجربة التى يشعر بها الفرد من خلال اختباره للتعاسة أو الضعف،

وفى هذا الخصوص فإن قيمته تكون مطابقة لقيمة "ثورة الغضب"، والفارق أنها تحدث كنتيجة لمؤثرات أخرى، كما أنها تكون مميزة بموقف مختلف Different attitude، وباستخدام الفرد لطرق مختلفة.

إن سعى الفرد الحثيث من أجل إحراز التفوق يلعب دورًا ملحوظًا فى زيادة "الحزن الشديد" مثله فى هذا مثل كل المشاعر الأخرى، فبينما كان الغضب يستخدم فى زيادة شعور الفرد باحترامه لذاته وثقته فى قدراته، والحط من معارضيه فى الوقت نفسه، وعلى هذا فقد كان الغضب موجهًا نحو شخص آخر، بالمثل فإن الحزن الشديد ما هو فى الواقع إلا تقلص للأفق النفسى للفرد والذى ما هو إلا أحد الشروط المفترض توافرها لتوسع الفرد ومن خلاله يتمكن الفرد – الذى يشعر بالحزن الشديد – من تحقيق الرضا عن النفس والشعور بأنه ارتفع شخصيا فوق الآخرين، ولكن هذا الرضا عن النفس يأخذ صورة انفجار فهو رد فعل متخذ ضد البيئة الاجتماعية، وإن كان فى صورة مختلفة عن الصورة التى يتخذها الغضب. إن الفرد الذى يعانى من الحزن الشديد يكون كثير الشكوى، وشكواه ما هى إلا تعبير عن اعتراضه على زملائه فى البشرية وعدم توافقه معهم، ووجود هذا الشعور طبيعى جدا فى البشر، ولكن المبالغة فى الشعور بالحزن تعتبر إشارة عدوانية ضد المجتمع.

ويمكن للفرد أن يتخلص من الحزن الذى استحوذ عليه من خلال موقف المحيطين به Their attitude، فكلنا يعرف كيف أن مثل هذا الفرد يجد أن وضعه قد خف وتحسن من خلال الطريقة التى يهرع بها الآخرون لمساعدته والتعاطف معه، فإن الوقوف بجانبه يشجعه على التخلص من محنته، إذا كان البشر يشعرون بالراحة بعد البكاء، فإن هذا يكون لأن الواحد منهم قد شعر بأن العبء انزاح عنه، وأنه الآن فى وضع من يوجه الاتهام ضد النظام الحالى للأشياء، وكلما زادت طلباته من البيئة المحيطة به – بسبب حزنه الشديد – كلما أصبح أقوى حجة، وظهر المنطق القوى خلف طلباته التى يوجهها للبيئة المحيطة به. إن الحزن الشديد يصبح حجة لا يمكن هزيمتها، كما أنه يضع مسئوليات واجبة التنفيذ على كل أصدقاء الفرد وجيرانه وعائلته. إن هذا الشعور يشير بوضوح إلى الصراع الدائر داخل الفرد وهو يحاول أن ينتقل من وضع الضعيف إلى وضع المتفوق، ومحاولاته الدائمة لاستعادة وضعه والتخلص من الشعور بالضعف والدونية.

Disgust الاشمئزاز

إن تأثير الإشمئزاز والقرف يحدث الكثير من الفوضى والإعاقة داخل المجتمع، وبالرغم من أن هذا الشعور أقل فى تأثيره من المشاعر الأخرى، ومن الناحية الجسدية فإن الاشمئزاز يحدث عندما يرى الفرد منظرًا لا يسر، أو يشم رائحة تثير معدته بطريقة غير محببة، أما من الناحية الذهنية فإن الاشمئزاز يتكون من مجموعة من الميول والمحاولات لطرد شيء ما خارج النفس Psyche، وهنا تبدأ طبيعة هذا الشعور - من حيث نشره للفوضى وإعاقته لنمو وتطور الفرد الطبيعى - فى الظهور، فالاشمئزاز ما هو إلا مقت شديد وكراهية، والتكشيرة التى تصاحب هذا الشعور تشير إلى إدانة الفرد واحتقاره لكل ما حوله، كما أنها تعتبر محاولة لمواجهة المشاكل وحلها عن طريق استخدام الرفض.

إن هذا الشعور يساء استخدامه عندما يستغله الفرد ويستخدمه كمبرر لإبعاد نفسه عن وضع تعيس، ومن السهل على الفرد أن يحفز نفسه ويدفعها إلى الشعور بـ"الغثيان Nausea"، ومتى تم استحضار هذا الشعور فإن الفرد يشعر - بالضرورة - بأن عليه أن يهرب منه عن طريق الابتعاد عن الوضع الذى وجد نفسه فيه، ولا يوجد شعور آخر يمكن إنتاجه بطريقة صناعية بمثل السهولة التى يمكن بها للفرد أن ينتج الشعور بالاشمئزاز والقرف، فإن قليلاً من التمرين يُمكن أى فرد من أن يتعلم كيف ينتج الشعور بالغثيان كلما تطلب منه الوضع أن يفعل هذا، وهكذا فإن شعورًا غير مؤذ مثل الاشمئزاز قد تحول ليصبح سلاحًا قويا ضد المجتمع، أو عذرًا مقبولاً لتجنب الاختلاط بالآخرين.

Fear الخوف

إن الخوف واحد من أكثر الظواهر معنوية فى حياة البشر، وهذا الشعور يزداد تعقيدًا من خلال الحقيقة القائلة "إنه عاطفة اختيارية، كما أنه - مثله مثل الحزن - يمكنه أن يخلق رابطة من جانب واحد بين الفرد وبين من حوله". إن الطفل يستطيع أن يتهرب من أحد الأوضاع عن طريق استخدام الخوف، فهو يجرى ليحتمى بشخص آخر. إن الآلية التى يعمل بها الخوف لا تظهر بطريقة مباشرة أى نوع من أنواع التفوق، بل إنها على العكس تعطى انطباعًا بأن الفرد قد

تلقى هزيمة، فعندما نكون خائفين، فإننا نحاول أن نجعل أنفسنا صغارًا بأن ننكمش على أنفسنا، ولكن هذه النقطة هى التى يظهر عندها الجانب الآخر من هذا الشعور، وهذا هو الجانب الذى نرى فيه العطش الشديد نحو التفوق، فإن الفرد الخائف عندما يشعر بأن عليه أن يبحث عن الآخرين - التماسًا للحماية - إنما يحاول أن يفعل هذا حتى يتمكن من تقوية نفسه حتى يصل إلى درجة من القوة تمكنه من مواجهة ما سبب له الخوف والانتصار عليه.

إننا عندما نتعامل مع الشعور بالخوف، فإنما نتعامل مع ظاهرة ذات وظيفة عضوية عميقة الجذور، فإن هذه الظاهرة ما هى إلا انعكاس للخوف البدائى الذى كان يتملك كل الكائنات الحية، والبشر - على وجه الخصوص - كانوا معرضين أكثر من غيرهم لهذا الشعور بسبب ضعفهم وشعورهم بعدم الأمان فى البيئة الطبيعية التى كانوا يعيشون فيها، فإن المعلومات الفطرية التى كان يعرفها الإنسان كانت غير كافية على وجه الإطلاق لمواجهة صعوبات الحياة حتى إن الأطفال كان من المستحيل عليهم أن يستمروا فى البقاء على قيد الحياة باستخدام هذه المعلومات فقط (أى بدون عون من البالغين)، فإن على الآخرين أن يسهموا بما ينقص الطفل، والطفل يشعر بهذه الصعوبات بمجرد دخوله إلى عالمنا لأن هذا العالم يبدأ فى وضع الكثير من المتطلبات عليه، فهناك دائمًا خطر فى أن الطفل سوف يفشل - فى سعيه نحو التعويض عن شعوره بعدم الآمان - ومن ثم فإنه سوف يطور ويتبنى فلسفة تشاؤمية نتيجة لفشله هذا، وهكذا فإن أكثر مميزات شخصيته معنوية سوف يصبح "عطشه الدائم للحصول على المساعدة من الآخرين ورغبته الشديدة فى أن يكون له اعتباره بين زملائه، وكلما أصبحت مشكلات الحياة عصية على الحل (صعبة الحل) كلما ازداد حذره، وإذا تم إجبار مثل هذا الطفل على إنجاز أحد المهام بالاعتماد على نفسه فقط، فإنه سيحمل معه كل ما سيحتاج إليه للهروب والتراجع، فهو دائمًا ما يكون مستعدا للهرب، وأكثر مميزات شخصيته وضوحًا هو شعوره بالخوف.

ونحن نرى بداية هذا الصراع فى الطريقة التى يتم بها التعبير عن الخوف، والذى غالبًا ما يتم بطريقة غير مباشرة وبدون هجوم واضح، وكثيرًا ما يمكننا تفهم طريقة عمل النفس The Psyche بعمق عندما يحدث انحلال وتفسخ نفسى لهذه المشاعر، وفى هذه الحالات يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن الفرد الخائف يحاول

– بأى طريقة – الحصول على المساعدة، ويسعى لجذب الآخرين نحوه وتقييدهم إلى جانبه.

إن الدراسة العميقة لهذه الظاهرة تقودنا إلى أن نأخذ فى الاعتبار بعض ما سبق وناقشناه عندما كنا ندرس موضوع القلق، فى هذه الحالة فإننا نتعامل مع فرد يطالب بالمساعدة والتأييد من الآخرين، فهو فى حاجة لمن يهتم به طوال الوقت، وتصبح علاقاته مشابهة للعلاقات الموجودة بين "السيد" و"العبد" كأن يكون على شخص آخر أن يكون متواجدًا طوال الوقت بغرض تقديم المساعدة والتأييد للفرد القلق ولو فحصنا هذه النقطة عن قرب، فإننا سنجد أن الكثير من الناس – فى مجتمعنا – يمضون حياتهم، وهم يطالبون بأن تتم معاملاتهم بطريقة خاصة وأن يحصلوا على رعاية خاصة من كل من يتعامل معهم، فإن الواحد منهم قد فقد استقلاله تمامًا – نتيجة لطريقة خاطئة وغير مناسبة للتواصل مع العالم المحيط به – حتى إنه يطالب بعنف بأن تكون له مميزات استثنائية، ولا يجب أن تخدعنا المظاهر، فمهما زاد سعى الفرد منهم لأن يكون فى صحبة الآخرين، فإن الفرد السابق لا يتمتع – حقيقة – بالكثير من الشعور الاجتماعى، فبمجرد أن يتعرض الواحد منهم للخوف والرعب حتى يبدأ فى المطالبة بوضع مميز واستثناءات خاصة، إن الخوف يساعده على تجنب مطالب الحياة، كما أنه يمكنه من السيطرة على ما حوله، وأخيرًا فإن الخوف يتسلل إلى الكثير من العلاقات اليومية حتى إنه أصبح أهم أداة فردية تستخدم للسيطرة والهيمنة على الآخرين.

إساءة استخدام العواطف — The misuse of emotion

إنه لا يوجد من يستطيع فهم معنى وقيمة المشاعر والعواطف إلا من اكتشف قيمتها كأداة يمكن استخدامها للتغلب على شعور الفرد بالدونية والحصول على مكانة خاصة واعتراف الآخرين به. إن خاصية إظهار العواطف والمشاعر لها الكثير من التطبيقات الواسعة فى "حياة النفس The life of the psyche "، فعندما يشعر الطفل بأنه مهمل، فإنه قد يتعلم أنه بإمكانه السيطرة على البيئة المحيطة به خلال "ثورات الغضب" أو الدموع أو التظاهر بـ"الخوف"، وسيبدأ فى اختبار هذه الطرق وفحص مدى جدواها فى الحصول على الهيمنة والسيطرة المرة بعد

الأخرى، وبهذه الطريقة سينشأ عنده نمط سلوكى، وهذا النمط سيسمح له بأن يكون له رد فعل – حتى للمثيرات والمؤثرات الضئيلة – بالقوة نفسها التى يستجيب بها فى الأحوال العادية، فهو يستخدم عواطفه بما يناسب ظروفه واحتياجاته، وهذا الانشغال الدائم بالعواطف عادة سيئة جدا حتى إنها أحيانا تصبح حالة مرضية، وعندما تحدث هذه التطورات فى مرحلة الطفولة المبكرة فإننا نجد أن هذا الطفل – عندما يصل إلى مرحلة البلوغ – دائمًا ما يسيء استغلال عواطفه. إن هذا الفرد يستغل الغضب والحزن الشديد وكل المشاعر الأخرى بطريقة درامية، وبالطريقة نفسها التى يتحكم بها الحاوى فى الخيوط التى تحرك العرائس الخشبية فى مسرح العرائس. إن هذا السلوك عديم القيمة وغير مفيد ويحرم العواطف من معناها الحقيقى، واستغلال العواطف بهذه الطريقة سرعان ما يتحول إلى عادة يرد بها الفرد على من حوله خاصة إذا ما حاولوا أن يرفضوا له طلبًا، أو اكتشف أن سيطرته على من حوله مهددة، وكثيرًا ما يتم التعبير عن الحزن الشديد بصورة عنيفة يكرهها الجميع: كأن يكون من خلال الصراخ العالى والمظاهر المفضوحة والتصرفات الهستيرية، ولقد رأينا بعض الناس الذين يعطى الواحد منهم الانطباع بأنه فى حالة تنافس مع الجميع فى مقدار الحزن الشديد الذى يستطيع إظهاره.

وبالطريقة نفسها يمكن إساءة استخدام المظاهر الجسدية المصاحبة لمثل هذه العواطف، فمن المعروف أن هناك بعض الأفراد الذين يسمح الواحد منهم لغضبه بأن يؤثر على جهازه الهضمى حتى إنه يتقيأ عندما يكون غاضبًا. إن هذه الآلية تعبر عن عدوانيته بطريقة واضحة، كما أن الحزن الشديد يكون مقترنا برفض الأكل حتى إن الفرد يفقد الكثير من وزنه ويبدو وكأنه صورة مجسدة للحزن.

ولا يمكننا أن نتجاهل هذه التصرفات لأنها تؤثر على غيرهم من البشر، ففى اللحظة نفسها التى يعبر فيها أحد جيرانه عن تعاطفه أو اهتمامه بما حدث لهذا الفرد، فإن ميل هذا الفرد لإظهار رد الفعل العنيف الذى سبق لنا أن وصفناه يتلاشى ويتوقف، ومع هذا فإن هناك أفرادًا يشتهى الواحد منهم سماع عبارات التعاطف والاهتمام التى يقدمها الآخرون حتى إنه يتمادى فى إظهار حزنه الشديد أو خوفه بلا توقف، وهذا لأنه يتولد لديه شعور متزايد بقيمته بفضل التعبيرات المتعددة عن التعاطف والاهتمام والتى أتت من كل من حوله من أقارب وأصدقاء.

وبالرغم من حصول هذا الفرد على التعاطف منا، فإن عواطف مثل الغضب والحزن الشديد والاشمئزاز والخوف كلها عواطف تتسبب فى الكثير من الفوضى

والإعاقة لنمو وتطور المجتمع، لأنها لا تساعد على التقريب بين الناس بل إنها على العكس تباعد بينهم لأنها تتسبب فى تدمير مشاعرهم الاجتماعية، والحزن الشديد يمكن أن يكون عاملاً لزيادة الترابط بين البشر، ولكن هذا الترابط لا ينشأ ويتطور بطريقة طبيعية إذا ما كانت الأطراف المشاركة لا تسهم بطريقة متساوية فى إنشاء هذا الترابط، وعلى هذا فإنه يتسبب فى تشويه الشعور الاجتماعى عندما يأتى الدور على الفرد المتلقى لأن يسهم ويعطى بمقدار ما أخذ من قبل.

المشاعر المترابطة

السعادة — Joy

إن السعادة شعور يعمل على رأب الصدع وتقريب المسافات التى تفصل بين الناس، لأن السعادة لا تسمح بالعزلة، والتعبير عن السعادة – والذى يظهر فى السعى للبقاء فى صحبة الآخرين، والعناية والترحيب بهم، وغيرها من المظاهر – ينشأ فى الإنسان الذى يرغب فى أن يكون جزءًا من الجماعة وأن يستمتع بصحبتها، وهذا الشعور مترابط وعاطف لأنه خطوة فى اتجاه الوحدة، ويد ممدودة بالصداقة وإشعاع باعث على الشعور بالدفء.

وعلينا هنا أن نعترف بأننا مازلنا نتعامل مع ذلك الفرد الذى يحاول أن يتغلب على مشاعر عدم الرضى أو شعوره بالوحدة حتى يتمكن من الوصول إلى "التفوق"، أو يتحرك على هذا الخط الذى يصل بين التعاسة والسعادة،[*] وفى الواقع فإن السعادة هى أفضل طريقة للتغلب على الصعوبات، لأن الضحك – مع ما هو معروف عنه من قدرته على توليد طاقة تعمل على تحرير الفرد وتخليصه من كل ما يعوق نموه وتطوره – يكون شديد الارتباط بالسعادة ويمثل الركيزة الأساسية لكل المشاعر الأخرى، لأنه يمتد إلى ما وراء الشخصية ويجذب تعاطف الآخرين.

(*) المؤلف هنا يتحدث عما سبق وشرحه لنا من أن الفرد يحاول أن يحسن موقفه بأن يغير من ظروفه، وأن ينتقل بنفسه من وضع أقل من التعاسة، وإلى وضع ما هو أكثر من السعادة، لأنه يتخيل هنا وجود خط مستقيم يصل ما بين التعاسة والسعادة، وأن وضع الفرد العادى هو فى درجة أقل من التعاسة نفسها، وأن هدفه النهائى هو الوصول إلى درجة السعادة ثم تجاوزها لما هو فوق السعادة. (المترجم)

ولكن الضحك والسعادة يمكن إساءة استخدامهما أيضًا، فقد يحاول الفرد استغلالهما لتحقيق منافع شخصية، وعلى سبيل المثال: كان لدى مريض يخاف من أن يظهر مشاعره بالعجز والدونية، وبدأ هذا المريض يظهر علامات السعادة عندما سمع بحدوث كارثة زلزال خطيرة فى أحد المناطق، أما عندما كان يتملكه الحزن فإنه كان يشعر بالعجز ولهذا فإنه كان يرفض الحزن وكان يحاول أن يشعر بالشعور العكسى، وهناك طريقة أخرى لإساءة استخدام السعادة هى Schadenfreude، أو ذلك الشعور باللذة الذى يتملك الفرد عندما تلحق الكوارث بالآخرين، أو السعادة التى يشعر بها الفرد عندما يتسبب فى إيلام الآخرين، والسعادة التى تظهر فى وقت غير مناسب أو فى مكان غير مناسب تتنكر للشعور الاجتماعى وتتسبب فى تدميره، وهى تعتبر شعورًا غير ترابطى ويستخدمها الفرد كمجرد أداة لتحقيق النصر.

التعاطف Sympathy

إن التعاطف ما هو إلا انفجار لمجموعة من العواطف التى تعبر عن الشعور الاجتماعى، وعندما يتواجد هذا الشعور فى الفرد، فإنه يمكننا – عمومًا – أن نتأكد من أنه شخص ناضج وأنه يتمتع بضمير ووعى اجتماعى، وهذا لأن التعاطف، يعتبر مقياسًا جيدًا لمقدرة الفرد على الشعور بمشاعر الآخرين.

ولكن للأسف فإن التعاطف الأصيل يكون أقل شيوعًا، وينتشر بين الناس نوع من التظاهر بالتعاطف، وهو يتكون من تظاهر الفرد بأنه شديد الاهتمام بالصالح العام، ومبالغة شديدة فى التعاطف على المستوى الفردى، وهذا الفرد ينتمى إلى تلك الفئة من الناس التى تتزاحم أماكن وقوع الكوارث على أمل الحصول على من يلتقط صورهم أو من يذكرهم فى الصحف لأن غرضهم هو أن يذكرهم الآخرون ولا تعنيهم ضحايا الحادثة فى شيء، بينما يتلذذ الآخرون بذكر الأشخاص الذين حاقت بهم الكوارث، هناك أيضًا تلك الفئة من "المتعاطفين المحترفين Professional sympathizers" ومانحى الصداقات والذين يكون الواحد منهم متشبثًا بنشاطاته كل التشبث، وهذا لأنه يكون فى الواقع يبنى لنفسه شعورًا بتفوقه من خلال معاناة وبؤس الضحايا الذين يتظاهر بأنه يساعدهم، وهذا يذكرنى

بكلمات روشِفيكوو Rochefoucauld [*] ذلك الحكيم والخبير بالطبيعة البشرية عندما قال:

"إنه يمكننا دائمًا أن نجد بعض ما يرضينا فى الكوارث والمصائب التى تحيق بأصدقائنا".

إن هناك محاولة خاطئة للربط ما بين سعادتنا بالكوارث والمصائب التى تلحق بالآخرين وبين هذه الظاهرة، فلقد قيل إن المشاهد يشعر بأنه متفوق على الشخصيات الموجودة على المسرح، ولكن هذا غير صحيح بالنسبة لمعظم الناس، فإن اهتمامنا بالمآسى الدرامية يرجع بأصوله إلى رغبة الفرد فى أن يتعلم المزيد وفى أن يزود نفسه – ذاتيا – بالتعليمات والإرشادات، فنحن لا ننسى أن ما نشاهده ما هو إلا مجرد مسرحية، ولكننا نستخدم هذه الخبرة لنعطى أنفسنا قوة دافعة ومنبهًا إضافيا فى محاولاتنا لمواجهة مشاكل الحياة.

التواضع Humility

إن التواضع ما هو إلا شعور ترابطى وشعور اختيارى فى الوقت نفسه (أى أنه يجمع بين الخصائص المميزة للمجموعتين). إن هذا الشعور هو أيضًا جزء من علاقاتنا بالعالم المحيط بنا، وعلى هذا فإنه لا يمكن فصله عن "نفسيتنا Our psyche"، والحياة فى المجتمع البشرى ستكون مستحيلة بدون بعض التواضع ونكران الذات لأنه هو الذى يجعلنا على وعى بضرورة "التعاون".

إن التواضع يحدث عندما يبدو أن صفات الفرد ومميزاته ستكون موضع تساؤل وفحص من الآخرين، أو عندما يكون احترام الفرد – الموجود فى وعيه – لذاته وثقته بقدراته معرضًا للخطر لأن مثل هذا الشعور سرعان ما يصل إلى جسد الفرد، وينتج عنه تمدد السطح الخارجى للشعيرات الدموية. إن احتقان شعيرات البشرة – أو الاحمرار والتورد – يحدث عادة لمنطقة الوجه فقط، ولكن هناك بعض الناس يحدث احمرار لجميع أجزاء جسدهم وليس الوجه فقط.

(*) فرانسوا دى لا روشِفيكوو. هناك نبذة وافية عن حياته فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب. (المترجم)

إن التواضع يمكن أيضًا أن يتحول إلـــى "موقـــف منســحب Attitude of withdrawal"، فهو قد يصبح علامة على عزلة الفرد، ويتميز بالقليل من الاكتئاب، والذى قد يصل إلى حد استعداد الفرد للتهرب من كل الأوضاع التـــى يـــرى أنهـــا تهدده، فهذا الفرد عيونه منكسرة وخجولة ومستعدة دائمًا للهرب من مواجهة عيون الآخرين، وهذا يكشف عن أن التواضع – مثله مثل باقى المشـــاعر – يمكـــن أن يكون اختياريا إذا ما تم إساءة استخدامه.

وبعض الناس يصبح الواحد منهم شديد الخجل بسهولة حتى إن كل علاقاتـــه بالآخرين تفسد بسبب هذه الميزة الاختيارية، فإن قيمتها كوســـيلة لتحقيـــق العزلـــة تصبح واضحة عندما يتم استغلالها بهذه الطريقة المبالغ فيها.

ملاحظات عامة

عن التعليم وتربية الأطفال:

ودعنا الآن نحاول إضافة بعض الملاحظات على موضوع مررنا عليه من قبل، وأنا هنا أعنى التساؤل الخاص بالتعليم وتأثيره على نمو وتطور النفس The psyche فى المنزل وفى المدرسة وفى الحياة عمومًا.

إنه لا شك فى أن التربية الحديثة للطفل ترعى سعى الطفل الحثيث نحو إحراز القوة، كما أنها تساعد على نمو الغرور وتطوره لدرجة كبيرة، وكل واحد منا يستطيع أن يقدم أمثلة على صحة العبارة السابقة من واقع خبراته الشخصية، وأنا هنا لا أنكر أهمية الأسرة كمعهد ومؤسسة لها الكثير من المميزات، بل إنه من الصعب تخيل وجود منظمة أفضل لرعاية الأطفال من الأسرة لأن جو الأسرة يوفر بيئة مناسبة لتنشئة الطفل، والأسرة أكثر معاهدنا الاجتماعية مناسبة للحفاظ على بقاء الجنس البشرى، خاصة عندما تكون صحة بعض الأفراد غير سليمة، كذلك إذا ما كان الأبوان معلمين صالحين ولديهما القدر الكافى من البصيرة والقدرة على تحديد العيوب والأخطاء الموجودة فى نمو وتطور الطفل بمجرد ظهورها، وكانا قادرين على تصحيح هذه العيوب وتلك الأخطاء، فإنه سيكون من دواعى سعادتى أن أقرر أنه لا توجد أى مؤسسة أو معهد أحسن من الأسرة وأقدر منها على العناية بأطفالنا.

ولكن لسوء الحظ فإن الآباء والأمهات - على وجه العموم - ليست لديهم معلومات كافية عن علم النفس أو التدريس، وهكذا فإنه توجد درجات مختلفة من الغرور المرضى داخل الأسرة، وهى التى تسيطر على عملية تربية الأطفال فى أيامنا هذه، وهذا الغرور والتبجح المرضى يطالب بأن تتم معاملة أطفال هذه الأسرة معاملة خاصة، حتى ولو كان هذا على حساب باقى الأطفال، وهكذا فإن أمثال هذه الأفكار المنتشرة فى الكثير من الأسر ترتكب أبشع الأخطاء النفسية فى حق الطفل، لأنها تزرع فى ذهنه أبشع الأفكار وأكثرها خطأ، ألا وهى أنه من الواجب عليه أن يكون متفوقًا عن كل من حوله.

وينشأ عن هذه الظاهرة ما يمكن أن نعرفه بأنه "نمط الأسرة التقليدى Typical family pattern" وهو يعتمد على قيادة وريادة الأب، وأن يكون هو الشخص المتفوق فى الأسرة، وعند هذه النقطة تبدأ المتاعب فى الحدوث، لأن هذه السلطة الأبوية لا يربطها الكثير من العلاقات بالمشاعر السائدة فى المجتمع والتوافق الاجتماعى Interdependence(*) (أو الاتكال المتبادل) الذى يجب أن يسود بين أفراد المجتمع. إن تجربة السلطة النمطية سرعان ما تغرى الفرد بأن يقاوم - داخليا - الشعور الاجتماعى، ورغم أنه نادرًا ما تحدث الثورة بطريقة واضحة ومكشوفة، وأكثر الأخطار فى هذه التربية ضررًا يكمن فى أن الطفل يصبح له قدوة من شخص يقدس القوة وتعطيه محبة ورغبة فى الحصول على هذا الوضع الذى يوفر له التمتع بالقوة، وهكذا فإن الطفل ينمو وبداخله جشع شديد ورغبة فى السيطرة، ويصبح مغرورًا وشديد الطموح، وأنا أعلم أن كل الأطفال يرغب الواحد منهم فى الوصول إلى القمة والبقاء عليها، وكل طفل يرغب فى الحصول على الاحترام، وسيطالب - إن عاجلاً أو آجلاً - بالدرجة نفسها من الخضوع والاستسلام التى كان يحصل عليها الأب، وتكون النتيجة المحتومة لهذه التوقعات المزيفة والخاطئة هى أن الطفل يتبنى موقف المحارب Belligerent attitude المولع بالقتال، ويتخذ هذا الموقف ليس فقط من أبويه، بل من العالم أجمع.

ويصبح من المستحيل عمليا على الطفل - تحت الظروف السابقة، والتى تكون سائدة داخل الكثير من الأسر - أن يرى أى شىء آخر غير ذلك الهدف فى تحقيق التفوق على الجميع، ويمكننا أن نرى هذه الرغبة فى الكثير من الأطفال الصغار، والذين يحاول الواحد منهم أن يلعب دور الكبار، ويمكننا أن نراها - فيما بعد - فى حياة الفرد الذى تكون أفكاره أو ذكرياته غير الواعية عن طفولته توضح أنه مازال يعامل العالم كله كما كان يعامل أفرادًا داخل أسرته، وإذا ما تمت معارضته أو مقاومته، فإنه يميل للانسحاب من العالم، والذى يكون قد أصبح - بالنسبة له - عالمًا كريهًا.

(*) وهو تعبير يعنى اعتماد أفراد المجتمع "المستقلين" - أى الذين يتميز كل منهم بأنه قادر على الاستقلال بنفسه - على بعضهم البعض، وهو بذلك يخالف اعتماد الفرد غير المستقل Dependence على غيره لأن هذا الفرد يكون عاجزًا عن الاستمرار فى الحياة إذا ما توقف عن الحصول على المساعدات التى يقدمها الآخرون. (المترجم)

وحقيقى أن الأسـرة مهيأة - بالفعل - لتنشـأ وتنتج "شـعورًا اجتماعيـا" قويا داخل الطفل، ولكن لو أننا تذكرنا "التأثير" القوى للسعى الحثيث لإحراز القـوة و"الحضور" الطاغي والواضح للسلطة داخل الأسرة، فإننا سنجد أن هذه الظـروف لا توفر المناخ المثالى للشـعور الاجتماعى، وأنها لا تسمح بنمـوه وتطـوره إلا بدرجة محدودة. إن تحركات الطفل الأولى نحو الحب والحنان تكـون ذات صـلة بعلاقته بأمه، وربما تكون هذه أهم خبرة يمر بها الطفل لأنه يكتشف - من خـلال هذه الخبرة - وجود شـخص آخر يمكن الوثوق به، وعندها يـتعلم الفـرق بـين الـ"أنا" والـ"آخر".

وقد قال "نيتشه Nietzsche":

"إن كل واحد منا يشكل صورة محبوبته من خلال علاقته بأمه".

أما "جان هنريك بيستالوزى Johann Heinrich Pestalozzi" - وهو مصلح اجتماعى ومعلم سويسرى - فإنه قد أوضح أن الأم تكون القدوة والمثـل الأعلـى الذى يحدد شكل علاقات الطفل بالعالم. إن علاقة الطفل بالأم هى التى تحـدد كـل نشاطاته التالية.

ولهذا فإن وظيفة الأم هى العمل على تطوير الشعور الاجتماعى لدى الطفل، وكل هذه الميول الشخصية الغريبة التى نراها بين الأطفال تنـتج عـن علاقـاتهم بأمهاتهم، كما أن الاتجاه الذى يأخذه هذا النمو والتطور يعتبر مؤشرًا علـى مـدى سلامة علاقة الأم بطفلها، فعندما تكون هذه العلاقة غير مرضية، فإننا عادة ما نجد عيوبًا اجتماعية محددة فى الطفل، وهناك نوعان أساسيان من الأخطاء شائعة بشدة:

النوع الأول من الأخطاء: وينشأ هذا النوع عندما لا تقوم الأم بتأدية دورهـا بطريقة مناسبة، ويؤدى هذا إلى أن أطفالها يفشلون فى تطوير أى شعور اجتماعى. إن هذا العيب شديد الأهمية لأن له الكثير من النتائج غير السـارة، فالطفـل ينشـأ كغريب فى أرض غريبة، وإذا أردنا أن نسـاعد أمثال هذا الطفل فإنه ليس أمامنـا إلا طريق واحد، ألا وهو أن نعيد تمثيل دور الأم، والـذى افتقـده الطفـل خـلال مراحل نموه وتطوره. إن هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن نحوله إلى زميل لنا فى البشرية.

النوع الثانى من الأخطاء: إن هذا النوع أكثر شيوعًا وفيه تقـوم الأم بلعـب دورها، ولكنها تبالغ بشدة وبأسلوب مؤكد حتى إن الطفل يصبح عاجزًا عن تطـوير

أي شعور اجتماعي تجاه أي شخص آخر، عدا أمه بالطبع. إن هـذه الأم لا تسـمح للحب الذي ينمو ويتطور داخل أطفالها بأن يعبر عن نفسه إلا فـي اتجاههـا فقـط، وعلى هذا فإن الأطفال يخرجون إلى الحياة بلا اهتمامات، عـدا اهتمـامهم بـالأم، وتكون النتيجة ألا يكون هناك أي شعور اجتماعي بينهم وبين باقي العالم، وبـالطبع يكون أمثال هؤلاء الأطفال بلا أساس سليم يمكنهم من بناء أو تطوير حياة اجتماعية.

هناك العديد من العوامل الأخرى التي تلعب دورًا مهما مـن خـلال نشـأة الطفل بجانب علاقته بأمه، فإن الطفولة السعيدة تساعد الطفل على أن يجد مكانـه في العالم، وعلينا أن نتذكر الصعوبات التي يواجهها الأطفال في هذه المرحلة مـن حياتهم، وكيف أن القليل منهم فقط هم الذين يتمكنون من التغلـب عليهـا بطريقـة تسمح لهم بأن يكونوا على علاقات طيبة وطبيعية مع العالم خلال هـذه السـنوات المبكرة من حياتهم، أو يجدوا العالم مكانًا مناسبًا للحياة. إن هذا يعطينا فكرة عـن الأهمية الشديدة، والمعنى غير العادي الذي يلصقه الطفل بانطباعاته الأولـى عـن الأشياء. إن هذه الانطباعات تصبح علامات الإرشاد الموجودة على طريق الحيـاة الذي يسلكه الطفل في العالم، وعلينا أن نتذكر أن الكثيرين قد أتوا إلى هـذا العـالم كأطفال مرضى، وأن انطباعاتهم كانت ممتلئة بالآلام والأحزان، وعلينا أن نتـذكر أيضًا أن معظم الأطفال لا تكون طفولة الواحد منهم ممتلئة بالسعادة. إن كـل مـا سبق يجعلنا نتفهم بسهولة عدم وجود عدد كبير من الأطفال الذين يتخذ الواحد منهم موقفًا وديا من الحياة والمجتمع، وأن هناك عددًا أقل له دوافـع تحمـل الشـعور الاجتماعي الحقيقي داخلها.

وبالإضافة إلى كل ما سبق فإن علينا أن نأخذ في الاعتبـار التـأثير المهـم للأخطاء التي يتم ارتكابها في خلال مرحلـة الطفولـة، فـإن التنشـئة المتزمتـة والصارمة يمكنها أن تحرم الطفل، من أي بهجة في الحياة قد تتاح له، وبالمثل فإن التنشئة التي تحاول إزالة كل العقبات عن طريق الطفل وتعمل على إحاطته بجـو مدفئ صناعيا تجعل الطفل يعتاد هذا الجو غير الطبيعي، وعندما يصل إلى مرحلة البلوغ، فإنه يصبح غير قادر على الحياة في أي أجواء مخالفة للجو الـذي اعتـاد عليه داخل أسرته.

إن كل ما سبق يؤكد لنا أن "التعليم" داخل الأسرة، وفـي المجتمـع، وفـي حضارتنا ككل غير مستعد ولا مهيأ لتطوير وإخراج ذلك الجيل الجديد الذي يتميـز

بالروح الجماعية، ويكون الواحد منه مهتما بأمور العالم كله لأنه يشعر بأنه أحد مواطنيه Citizens of the world وهذا ما نسعى جميعًا للوصول إليه، ولكن للأسف فإنه من المرجح أن العملية التعليمية - بوضعها الحالى - سوف تنتج طموحات فارغة ورغبة فى تحقيق العظمة الشخصية.

فما الذى بقى من معاهدنا ومؤسساتنا؟ ومن يستطيع أن يصحح الأخطاء التى تم ارتكابها خلال المراحل المبكرة من نمو وتطور الطفل؟ ومن الذى يستطيع أن يساعد الأطفال على التكيف بسرور مع أوضاع العالم؟ إن الإجابة هى "المدرسة"، ولكن المدرسة - بوضعها الحالى - غير مهيأة لتأدية هذه المهمة، فالمدرسون لا يستطيع الواحد منهم - دائمًا - أن يتعرف على الصعوبات العاطفية التى يعانى منها الطفل، ولا أن يصححها، فالمدرس غير مستعد لتأدية هذه المهمة، ولكن عمله هو أن يدرس لتلاميذه منهجًا محددًا، وبدون أن يجرؤ على الاهتمام بحياة الطفل الذى يتعامل معه، كما أن زيادة عدد التلاميذ داخل كل فصل تزيد من عجز المدرس على تحقيق أى إنجازات مناسبة خلال تأديته لمهمته التعليمية.

فهل توجد أى مؤسسة أخرى أو معهد قادر على تصحيح الأخطاء التى حدثت خلال تنشئة الطفل داخل الأسرة؟ قد يقترح البعض ويقول إن "الحياة" نفسها هى ذلك المعهد، ولكن "الحياة" محدودة فى قدراتها أيضًا، فإن "الحياة" تكون عاجزة عن إحداث تغييرات جذرية فى الفرد البشرى - وبالرغم من أنها تبدو فى بعض الحالات كما لو كانت قادرة على إحداث هذه التغييرات - لأن الغرور والطموح اللذين يتميز بهما البشر لن يسمحا لها.

ومهما زاد عدد أخطاء الفرد فإنه إما سيلوم بقية العالم، وإما سيشعر بأن وضعه ميئوس منه، وسنجد أنه من النادر جدا أن نجد أى فرد واجه الكثير من الصعوبات والعقبات التى اضطرته لاتخاذ طريق خاطئ ثم يتوقف ليتأمل وضعه وليرى أين كان الخطأ، وفى الفصل السابق فإن تحليلاتنا لإساءة استخدام مثل هذه الخبرة تلقى الضوء بوضوح على هذه النقطة.

إن "الحياة" لا تستطيع أن تؤثر على الفرد وتدفعه لإحداث أى تغييرات ضرورية، وهذا الأمر يكون مفهومًا من الناحية النفسية لأن "الحياة" تتعامل مع المنتج النهائى (هؤلاء الأفراد الذين أخرجتهم مؤسسات ومعاهد البشر)، وأن هؤلاء

البشر يكون لهم بالفعل وجهات نظر محددة ومركزة بشدة، وسعيهم الحثيث لإحراز المزيد من القوة، وعلى هذا فإن "الحياة" لا تصلح لأداء هذه المهمة لأنها لا تأخذ في الاعتبار، ولا تعطي تحذيرات، ولا تعلمنا، ولكنها - ببساطة - ترفضنا وتدعنا نموت.

يمكننا الخروج بنتيجة واحدة ألا وهي أن المعهد الوحيد والمؤسسة التي يمكن أن تحدث تغييرًا ملحوظًا هي "المدرسة"، ولهذا فإنه علينا أن نجعل مدارسنا قادرة على تأدية هذه الوظيفة، وفي الوقت الحاضر فإن الفرد الذي يحصل على مقاليد السيطرة والحكم داخل المدرسة يستخدمها كأداة لإشباع غروره وخططه الطموحة، وكثيرًا ما نسمع الآن طلبات - ممن كان في الحكم سابقًا - بعودة النظام القديم للمدرسة، ولكن هل تمكن النظام القديم من تحقيق أي إنجازات أو أي نتائج جيدة؟ فكيف يمكننا إذن أن نسمح بعودة النظام الصارم المتزمت والذي ثبت ضرره دائمًا في الماضي؟ ولماذا يكون التزمت والصرامة في المدرسة أحسن حالاً بعد ما رأينا فشلهما داخل المنزل (والظروف داخل المنزل تكون في صالح الصرامة من الناحية النظرية)؟ لقد تمكنت النظم المتزمتة والصارمة من تحقيق شيء واحد فقط، ألا وهو ثورة عالمية رافضة لهم.

إن أي سلطة لا يعترف بها المجتمع تلقائيا، ولكنها تجد أنه عليها أن تفرض نفسها، ما هي إلا زيف وخداع، فإن السلطة الحقيقية والالتزام يأتي من داخل الفرد، أيضًا فإن الطفل قد يأتي إلى المدرسة وهو يحمل الشعور بأن المدرسين ما هم إلا "موظفون حكومة"، فمن المستحيل فرض نظام جامد على أمثال هذا الطفل دون أن يؤدي هذا إلى نتائج سيئة على نموه وتطوره النفسي.

وبالرغم من أن المدرسين يعرفون واجباتهم، والتي هي متأصلة في منطق الحياة، فإنهم لن يتمكنوا من إجبار الأطفال على تقبل هذا المنطق، ولن يتبقى إلا طريقة واحدة ألا وهي أن نتجنب بقدر الإمكان حدوث أي مواجهات، وأن نعامل الأطفال لا على أنهم مفردات العملية التعليمية بل على أنهم الهدف منها، فإنه يجب معاملة الأطفال كما لو كانوا بالغين، وعلى قدم المساواة مع مدرسيهم، وهذا سيجعل من الصعب على الطفل السقوط في خطأ الاعتقاد بأنه تحت ضغط، أو أنه كم مهمل، وهكذا فإنه لن يجد نفسه مجبرًا على الدخول في معركة مع مدرسيه. إن تبني هذا "الموقف المحارب Belligerent attitude" هو الذي يساعد

على نمو وتطور هذا الطموح الزائف لحضارتنا، والذى يشـــكل طرقنـــا فـــى التصرف والتفكير ويكســبنا خصائص شخصيتنا. إن السلطة لا يجــوز أن تعتمــد على القوة، ولكن يجب أن تكون مبنية على الشعور الاجتماعى وحده.

"المدرسة" ما هى إلا ذلك المعهد الذى يمر من خلاله كل الأطفال خلال نموهم وتطورهم النفسى، ولهذا فإنه من الواجب أن تتوافر فيه كل الشروط والمتطلبات التى تسمح بحدوث نمو نفسى صحى، و"المدرسة" التى يمكنها أن تتعاطف مع احتياجات التلاميذ النفسية هى وحدها التى يمكن أن نطلق عليها اسم مدرسة جيدة، وهى وحدها التى يمكنها أن توفر تعليمًا صالحًا ومفيدًا للحياة الاجتماعية.

لقد حاولت أن أوضح فى هذا الكتاب أن النفس Psyche لا تتحدد من خلال عوامل الوراثة، بل إن نموها وتطورها يتشكل من خلال تأثيرات اجتماعية، فمن ناحية تكون هناك متطلبات وحاجات الأعضاء البشرية، والتى يجب العمل على إشباعها، ومن ناحية أخرى فهناك متطلبات المجتمع البشرى والتى يجب العمل على إرضائها أيضًا، وفى هذا الجو وتحت هذه الظروف تنمو وتتطور نفسية الفرد.

ولقد درسنا هذا النمو والتطور بالتفصيل وناقشنا القدرات ووظائف الفهم والذكريات والمشاعر والأفكار، وأخيرًا فإننا درسنا خصائص ومميزات الشخصية والعواطف أيضًا، ولقد أظهرنا أن كل هذه الظواهر متصلة برابطة لا يمكن فصمها حتى إنها عرضة للخضوع لقوتين، القوة الأولى: قواعد الحياة الجماعية المشتركة، والقوة الثانية : تأثرها بسعى الفرد الحثيث لإحراز القوة وإثبات "التفوق". إن هاتين القوتين تعملان على نفسية كل فرد، كما أنهما تعبران عن نفسيهما بطريقة محددة وفردية وذات نمط فريد، ولقد أظهرنا كيف أن هدف الفرد فى إحراز "التفوق" يتأثر ويتغير بـ "الشعور الاجتماعى" (وحسب درجة نمو وتطور هذا الشعور داخل الفرد)، وأن هذا هو ما يسمح بنشأة مميزات وخصائص شخصية محددة. إن هذه الخصائص والمميزات لا علاقة لها بالوراثة، ولكنها نمت وتطورت حتى تتلاءم مع نمو وتطور نمط الفرد النفسى، وهذه المميزات والخصائص الشخصية تقود فى اتجاه متسق مع الهدف الدائم الوجود - بدرجات متفاوتة - فى وعى كل فرد.

إن عددًا من هذه الخصائص والمميزات الشخصية والمشاعر - والذى يعتبر مؤشرًا قيمًا فى محاولاتنا لفهم البشر - تم دراستها بالتفصيل، بينما مررنا مرور الكرام على غيرها، ولقد أظهرنا بوضوح أن بعضًا من الغرور والطموح يظهر فى كل إنسان طبقًا لطريقته فى السعى الحثيث نحو إحراز القوة، وأن هذا السعى الحثيث - عندما يعبر عن نفسه - يمكننا من أن ندرك صراع الفرد من أجل إحراز "التفوق"، ومن أن نراقب طريقته الخاصة فى التعبير عن هذا الصراع، كما أننا قد أوضحنا كيف أن الطموح المبالغ فيه والغرور يمنعان النمو والتطور المنظم

للفرد (فإن نمو شعوره الاجتماعى إما أن يتجمد، وإما أن يصبح مستحيلاً تمامًـــا)، وكل هذا بسبب التأثيرات المزعجة والضارة لهاتين الخاصيتين، واللتين تؤديان إلى توقف ارتقاء الشعور الاجتماعى، وأيضًا تجعل الفرد - الساعى نحو إحراز المزيد من القوة - يتخذ طريقًا يدمره.

إن هذا القانون الخاص بالنمو والتطور النفسى يبدو وكأنه لا يقبـــل الجـــدل، ولهذا فإنه يمثل الخطوط الإرشادية الضرورية التى يجب على أى إنسان اتباعها إذا كان يرغب فى أن يحدد مصيره عن وعى، وبطريقة واضحة ومفتوحة، بدلاً مـــن أن يسمح لنفسه بأن يقع ضحية لقوى نفسية غامضة. إن أبحاثنا قد اتخـــذت شـــكل التجارب فى علم "الطبيعة البشرية"، وهو علم لا يمكن تدريسه بأى طريقة أخـــرى. إن فهم "الطبيعة البشرية" يبدو لى كأمر ضرورى لكل فـــرد مـــن أفـــراد الجـــنس البشرى، وأن دراسة هذا العلم هى أهم نشاط يمكن أن يقوم به العقل البشرى.

المراجع

BOOKS BY ALFRED ADLER

1- The Case of Miss R: The Interpretation of a Life Story. New York: Greenberg, 1929.
2- The Education of Children. Chicago: Regnery Gateway Ed, 1970.
3- The Neurotic Constitution. New York: Arno Press, 1974.
4- The Pattern of Life. New York: Rinehart & Co, 1930.
5- The Practice and Theory of Individual Psychology. New York: Harcourt, Brace & Co, 1977.
6- Problems of Neurosis : A book of case histories. New York: Harper Torchbooks, 1964.
7- Social Interest. Oxford: Oneworld Publications, 1998.
8- What Life Could Mean to You. Oxford: Oneworld Publications, 1998.
9- Understanding Life. Oxford: Oneworld Publications, 1997.

BOOKS ABOUT ALFRED ADLER AND HIS WORK

1- H.L. & Rowena R. Ansbacher (eds) . The Individual Psychology of Alfred Adler: A systematic presentation in selection from his writings. New York: Harper Torchbooks, 1964.
2- P. Bottome. Alfred Adler: A Portrait from Life. New York: Vanguard, 1957.
3- D. C. Dinkmeyer, D. C. Dinkmeyer, Jr., & L. Sperry. Alderian Counseling and Psychotherapy. Columbus: Merrill Publishing Company, 1987.
4- R. Dreikurs. Fundamentals of Adlerian Psychology. Chicago: Adler School, 1953.
5- B. Handlbauer. The Freud-Adler Controversy. Oxford: Oneworld Publications, 1998.
6- G. Manaster & R. Corsini. Individual Psychology: Theory and Practice. Chicago: Adler School, 1982.
7- H. Orgler. Alfred Adler: The Man and His Work; New York: Capricorn.

المؤلف فى سطور:

ألفريد آدلر

ولد ألفريد آدلر فى عام ١٨٧٠ فى إحدى ضواحى مدينة ڤيينا عاصمة النمسا، لأب يهودى يعمل فى تجارة الحبوب، وكان ترتيبه الثانى فى عائلة من ستة أطفال، وعندما كان آدلر فى الثالثة من عمره توفى أخوه الأصغر بسبب الدفتريا فى الفراش المجاور له، وقد عانى هو نفسه من الكساح وغيره من الأمراض، كما أنه أصيب – فى الرابعة من عمره– إصابة خطيرة بداء الرئة Pneumonia كادت تودى بحياته، وكان لكل هذا أكبر الأثر فيه، فقبل بلوغه سن الخامسة كان قد اتخذ قراره بأن يصبح طبيبًا بشريا، حتى يتمكن من "محاربة الموت" على حد تعبيره.

ولقد أصبح آدلر طبيبًا بشريا بعد أن تخرج فى كلية الطب، جامعة ڤيينا عام ١٨٩٤، وفى البداية تخصص فى طب العيون، ولكنه أصبح ممارسًا عاما فيما بعد، قبل أن يتحول اهتمامه إلى علم النفس، وكان من أول من اهتموا بنظريات سيجموند فرويد، كما أنه اعترف بأن هذه النظريات قد فتحت طريقًا جديدًا لتحديث وتطوير علم النفس.

وانضم آدلر إلى جماعة المناقشة التى أنشأها فرويد فى عام ١٩٠٢، وفى عام ١٩١٠ أصبح آدلر رئيسًا لمجمع التحليل النفسى بڤيينا، وبتزكية من فرويد نفسه، لكن الخلافات سرعان ما دبت بينهما، وأصبح الخلاف بين وجهة نظره ووجهات نظر كل من فرويد ويونج أكبر من أن يتغاضى عنها، مما أدى إلى استقالته فى عام ١٩١١ مكونًا مع بعض زملائه جماعة "البحث الحر فى التحليل النفسى"، وغير اسمها فى العام التالى إلى جماعة "علم النفس الفردى".

إنه من الواضح أن كل أعمال آدلر تدين بالكثير لزملائه السابقين، ولكنه كان يحمل فى داخله – منذ البدء – طريقة مختلفة ومستقلة فى وصف وعلاج مشاكل البشر.

شكل آدلر جماعة "علم النفس الفردى" فى عام ١٩١٢، وقد أكدت – هذه الجماعة – أهمية "النظرة الشاملة" لشخصية الفرد، وكلمة "الفردى" قد استخدمت هنا للتأكيد على تميز واختلاف كل شخصية عن الأخرى، وعن عدم إمكانية تقسيم أو تجزئة الشخصية، بل وجوب النظر إليها على أنها وحدة لا تتجزأ.

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) خدم آدلر في جيش بلاده كطبيب في قسم الأمراض النفسية والعصبية في إحدى المستشفيات العسكرية، وقد جعلته فترة الخدمة العسكرية أكثر إدراكًا لأهمية وضرورة نشر أفكاره.

وقد تميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بإنتاجه الوفير، حيث كتب ونشر خلالها معظم كتبه، ولكن مع تولى هتلر حكم ألمانيا بدأت فترة عصيبة في حياة ألفريد آدلر وغيره من اليهود، ولكن لحسن الحظ لم تستمر هذه الفترة طويلاً لأنه في عام ١٩٣٥ ذهب إلى الولايات المتحدة واستقر هناك، وكانت شهرته قد ذاعت هناك أيضًا، فتم خلق منصب جديد - خصيصًا له - في كلية الطب بلونج آيلاند Long island college of medicine حيث تولى أستاذية قسم علم النفس الطبي، وفي العام نفسه (١٩٣٥) بدأت مدرسة ألفريد آدلر في إصدار مجلتها "الجريدة الدولية لعلم النفس الفردي International journal of individual psychology".

ولقد توفى آدلر في ٢٨ مايو عام ١٩٣٧ في أبردين باسكوتلاندا عن عمر يناهز السابعة والستين عامًا متأثرًا بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية (المشي)، وبعد أن كان قد ألقى محاضرة واحدة على طلبة جامعة أبردين في اسكوتلاندا.

واليوم بعد مرور أكثر من ٦٥ عامًا على وفاته.. فإن هناك مستشارين نفسيين تم تدريبهم على استخدام طرق علم النفس الفردي في الكثير من دول العالم من الولايات المتحدة وكندا غربًا إلى إنجلترا وألمانيا والنمسا وسويسرا، وحتى في أستراليا وغيرها من دول العالم.

المترجم في سطور:

عادل نجيب بشرى

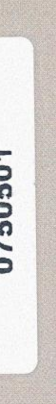
ولد في مصر عام ١٩٥٨، وتخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في عام ١٩٨١، وأمضى معظم حياته - بعد التخرج - في الولايات المتحدة الأمريكية، وله ترجمات عديدة منها: شال الصلاة لنيك كارتر، ومدينة الله لسانت أوغسطين، وساعد في إعداد ترجمات جديدة لهملت، هذا وقد شارك المترجم في أعمال "المشروع القومي للترجمة" من قبل بترجمة كتاب "معنى الحياة" لألفريد آدلر.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل



الطبيعة البشرية

"الطبيعة البشرية" واحد من أهم كتب ألفريد آدلر الخالدة. وفى هذا المجلد يقوم الفريد آدلر - الخصم العنيد لسيجموند فرويد، والزميل والشريك السابق له فى نظرية التحليل النفسى - بشرح وجهة نظر "علم النفس الفردى" فى الطبيعة البشرية. وقد قسم الكتاب إلى جزأين. الجزء الأول وفيه شرح أساسيات نمو وتطور شخصية الفرد وقسم الشخصية إلى نوعين أساسيين شخصية هجومية وأخرى غير هجومية، وشرح السلوك الخاطئ للفرد، وكيف أنه يؤثر على التناغم الذى يجب أن يسود حياتنا الاجتماعية كما حدثنا عن المشكلات الأساسية الثلاث التى تواجه الفرد فى حياته، ألا وهى العمل والعلاقة مع باقى أفراد المجتمع والزواج، كما أخبرنا بطريقته العلمية الفذة والمنظمة عن أهمية التعاون والشعور الأجتماعى فى مواجهة هذه المشكلات الثلاث. ولا يخلو الكتاب بالطبع من النقد الصريح والمستتر لنظريات فرويد فى التحليل النفسى مع ماهو معروف عن الخلاف الفكرى بينهما.


Bibliotheca Alexandrina
0750501



تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى